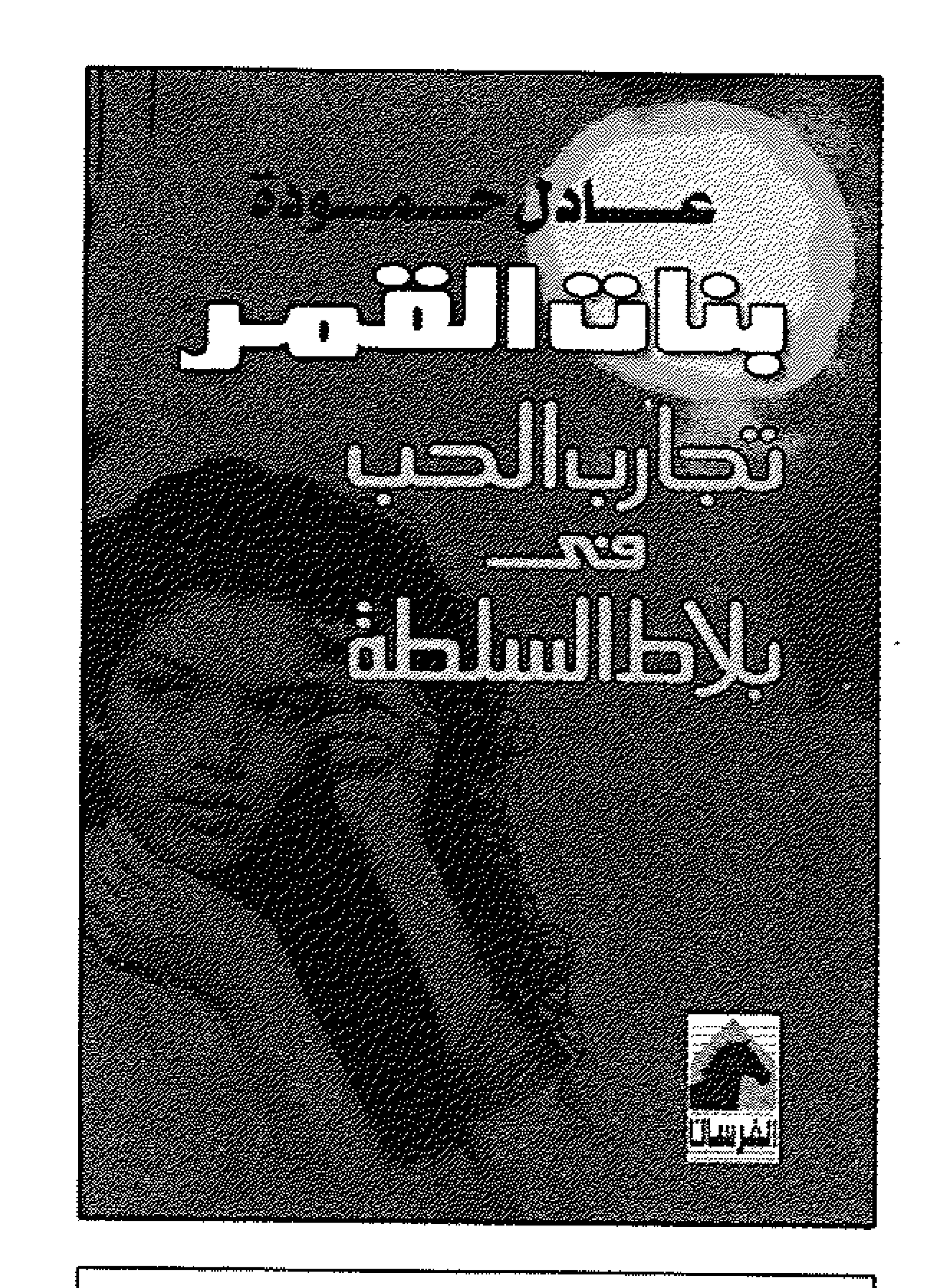
عادل حمودة

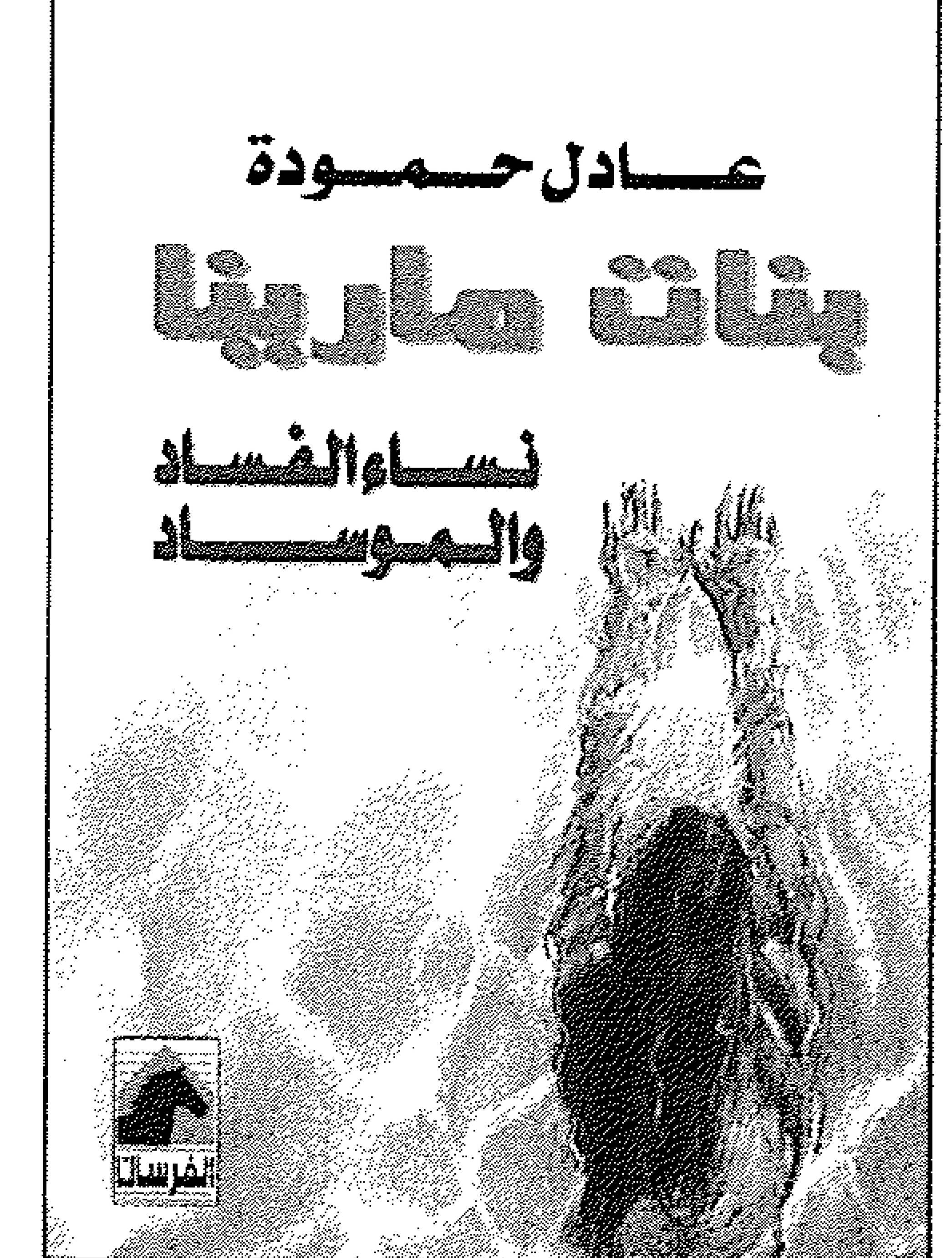
النكتة السياسية

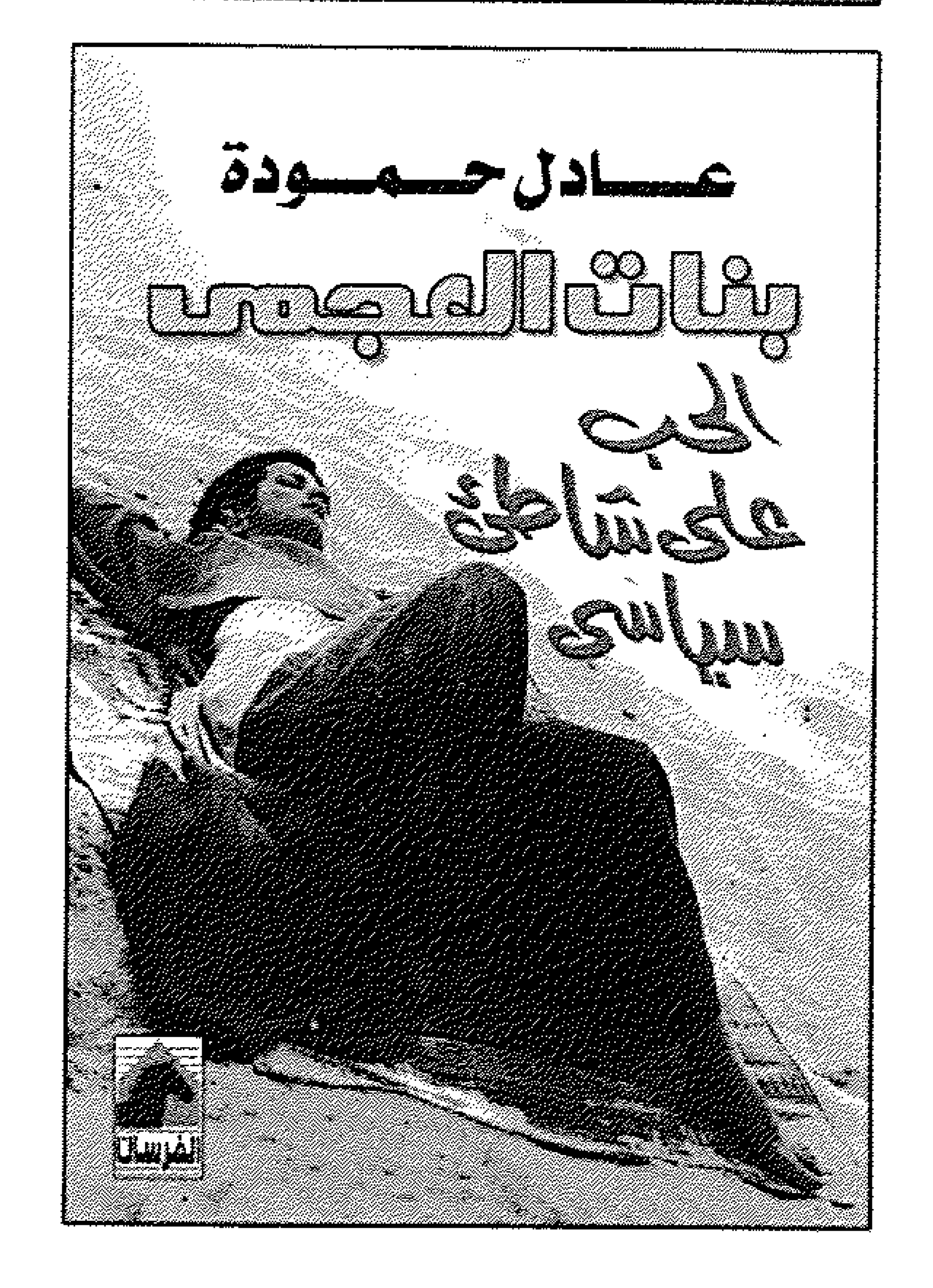
كيف يسخر المصريون من حكامهم؟



عن الفرسان للنشر







إهـــــــداء ٢٠٠٦

المرحوم / يوسف درويش

القاهرة

النكتة السياسية

كيف يسخر المصريون من حكامهم؟

النكتة السياسية

كيف يسخر المصريون من حكامهم؟

طبعة الفرسان للنشر : مارس ١٩٩٩

رقم الإيداع : ٩٩/٢٥٠٦

الترقيم الدولى : 977-5930-01-4

حقوق الطبع محفوظة ومسجلة

لا يجوز النقل والإقتباس دون إذن كتابى من الدار كما يحظر النقل الإلكترونى.

الغلاف : الفنان مصطفى حسين

المراجعة اللغوية والتصحيح: سيد عبد المعطى

مدير الإنتاج : شاهر وهبه

الطباعة : دار الياس العصرية



٦٧ شارع العروبة - هليوبوليس ١١٣٦١ - القاهرة.

تليفون وفاكس: ٤١٧٢٠٢٨ (٢٠٢) - ٤١٧٢٠٢١ (٢٠٢)

عادل حمودة

النكتة السياسية

كيف يسخر المصريون من حكامهم؟

هذا الكتاب إهداء من
مكتبة يوسف درويش



الفرسان للنشر

قبل أن تقرأ

منذ حوالى (٢٣) سنة برقت فى رأسى فكرة هذا الكتاب.. ويمكن أن تقول.. لمعت.. أو انفجرت.. أو صرخت.. لكن.. الأدق أن أقول... إن الفكرة كانت مثل حجر ثقيل، مدبب أصاب الرأس.. فلا شفيت من الإصابة.. ولا نسيت الألم.. وفى كل مرة أتحسس الجرح، كنت أشعر بأن الفكرة أصبحت عقدة نفسية أو شخصية.. فقد تسللت - مثل النباتات المتسلقة - إلى داخلى.. وراحت تتوالد فى عتمة النفس المنكسرة قبل الأوان.

فى تلك الأيام جاء الحزن على عجل.. فانفرط عقد الرومانسية السياسية.. واهتزت القناعات المستقرة.. وفقدت أقوال الحب المأثورة طعمها اللذيذ.. إنها الهزيمة.. هزيمة جيل الخطابة والخرافة.. جيل "نضال آخر زمن.. فى العوامات".. جيل "ليس فى الإبداع أحسن مما كان".. و"على رقبتى ياريس".. و"اطلب تلاقى تلاتين مليون فدائى".

كنت على عتبة الفهم والوعى.. حفظت كتب الثورة والاشتراكية وحتمية انتصار النضال الوطنى.. درست الاقتصاد والسياسة وحلمت بالصحافة.. أعطيت بصرى لمحاضرات رفعت المحجوب، وبطرس غالى، وعاطف صدقى، وسلمت بصيرتى لخبرة صلاح حافظ وفتحى غانم وإحسان عبد القدوس.. أما القلب الذى كان مثل عود أخضر فقد كسرته الهزيمة.. ورمته فى صحراء سيناء للتنين الإسرائيلى القابع هناك.

كانت جراح الهزيمة مفتوحة.. وكنا نحشوها بفصوص الملح، ونيران الخل، ونفركها فيها، حتى لا ننسى - من شدة الألم - قسوة ما حدث.. وكانت عظامنا مطحونة، وأحلامنا، وعواطفنا أيضاً.. وتشققت شفاهنا من الجفاف والعطش وترديد الشعارات الكبيرة.

وكان ذلك من طبائع الأمور.. فالهزيمة عار.. والعار ألم.. والألم عقاب.. والعقاب ذنب.. والذنب أننا فرطنا فى العرض، فضاعت الأرض.. وعرض الشعب حريته وحقه فى الاختيار.. لا دجاجة مذبوحة نسيها الحاكم فى الأرشيف فانتهت مدة صلاحيتها.

لكن... ما بدا شاذاً.. ومثيراً.. وغير مفهوم... وغير متوقع.. تلك الموجة الحادة من "النكت" السياسية الجارحة التى راح المصريون يغرزونها - كالرمح - فى لحم الجنود والضباط.. وفى قلب القيادة.. دون مراعاة لحرمة الجنس والموت والدين والحكم... ودون أن تكون هذه "النكت" بديلاً لحالة الاكتئاب الجماعى التى خيمت - كسحابة سوداء - علينا.. ودون أن تخفف من رغبتنا القوية فى جلد أنفسنا عقاباً لنا على الهزيمة.

كنا نبكى بعين.. ونضحك بالأخرى.. ونولول ونقهقه معاً.. ونسخر من الآخرين ومن أنفسنا أيضاً.. نزعنا رتبة "الفريق أول" ووضعنا بدلاً منها رتبة "فكيك أول".. وشعار "اضرب.. اضرب" أصبح "اهرب.. اهرب" وأغنية قولوا لعين الشمس ما تحماشى،

أضيف لها "أحسن الجيش المصرى راجع ماشى".. وقيل إن المشير عبد الحكيم عامر شعر بوخزة فى صدره.. فسأله شمس بدران: مالك.. فقال: أبداً.. دى "غزة" وراحت.. وبعد أن مات.. قيل إنهم وجدوا على قبره "وردة".

وغنى الشبان والبنات كلمات: أحمد فؤاد نجم، على ألحان الشيخ إمام عيسى.. "الحمد لله خبطنا تحت بطاطنا.. يا محلا رجعة ظباطنا من خط النار.. ياأهل مصر المحمية.. بالحرمية.. الفول كتير والطعمية".. "إيه يعنى فى العقبة جرينا.. ولا فى سينا.. وهى الهزيمة تنسينا اننا أحرار.. إيه يعنى شعب فى ليل ذله.. ضايع كله.. دا كفاية بس أما تقوله.. إحنا ثوار".. "أشعار تمجد وتماين.. حتى الخاين.. وإن شا الله يخربها مداين.. عبد الجبار".

وقيلت نكت أصعب، تعاملت مع الثياب الداخلية، لرموز المرحلة.. وقيلت نكت أشد،نفخت فى جيش العدو، وكأنه "سوبر مان".. وأطاحت برقاب جنودنا، فضغطتهم إلى أقزام.. مع أنهم جزء منا.. أو نحن جزء منهم.. فكأننا كنا ننكت على صورتنا فى المرآة.

وحاولت أن أجد تفسيراً لهذه الهيستيريا.. هل كانت الهزيمة دبوساً حاداً فجر غرورنا وعقولنا.. وكانت النكتة القرص المهدىء الذى أنقذنا من الجنون والانتحار؟

حيرنى السؤال.. ورحت أفتش عن الإجابة.. وهكذا كتبت تحقيقى الصحفى الأول لروز اليوسف.. صاحبة الجلالة التى كنت أرنو إلى عرشها فى خشوع وانبهار.. ولا أجرؤ على الاقتحام.

كان عنوان التحقيق: "شر الهزيمة ما يُضحك".. وقدمته إلى مدير التحرير، مدرس التاريخ سابقاً، فتحى خليل، الذى قرأه، وإبتسم.. ثم ربت على ظهرى، وقال:

- أول ما شطح نطح!

حاولت الدفاع عما كتبت.. لكن.. ذلك سرعان ما انهار عندما عرفت أن الكلمة العليا فى النشر.. ليست للتحرير وإنما للرقيب.

ولم يعرض الموضوع على الرقيب.. فرأيه كان معروفاً مقدماً.. فقبل أيام، فى مجلس الأمة، كان جمال عبد الناصريطلب من الشعب أن يكف عن طعن الجيش من الخلف بالنكت.. وكان يؤكد أنها سلاح للعدو لا يجوز أن نستعمله بأيدينا.. إنه نفس ما قاله نابليون والمماليك والملك فؤاد من قبل.. وما قاله حسنى مبارك فيما بعد.

فى ذلك الوقت لم أكن أعرف عن علاقة النكتة بالسلطة فى مصر ما أعرفه الآن.. لم أكن أعرف أنها ضمن العلوم التى تدرس فى المخابرات.. وأن هناك تقارير تعرف بتقارير النكتة ترفع للرئيس.. وأن جمال عبد الناصر بالذات كان يعرف "آخر نكتة" من كبار الصحفيين الذين كان من حقهم الاتصال به.. وكان بعضهم يدفع لمساعديه من المحررين مكافأة مجزية عن كل نكتة يوصلها للرئيس قبل غيره.. لم أكن أعرف أن مدرساً فى

مدرسة ابتدائية قُبض عليه، ودخل المعتقل لأنه قال نكتة فى أتوبيس.. وكان ذلك بعد الهزيمة.. فقد خشوا منه على الأجيال الصغيرة التى يربيها.. أن يزرع فيها اليأس، والاستسلام.

وفى ذلك الوقت أيضاً كان من المستحيل أن أقابل الرجال الذين عاشوا مع جمال عبد الناصر كظله، وقاسوا نبضه، وشهدوا كل تفاصيل أيامه، فقد كان بينى وبينهم سبعة بحار.. فى كل بحر قطيع من المخبرين وأسماك القرش.. وكل فك مفترس منها مستعد لالتهام الفضوليين أمثالى.. وكأننا حبات من الفول السودانى المملح.

لكننى.. فيما بعد استطعت. وفى بيت سامى شرف، قابلت الفريق أول محمد فوزى.. وزير الحربية الصارم الذى كان عليه ضبط الجيش وربطه بعد الهزيمة، وتجهيزه من جديد للقتال.. وكانت فرصة أن أسأله عن تلك النكت التى أصابت العسكريين.. وأذهلنى تواضع الرجل، وصراحته، وبساطته، وذاكرته القوية.. فقد قال: إن هذه النكت كانت "شماتة" بأثر رجعى من العسكرية المصرية التى تكبرت، وتجبرت على الناس، وتدخلت فيما لا يعنيها.. إتحاد كرة القدم.. التحكم فى أتوبيسات النقل العام.. لجنة تصفية الإقطاع.. الاعتقال السياسى مثلاً.. ثم.. إنها كانت واجهة سيئة.. ومخيفة.. وعندما سقطت فى قاع الهزيمة سخر الشعب منها.. أفرغ شحنات الغيظ القديمة.. لكن ذلك لم يستمر طويلاً.. ولو كانت إسرائيل استثمرت هذا الظرف، فإن المصريين قطعوا عليها لذتها، بمجرد أن طلب جمال عبد الناصر منهم أن يكفوا عن النكت.. كذلك أزالت العسكرية المصرية ما علق بوجهها بحرب الاستنزاف.

وعرفت أكثر من ذلك من صلاح نصر، ود. سيد عويس، وسامى شرف، ومحمود السعدنى، ومحمود الجيار، ومصطفى أمين، وغيرهم.. ممن شهدوا العصر.. واتفقوا واختلفوا معه.

لكن.. ذلك كان بعد سنوات وسنوات.. أما فى تلك الأيام فقد أحزننى ألا أنشر موضوعى الصحفى الأول.. وألا أجد فرصة للنشر إلا إذا كتبت عن "مؤتمر نزع الثياب فى باريس".. وعن رجال الموضة الذين يقولون للمرأة غطى رجلك واكشفى صدرك.. ولا أريد أن أقول إننى صُدمت.. فصدمة الهزيمة جعلت أى صدمة أخرى.. نكتة.. لكننى أحسست أن الوطن أخذ أجازة.. ولا أعرف متى يعود؟.. فلماذا لا أفعل مثله؟.. لماذا لا أسافر وأحاول أن أفهم فى الخارج ما عجزت عن فهمه فى الداخل؟

إن كل شىء من حولى كان "معلبات" جاهزة.. مثل علب السردين والصلصة والخيار المخلل.. شكلها يدل على ما فيها.. ونفتحها لنستخرج ما نريد: الشعارات السياسية.. مانشتات الصحف.. نشرات الأخبار.. نواب البرلمان.. الدستور.. الوزراء.. رجال الدين.. القائد الذى يحكمنا بأمره ويقول إنه يحكمنا بأمر الشعب.. فلماذا نعيش فى وطن تحول إلى "سوبر ماركت"؟!

وحملت حقيبتى على ظهرى.. ثيابى كالحة.. نقودى قليلة.. رغبتى فى المعرفة كبيرة.. وسافرت بطريقة "الأوتوستوب".. لا تهمنى أرقام السيارات، ولا ماركاتها.. فيات.. بيجو.. أو وابور زلط.. ولم يكن يشغلنى كثيراً إلى أين تتجه.. إلى باريس المتحررة أو إلى وارسو الطيبة.. إلى لندن العاقلة أو إلى برلين الشرقية الصامتة.. إلى روما التى تحترف الفهلوة أو إلى مدريد التى تهوى دم الثيران.. فالمهم فى النهاية تجارب البشر.. وتدريب العقل - ذى البعد الواحد - على تحمل مشقة الكشف والتقصى والبحث عن الحقيقة.. فهزيمة العسكرية كانت نتيجة لهزيمة الحرية.

وعندما عدت.. لم يكن معى شىء ممنوع.. إلا درساً واحداً تعلمته: أن الجمود غير العقل.. والتعصب غير الحرية.. والرأى غير الوظيفة.. والكتابة غير السلطة.. والمواطن غير المملوك.. ومهما كان الثمن فالدرس صحيح.

وأخذتنى "صاحبة الجلالة" بعيداً عن الفكرة التى أصابت رأسى.. لكننى أحياناً ما كنت أتذكرها عندما كنت أتحسس شعرى!

ثم... كان أن مات جمال عبد الناصر.

وكان أن وجدت الظاهرة تتكرر.

انفجر نهر الحزن والدمع، وفاض.. خرجت النساء، عاريات الرأس، متشحات بالسواد، يصرخن: "ياسبعى"... "ياجملى"... فكأن الذى مات هو الزوج أو الأب.. حامى البيت وفاتحه.. نافخ الدفء وناشره.. وانهار الرجال.. اهتزوا وارتعشوا مثل الصغار.. وانضم جميعهم إلى تيار الحزن العام الذى تدفق من كافة أنحاء البلاد، يصب فى دلتا بشرية، التى ينتهى فرعها الأول أمام بيت "الزعيم" فى منشية البكرى.. وينتهى الآخر أمام القصر الجمهورى بكوبرى القبة.. حالة أخرى أشد من حالات الهيستيريا الجماعية.. كان ضحاياها (٨٠٠) متشنج فى الساعة حسب ما قاله لى د. جمال ماضى أبو العزايم، فيما بعد.

ودُهش العالم مما حدث.. وتعجب.. وحاول أن يفهم ويفسر.. وكان الاستنتاج جاهزاً.. أننا أقدم حضارة وأول ديكتاتورية.. نتلذذ بالطغيان.. ونحزن على فقد الطاغية.. ولو لم نجده فى الحكم لاخترعناه.

فقد مات جمال عبد الناصر مهزوماً.. بعد أن فقد حدود الوطن وأرضه.. وبعد أن أضاف إلى خيام اللاجئين خياماً أخرى.. ومع ذلك ودّعه إلى مثواه الأخير (٦) ملايين مصرى، فى مشهد جنائزى حزين، مهيب، لم يحدث لغيره من قبل.

لكن.. ما أن انفض المشيعون، وعادوا إلى بيوتهم حتى أطلقوا النكت عليه.. وقبل أن يستقر الجثمان فى موقعه، كنت أسمع أول نكتة ضده.. ولم تكن سياسية وإنما شخصية.. فمن أين جاءت؟.. ومن صلب مَن خرجت؟.. أم أنها كالعادة لقيطة.. مجهولة النسب؟.. ثم.. والأهم لماذا النكت قبل أن تجف الدموع؟.. لماذا السخرية والحزن

العميق؟.. إن الحزن التلقائى على رحيله أكبر دليل على أننا نحبه.. فلماذا التنكيت عليه؟.. هل هى لوثة "دورية" تصيبنا كلما سنحت الظروف؟ أم أنها الإنقاذ الوحيد لتجاوز الفجيعة؟.. أى أننا ضحكنا حتى نطفوا فوق الحزن.. ونكتنا حتى نتعالى على الموت ونثبت له أنه لم يهزمنا.. ولم يحن ظهورنا.. بالرغم من أنه اختطف منا "أعز الرجال"!

فقيل إنه بمجرد أن صعد إلى السماء فوجىء ببلاغ من الملك فاروق يتهمه فيه باغتياله... فاستدعوه للتحقيق، فأنكر التهمة.. ثم أضاف: "وصلاح نصر شاهد على كلامى، وإذا كنتم مش مصدقين.. هاتوه"!

وقيل إن "الخاطبة" التى زوجت جاكلين كيندى، بعد وفاة زوجها، وصلت القاهرة ثانى يوم من وفاة عبد الناصر.

ومن جديد.. تحسست رأسى، فوجدت الفكرة لاتزال تؤلمنى.. بل إن الألم فى هذه الظروف زاد.. ولم يعد يكفينى أن أكتب تحقيقاً صحفياً، أنشره وأستريح.. فقد أصبح الموضوع أكبر من ذلك.. وهكذا.. انتهيت من شبه دراسة طاردتنى عن النكتة السياسية فى مصر.. قارنت فيها بين الواقع والتاريخ.. وبين شخصية الحاكم وطبيعة "التأليس" عليه.. وانتهيت إلى أن النكتة لافتة تحدٍّ.. وأنها تخرج من رحم الصبر والمعاناة وتحمل الظلم.. وأنها فى مصر خلاصة رأى الشعب فى السلطة.. لكن.. قبل تجهيز ما كتبت للنشر، تراجعت.. ومددت يدى وسحبته.. أنا الذى فعلت ذلك بنفسى هذه المرة.

فقد بدأت حملة شرسة، ظالمة، ومدبرة لتشويه جمال عبد الناصر.. وخرج من الكهوف والشقوق من يلوث سمعته وتاريخه بالوحل، ويلقى عليه بالبيض الفاسد، والطماطم، وبالأحقاد القديمة، المكبوتة... وخشيت أن يُفهم أن ما أنشره مشاركة فى زفة الفضيحة.. خاصة وأن النكت التى جمعتها كان أغلبها عن جمال عبد الناصر، بحكم الظروف.. والواقع.. وبين الترحال والإهمال.. تاهت الأوراق.. ثم ضاعت.. وفقدتها تماماً.

ومع أننى ندمت على ضياع ما كتبت فإننى لم أندم على عدم النشر.. فقد أضاف الرئيس "المؤمن" محمد أنور السادات للموضوع الكثير.

ولا أتجاوز إذا ما قلت إن النكتة السياسية فى عهده، ازدهرت، ولعلعت، وأصبحت حادثاً يومياً.. بعد أن كانت مجرد موجات، تصل إلى الذورة، ثم تأخذ فى الانحسار.

ولعل السبب السادات نفسه.. فقد كان - الله يرحمه - ممثلاً هزلياً بالطبيعة.. ومنذ كان ضابطاً ومثله الأعلى - كما قال لى محمد نجيب - على الكسار.. وبعد أن أصبح رئيساً أصبح منافسه الوحيد عادل إمام.. وكان على علاقة قوية معه.. فصعب علينا أن نعرف من تأثر بالآخر.. ومن كان خطراً على الآخر!

وفى حياته.. وبعد مماته لم تتوقف النكت عن السادات.

ومن باب المقارنة جمعت النكت بينه وبين جمال عبد الناصر أحياناً.. وبينه وبين حسنى

مبارك أحياناً أخرى.. وكثيراً ما جمعت بينهم - الثلاثة أيضاً - فهم آخر الحكام.. وهم عاشوا نفس الظروف، وواجهوا نفس المتاعب، لكنهم اختلفوا فى القرار، ورد الفعل.. أى أن النكتة السياسية يمكن أن تتجاوز حدود العصر والفرد.. وتلضم فى عقد واحد أكثر من حاكم.. حتى يتاح لنا تقييم تجربة بأكملها.

وحتى الآن لايزال للنكتة تقرير.. وربما أكثر.. فكل الجهات التى تتعامل مع الرأى العام عليها أن تسمع وترصد وتكتب وتحلل، وترفع تقريرها.. والشائعة مثل النكتة بالنسبة لهذه التقارير.. ويمكن أن تكون النكتة أخطر.. فهى فى النهاية شائعة ساخرة.. أى يسهل نشرها لخفة ظلها.

وعلى مستوى مصر، يوجد (٥٦) مركزاً للإعلام الداخلى، تتبع هيئة الاستعلامات.. ومسئولة عن تجميع النكت ضمن ما يقوله الرأى العام.. لترسلها بوسائل الاتصال الحديثة إلى القاهرة.. المقر الرئيسى.. فتتجمع هناك، وتُكتب فى تقرير من نسخة واحدة.. سرى للغاية.. يرفع لرئيس الهيئة ومنه لرئاسة الجمهورية.. ويتولى كتابة التقرير شخص معروف بعينه، لا أكثر من شخص، لضمان عدم التسرب، وحصر الجانى عند حدوث شىء.

ولا جدال فى أن أرشيف هذه التقارير يسمح لنا بإعادة كتابة، أو قراءة تاريخنا بطريقة مختلفة، ومثيرة.. على الأقل تاريخ ما بعد ثورة يوليو ١٩٥٢.. وخاصة وأن لا أحد غير الأجهزة يدون النكتة، أو يهتم برصدها.. ليس فقط لأنها لقيطة.. وإنما لأنها تبدو أقل شأناً.. ومن ثم فإنها.. بمرور الزمن.. تموت تدريجياً.. وإن كانت تعود أحياناً لتلبس شخصاً آخر.. فبعض النكت التى قيلت على أنور السادات قيلت على جمال عبد الناصر.. وهكذا.. لكن ذلك لا يكفى.

وهذه هى بالتحديد.. أهم مشكلة صادفتنى وأنا أجمع مادة الكتاب.. فلا أحد دوَّن النكت.. ولا أحد يحتفظ بها فى ذاكرته؛ فالضحك لا يستقر فى الذاكرة مثل الألم.. وقد جمعت ما جمعت من نكت فى سنوات طويلة، ومن أشخاص لا حصر لهم، وبعض الظن أن الكم لم يكن مناسباً... مع أننا شعب "ابن نكتة".. والسخرية تحتل ثلاثة أرباع مزاجنا القومى.

أيضاً.. فإن الكثير مما حصلت عليه يتجاوز حد الأدب.. فالنكتة قد تجمع بين الجنس والسياسية.. أو تتجاوز حدود اللياقة.. فتجمع بين الجنس والدين والسياسية.. ومن ثم كان لابد من استبعاده، مهما كان جذاباً ومغرياً، ومهما كان حجم الفراغ الذى يسببه.

كذلك.. فإن عدداً لا بأس به يطعن فى أشخاص معروفين لدينا بعينهم.. وينزع عنهم ما يستر عوراتهم. وهو ما يعرضنا لتهمة السب والقذف العلنى، وهذه تهمة لا ينقذنا منها مبدأ: لا حياء فى العلم ولا فى الدين.. فالاعتبارات الشخصية لاتزال تحكمنا وتحاكمنا.

وأحسب أن الرهان الوحيد، بعد ذلك، على اتساع حرية التعبير الآن، أى على سعة الصدر

فى تحمل هذا الطراز من الكتب السياسية.. الذى يربط بين النكتة والمعارضة.. وبينها وبين الديمقراطية، والديكتاتورية، وتوصيل مطالب الشعب إلى الحاكم.

فالنكتة رأى من لا رأى له.. وحزب الأغلبية الحقيقى فى مصر.. ولا ينافسه عليها سوى كرة القدم.. والمخدرات والبطالة.. وزيادة النسل.

إنها فكرة تحولت إلى موضوع صحفى لم ينشر.. وموضوع تحول إلى دراسة ضاعت أوراقها بين الترحال والإهمال.. ودراسة تحولت إلى كتاب سياسى أكثر جدية مما يبدو من الوهلة الأولى.. فلا هو من عينة "البعكوكة".. ولا من عينة "ألف نكتة ونكتة".

وأغلب الظن أنه الكتاب الأول من نوعه.

وممكن أن يكون هناك من فكر فى الموضوع لكنه خشى أن يُتهم بعدم الجدية.. مع أن النكتة درسها كثيرون من الفلاسفة وعلماء النفس مثل أرسطو، وفرويد، وبرجسون.. وتحدث عنها نابليون، وفرانكو، وفتحى رضوان، وأنتونى ناتنج، وجمال عبد الناصر، وحسنى مبارك.

فالموضوع جاد إذن ولا تعارض بين الجدية والجاذبية.. وهو مهم ومثير فى الوقت نفسه.. ولا تعارض بين الإثارة والأهمية.

وأزعم أننا أمام موضوع سياسى من الدرجة الأولى.. مفرداته متنوعة.. والمسافات بينها شاسعة.. الكبت والتعبير.. الديكتاتورية والديمقراطية.. الحاكم والمحكوم.. الراكب والمركوب.. الضارب والمضروب.. الطغيان والأمان.. وفى هذه المسافات البعيدة تعبث النكتة، وتمرح، وتخرج لسانها وتخلع ثيابها، وتتجاوز المحرمات، وتفعل ما تريد.. وتتلون حسب الظروف.. فتفضل الهمس مع الظلم.. وتتكاثر فى سرية مع سحق الحرية.. والضوء يهذبها. لذلك فهى مؤدبة فى النظم التى لا تجلس على قلوب مواطنيها. ثم إن الإبداع الفنى والأدبى يؤخرها، فالكتاب الجرىء، والكاريكاتير اللاذع، والمسرح المشاغب، والصحيفة التى تؤمن بما يؤمن به الناس، كلها وسائل تأديب وإصلاح لها .. ولو انحدرت هذه الفنون عادت النكتة إلى الانتعاش والانفلات.

ولو كانت فكرة الكتاب مغرية، فإن صياغته لم تكن بالأمر اليسير.. فالنكت المنطوقة، يصعب كتابتها مهما كانت البراعة.. فالتمثيل الحى، غير التصوير بالكلمات.. واختلاف وسيلة التعبير يجعلنا نفقد الكثير من حلاوة النكتة.

يضاف إلى ذلك، خوف لا حد له من سوء الفهم، وتجاوز القصد.. فالكتاب يرصد النكت الممكن نشرها عن حكام مصر الذى عرفناهم وعاشرناهم، والذين سمعنا عنهم.. الذين نتفق معهم، والذين نختلف عليهم... ولهذا.. فإنى أخشى ما أخشاه أن يتصور أحد.. أن الكتاب يشارك فى لعبة الصراع السياسى، التى أصبح لها دورى عام.. مثل كرة القدم.. فقد جمعت مادة الكتاب من الشوارع، والحوارى، والقهاوى، والمكاتب المكيفة... ومن رجال جمال عبد الناصر، وأنصار أنور السادات ومؤيدى الوفد، ومشجعى الإخوان

المسلمين.. ومن أساتذة الجامعة والظرفاء والأدباء، والمشغولين بتشخيص المجتمع.. أى أن كلهم شريك فيما سنقرأ بعد قليل.. أما رأيى، فسيبدو واضحاً تماماً.. ولست فى حاجة للقول بأننى مسئول عنه.

إن الكتاب ليس درساً.. ولا محاضرة.. فلا أملك هذه الموهبة.. وليس تاريخاً بالمعنى الأكاديمى.. أى ليس سرداً لحوادث ميتة، توقفت عن الحركة، والانفعال، وإنما رحلة لجمع البصمات - لا الفراشات - من فوق شفتى الوطن.. الذى نتصور - أحياناً - أنه يضحك بدون سبب.

وأود أن أشكر فى النهاية زميلى الصحفى رضوان حسن بكرى لأنه ساعدنى فى جمع بعض الآراء.. فى وقت كنت فى حاجة لهذه المساعدة.

ولا أجد، بعد ذلك، ما أضيف.

عادل حمودة

القاهرة - صيف - ١٩٩٠

الفصل الأخير في البداية
السخرية ممن لا يهمه الأمر!

رأى نظرتى الحادة إلى سيارته الفاخرة جداً فقال لى: إن تلك السيارة مشتراه بعرق الجبين .. وبسرعة صعد اليها ورقع الباب خلفه وانطلق قبل أن أجد الفرصة لكى أسأله : جبين من ؟

"الكاتب الساخر

محمد عفيفى"

كانت لندن غارقة فى ضبابها المزمن .. الشهير .. تستجدى شعاع الشمس أو خيط رفيع من الضوء يحطم الاحساس بالحبس فى صندوق من الرصاص الذى سيطر علينا .. نزار قبانى وأنا .. ونحن نتناول طعام الغداء فى مطعم صغير .. ذات يوم من أيام صيف ١٩٩٧... أخر صيف فى عمر نزار قبانى .. وآخر مرة التقينا .. فبعد شهور قليلة .. فى الربيع التالى رحل .. فى الربيع وُلد .. وفى الربيع ابتسم للدنيا ابتسامة أخيرة ..ثم غادرها.

كنا نتحدث عن شهوة الكتابة الجامحة .. وهل يمكن أن ينتهى نهمنا اليها ؟ .

وأتذكر أنه قال :

إن شهوة الكتابة هى إحدى الشهوات الجارحة التى لا يمكن أن يقلع عنها كما يقلع عن تدخين السجائر ومعاقرة الخمر ومعاشرة النساء .. إن حماس الكاتب حين يموت وتعجز شهوته عن اقتحام الورقة فهذا معناه أنه أصيب "باللعنة الكتابية" وعندئذ لا يبقى منه جدوى ولا نفع لابداع شىء ما .. أو لإنجاب شىء ما.

ثم رفع نزار قبانى رأسه ومال إلى الوراء ليسألنى :

- هل تشعر بحاجة إلى رجيم خاص مع الكتابة ؟

وقبل أن أبادر بالكلام تطوع هو بالإجابة نيابة عنى قائلاً :

"عندما قرأت كتابك عن النكتة السياسية وكيف يسخر المصريون من حكامهم لم أكن أعرفك لكننى أحسست ساعتها ان شهوتك للكتابة مفترسة .. وأنك تريد أن تعبر عن الأشياء الممكنة وغير الممكنة .. وانك لا يمكن أن تطبق نظام التقشف وبطاقات التموين وشد الحزام على حريتك .. لهذا عندما التقينا وجهاً لوجه أول مرة شعرت اننى أعرفك منذ أول رصاصة حبر أطلقتها على الورق".

وشعرت بالخجل من أطراء أهم الشعراء والزعماء فى العالم العربى .. وأكثرهم شعبية وحساسية .. ووجدتنى أسأله وكأننى أهرب من الأطراد .. وأدفعه ناحيته :

- وهل يتذوق الشعراء النكتة ... "اننى أشعر انهم يلتقطون مشاعرهم وموسيقاهم وكلماتهم من ألوان الطيف ورائحة الندى وسحر القمر والحنين الذى تشدنا اليه جنيات البحر .. أما النكتة فهى تُولد فى الشارع وتتربى على الرصيف وتسطو على بيوت الأثرياء وتدخل غرف نوم الحكام لتشعرهم بالخوف والقلق".

وأبتسم نزار قبانى قائلاً :

- سمعت آخر نكتة ؟

وابتسمت أنا أيضاً وهو يروى آخر نكتة :

- قيل ان أحد حكام الخليج ذهب إلى مكتب العمل بعد حرب الخليج الثانية وطلب ان يغير الكفيل من الرئيس الأمريكى الذى خاض الحرب جورج بوش إلى الرئيس الأمريكى الذى جاء بعده بيل كلينتون.

قلت له :

-ان فى العالم كله يوجد حكام سابقين .. الا فى العالم العربى الذى لا يوجد فيه سوى رئيس فوق الأرض ورئيس تحت الأرض .. وفى العالم كله يمكن للوزير ان يستقيل .. أما فى بلادنا .. فيستحيل.

وقرر نزار قبانى ان يلقى بنكتة أخرى وكأن أراد أن يقول لى : "ان الشعراء مثل غيرهم من البشر يجمعون مفرداتهم من المقاهى والمقابر وطوابير البطالة وسخرية الناس فى الشوارع .. قال :

-جمع الرئيس العراقى صدام حسين مجلس قيادة الثورة وقال لهم : انه اكتشف مؤامرة ضده يقودها واحد من الجالسين أمامه يبدأ اسمه بحرف الطاء .. وكان بين الأعضاء ثلاثة تبدأ أسماءهم بحرف الطاء هم طارق عزيز وطه ياسين رمضان وطه محيى الدين .. لكن هؤلاء الثلاثة بقوا فى أماكنهم ثابتين لم يهتزوا ... الذى اهتز وأرتعش عضو فى المجلس لا يبدأ اسمه بحرف الطاء .. بل لا يوجد هذا الحرف فى اسمه على الاطلاق .. فسأله صدام حسين : لماذا أنت خائف رغم أن اسمك لا يبدأ بحرف الطاء .. فرد المسئول العراقى قائلاً : أعرف ذلك ولكنك دائماً تنادينى بلقب "طرطور".

قلت له :

إنها ليست نكتة .. إنها حقيقية .. حقيقة مؤلمة وقاتمة وقاسية ... فشر البلية ما يضحك.. وما يفعله بعض الحكام العرب من تصرفات تجاوز عبقرية الناس فى تأليف وإطلاق النكات .. إن قراراتهم وتصرفاتهم فى كثير من الأحيان كوميديا سوداء .. تجعلنا نضحك عليهم ونبكى على حالنا.

وأضفت :

-والمثير للدهشة ان معظم الحكام العرب يشعرون بالملل ويبحثون عن أشخاص يضحكونهم .. وقد أُصبت بالغم عندما كان من أقابلهم منهم يبادرنى قبل أى حوار سياسى أجريه معهم بالسؤال عن آخر نكتة .. كنت أشعر بالحرج .. وأصاب بالارتباك.. فلا أنا مهرج جاء إلى البلاط .. ولا أنا منولوجست .. أو أراجوز وظيفته الأضحاك .. لكننى فهمت سر هذا السؤال المتكرر عندما كان بعض الحكام العرب يقابلون الوفد الصحفى المصرى فى المؤتمرات .. خاصة مؤتمرات القمة الاقليمية

والعربية .. فقد عرفت ان بعض الأسماء المعروفة فى الصحافة والسينما تلعب هذا الدور وتحملها طائرات خاصة إلى القصور بعد ان تكون قد حفظت سيلاً من النكات دفعت نقوداً فى بعضها .. فكلما كنا نجلس إلى الحاكم العربى كان يسأل صحفياً معنياً بالاسم عن آخر نكتة .. انها أغلى نكتة .. فالمقابل أحياناً سيارة .. أو فيللا .. وأحياناً حملة إعلانية رسمية .. وفى احدى المرات كان المقابل تأسيس مجلة أسبوعية فاخرة .. والأسماء فى بطن الكاتب .. فالله قد أمرنا بالستر .. والنائب العام ومحاكم الجنايات أيضاً.

قال نزار قبانى :

-لكن سوء إستعمال النكتة السياسية فى بلاط الحكام العرب لا يمنع انها من ناحية أخرى أوجعتهم .. لقد وحدت السخرية السياسية الأمة العربية .. انها أصبحت أداة همس بين الهامس والمهموس له .. أداة تصلنا بالآخرين وتوحدنا معهم .. وهى أداة لا تعرف الديكتاتورية أو الأرستقراطية .. بل تسعى إلى تحطيمها .. لانها ليست كأساً من ذهب فى يد أمير أو رئيس أو وزير بل قطعة خبز فى فم كل جائع للحرية.

****

كان هذا الكتاب الأول من نوعه فى المكتبة العربية الذى يرصد ويسجل ويفسر ويملك أسرار وأفكار النكتة السياسية السرية التى لم يهتم بتسجيلها سوى جهاز أمن الدولة من خلال تقارير يضعها عن الرأى العام ويرفعها إلى رئاسة الدولة أو رئاسة الحكومة .. وقد كنت أول من كشف هذه الحقيقة فى الكتاب .. وفيما بعد .. بعد نشر الكتاب بأكثر من ٨ سنوات اعترف بما قلت واحد من أشهر ضباط جهاز أمن الدولة، وأشطر وزراء الداخلية هو اللواء حسن أبو باشا الذى قال لمجلة روز اليوسف - عدد ٣٠ مارس ١٩٩٨ وكان بالمناسبة عدداً خاصاً عن "التنكيت فى مصر" :

"إن جهاز أمن الدولة يقوم بجمع النكات من خلال قياسات الرأى العام وهو اسلوب أمنى متبع منذ سنوات طويلة .. ومن خلاله كانت تتجمع لدى الجهاز كثير من النكات السياسية المتداولة بين الناس .. وكنت وأنا مدير للجهاز أقوم بعرض تقرير أسبوعى على مجلس الوزراء عن اهتمامات الرأى العام من خلال تحليل النكات ومدلولاتها".

لكن ... يبدو ان النكات التى يسمعها الوزراء فى اجتماعهم الأسبوعى كانت تخفف عنهم فقط ضغوط العمل دون أن يتوقفوا عندها أو يفتشوا فى أسبابها ودوافعها أو يستفيدوا منها ... إن حصة النكتة - أو فقرة النكتة - فى اجتماع مجلس الوزراء لم تكن تتجاوز الفكاهة والمرح ... لذلك يقول اللواء حسن أبو باشا فى مرارة :

"كان من الممكن تفادى الانتفاضة الشعبية التى أنفجرت فى ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧ لو أخذت

الحكومة بتقارير جهاز أمن الدولة التى عُرضت على مجلس الوزراء ... لقد وصلت النكات وسخرية الناس إلى أعلى درجة من ارتفاع الأسعار وشدة الأزمة التموينية .. إن النكات كانت الشرارة التى فجرت الثورة الشعبية .. لأن الحكومة تجاهلت مؤشرات الغضب الجماهيرى التى عكستها".

إنه إعتراف مذهل من رجل يعرف ما يقول .. وهو إعتراف يرفع من قمية النكتة السياسية ويمنحها أهمية لا أتصور أن مسئولاً رسمياً غيره توصل إليها .. وهو لم يقدم عينات من هذه النكات .. وان كانت النكات التى قيلت لا تختلف كثيراً عن التى تقال .. والتى اقترب منها بصورة أكثر تهذيباً الكاتب الساخر الجرىء أحمد بهجت .. الذى يقول :

١ - احتفلت أمريكا بذكرى هبوط أول رجل على القمر واحتفلنا فى مصر فى نفس اليوم بذكرى هبوط الجنيه المصرى على الأرض.

٢ - إذا استمرت الأسعار فى صعودها واستمرت المرتبات فى هبوطها فمن المنتظر ظهور الإيدز الوظيفى - على وزن الاصلاح الوظيفى - وهو انهيار جهاز المناعة ضد الرشوة.

٣ - اننا أصبحنا جميعاً محدودى الدخل حتى أن أى جواز سفر مصرى يمكن ان يكتب فيه أمام خانة الجنسية : محدود الدخل.

٤ - والأفضل من تسمية "محدود الدخل" .. تسمية "مهدود الدخل".

وكان هناك ساخر آخر يعبر عن البطون الخاوية فى صمت ودون صخب وبعيداً عن الضوء هو محمد عفيفى .. الذى لا يعرفه الكثيرون .. للأسف.

ومحمد عفيفى كان واحداً من شلة "حرافيش" نجيب محفوظ الذى يقول عنه : إن معرفته به جاءت عن طريق المرحوم صلاح أبو سيف .. "فقد استعان به أبو سيف فى كتابة حوار أحد الأفلام بعد أن اتفق معى على كتابة السيناريو .. كان ذلك عام ١٩٤٩ ومن يومها توطدت صلتى بمحمد عفيفى .. فقد اكتشفت فيه شخصية إنسانية رائعة .. وقد دعانى محمد عفيفى للإنضمام إلى شلة "العوامة" وهى مجموعة من الأصدقاء كانوا يستأجرون "عوامة" على النيل لقضاء السهرات التى لم تكن تخلو من البيرة والحشيش .. وكما دعانى لشلة "العوامة" دعوته إلى شلة الحرافيش التى سرعان ما اندمج فيها.

"بدأت اجتماعات الحرافيش وسهراتهم فى شوارع القاهرة ومقاهيها ثم انتقلت إلى بيت محمد عفيفى فى الهرم .. ولم تنتقل إلى بيت عادل كامل إلا فى السنوات الأخيرة وبعد وفاة محمد عفيفى.

"وإلى جانب شخصيته الممتعة وأخلاقه الرفيعة كان محمد عفيفى يتمتع بموهبة أدبية نادرة ويمتلك حساً ساخراً أعتبره امتداداً لعبد القادر المازنى والجاحظ وفوليتر ومارك توين .. كانت الصور الفكاهية التى يكتبها محمد عفيفى نابعة من الألم أو المعاناة فى

حياته الشخصية .. فقد كان يعيش حياة غير مستقرة .. كما ان مرض السرطان الذى أودى بحياته لم يكتشفه أو يعلم به إلا مصادفة فى أواخر أيامه .. ففى أحد الأيام لاحظ ابنه وهوطبيب شيئاً يشبه النبقة الصغيرة فى ذقن أبيه وأصر على اصطحابه إلى طبيب ولم يوافق محمد عفيفى إلا بعد إلحاح معتقداً أن الأمر بسيط ثم اكتشف حقيقة مرضه وما بعدها بقليل.

"وأغرب ما فى شخصيته من طباع حبه للخمر الرديئة وإقباله بشغف على تناولها بينما يرفض الأنواع الجيدة التى لم يذقها طوال حياته" - ص ١٠٠ من مذكرات نجيب محفوظ التى كتبها رجاء النقاش

لكن .. كتابته لم تكن من نفس أنواع الخمور التى كان يفضلها :

١ - إذا مات رجل من شدة الجوع فهذا لا يرجع إلى شىء سوى ان رجلاً آخر قد مات فى نفس اللحظة من فرط الشبع.

٢ - بقدر ما أحب الرجل الذى يكسب عيشه بعرق جبينه بقدر ما أكره الرجل الآخر الذى يكسبه بعرق جبينى.

٣ - هو : بشرفى اشتريت سيارة مرسيدس آخر موديل.

أنا : بس ما تقولش بشرفى.

٤ - الفرق بين اللص الصغير واللص الكبير ان الأول يركب الماسورة فى حين أن الثانى يركب الموجة.

٥ - من الناس من يأكلون الديوك الرومى أكثر من مرة فى الأسبوع .. إذا لم تستح فكل ما شئت.

٦ - يؤكد لى الرجل الفقير ان الشىء الوحيد الذى شبع منه فى حياته هو الجوع.

٧ - قد لا يحول الجوع دون النهوض لكنه قطعاً وجزماً يحول دون النهضة.

٨ - هل لك أن تخبرنى من أين يحصل الناس على الفلوس بدون أن يكونوا نساءً.

٩ - تحت وطأة الغلاء الفاحش لا أظن أن القرش الأبيض قد أصبح له أية قيمة فى يومنا هذا.

١٠ - طبعاً أنا من أكبر المؤمنين بالثورة (هكذا يقول واحد منهم) مادمت أستطيع بين الحين والآخر أن أضع راءها قبل واوها.

١١ - موظف : أخذت علاوة كام ؟

زميله : ربع كيلو سمك.

١٢ – قلت للرجل الفقير وقد رأيت بطن زوجته منتفخاً بالطفل العاشر :

– وده ح توكله منين ؟

فنظر إلى ساخراً وقال : هع ! مين قال لك إنى ح أوكله.

١٣ – تعريف عابر للمواطن المصرى : انه المواطن الوحيد فى العالم الذى يمكن أن يموت فى حادث تصادم بين الكاديلاك والكارو.

١٤ – لا أظنه تطرفاً منى أن أطالب رجال الإقتصاد بشىء من الإقتصاد ... فى التصريحات الإقتصادية.

١٥ – رأى نظرتى الحادة إلى سيارته الفاخرة جداً فقال لى : إن تلك السيارة مشتراه بعرق الجبين .. وبسرعة صعد إليها ورقع الباب خلفه وانطلق بها قبل أن أجد الفرصة لكى أسأله : جبين من ؟ .

ويضيف اللواء حسن أبو باشا :

– إن النكات تزداد فى الأوقات العصيبة حين تشتد الأزمات .. وفى حالات القلق والتوتر.. سواء كانت أزمات سياسية أو إقتصادية أو اجتماعية .. والنكات فى كل هذه الأحوال تعبر عن الرأى العام واتجاهاته وترصد الأوضاع التى لا تلقى قبولاً شعبياً .. وإذا عجز الرأى العام عن التعبير عن رفضه من خلال المؤسسات السياسية أو القنوات الرسمية تنتشر النكات .. وأحياناً تكون إنذاراً مبكراً لحوادث معينة مثل ١٨ و١٩ يناير .. والإنتباه لذلك وتداركه يقى الوطن من مخاطر هو فى غنى عنها.

ثم .. يواصل :

– والميزة الكبرى للنكتة السياسية هى تخفيف حدة التوتر والتنفيس عن الضيق فى الصدور .. أو الرغبة فى توجيه نظر الحاكم إلى هموم تؤرق الجماهير .. وإذا لم يتم الإمتثال لوجهة نظر الرأى العام المتمثلة فى النكات فقد تنفجر فى صورة اضطرابات تؤثر على الأمن بشكل عام أو بشلل عام.

****

لقد وصف المصريون الخصخصة – أى بيع شركات القطاع العام إلى القطاع الخاص – بانها مصمصة .. أى التهام كل شىء حتى نخاع العظم.

وفى هذه المصمصة أو المعمعة ضاق الموظف الصغير بفساد الوزير فقرر ان يواجهه بحقيقة فساده فيما يشبه الإنتحار .. قال له :

ان سيادتك أكبر حرامى فى البلد.

فرد الوزير :

- من فضلك يا ابنى .. أنا ما أحبش النفاق.

لقد راحت الديناصورات الكبيرة تلتهم ثروات هذا البلد وتكوش عليها دون أن تنسى أن تتزاوج وتتحالف مع السلطة وتلتحف بها .. ومن ثم أصبح ٢٠ ٪ من المصريين يمتلكون أكثر من ٨٠ ٪ من ثروات هذا الوطن .. وأصبح ٥٥ ٪ منهم يعيشون تحت خط الفقر .. وما بين الثراء والفقر راحت الطبقة الوسطى - التى انكمشت وسقط ريشها وانكسرت اجنحتها - تلعب على كل الحبال وتحاول ان تنجو من السقوط فى مستنقع الفقر .. فراحت إلى الدين تارة .. وراحت إلى النفاق تارة .. واعتبرت الفساد سياسة حكيمة فى معظم الأحيان .. انها لا تريد السقوط - حيث الفقر - إلى أسفل .. وانما سعت إلى السقوط - راكبة أسانسير الفساد بكل أنواعه الاخلاقى والسياسى - إلى أعلى .. وبدا ان لا أحد يحاسب أحد .. ولا أحد يلوم أحد لأنه نجح فى ان يصبح فى سنوات تعد على أصابع اليد الواحدة مليونيراً .. فنحن كما تعلم فى عصر السرعة.

وشاعت مهنة جديدة فى مصر .. اسمها المهذب .. سمسار عاطفى .. واسمها الجنائى: قواد.. وتحولت صالونات بعض رجال الأعمال إلى بيوت لأعمال من نوع خاص .. فعندما تصبح الثروة هى الهوية .. يكون الكلام عن الأخلاق والفضيلة نوعاً من الرغى والرغاوى.

وقد سألتنى مذيعة تليفزيونية عن الفرق بين أنواع النساء فى مصر .. فقلت لها : إن هناك نوعاً يصاب بالاجهاض من كثرة الاجهاد .. ونوعاص يصاب بالاجهاد من كثرة الاجهاض.

حاولت التفرقة بين إمراة مكافحة لا يكفيها عرق الجبين وأخرى ملتوية لا يكفيها عرق الآخرين .. لكن الرقابة على التليفزيون حذفت السؤال والإجابة .. وحذفتنى .. فهى لا تعرف سوى نوع واحد من النساء .. ذلك الذى يخلع ملابسه كلها ويبقى فى غاية الحشمة.. والأصح ان نقول : اننا لا ندرى .. فمن قال لا أدرى فقد أفتى .. ومن ثم يصلح كل مواطن فى مصران يكون مفتياً.

وقلت مرة أخرى فى برنامج آخر :

- لا أتصور ان أمامى فرصة لأصبح مليونيراً .. فمن الصعب على رجل تجاوز الأربعين أن يبدأ فى تعلم السرقة.

ولست فى حاجة إلى أن أقول لك أى شىء عن مصير هذا البرنامج.

وقلت فى ندوة عامة - كنت أشرح فيها ما جرى لنا - لو ان البحر يغسل ذنوب الفساد الذى انتشر كالسرطان فى بلادنا لأصبحت بلادنا تطل على البحر "الأسود" المتوسط .. ولم

يوجد رقيب هذه المرة ليمنع ويشطب .. لكن كان هناك من يرصد ويسجل.

ودون الضغط على مشاعر الناس فإنه كان فى مصر مليوناً وثمانمائة ألف عاطل فى عام ١٩٩٥ من خريجى الجامعات والمعاهد العليا والمتوسطة .. ومعنى ذلك ان البطالة تعصر كتلة من أهم الكتل البشرية فى مصر .. فهى كتلة تعلمت وتهيأت للعمل فى بلد يعتبر التعليم فيه وسيلة وحيدة للصعود الاجتماعى" .. حسب ما قاله محمد حسنين هيكل أمام رواد معرض الكتاب فى يناير ١٩٩٥ .. فى اللقاء الأخير له مع رواد المعرض.

ولكن .. لم يتح لهيكل أن يضيف : ان مستنقع البطالة يتلقى كل عام حوالى نصف مليون شاب ليس له غد أو مستقبل يحلم به .. فى بلد "تستورد أكبر نسبة من سيارات المرسيدس فى العالم بالقياس إلى عدد سكانها" .. وهو ما جعل أحمد رجب يقول : "انتشرت سيارات المرسيدس أحدث طراز بكثافة شديدة فى شوارع مصر ولأن المرسيدس فاخرة وأنيقة وتلفت الأنظار فى الطريق فاننا يمكن أن نستثمر هذه السيارات فى غرض قومى عظيم .. فنعلق على مؤخرة كل سيارة لافتة تقول : تبرعوا لسداد ديون مصر".

ويكتب أحمد رجب أيضاً :

- لقد ترصد أصحاب النفوذ والفلوس لقانون من أين لك هذا فأصابوه بالعجز وقيل بالإيدز .. وفى محاولة هزلية لعلاجه قالوا انه لن يصبح قانوناً قوياً إلا إذا تغير اسمه إلى من أين لك ذلك .. بدلاً من أين لك هذا .. وجاء وقت كانت إدارة الكسب تسأل القطط السمان من أين لك هذا .. وهنا يجيب صاحب النفوذ : هذا من فضل ربى فترسل له الإدارة خطاباً تقول له فيه : ونعم بالله.

وقد تحول هذا الرأى الساخر إلى نكتة لاذعة .. شائعة .. تقول :

- ان الشيطان قرر الهجرة من مصر لان اللصوص والقوادين والمرتشين يقولون - عندما يسألهم أحد عن مصادر ثرواتهم - هذا من فضل ربى.

ويقال ان الشيطان قال :

- أنا ليس لى أكل عيش فى هذا البلد فالفساد فيه فاق طاقة وتصورات الشياطين.

وينقل هيكل عن مصادر بحثية خارجية ان فى مصر ٥٠ فرداً يملك الواحد منهم ما بين ١٠٠ - ٢٠٠ مليون دولار .. وفيها ١٠٠ فرداً يملك كل منهم ما بين ٨٠ - ١٠٠ مليون دولار .. وفيها ١٥٠ فرداً تتراوح الثروة فى يد الواحد منهم ما بين ٥٠ - ٨٠ مليون دولار.. وهناك ٢٢٠ فرداً ثروة كل منهم ما بين ٣٠ - ٥٠ مليون دولار .. وهناك ٢٥٠ فرداً تتراوح ثروة كل منهم ما بين ١٥ - ٣٠ مليون دولار .. "أى أننا أمام حوالى ألف شخص أستطاعوا أن يصبحوا أصحاب ثروات هائلة لا تتناسب مع الحقائق الإقتصادية أو الاجتماعية

السائدة فى هذا البلد".

وأتصور أن هذه الأرقام أصبحت - بعد ٣ سنوات فقط من نشرها - ساذجة .. أو بلهاء.. فقد أصبح فى مصر أثرياء فى مصاف المليارديرات الذين تُوضع أسماءهم فى قوائم مجلة "فورشن" التى ترصد أغنى الأغنياء فى العالم .. كما تكشف قوائم الديون فى البنك المركزى - فى النصف الأول من عام ١٩٩٨ - عن وجود رجال أعمال اقترضوا ما يزيد عن المليارى جنيه .. وهو ما يضاعف من خطورة ما وصل اليه هيكل : "اننا أمام وضع لا مفر من التسليم بأنه بالفعل مخيف لأن النار قريبة من الحطب بأكثر مما تحتمله سلامة الأحوال فى مصر".

ولم يجد الناس فى مصر تفسيراً لذلك سوى الفساد .. ولم يجدوا وسيلة لمواجهته سوى الشائعات والنكات خاصة بعد أن قُطعت السنة الصحافة وأصابع الصحفيين وجف الخيط الوحيد من ماء الحرية فى صحراء العطش.

س : لماذا يدخل رجل السجن ؟

جـ : لانه لم يجد وزيراً ينحيه أو ينجيه.

ويكتب أحمد رجب :

- كثيرون دهشوا لصغر مرتب الوزير .. ومرتب الوزير صغير منذ سنين لأن منصب الوزير يعتبر المهنة الوحيدة التى لا تحتاج إلى مؤهلات أو سابق خبرة.

ويكتب أيضاً :

- الذين يخالفون القانون ينقسمون إلى ثلاثة :

واحد يخالف القانون ولا يضبط. وواحد يخالف القانون ويضبط ويعاقب. وواحد عنده حصانة.

والحقيقة ان فى مصر خلطاً شديد بين الحصانة والطفاشة .. وقيل : ان الحصانات يذهبن السيئات.

ويُحكى ان تاجراً كان عنده ثلاثة أولاد : ذكى وذكى جداً وعبقرى الذكاء .. فسأل الاب كلاً منهم :

- كم يكفيك من دنياك يا ولدى ؟

فقال الذكى : ان يكون عندى مليون جنيه.

وقال الذكى جداً : ان يكون عندى مائة مليون جنيه.

وفكر العبقرى الذكاء طويلاً ثم قال : أن يكون عندى حصانة.

ويكتب أحمد رجب كذلك :

- الذين يتساءلون لماذا طال عمر الوزارة وبقى الوزراء كل هذه المدة لا يعرفون أن الحكمة فى ذلك هى عدم اضافة أعداد جديدة إلى البطالة.

وقيل أن ابن أحد الوزراء اشترى ٣ مصانع و٥ مزارع وشركة للنقل .. وعندما سألوا أبيه:

- من أين له هذا ؟ .

قال :

- ان ابنه شاب حريص .. مدبر .. استطاع ان يوفر ثمن ذلك من مصروفه.

وطالب الوزير شباب مصر ان يكونوا مثل ابنه فى التعامل مع المصروف.

والوجه الآخر للفساد هو النفاق .. والرشوة .. والمحسوبية .. وتلخيص هذا الوطن فى صفقة .. أو كلمة .. أو عملة .. أو شمة .. أو عطسة.

وقد سأل الوزير أحد مساعديه :

- تفتكر يوم ٢٨ يوافق يوم الخميس ؟ .

فرد مساعده :

- لو ضغطنا عليه يا فندم وأرسلنا له هدية ممكن يوافق.

وحدث أن أغتاظ أحد الوزراء من نفاق مساعده الذى ليس له مثيل .. وقرر الوزير أن يمارس معه الفحشاء حتى يخرسه .. ولم يتردد مساعده فى القبول حتى لا يغضبه .. ثم ان هذا شرف عظيم له .. كما قال .. لكنه فى الوقت الحرج التفت إلى سيادة الوزير فى خضوع وخشوع قائلاً :

- سامحنى يا فندم لاننى مضطر أن أعطيك ظهرى.

وطالب أحمد رجب المنافقين الا ينافقوا .. بل أن يحسنوا النفاق .. وكان ذلك بمناسبة تطوع البعض باطلاق اسم الرئيس حسنى مبارك على مركز الزلازل الاقليمى الذى كان مزمعاً أقامته .. رغم ان كلمة الزلزال تركت فى نفوس المصريين اثاراً نفسية عميقة بعد زلزال زكتوبر ١٩٩٢ .. لكنه النفاق الأعمى الذى لا يفرق بين الحق والباطل .. بين اللياقة والجليطة.

وتعليقاً على ما جرى فى مصر .. كتب محمد عفيفى ساخراً : "أى دراسة لطوائف

المجتمع يجب أن تتبع علم الإجتماع .. لكن بعض الطوائف عندنا تجعل هذه الدراسة أكثر انتماء إلي علم الطفيليات".

ثم يرصد المشهد التالى :

"نزل البيه السمين من السيارة الفاخرة فتعثر وسقط فى بكابورت مفتوح .. أخيراً رأيت الرجل المناسب فى المكان المناسب".

وهذا الرجل هو الذى إذا أقرضته ناياً "فيجدر بك عند استرداده أن تعد ثقوبه".

لكنه ليس هذا الرجل المنفصل عن الناس والذى "دهش عندما عرف أن بعض الناس يغسل جوربه بدلاً من أن يرميه ويشترى جورباً جديداً".

على انه نفسه الرجل السمين الذى قال ان الدنيا بخير وهو يجهز على ما تبقى من خروف وضعه أمامه على فحم الشواء.

وفى الوقت نفسه انتشرت نكات الفقر .. ومنها :

إن شخصين تقابلا فى الطريق دون سابق معرفة ...

قال الأول : أنا مش من هنا وجعان.

رد الثانى : وأنا من هنا وجعان.

ويبدو ان هذين الرجلين هما أيضاً بطلا هذه النكتة .. لكن بعد فترة من الزمن .. لقد قال الأول :

- أنا أكلت بالأمس حتى شبعت .. مجاناً.

- كيف ؟

- أكلت "طبق" أرز و "طبق" لحم و "طبق" خضار .. ولم أدفع.

- لكن .. كيف تركك صاحب المطعم.

- انه لم يتركنى .. فقد "طبق" فى زمارة رقبتى.

والنكتة الأخيرة سمعتها من الكاتب الساخر محمود السعدنى الذى ذهب ضحية نكاته وطبقت السلطة فى زمارة رقبته .. فقد قال : "عبد الناصر موتنا من الخوف .. والسادات حيموتنا من الضحك" .. فقدموه إلى المحاكمة فى قضية ١٥ مايو ١٩٧١ بتهمة المشاركة فى مؤامرة لقلب نظام الحكم.

وفى حالات الحاجة .. يعيش الفقراء على كل النكات التى تخفف عنهم قسوة الحياة .. حتى النكات القديمة .. والسخيفة .. وفى كثير من الأحيان يلجأون إلى جحا.

وكان جحا فى الغرفة العليا من منزله .. فطرق بابه طارق .. فأطل من النافذة .. فرأى رجلاً .. فقال له :

- ماذا تريد ؟

قال الرجل :

- انزل إلى تحت لأكلمك.

فنزل جحا .. فقال الرجل :

- انا فقير الحال .. أريد حسنة.

فاغتاظ جحا منه ولكنه كظم غيظه وقال له :

- أتبعنى.

وصعدا إلى أعلى البيت .. فلما وصل إلى الطابق العلوى التفت إلى السائل قائلاً :

- الله يعطيك.

- وطلبت إمراة من زوجها المعدم الطلاق لانه لم يطعمها لحماً طوال ٢٠ سنة .. وامام القاضى لم يجد الرجل مفراً من أن يرفع جلبابه ويقول للقاضى :

- أنظر يا سيدى .. هل هذا لحم أم خضار ؟

سأل موظف مصرى موظفاً أمريكياً :

- كم دخلك فى الشهر ؟

- ٤٠٠٠ دولار أنفق منها على المعيشة ٢٠٠٠ دولار.

- والباقى ؟

- أنا حر.

وسأله الأمريكى :

- وأنت ؟

- أنا دخلى ٢٠٠ جنيه وأنفق على المعيشة ٨٠٠ جنيه.

- والباقى ؟

- أنا حر.

وسألت مجلة نسائية الأزواج عن ما يخيف الرجل فى المرأة العاملة ؟ .. فقال أحدهم :

- أن تترك عملها.

****

وتسأل روز اليوسف اللواء حسن أبو باشا :

- وهل اتخذت قراراً سياسياً أو أمنياً أثناء توليك مهام وزير الداخلية بناء على تقارير رصد النكتة ؟ .

أجاب :

- النكات التى كانت سائدة فى بداية الثمانينات كانت تسخر من أوضاع الانتخابات خصوصاً الـ ٩٩،٩٩ ٪ ولم تعد هذه النكات محلية فقط بل انتشرت أيضاً فى الخارج .. وكان المؤشر الواضح هو أن الشعب المصرى ضاق بتزييف إرادته فى الإنتخابات وقاطع اللجان والصناديق لانعدام قدرته على الاختيار.

عرضت تقريراً بذلك وانا وزير للداخلية على مجلس الوزراء وقلت ان البداية الحقيقية للديمقراطية هى العدول عن الـ ٩٩،٩٩ ٪ التى هى موضع التنكيت والسخرية من جانب الرأى العام .. وأوضحت لمجلس الوزراء ان الإنتخابات إذا تُركَت حرة ونزيهة سنة ١٩٨٤ سيحصل الحزب الوطنى الحاكم على ٧٥ ٪ من مقاعد مجلس الشعب وستحصل المعرضة على ٢٥ ٪ .. وكانت النتيجة اننى أُتهمت على مائدة مجلس الوزراء باننى أتآمر على الحزب الحاكم لأن حصوله على ٧٥ ٪ فقط من المقاعد يجعل الحكومة مهتزة والمعارضة قوية.

ورغم هذا الاتهام الصعب فقد كنت مقتنعاً أن هذه هى البداية الحقيقية لتجسيد الاسلوب الديمقراطى .. وأُعلنت نتيجة الإنتخابات وكان الذين حضروا ٤٣ ٪ فقط .. وقبل ذلك بسنة لم أوافق على تسويد البطاقات الانتخابية لصالح الحزب الوطنى فى انتخابات مجلس الشورى التى قاطعتها أحزاب المعارضة .. وأعلنت أن الذين حضروا ٥١٪ فقط وليس ٩٩ ٪ كما كان يقال.

- والنتيجة ؟

- النتيجة اننى تركت منصبى !

والنتيجة الأسوأ انهيار سلطة النواب فى مجلس الشعب .. فعلى حد قول أحمد رجب :

أصبحت "شروط الترشيح لمجلس الشعب أن يكون المرشح فوق الثلاثين ويجيد القراءة والكتابة وأن يكون حسن السير والسلوك .. وأشتهر بالموافقة" .. وعلى حد قوله أيضاً : "أتمنى ان يُراعى فى اختيار المرشح لمجلس الشعب الا تكون له خبرة سابقة بالتصفيق والموافقة، وليس له هواية جمع أمضاءات الوزراء على الطلبات مقابل عمولات .. وأن يستعمل الحصانة فيما شُرعت له ولا يتخذ منها رداءً ليلياً وفى يده سلسلة مفاتيح".

وبسبب هذه المواصفات عرف البرلمان فى مصر من نواب السوء ما لم يعرفه فى تاريخه الطويل.. نواب المخدرات .. نواب القروض .. نائبه النقوط .. ونواب البلطجة .. وحتى لا تتقرض باقى الأنواع .. خرج علينا نائبه وهو يتفاخر بانه "صايع" .. ولم يكن الناس فى حاجة إلى إختراع نكات على هؤلاء .. فتصرفاتهم تتجاوز كل سخرية ممكنة .. وغير ممكنة .. كذلك .. فإن الصحف تولت التنكيت نيابة عن الناس .. فكتب أحمد رجب :

"طلبت احدى الجهات الرسمية تقريراً عن حسن سلوك وسمعة أحد المواطنين فردت الجهة الرسمية بان حسن السير والسلوك والسمعة أمر لا يشترطه الترشيح لمجلس الشعب فى الدائرة التى خلت بوفاة العضو السابق .. فعادت الجهة الرسمية تطلب موافاتها بتقرير عن حسن سلوك وسمعة هذا الشخص لانه غير مرشح لمجلس الشعب بل لوظيفة فراش فى مصلحة".

وفى وجود هذا النوع التفصيل من النواب انتشرت نكتة تقول :

ان مواطناً قال لآخر :

- هل سمعت نكتة النائب الذى نجح تحت قبة مجلس الشعب فى اسقاط الحكومة.

- لا.

- ولا أنا .. لكنها نكتة حلوة.

وجرت السخرية من نواب البرلمان نكات السخرية من الديمقراطية ... ولو فى العالم الثالث .. الذى يتشبث فيه الحكام بالسلطة حتى الموت .. بل انهم لا يصدقون انهم سيموتون ..

وقد كان أحدهم يحتضر عندما سأل زوجته :

- ما هذا الصخب الذى فى الخارج ؟ .

قالت له :

- ان الشعب فى الخارج جاء يودعك.

فسألها مندهشاً :

- ليه ؟ هو الشعب مسافر على فين ؟

وفى المانيا يحتفلون بعيد أو مهرجان للمجانين .. ويرفض منظمو المهرجان دعوة نصف حكام العالم الثالث حتى لا يفوزوا بجوائز المهرجان.

وبعد ما جرى للصحافة فى مصر .. سألتنى الاذاعة النمساوية :

- ماذا تفعل الآن ؟

قلت :

- أكتب وصيتى.

وتذكرت فى هذا الحوار الذى كان على الهواء ما جرى فى تركيا أيام السلطان عبد الحميد .. آخر خلفاء الدولة العثمانية عندما عرضت احدى الصحف على الرقيب - الذى كان يُسمى المكتوبجى - خبر قيام الثورة البولشوفية الإشتراكية فى روسيا فى اكتوبر عام ١٩١٧ .. فوجده الرقيب يحوى على الكلمات التى تحرمها لائحة المطبوعات مثل "الدستور و الحرية و الظلم و الطغيان .. فشطبها جميعاً .. ولم يبق من الخبر سوى سطر واحد نشرته الصحيفة فى اليوم التالى وكان نصه : حدثت أمس مشاجرة فى روسيا - أنظر صلاح عيسى : هوامش المقريزى - ص ١٧٦.

ولا يحمل ما فعله الرقيب التركى أى غرابة إذا ما قورن بالرقيب السعودى الذى منع نشر دخول القوات العراقية إلى الكويت فى أغسطس ١٩٩٠ لمدة ٣ أيام.

إن مشكلتنا الأولى مع الحرية هى : ان كثيراً ما تجد متكلماً يفكر .. ولكن نادراً ما تجد مفكراً يتكلم.

****

وبعد هذا الكتاب - الذى ظل فى مقدمة أكثر الكتب مبيعاً منذ صدور طبعته الأولى فى عام ١٩٩٠ - انفجر الاهتمام بالنكتة السياسية فى الكتب و المجلات و الندوات و دراسات المعهد القومى للبحوث الاجتماعية و الجنائية التى تقول واحدة منها :

- إن ٣٩،٥ ٪ من المصريين يقولون النكتة فى مواقف يتعرضون فيها لخسارة من أى نوع.. و ان ٢٤ ٪ منهم يقولونها بعد المشاجرات و المشاحنات .. و ان ٢٧ ٪ يلجأون اليها للخروج من الضيق .. بينما قال ٢١ ٪ انهم يقولون النكتة فى أعقاب الموت أو الوفاة.

وتشرح الدراسة :

- إن مواقف الضيق قد تكون شخصية وقد تكون عامة مرتبطة بانماط الحياة وما يعيشه الإنسان من ظروف .. ونحن نستبعد أن تكون الفكاهة رد فعل للأزمات الشخصية حين

يكون الانطواء والحزن هما رد الفعل المتوقع .. وانما تكون الفكاهة تعبيراً عن رد فعل للإحساس بأزمة عامة أكثر منها شخصية .. إنه رد فعل ايجابى يرتد به المصرى إلى الذات فيسخر من الآخرين ومن نفسه ويسلط لسانه اللاذع من خلال النكتة ليجد متنفساً لذاته ومخرجاً لضيقه - أنظر روز اليوسف عدد ٣٠ مارس ١٩٩٨ - ص ٢٦.

اشترى مسئول فى الحكومة - لا يجد وقتاً لبيته ولزوجته - كلباً ودربه تدريباً جيداً لمراقبة عشيقته الصغيرة .. وذات يوم سأل الكلب :

- هل رأيت الهانم ؟

أجاب الكلب :

- هاو ..

- هل كان معها أحد ؟

- هاو ..

- هل دخلا غرفة النوم ؟

- هاو ..

- هل كان يفعلان شيئاً ؟

- هاو هاو هاووو ...

وطلبت المصلحة من تلميذة .. ابنة مليونير من الطبقات الجديدة أن تكتب موضوع انشاء عن أسرة فقيرة .. فكتبت التلميذة : "يُحكى أنه كانت هناك أسرة فقيرة .. الأب فقير والأم فقيرة والسائق فقير والخادمة فقيرة والبستانى فقير".

إن المصريين الذين سخروا من الأثرياء الجدد الذين "كوشوا" على الثروة والسلطة والمرأة هم أنفسهم المصريون الذين أطلقوا أسماء ذات مغزى على سيارة "المرسيدس" التى يفضلها هؤلاء الأثرياء بطرزها المختلفة .. فهى اما "خنزيرة" تعبيراً عن عدم إحساس من يركبها بمعاناة من يتكدسون كالسردين فى الأتوبيسات .. وأما "تمساحة" دليلاً على أن من يمتلكها قادر على التهام كل ما يصادفه مثل التمساح .. أو هى "شبح" .. دليلاً على أن مصدر ثروة صاحبها قد يكون خفياً كالأشباح فى الظلام .. أو هى "بودرة" .. والبودرة هى الاسم الشائع للهيروين .. الذى يحقق مكسباً بالملايين فى دقائق .. فى اشارة واضحة لقذارة الأموال.

كذلك .. تغيرت اللغة الخفية التى كان يشير بها المصريون إلى أشياء واضحة .. فالمليون جنيه كانت تسمى "أرنباً" لانه سريع التوالد والتكاثر .. و "الأخضر" يعنى الدولار

الأمريكى .. و "البريزة" - وهى العشرة قروش - أصبحت تعنى - بعد التضخم وانخفاض الجنيه إلى الأرض - العشرة جنيهات.

ويبدو ان الحكومة كانت المصدر الرئيسى لمثل هذه التعبيرات المضللة .. فرفع سعر السلعة تطلق عليه تحريك الأسعار .. والشركات الخاسرة تُوصف بالشركات المتعثرة .. والكوليرا اسمها المهذب أمراض الصيف .. وصراع الوزراء وتناحرهم يسمونه الرأى والرأى الآخر .. وتصريحات المسئولين التى تشبه السمك فى الماء يطلقون عليها من باب التضليل كلام جرائد .. والرشوة اسمها عمولة .. ان الكذب يبدأ فى مصر من فوق وينحدر كالماء إلى أسفل .. لذلك كان الناس زمان توجه النداءات للحكومة تحت عنوان : "إلى من يهمه الأمر" .. أما الآن فالناس تخاطب الحكومة بعبارة : "إلى من لا يهمه الأمر".

وتقول الدراسة :

- إن نكات المصريين التى يطلقونها على الناس فى الصعيد والمنوفية ودمياط المرتبة الأولى بنسبة ٦٩ ٪ .. ثم تأتى بعدها النكات الجنسية والبذيئة بنسبة ١٩ ٪ .. ثم النكات السياسية بنسبة ١٤،٧ ٪ .. وأخيراً النكات الدينية بنسبة ١،٨ ٪ .. التى أتصور انها قد تزايدت مؤخراً.

لكن .. من المؤكد أن هذه الأرقام خادعة .. فنكتة واحدة ضد الحاكم بألف نكتة ضد الصعايدة .. ونكتة واحدة عن فساد الوزراء بألف نكتة عن حرص الدمايطة .. والسخرية من الأثرياء الجدد تضاعف من مشاعر الزهو التى تتحقق بعد القاء النكات الجنسية.

فى ١/٢ كلمة كتب أحمد رجب :

"أعتقد أننا - مع التغيير - فى أشد الحاجة إلى أن يُضاف إلى حلف يمين الوزراء :

أقسم بالله العظيم الا أكذب على الشعب .. واقسم بالله العظيم أن أتعب وأفكر لنفسى بنفسى دون أى توجيهات".

وكتب أيضاً :

"مع إدارة الكسب غير المشروع التى تعيد الحرامية أقترح انشاء إدارة جديدة اسمها إدارة الكسب المشروع مهمتها أن تحقق مع الشرفاء فى امر محير : كيف يعيشون بالكسب الحلال فى هذا الغلاء ؟".

وقيل ان عسكرى الشطرنج لم يعد يتحرك على أى رقعة فى مصر الآن الا إذا أخذ خمسة شلن .. أما الوزير فلا يتحرك إلا إذا أكل الطابية وفيللا فى الساحل الشمالى.

وقيل أن الناس فى الخارج تكذب مرة واحدة فى السنة .. فى أول ابريل .. ويتركون لنا ٣٦٤ يوماً فى السنة لنقول التصريحات.

وللسخرية من الأثرياء الجدد .. قيل ان مليونيراً من هذه العينة لا يعرف له أصل .. وهو من مدعى الثقافة ذهب إلى سهرة فى بيت شخص مثقف هو وزوجته .. ووضع صاحب البيت فى جهاز الكاسيت أغنية مرحة لعبد الحليم حافظ فانزعجت زوجة المليونير .. وقالت فى غضب وغطرسة :

- ما هذا الأسفاف .. سمعونا أغنية لشكسبير.

وشعر زوجها بالحرج .. وعندما عادا إلى منزلهما عاتبها الرجل قائلاً :

- كسفتينا .. شكسبير ليس مطرباً .. شكسبير ماركة سيارات.

وفى الدراسة السابق الإشارة اليها :

- ان النكتة سريعة التبخر .. فحوالى ٨١،٥ ٪ ممن يسمعونها لا يتذكرونها .. والرجال يحفظون النكات أكثر وأسرع من النساء .. لأن الرجال أكثر اهتماماً بالحياة العامة .. وأكثر استجابة للنكات أيضاً .. والشباب تحت الثلاثين هم الأشد حماساً لحفظ النكات وترديدها .. والمتعلمون منهم يتحمسون للنكات أكثر من غير المتعلمين .. فكلما زاد الوعى كلما زاد الاحساس بالسخرية .. خاصة السخرية السياسية.

لكن .. الدراسة تنتهى إلى انتقاء سبق أن سجلته فى هذا الكتاب بأسلوب مختلف .. وهو.. "إذا كان التعبير من خلال النكتة لا يمكن أن يوصف بانه شكل ايجابى من النقد .. فإنه يظل رغم ذلك نوعاً من النقد غير المباشر والسلبى .. وحتى إذا كانت وظيفة النكتة فى بعض الأحيان هى النقد فإن هذا النقد ما هو إلا ضرب من السخرية من الذات ومن الآخرين يحقق الراحة النفسية ويتعامل مع الأزمات العامة بطريق شخصى بحت .. لا يميط اللثام عن وعى عام أو مشاركة عامة بقدر ما يميط اللثام عن ضرب من الأنانية المفرطة".

والمقصود ان النكتة قد تنتهى بمجرد أن نضحك عليها حتى لو أصابت هدفاً كبيراً من أهداف الحكم والسلطة هنا .. أو هناك.

كان من المقرر ان يقضى الوزير ليلته فى أحد فنادق شرم الشيخ .. فأرسل سكرتيره الخاص برقية إلى الفندق يطلب فيها اعداد غرفة مناسبة لسيادة الوزير وطعام جيد ... الخ الخ الخ .. وما كاد الوزير يصل إلى الفندق حتى قاده مديره إلى غرفته فإذا به يرى ثلاث فتيات جميلات .. فسأل عنهن .. فقيل له : انهن الخ الخ الخ.

واستغلالاً للمشاعر الدينية .. راح رجل مصاب بالتأتاة يبيع المصاحف .. كان يطرق الأبواب ويقول لمن يفتحها له :

- تتتشترررى م م م صحف وأأأ لا أأأقراااا هو لك.

وقيل ان جهاز الرد على المكالمات فى بيت أحد المشايخ كان مسجلاً عليه : هنا بيت الشيخ فلان .. أترك اسمك وتليفونك بعد سماع سورة البقرة.

وسُئل حاكم عربى :

- ماذا قدمت لأطفال الحجارة فى فلسطين المحتلة.

فقال :

- قدمت لهم حجارة.

وسافر مسئول كويتى إلى الولايات المتحدة بعد حرب الخليج الثانية التى تحررت فيها الكويت لكن بعد تدميرها فعرضوا عليه شراء محطات كهرباء .. فقال :

- لكن محطات الكهرباء عندنا سليمة.

فقيل له :

- سندمرها.

ومنذ احتل صدام حسين الكويت وإلى ما بعد تحريرها ظلت القوات الأمريكية هناك .. فى الأراضى المقدسة .. لذلك قيل انه أصبح من شروط الحج أن يتقن المرء اللغة الإنجليزية .. والسبب هو ان الموطن أصبح أمريكياً.

وحاول الأمريكيون فى السعودية ذبح خنزير لكن السعوديين احتجوا .. فقال الأمريكيون: هذا ليس خنزيراً .. انه خروف يضع على فمه كمامة.

وقد تكون النكتة نوعاً من جلد الذات.

يُحكى أن مصرياً وروسياً وأمريكياً ركبوا طائرة .. وفى لحظة ما قال الأمريكى :

- اننا الآن فوق واشنطن.

قالا له :

- كيف عرفت ؟

قال :

- ساعتى تصدر اشارة حين نمر فوق البيت الأبيض.

وبعد ساعات قال الروسى :

-نحن الآن فوق موسكو.

قالا له:

-كيف عرفت؟

قال:

-ساعتى تصدر إشارة حين نَمُرّ فوق الكرملين.

وبعد ساعات قال المصرى :

- نحن الآن فوق القاهرة.

قالا له :

- كيف عرفت ؟

قال :

- ساعتى نُشلت.

****

وفى كتابه عن "السخرية السياسية العربية" يقول خالد القشطيبى :

- لا يحضرنى شعب فى الدنيا ينغمس فى الظرف إلى آخر مدى مثل الشعب المصرى .. إنه يتعامل مع الحياة كأنها أضحوكة حتى يكاد يتجاوز بذلك حد الاحتمال .. تتحول عنده أى قضية خطيرة إلى نكتة .. وأية عبارة إلى ألعوبة لفظية .. وهذا أمر مزعج للغاية .. فالمصرى لا يتردد فى أن يترك بيته وأهله إلى مقهى حقير وداكن كى يطلق فيه النكات.

إن خالد القشطيبى يتأمل المصريين من الخارج .. ولا يعرف مخزون الصبر والقهر فى أعماقهم .. وهو ما إن ينفد حتى ينفجر فى غضب عارم .. لا أحد يتوقع توقيته .. ولا عواقبه .. ثم إنهم - بحكم تراثهم الزراعى - يعرفون متى تؤكل الثمرة .. ومتى تسقط من تلقاء نفسها ميتة .. لذلك فهم يلعبون لعبة السلبية والسخرية فى أوقات الشدة .. ولو لم يلعبوا هذه اللعبة لسقطوا جميعاً فى وقت واحد بالسكتة.

إنه لا يعرف أن نصف المصريين يموت من الجوع والنصف الآخر يموت من السخرية .. لا يعرف أن الواقع مر .. لو لم يسخر الإنسان منه ابتلعه ودهسه .. خاصة أن المرارة تمتزج باللامعقول .. بالعبث .. بالكوميديا .. فلو لم نسخر من الواقع سخر هو منا.

فى تعليق على زيارة أحد رؤساء الحكومة لمزرعة دواجن قال مذيع الراديو :

- إن الدجاج "طار" من الفرحة لتشريف رئيس الحكومة.

وقبل رحيله بفترة وجيزة سمعت من يوسف إدريس ونحن فى بيته المطل على النيل :

- أنه كان فى مأدبة رسمية يجلس إلى جوار شخصية سياسية حكومية مهمة وأراد أن يكسر الصمت والملل بينهما .. فسأله : هل سيادتك من هواة القراءة ؟ .. فرد المسئول : طبعاً .. طبعاً .. فسأله : وهل تقرأ فى التاريخ ؟ .. فتغيرت ملامح الرجل وقال بغطرسة ما بعدها غطرسة : ولماذا نقرأ فى التاريخ ونحن نصنعه ؟

إن الإنسان المصرى لو فقد خفة ظله فقد أعز ما يملك .. فقد قدرته على البقاء .. ولكان قد انقرض منذ عصور سحيقة.

والسخرية ليست حكراً على المحكومين .. بل يتمتع بها الحكام والوزراء والمشايخ أيضاً.

فعندما انتهى عمرو موسى من لقاء رئيس الوزراء كمال الجنزورى قبل إعلان أحد التشكيلات الوزارية سأله الصحفيون عن الوزارة المرشح لها .. وفى منتهى الثقة والجدية أجابهم عمرو موسى بأنه مرشح وزيراً للتموين.

فالسؤال أصلاً لا معنى له .. فعمرو موسى لا مكان له سوى فى الخارجية .. ومن ثم كان لابد أن تكون الإجابة جادة .. وساخرة .. على هذا النحو الذى رصده د. محمد الجوادى فى روز اليوسف (٣٠ مارس ١٩٩٨) وهو يتناول مواقف حقيقية تجاوزت حدود السخرية الكوميدية.

منها .. أن الشيخ عبد الحميد كشك - وكان من الشيوخ المعارضين للحكومة وكان يجيد السخرية والتلاعب بالألفاظ فى خطبه فوق المنبر - كان ينتقد شيخ الأزهر الأسبق الشيخ عبد الرحمن بيصار .. واستغل الشيخ كشك أنه والشيخ بيصار يتمتعان بلقب يطلق فى نفس الوقت على نوع من المأكولات الشعبية .. وفى ذروة الانفعال قال : الحمد لله الذى جعلنى كشكاً ولم يجعلنى بيصاراً.

ومنها .. أن الشيخ كشك كان يسخر من استبشار الناس فى مصر عقب حرب أكتوبر ١٩٧٣ بعودة العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية إلى مجاريها .. وأخذ الشيخ كشك يعدد أصناف المعونة المتوقعة من زبد وحليب وسمن حتى وصل إلى الجبن فقال بنبرة ساخرة وأسى : و "الجبن سيد الأخلاق".

وقد كان الشيخ أحمد حسن الباقورى من أخف المشايخ ظلاً .. وقد ترك قيادة الإخوان المسلمين بعد ثورة يوليو وقبل الوزارة ... وأشهر عباراته الساخرة التى لا تزال تتردد حتى الآن - وإن لم يشر البعض إلى مصدرها - إن الوزير يفقد نصف عقله عندما يدخل الوزارة ويفقد النصف الآخر عندما يخرج منها.

وفى مصر نكتة توارثها كل الرؤساء الذين حكموها .. فقد قيل أن الرئيس ركب طائرة مع أعضاء حكومته .. وفى الجو قال أحد الوزراء : لو ألقينا ١٠٠ جنيه سيجدها واحد من الشعب ويصبح سعيداً .. فقال وزير آخر : لو ألقينا خمسينين لأسعدنا اثنين .. وراح باقى الوزراء يبدعون فى هذا المجال حتى فاجأهم الرئيس قائلاً : إننى لو ألقيت بكم جميعاً سيسعد كل الناس.

والذين يحلمون بالوزارة يصفهم أحمد رجب بأنهم عبده مشتاق .. وأصبح الوصف شائعاً.. وشهيراً .. وعلى كل لسان .. واستخدمه الرئيس حسنى مبارك .. واستخدمه الرئيس الأمريكى الأسبق جورج بوش وهو يتحدث فى القاهرة أمام أعضاء غرفة التجارة الأمريكية .. فنحن فى مصر على حد تعبيره - الذى نطقه باللغة العربية - عبده مشتاق.. نشتاق للاستثمار الأجنبى .. والتصدير .. والتنمية .. وتنشيط البورصة ... لكننا لا نفعل أى شىء لتحقيق ذلك سوى الاشتياق.

وعدد كبير من الوزراء فى مصر غيروا أفكارهم بعد أن دخلوا الوزارة .. فهؤلاء كانوا يؤمنون بالاشتراكية والاقتصاد المركزى والتخطيط والحزب الواحد والتنظيم الطليعى .. ثم أصبح عليهم بعد أن أصبحوا وزراء أن يقضوا بأيديهم على كل ما روجوا له من أفكار.. أصبح عليهم بيع القطاع العام .. وفتح السوق على مصراعيها .. وخدمة رجال الأعمال... وهو ما جعل الناس فى مصر تقول عنهم :

- ان الواحد منهم يطلب من سائق سيارته أن يعطى إشارة الدخول لليسار ويأمره أن يدخل لليمين.

س : عندى إحساس عميق أن الوزراء قد تم تعيينهم عن طريق القوى العاملة .. فهل أنا على حق ؟

جـ : بالتأكيد أنت على حق !

والوزراء فى مصر يقضون معظم أوقاتهم فى المطار .. لذلك أصبحت عبارة "كل سنة وأنت طيب والسنة الجاية تكون من الواقفين فى المطار" أشهر عبارات التهانى التى يتبادلها حزب عبده مشتاق .. بدلاً من التهنئة الشهيرة المعتادة .. "والسنة الجاية تكون من الواقفين فى عرفات".

وأحياناً تأتى الوزارة لمن لا يتوقعها .. تأتيه بطريق الخطأ .. أو بطريق الحظ كورقة اليانصيب الرابحة .. يقول د. محمد الجوادى :

- إن الدكتور إسماعيل غانم استدعى للوزارة وكان المقصود زميله الذى يحمل نفس الاسم الدكتور إسماعيل غانم .. وكلاهما أستاذ فى القانون ... وكلاهما تولى وزارة التعليم العالى.

"خذ أيضاً الأخوين عبد الحميد عبد الحق .. وعبد المجيد عبد الحق .. استدعى الأول للوزارة وكان الآخر هو المقصود .. ولم يكتشف رئيس الوزراء (مصطفى النحاس نفسه) ما حدث إلا قبيل أداء اليمين الدستورية بدقائق .. ولم يمثل الأمر مأساة .. فقد تولى الأخ الثانى الوزارة فيما بعد .. ترى هل كان الحظ ليميل ناحية الأخ الثالث الفنان الملحن عبد العظيم عبد الحق ؟"

"ويروى أن المشير عبد الحليم أبو غزالة كان كثيراً ما يعانى من بطء استجابة صديقه رئيس الوزراء (السابق) الدكتور عاطف صدقى (وكان أبو غزالة وزيراً للدفاع ويجلس إلى يسار عاطف صدقى مباشرة فى مجلس الوزراء منذ ١٩٨٦ وحتى ١٩٨٩) .. وفى أحد الأيام فوجىء أبو غزالة بأن عاطف صدقى قبيل بدء اجتماع المجلس أخذ يستعرض ورقة عرضها عليه أحد معاونيه وأخذ يقلب الورقة وينظر إليها ثم يخلع النظارة ويعود ليلبسها... وهكذا .. ولما طال انتظار أبو غزالة لانتهاء عاطف صدقى من أمر هذه الورقة التفت إليه وسأله : فيه حاجة يا عاطف بيه ؟ .. فما كان من الدكتور عاطف صدقى إلا أن تنهد براحة شديدة وقال : عاطف .. عاطف .. منذ ربع ساعة وأنا أحاول أن أتذكر ... ووقع الورقة باسمه وبدأ اجتماع مجلس الوزراء".

والحقيقة أن الدكتور عاطف صدقى من أكثر رؤساء وزراء مصر رحابة للنقد .. وقبولاً للاختلاف .. وقد شاع أنه اختار بعض الوزراء فى حكومته من أصدقاء لعبة "الطاولة" .. وعُرف هؤلاء بوزارة الطاولة .. وقد دخلوا الوزارة معه .. وخرجوا معه .. خرجوا ليكملوا مباريات الطاولة التى تعطلت فى سنوات الوزارة .. وفيما بعد قيل فى الأمثال : "اللى عايز الوزارة ياسادة يتعلم الطاولة محبوسة وعادة" .. وعندما شاهد المحيطون بالدكتور عاطف صدقى أنه يلعب الطاولة مع وجوه جديدة .. قالوا : إن التغيير الوزارى على الأبواب.

وقد كان على الدكتور عاطف صدقى تنفيذ أسوأ وأصعب جزء فى برنامج الإصلاح الاقتصادى .. وهو تقليل الانفاق وزيادة الموارد وتثبيت سعر الصرف بين الجنيه والعملات الأخرى .. ومن ثم لم ير الناس من حكومته سوى فرض الضرائب وهى سياسة نفذها بقسوة وزير ماليته الدكتور محمد الرزاز الذى فرض الضرائب على كل شىء .. حتى على دفن الموتى .. فكان أن كتبت عنواناً ساخراً لمقالة ساخنة وهو : وثالثهما الرزاز .. فما اجتمع رجل وامراة على شىء فى الطعام أو الشراب أو الترفيه إلا وكان وزير المالية ثالثهما يحسب على انفاسهما الضرائب.

واخترع أحمد رجب خصيصاً للدكتور عاطف صدقى شخصية فلاح كفر الهنادوة .. وهو شخصية ماكرة على عكس ما تبدو .. تحاكم رئيس الوزراء أسبوعياً فى "أخبار اليوم" .. دون أن يغضب .. بل إنه امتدحه فى برنامج "على الناصية" وقال : إنه أذكى رأى سياسى فى مصر وأنه لم يسبق أن وصل الكاريكاتير السياسى إلى هذا المستوى الرفيع .. وبخروج عاطف صدقى من الوزارة لم يستطع فلاح كفر الهنادوة أن يقترب مرة أخرى من رئيس الوزراء.

لكن .. ما جعل الناس تضحك على هذا الرجل الخجول .. الصامت .. الصبور .. الذى يجيد العمل .. لا الكلام هو ما قاله فى مجلس الشعب فى فبراير ١٩٩٢ عقب الجلسة الساخنة فى مجلس الشعب لمناقشة قضية شهيرة عرفت بقضية لوسى آرتين .. وهو اسم سيدة تسببت فى إخراج مساعد رئيس الجمهورية .. محمد عبد الحليم أبو غزالة .. وبعض قيادات الأمن من مناصبهم .. لقد قال عاطف صدقى تعليقاً على المزج بين المرأة والسلطة : "واحد بيبوس واحدة تحت بئر السلم .. وانت مالك يا حكومة" .. وكان يقصد أن الحكومة ليس من شأنها التدخل فى حياة الناس الخاصة .. وعنده حق .. لكنه فى الوقت نفسه أثبت أنه لا يعرف أساليب وخفايا وخبايا السلطة وكيف تحكم أحيانا بالتلفيق والتشهير هنا .. وهناك.

ولو كان عاطف صدقى قد نسى اسمه ولم تخرب مالطا .. فإن سفير مصر فى باندونج أخطأ فى اسم صلاح سالم فقامت الدنيا ولم تقعد .. كان ذلك فى عام ١٩٥٥ أثناء حضور جمال عبد الناصر لمؤتمر باندونج الشهير الذى شهد ميلاد حركة عدم الانحياز.. كان سفيرنا هناك يقدم أعضاء الوفد المصرى لكبار مستقبليهم فى المطار .. وحينما جاء الدور على صلاح سالم عضو مجلس قيادة الثورة أخطأ السفير وقدمه باسم صالح سليم.. لاعب الكرة .. مدير النادى الأهلى فيما بعد .. وكان فى بداية نجوميته فى الملاعب .. ولم يكن صلاح سالم ليرضى بأقل من أن يُعزل السفير من منصبه فى نفس اليوم – د. محمد الجوادى المصدر السابق.

والمثير للدهشة أن الناس نسيت صلاح سالم .. ولا تزال تتذكر صالح سليم .. والمثير للدهشة أيضاً أن يغضب صلاح سالم من زلة لسان السفير ويركب رأسه ويصر على عزله.. مع أنه فعل بنفسه وبسمعته السياسية ما هو أسوأ من ذلك بكثير .. فقد تصور أن حل مشكلة مصر فى السودان أن يسافر إلى جنوب السودان ويخلع ملابسه ويرقص عارياً على الطبول الأفريقية الحادة.

وبمناسبة "خراب مالطا" – التى قلتها ونقولها عفواً فى كلامنا – يندهش الناس فى هذا البلد الصغير الحديث القريب منا من كثرة تكرارنا لهذه العبارة .. وقد وجدوها فرصة ليردوا لنا الصاع صاعين بعد المحاولة المصرية الفاشلة لإنقاذ الطائرة المصرية التى خطفت وأجبرت على النزول هناك .. فكانت هذه النكتة المؤلمة عنا :

الأول : شىء سيىء أن يخطفك فلسطينى.

الثانى : الأسوأ منه أن ينقذك مصرى.

****

وبعد نشر هذا الكتاب .. عرفت طبعات كثيرة منه طريقها إلى الدول العربية .. من دبى إلى الرباط .. من ممر هرمز إلى جبل طارق .. ورحبت صحف عربية كثيرة به ..

وبموضوعه .. وبمؤلفه .. ولكن .. الأهم .. أن النكتة المصرية السياسية التى يتعاطاها العرب ويستمتعون بها أصبحت محفوظة فى كتاب .. فى بيوتهم .. لذلك .. استعملوا نفس النكات المصرية - بعد تحويرها - فى السخرية من حكامهم .. ويبدو أن نجاح الكتاب أغرى بتزويره وبتقليده .. ونجاح النكتة المصرية أغرى بمزيد من تناولها وتداولها.. وأصبحت النكتة السياسية مشاعاً .. تُولد فى مصر .. وتسافر إلى باقى العالم العربى .. فالعرب توحدهم القسوة .. والسخرية.

١ - صعد أحد وزراء الإعلام إلى السماء .. وهناك سمع صوت .. تك .. تك .. تك .. فسأل الملاك عن ذلك فقال له :

- هذه آلة لتسجيل الكذب .. كل تكة كذبة.

بعد قليل سمع وزير الإعلام تكات متلاحقة : تك تك تك تك ... فسألهم :

- ما هذا.

قالوا :

- لابد انك تعرفها جيداً .. هذه ماكينة الطباعة التى تطبع صحيفة الحزب الحاكم.

٢ - على أثر إقالة حكومة عاطف صدقى وتشكيل حكومة كمال الجنزورى .. عمد أحد رؤساء التحرير الذى كان يتغزل فى مزايا عاطف صدقى إلى التغزل فى مزايا كمال الجنزورى .. فلما سألوه :

- كيف تغيرت بهذه السرعة.

قال :

- أنا لم أتغير .. رئيس الحكومة هو الذى تغير.

٣ - وبعد اغتيال الرئيس السادات فى أكتوبر ١٩٨١ انتشرت هذه النكتة فى العالم العربى... فى انتظار الحاكم كان الضابط المسئول عن مراسم الاستقبال يقول لجنوده :

- بمجرد نزول فخامة الحاكم من الطائرة سيطلق كل منكم ٢١ طلقة.

فسأله أحد الجنود :

- ولو أصبته من أول طلقة ؟

٤ - ذهب الحاكم العربى وزوجته إلى موسكو .. وأثناء عرض الباليه فى البولشوى .. غط الحاكم فى سبات عميق .. وقالت زوجته وهى تشاهد راقصات الباليه يرقصن برشاقة

الفراشات :

- انهن يتمتعن بذوق لا مثيل له .. فهن يسرن على أطراف أصابعهن حتى لا يستيقظ زوجى.

٥ - فُقد مسئول عربى أثناء زيارته إلى عاصمة أوربية .. فذهبت زوجته وابنته لتدليا بأوصافه .. فقالت الزوجة :

- إنه وسيم .. شهم .. شعره أصفر .. يحب الخير .. يهوى الحرية ...

لكن الابنة اعترضت قائلة :

- لكن يا ماما هذه ليست مواصفات بابا.

فنهرتها الأم :

- اسكتى .. لعلهم يبدلونه لنا.

ولن تتوقف السخرية السياسية مادام عالمنا الذى نحن فيه سيظل على ما هو عليه .. سيظل كما وصفه نزار قبانى فى "تقرير سرى جداً من بلاد قمعستان" ...

١ - لم يبق فيهم لا أبو بكر .. ولا عثمان .. جميعهم هياكل عظمية فى متحف الزمان .. تساقط الفرسان على سروجهم .. وأعلنت دولة الخصيان .. وأُعتقل المؤذنون فى بيوتهم وألغى الأذان .. جميعهم تضخمت أثداؤهم وأصبحوا نسوان .. جميعهم يأتيهم الحيض ومشغولون بالحمل والرضاعة .. جميعهم قد ذبحوا خيولهم وارتهنوا سيوفهم .. وقدموا نساءهم هدية لقائد الرومان .. ما كان يُدعى ببلاد العرب يوماً صار فى الجغرافيا.. يُدعى (يهودستان) .. الله .. يا زمان.

٢ - لم يبق فى دفاتر التاريخ لا سيف ولا حصان .. جميعهم قد تركوا نعالهم .. وهربوا أموالهم .. وخلفوا وراءهم أطفالهم .. وانسحبوا إلى مقاهى الموت والنسيان .. جميعهم تخنثوا .. تكحلوا .. تعطروا .. تمايلوا أغصان خيرزان .. حتى تظن خالداً .. سوزان .. ومريماً .. مروان .. الله .. يا زمان.

٣ - جميعهم موتى .. ولم يبق سوى لبنان .. يلبس فى كل صباح كفناً .. ويشعل الجنوب إصراراً وعنفوان .. جميعهم دخلوا جحورهم .. واستمتعوا بالمسك والنساء والريحان .. جميعهم مدجن، مروض، منافق، جبان .. ووحده لبنان .. يصنع المياه والشطآن .. فى حين ألف حاكم مؤمرك .. يأخذها بالصدر والأحضان .. هل ممكن أن يعقد الإنسان صلحاً مع الهوان ؟ .. الله .. يا زمان.

٤ - هل تعرفون من أنا ؟ .. مواطن يسكن فى دولة (قمعستان) .. وهذه الدولة ليست نكتة

مصرية .. أو صورة منقولة عن كتب البديع والبيان .. فأرض قمعستان جاء ذكرها فى معجم البلدان .. وأن من أهم صادراتها حقائباً جلدية .. مصنوعة من جسد الإنسان .. الله .. يا زمان.

٥ - هل تعرفون الآن ما دولة قمعستان ؟ .. تلك التى ألفها ولحنها .. وأخرجها الشيطان.. هل تعرفون هذه الدويلة العجيبة ؟ .. حيث دخول المرء للمرحاض يحتاج إلى قرار .. والشمس كى تطلع تحتاج إلى قرار .. والديك كى يصيح يحتاج إلى قرار .. ورغبة الزوجين فى الإنجاب .. تحتاج إلى قرار .. وشعر من أحبها .. يمنعه الشرطى أن يطير فى الريح .. بلا قرار.

٦ - ما أردأ الأحوال فى دولة قمعستان .. حيث الذكور نسخة من النساء .. حيث النساء نسخة من الذكور .. حيث التراب يكره البذور .. وحيث كل طائر يخاف من بقية الطيور.. وصاحب القرار يحتاج إلى قرار .. تلك هى الأحوال فى دولة قمعستان .. الله .. يا زمان.

٧ - هل تطلبون الآن نبذة صغيرة عن أرض قمعستان .. تلك التى تمتد من شمال أفريقيا.. إلى بلاد نفطستان .. تلك التى تمتد من شواطىء القهر إلى شواطىء القتل .. إلى شواطىء السمك .. إلى شواطىء الأحزان .. وسيفها يمتد من مدخل الشريان والشريان .. ملوكها يقرفصون فوق رقبة الشعوب بالوراثة .. ويفقأون أعين الأطفال بالوراثة .. ويكرهون الورق الأبيض والمداد والأقلام بالوراثة .. وأول البنود فى دستورها : يقضى بأن تلغى غريزة الكلام فى الإنسان .. الله .. يا زمان.

٨ - هل تعرفون من أنا ؟ .. مواطن يسكن فى دولة قمعستان .. مواطن .. يحلم فى يوم من الأيام أن يصبح فى مرتبة الحيوان .. مواطن يخاف أن يجلس فى المقهى .. لكى .. لا تطلع الدولة من غياهب الفنجان .. مواطن يخاف أن يقرب زوجته .. قبيل أن تراقب المباحث المكان .. مواطن أنا من شعب قمعستان .. أخاف أن أدخل أى مسجد .. كى لا يقال أنى رجل يمارس الإيمان .. كى لا يقول المخبر السرى : أنى كنت أتلو سورة الرحمن.. الله .. يا زمان.

٩ - يا أصدقائى .. إننى مواطن يسكن فى مدينة ليس بها سكان .. ليس لها شوارع .. ليس لها أرصفة .. ليس لها نوافذ .. ليس لها جدران .. ليس بها جرائد .. غير التى تطبعها مطابع السلطان .. عنوانها ؟ .. أخاف أن أبوح بالعنوان .. كل الذى أعرفه .. أن الذى يقوده الحظ إلى مدينتى .. يرحمه الرحمن.

١٠ - يا أصدقائى .. ما هو الشعر إذا لم يعلن العصيان .. وما هو الشعر إذا لم يسقط الطغاة .. والطغيان .. وما هو الشعر إذا لم يحدث الزلزال .. فى الزمان والمكان .. وماهو الشعر إذا لم يخلع التاج الذى يلبسه كسرى أنو شروان ؟

١١ - من أجل هذا أعلن العصيان .. باسم الملايين التى تجهل حتى الآن ما هو النهار .. وما هو الفارق بين الغصن والعصفور .. وما هو الفارق بين الورد والمنثور .. وما هو الفارق بين الهند والرمانة .. وما هو الفارق بين البحر والزنزانة .. وما هو الفارق بين القمر

الأخضر والقرنفلة .. وبين حد كلمة شجاعة .. وبين حد المقصلة.

١٢ - من أجل هذا أعلن العصيان .. باسم الملايين التى تساق نحو الذبح كالقطعان .. باسم الذين انتزعت أجفانهم .. واقتلعت أسنانهم .. وذوبوا فى حامض الكبريت كالديدان.. باسم الذين ما لهم صوت .. ولا رأى .. ولا لسان .. سأعلن العصيان.

١٣ - من أجل هذا أعلن العصيان .. باسم الجماهير التى تجلس كالأبقار .. تحت الشاشة الصغيرة .. باسم الملايين التى يسقونها الولاء بالملاعق الكبيرة .. باسم الجماهير التى تُركبُ كالبعير من شرق الشمس إلى مغربها .. تُركبُ كالبعير .. ومالها من حقوق غير حق الماء والشعير .. وما لها من الطموح غير أن تأخذ للحلاق زوجة الأمير.. أو ابنة الأمير .. أو كلبة الأمير .. باسم الجماهير التى تضرع لله لكى يديم القائد العظيم .. وحزمة البرسيم.

١٤ - يا أصدقاء الشعر .. إنى شجر النار .. وإنى كاهن الأشواق .. والناطق الرسمى عن خمسين مليوناً من العشاق .. على يدى ينام أهل الحب والحنين .. فمرة أجعلهم أشجار ياسمين .. ومرة أجعلهم حمائماً .. يا أصدقائى .. إنى الجرح الذى يرفض دوماً سلطة السكين.

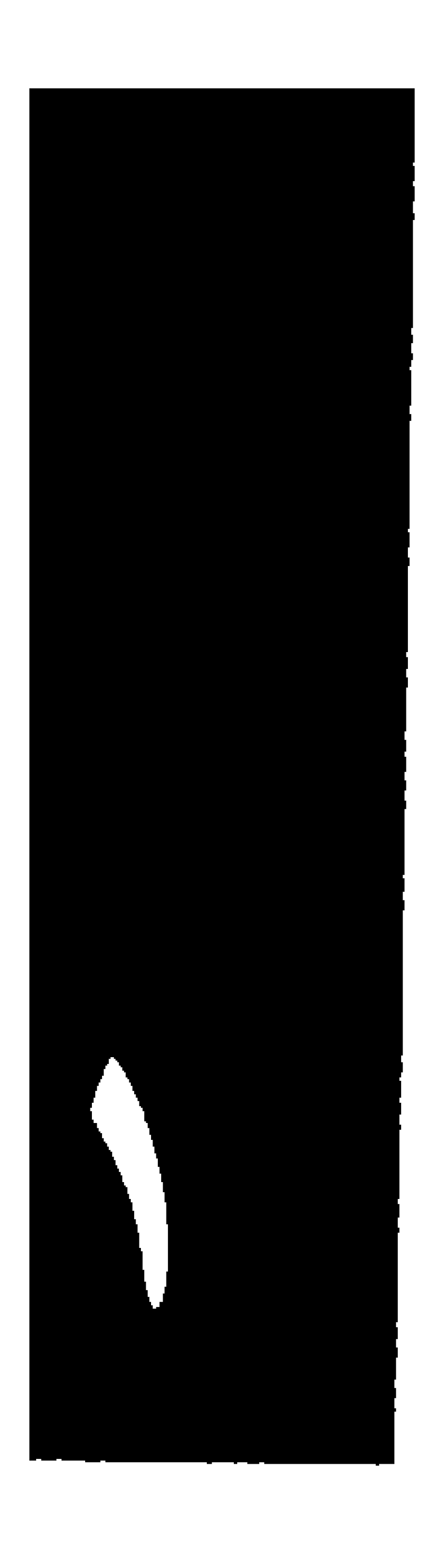
١٥ - يا أصدقائى الرائعين : أنا الشفاه للذين ما لهم شفاه .. أنا العيون للذين ما لهم عيون.. أنا كتاب البحر للذين ليس يقرأون .. أنا الكتابات التى يحفرها الدمع على عنابر السجون .. أنا كهذا العصر يا حبيبتى .. أواجه الجنون بالجنون .. وأكسر الأشياء فى طفولة .. وفى دمى رائحة الثورة والليمون .. أنا كما عرفتمونى دائماً .. هوايتى أن أكسر القانون .. أنا كما عرفتمونى دائماً .. أكون بالشعر .. وإلا لا أريد أن أكون.

١٦ - يا أصدقائى : أنتم الشعر الحقيقى .. ولا يهم أن يضحك .. أو يعبس .. أو أن يغضب السلطان .. أنتم سلاطينى .. ومنكم أستمد المجد والقوة والسلطان .. قصائدى ممنوعة فى المدن التى تنام فوق الملح والحجارة .. قصائدى ممنوعة .. لأنها تحمل للإنسان عطر الحب والحضارة .. قصائدى مرفوضة .. لأنها لكل بيت تحمل البشارة .. يا أصدقائى : إننى مازلت بانتظاركم لنوقد الشرارة.

وإلى هذا الرجل الذى طال انتظاره لنوقد الشرارة .. فرحل عنا وهى لا تزال خامدة .. مطفأة .. إلى نزار قبانى .. صديق سنوات قليلة .. وأحلام كبيرة أهدى هذه الطبعة الجديدة من هذا الكتاب .. الذى أتمنى أن تستمتع بقراءته بقدر ما تعذبت وتعبت أنا فى كتابته.

عادل حمودة

مصر الجديدة - يناير ١٩٩٩



من "فريق أول" إلى "فكيك أول" !

"الشعب المصرى يمسك أى حاجة وينكت عليها .. هو شعب يحب النكتة .. ودى ميزة .. بيفلسف بيها الأمور .. لكن أعداءنا ممكن يستغلوها فينا، فلازم نكون ناصحين".

"جمال عبد الناصر"

قال عبد الحكيم عامر لشمس بدران :

- مدير مكتبى ده شخص غبى !

- ازاى ؟

- استنى ...

واستدعى عبد الحكيم مدير مكتبه وقال له :

- روح بيتى شفنى هناك أو لا ؟

فخرج الضابط .. وغادر المبنى .. وبعد فترة عاد ليقول للمشير :

- للأسف يا فندم سيادتك مش فى البيت.

ثم أدى التحية وانصرف، فالتفت المشير إلى شمس بدران قائلاً :

- مش قلت لك إنه غبى .. كان ممكن يوفر المشوار ويسأل عنى فى البيت بالتليفون !

نكتة قيلت على الجنرال الصغير عبد الحكيم عامر .. قبل أن يأتى خريفه مبكراً فى يونيو ١٩٦٧ .. فكأن الشعب يعلم بمستوى قدرات قائد الجيوش .. وكأنه - ولو بصيغة ساخرة - يوجه إنذاراً مبكراً لجمال عبد الناصر، قبل أن تقع "الفاس فى الراس" .. فهل وصلت الرسالة ؟

فى مارس ١٩٦٦ فجر جمال عبد الناصر سراً، هو ما يعرف بقضية انحراف مكتب المشير .. وملخص القضية أن بعض الضباط فى مكتب المشير يهربون السلع الكهربائية المنزلية من عدن عن طريق اليمن، أثناء الحرب هناك، ويتاجرون فيها فى السوق السوداء.. كذلك، فإنهم باعوا أذونات السيارات التى تنتجها شركة النصر إلى التجار، وكتبوها بأسماء الشهداء.

وأثار جمال عبد الناصر الموضوع مع المشير عامر، وطلب منه التدخل لتصفية الانحرافات ومعاقبة المسئولين عنها فوراً، ثم قال : "إننى أريد أن تأمر بنفسك بالتحقيق فى هذه الموضوعات، ولا أريد أن تتصرف بمنطق " الصعيدى" الذى يتصور أنه مكلف بحماية رجاله فهذا منطق مشايخ غفر لا يليق بك"(١).

وفى مارس التالى .. أى فى مارس ١٩٦٧ استدعى جمال عبد الناصر، المشير عامر لما هو أخطر .. كان قد وصله تقرير من "المباحث العامة" يتحدث عن إشاعة زواج المشير بالفنانة برلنتى عبد الحميد زواجاً عرفياً .. وأن الإشاعة أصبحت حقيقة بعد أن تأكد أن برلنتى عبد الحميد تنتظر مولوداً منه ... وعندما ألقى جمال عبد الناصر بهذه الحقيقة فى

(١) هيكل - ١٩٦٧، الانفجار - الأهرام ١٩٩٠/٥/٢١ - ص ٨.

وجهه .. أحس المشير بأنه اصطدم بكرة لهب .. وأنها لسعته .. فرد غاضباً، متألماً .. أنه زهق .. ويريد أن يبتعد ويستريح .. ويعود فلاحاً يزرع الأرض فى قريته اسطال.

باختصار .. وجد جمال عبد الناصر المشير مثل ثمرة ناضجة وقعت فى حجره .. وأن التخلص – المستحيل – منه أصبح ممكناً .. فكان أن طلب منه السفر للعلاج فى الخارج تمهيداً لإزاحته .. لكن ما قيل فى تلك الفترة – عن الصراع بين الاتحاد الاشتراكى، والقوات المسلحة جعل اختفاء المشير عامر، أشبه بترجيح كفة عن أخرى .. فتأجل القرار.. وبقى المشير فى موقعه حتى كان ما كان بعد شهور .. فى يونيو ١٩٦٧.

وكان المشير قد عرف برلنتى فى أوائل ١٩٦٤، ولعب دور الموفق صلاح نصر .. وبعد أقل من عام تزوجا زواجاً عرفياً .. أى بورقة شهد عليها شقيقا المشير : حسن ومصطفى عامر .. حتى عندما أثمر الزواج ابناً .. لم يُكتب الابن – إمعاناً فى التغطية – باسم المشير، وإنما باسم أحد الأشقاء.

وبكشف المستور، أحس جمال عبد الناصر أن أقرب الرجال إليه : عبد الحكيم عامر، وصلاح نصر، وشمس بدران أصيبوا بالعفن .. وامتد عفنهم بجنون إلى أخطر مؤسسات وأجهزة النظام : القوات المسلحة، والمخابرات العامة؛ فكان لابد من الإسراع بالتطهير .. فكلف مجموعة خاصة من رجال المخابرات الذين يعرفهم معرفة شخصية بإثبات فضائح جهازهم بالصوت والصورة .. بل وطلب أن يشهد عينة من الفساد الخلقى بعينيه .. وحدث ما أراد.

كانت جماعة من رجال صلاح نصر قد دبرت حفلة ماجنة لأحد مسئولى المكاتب التنفيذية، الذى استُخدم كطعم، للحديث – وسط النساء وبتأثير الخمر – عن علاقة عامر وبرلنتى، على أن يصور ذلك فى فيللا خاصة بضاحية مصر الجديدة، ثم يقدم الشريط إلى جمال عبد الناصر كدليل على أن "صلاح نصر صاحى" .. وبينما كان رجال صلاح نصر يصورون الرجل، كان الرجال المكلفون من جمال عبد الناصر يصورونهم .. فكانت نهاية "دولة المخابرات" على يد المخابرات .. فى أغرب عملية من نوعها.

وقُبض على صلاح نصر وحُددت إقامته .. فلم يحتمل قلبه .. فسقط على إثر أزمة فى الشريان التاجى، ونُقل إلى مستشفى الطيران بالعباسية، وظل هناك تحت الحراسة، وكان – كما قال لى فيما بعد فى بيته بأرض الجولف – يصرخ من شباك حجرته بالمستشفى، لينبه الناس إلى أنه صلاح نصر مدير المخابرات .. وإلى أنه معتقل، وأنهم قد يقتلونه .. أى أنه شرب من نفس الكأس .. كأس الخوف والفزع وترقب الغدر والموت.

وفى محكمة الثورة، بعد ذلك انكشفت كل الأغطية، لتظهر الحقائق عارية .. العاهرات اللاتى كن يسيطرن على مدير المخابرات .. ومدير المخابرات الذى يتحدث عن الجنس كوسيلة للسمو والتطهر، على طريقة معابد "كاجوراو" الهندية .. التى تمتلىء بالتماثيل

الفاضحة، والتى زارها فى سنة ١٩٦٦.. وعرف أن الإفراط فى الجنس كان يسبق مرحلة الزهد والتطهر والتعبد التام [٢]. فنقل هذه الخبرة التى لم يعد لها وجود فى معابد الهنود إلى معابد المخابرات.

وقد جرت هذه المحاكمة بعد الهزيمة .. وبدت وكأنها إحدى نتائجها .. لكن .. القضية نفسها بما فى ذلك التخلص من صلاح نصر، كانت قبل الهزيمة على عكس ما كان شائعاً.. وهو ما يثبت - بصورة أخرى أن ما كان قبل الهزيمة، كان لابد أن يؤدى إليها .. لا مفر.

بل إن العد التنازلى للهزيمة كان يحمل مفاجآت مريرة، لا تخلو من السخرية، سخرية البشر لا القدر .. فالقائد العام قبل أسبوع من الحرب كان فى فيللا بالهرم مع برلنتى عبد الحميد .. ولم يكن أحد يعرف مكانه .. وكان لا يظهر إلا بمزاجه ولا يذهب للقيادة إلا إذا أراد .. وبعد ساعات من سفره لتفقد المواقع فى سيناء، انفجر الموقف، وضُربت الطائرات فى عنابرها .. واستيقظ جمال عبد الناصر على صوت الانفجار .. وعندما عاد المشير إلى القاهرة، لم يجد أمامه سوى أن يستقل سيارة أجرة إلى مقر القيادة.

أما ما جرى فى سيناء فكان مثل النكت التى أطلقت بعد الهزيمة .. كان أمراً مضحكاً حتى البكاء، ومريراً حتى الضحك .. فعدد كبير من جنود الاحتياط، شُحن إلى سيناء بالجلباب.. وعندما صدر أمر الانسحاب عاد بعضهم وهو يرتدى البنطلون الكاكى، وفوقه الجلباب وفوق الجلباب "سترة" عسكرية .. مع "صندل" أو حذاء "ميرى" حسب التساهيل .. وقد قال أحدهم:

- لقد جئت بالجلباب من باب الاحتياط، حتى إذا صدر قرار الانسحاب - كما حدث عام ١٩٥٦ - خلعت ملابس العسكرية وارتديت ملابس المدنية، ليتركنى الإسرائيليون أرحل إلى قريتى :

□ والسلاح هل تركته ؟

- لم أتسلم سلاحاً.

□ أين كنت ؟

- لا أدرى!

□ ماذا كان يجب أن تفعل ؟

- لا أدرى.

---

(٢) هيكل - المصدر السابق - ص ٩.

□ وما هى التعليمات التى أصدرها لك قائدك ؟

- لا شىء.

□ ألم تطالبوا بالسلاح ؟

- القائد نفسه لم يكن معه سلاح .. القائد نفسه كان كل ما يشغله تدبير الغذاء والماء لنا، وكان يضحك معنا، ويقول إنه لو دخل بنا المعركة ضد أرانب الصحراء لانتصرت علينا.(٣)

****

كان لابد من الهزيمة ... كل الطرق تؤدى إليها ... مفتوحة أمامها.

لكن هذه الحقيقة كانت غائبة عنا .. ونحن - على رأى عبد الحليم حافظ - "قاعدين على راس بستان الاشتراكية. بنغنى على الميه" !

لم نكن نعرف حجم الفساد والضعف الغائص فى بحور السرية والكتمان .. ولم يكن من حقنا أن نعرف .. فالمعرفة كانت مثل سور مكهرب يصعق من يلمسه .. فكانت الصدمة على قدر الجهل بالحقيقة .. وكان الإحباط على قدر الحلم .. والخديعة على قدر الثقة.. والهزيمة على قدر الضعف.

لقد دخلنا الحرب كما قال نزار قبانى - "بكل ما يملكه الشرقى من مواهب الخطابة .. بالعنتريات التى ما قتلت ذبابة .. بمنطق الطبلة والربابة .. لذلك .. خسرناها .. فلا غرابة". (٤)

فسر الشاعر الهزيمة .. فوضع يده على الفجيعة .. ثم استدار إلى "السلطان" ليصب مزيداً من البنزين على النار .. فقال لجمال عبد الناصر : يا سيدى السلطان .. كلابك المفترسات مزقت ردائى .. ومخبروك دائماً ورائى .. عيونهم ورائى .. أنوفهم ورائى .. أقدامهم ورائى .. يستبيحون زوجتى .. ويكتبون عندهم أسماء أصدقائى ...... لقد خسرت الحرب مرتين .. لأن نصف شعبنا ليس له لسان .. لأنك انفصلت عن قضية الإنسان.

إن الهزيمة كانت نهاية جريمة تحويل الثورة إلى أسطورة .. فالأسطورة خيال .. والخيال حلم لا علم .. واللا علم جهل .. والجهل أننا حولنا التجربة إلى قصر مسحور، ملوّن وبرّاق ... لكنه من الكرتون .. فكان من السهل تحطيمه بحذاء أول جندى إسرائيلى، يتقدم صوب سيناء .. وكان من السهل أن تصبح "أقوى قوة ضاربة" فى الشرق الأوسط "أسرع قوة مضروبة" فى الواقع .. وكان أيضاً أن سقطت العيون الزجاجية، والرموش

(٣) وجيه أبو ذكرى - مذبحة الأبرياء فى ٥ يونيو - المكتب المصرى الحديث - ١٩٨٨ - القاهرة - ص ١٤٩.
(٤) قصيدة "هوامش على دفتر النكسة".

الصناعية، والشعور المستعارة ... وظهرت الوجوه على حقيقتها .. شاحبة، زائغة .. فماذا يفعل "الماكياج الثورى" فى الوجه "المهزوم" ؟ .. وماذا تفعل عناوين الصحف وبطاريات التليفزيون فى قيادة فقدت حدودها، ففقدت شرعيتها؟!

****

بعد منتصف ليلة الخميس ٨ يونيو .. فى مقر القيادة العامة للقوات المسلحة .. برر وزير الحربية ما حدث بعبارة غريبة جداً .. "أما اتخمينا حتّة خمّة" .. وكلمة "اتخمينا" كلمة عامية، تعنى أن الخدعة أكبر من أى توقع .. وتعنى أن الذى خُدع كان مغفلاً لا يعرف أنه كذلك.

وأمام سكون كل القيادات السياسية التى أخرسها ما جرى أضاف شمس بدران : "مالكم كده حزانى .. إنتم قاعدين فى مأتم .. أأطلب لكم قهوة سادة"(٥).

أى أنه لا شعر بالجريمة التى شارك فيها .. ولا تعلم من الدرس الذى تلقاه .. وبقى على حاله رغم أن الناس كلها من حوله تغيرت.

وفيما بعد .. قال لى الفريق محمد فوزى .. إنه سمع كلمة "اتخمينا" من الجنود البسطاء.. لكنهم على عكس قادتهم – لم يستسلموا لها وسعوا للتخلص منها.

فى تلك الليلة ذهب جمال عبد الناصر إلى مقر القيادة لأول مرة بعد الحرب.. لقد تلقى نبأ تدمير سلاح الطيران بعد ظهر يوم ٥ يونيو فى بيته .. فصعد إلى غرفته .. وبقى فى غرفته ثلاثة أيام لم ير فيها أحداً .. ولا أحد رآه .. وكان كل ما يربطه بالعالم الخارجى التليفون والراديو .. وكان موقفه على هذا النحو لغزاً محيراً لمن حوله .. وعبثاً حاولوا تفسيره .. إذ كيف لا يبرح غرفته والحرب دائرة .. واليهود يسحقون جنوده ؟

يقول محمود الجيار .. إنه تصور أن عبد الناصر انهار !

لكنه فوجىء به مساء ٨ يونيو يأمر بإعداد سيارته للذهاب إلى القيادة .. ونزل من غرفته "وقد تحول إلى شخص آخر مختلف تماماً .. شديد المرح، مفعم بالسعادة، متشوق إلى المزاح" (٦).

كان الجيار يلبس وقتها "بوشرتا" عسكرياً، وهو زى يشبه الأوفرول .. "فإذا به يمد يده إلى فتحة الزى ويسحب من تحته فانلة الجيار إلى أعلى ويضحك... !" .. ثم كرر نفس المداعبة فى الطريق إلى القيادة .. وفى المصعد ! .. "وكان هذا بالطبع لغزاً جديداً، فظروف القتال والبيانات الصادرة عنه، لم تكن تسمح بمثل هذا الابتهاج".

---

(٥) ثروت عكاشة : "مذكرات فى السياسة والثقافة" – مكتبة مدبولى – جـ ٢ – ص ٤٨٨، ٤٨٩.
(٦) بيبرس – الآثار الشخصية لعبد الناصر – ص ١٦٣، ١٦٧

فى القيادة كان بعض أعضاء مجلس الثورة فى انتظاره .. ولاحظ عبد اللطيف البغدادى أنه عندما دخل عليهم كان "يبتسم" .. وكان الجيار خلفه "فاغراً" فاه بالابتسامة" .. ويقول البغدادى فى مذكراته : أنه دُهش .. "وتساءلت بينى وبين نفسى هل يمكن لإنسان فى مثل مسئوليته أن يبتسم فى مثل هذه الظروف" .. ويضيف : "ولم أصدق ما أراه بعينى".

ما الذى جعل جمال عبد الناصر – رغم الهزيمة واليأس – يضحك ؟

هل كان – مثل أى إنسان آخر – يواجه الخطر بالمزاح .. أم أنه لم يجد وسيلة أخرى للتوازن النفسى ؟

ولو كانت الإجابة بنعم فإنه يكون قد سبق الشعب فى مواجهة الهزيمة بالضحك .. مع أنه طلب منا أن نكف عن ذلك فيما بعد .. فقد ناشدنا ألاّ ننكت ! .

****

كان لابد أن ننكت بعد ما حدث .. فشر الهزيمة ما يُضحك !

لقد سقطنا من سابع سما إلى سابع أرض .. وبعد جنة "عبد الناصر" وجدنا أنفسنا فى جحيم "موشى ديان" .. واعترفنا جميعاً بأن الذنب ذنبنا، والجريمة فى سكوتنا، والفضيحة فى ضعفنا .. ولأن العقاب كان ضرورة، راح كل منا يختار "الكرباج" الذى يريحه ليجلد به نفسه .. لعل الألم يوقظه، والصراخ يطهره والدم المتفجر يجبره على الرفض.

سب نزار قبانى جيله ... جيل القىء والزهرى .. والدجل والرقص على الحبال .. جيل الكبت، والقهر، والتخلف، والعقل ذى البعد الواحد .. ثم راح يغازل الجيل الجديد .. "الجيل الذى سيهزم الهزيمة"

وكانت كلمات نزار قبانى سوطاً أعجب بعض المثقفين .. فاختاروه .. واستعملوه واستعذبوه، وفضل بعضهم سوطاً أشد برمته قصائد أحمد فؤاد نجم .. فجلدتهم الكلمات وهم يتمايلون ... "الحمد لله خبطنا تحت بطاطنا .. يا محلا رجعة ظباطنا من خط النار" .. ثم جلدتهم أكثر حتى أغمى عليهم من النشوة ... "الثورى النورى الكلمنجى.. شفاط الدين النهبنجى .. قاعد فى الصف الأكلنجى .. شوكولاته وكرامله .. يتمركس بعض الأيام .. يتمسلم بعض الأيام .. ويصاحب كل الحكام .. بيتكتك ولا تقول بركان .. ولا بوتجاز ولا حله" .. ثم يخرج أحمد فؤاد نجم سوطاً بمرآة، حتى يرى المثقفون أنفسهم وهم يجلدونها .. فتتضاعف اللذة ... "ما رأيكم دام عزكم .. يا أنتيكات يا غرقانين فى المأكولات .. والملبوسات .. يا دفيانين .. ومولعين الدفايات .. يا محفلطين يا ملمعين .. يا جيمسنات .. يا بتوع نضال آخر زمن فى العوامات".

لكن

أحمد فؤاد نجم لم يكتف بصناعة الأسواط الممتعة التى تريح المثقفين .. إنما كان صوتاً لمن لا صوت له .. فتحدث عن مواجع الناس : الخوف .. الاعتقال .. كلاب التعذيب .. دق الكعب فوق رأس الشعب .. الحرامية .. الشمحطجية .. التهويل .. التلفيق .. الظالم .. والمظلوم ... واعتبر هذه المفردات، خطوات على طريق طويل، كانت فى نهايته الهزيمة...

والجناية إن البلد

من السكات

بعضها راح لليهود والبعض مات

واللى جابوا النكسه

لسه ع الكراسى

فوق ظهر المخلوقات.

أما الكرباج الذى فضله المستهترون فكان البذاءة .. شعراً، ونثراً، ونكتة، ومع أنفاس الحشيش وكركرة "الجوزة"، وصوت أم كلثوم فى الخلفية، يسبح على الدخان الأزرق، اختلطت المتعة بالعذاب .. وبدأ الهروب من عار إلى عار .. من عار الهزيمة إلى عار الغيبوبة .. والسيلان .. وتداخل الزمان والمكان .. فلا أحد - من هؤلاء - عرف الفرق بين جولدا مائير ونجوى فؤاد .. ولا أحد منهم اهتم .. ولا أحد عرف الفرق بين مبنى اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى وكباريهات شارع "الهرم" .. ولا أحد منهم حاول.

وارتفع عدد ضحايا الأمراض النفسية والعصبية والعقلية من (٥٠) ألفا سنة ١٩٦٦ إلى (٦٦) ألفا سنة ١٩٦٧ إلى (٧٩) ألفا سنة ١٩٦٨ إلى (١٤٠) ألفاً سنة ١٩٧٠، وزاد إلى حد الهوس معدل استهلاك المهدئات والمنبهات والمنشطات الجنسية، وزادت جرائم العنف، وحالات الانتحار، وتضاعف عدد المنتمين للطرق الصوفية. [٧]

إنها أطواق النجاة : الجنس .. الحشيش .. العنف .. التصوف .. القرص المهدىء .. و .. جاءت النكتة السياسية لتلعب دورها .. جاءت بلسان أطول وجرأة أكبر .. وقسوة أشد ... فرد الفعل على قدر الفعل.

انفجرت النكت كالشظايا .. وراحت ترشق الذين تسببوا فى النكسة .. المؤسسة العسكرية، التى أذاقت الشعب الأمرين، لسنوات طويلة قبل الهزيمة .. فكانت النكت ضدها "شماتة" .. والتعبير للفريق محمد فوزى .. فالجنرالات انقلبوا إلى أراجوزات .. وغطرسة صلاح نصر تزحلقت على قشرة موز .. والمشير عامر أصبح مارشالاً على

(٧) لم أشا أن أكرر ما سبق أن قلته تفصيلاً عن تأثير الهزيمة علينا فى كتاب "الهجرة إلى العنف" - انظر الفصل الرابع - ص ٨٥.

طريقة مارشالات سيدنا الحسين .. والأوسمة والنياشين أصبحت فى عيوننا مثل أغطية زجاجات المياه الغازية !

ومع أن النكت تناولت الجنود - أبناء الشعب - الذين قُتلوا أو أُسروا، أو عادوا بلا أحذية - سيراً على الأقدام - فإن السخرية لم تكن منهم .. وإنما من قيادتهم .. التى اهتمت بالأسلحة الثقيلة : كرة القدم .. الفنانات .. وكانت الحرب الكيماوية بالنسبة لها .. دخان الحشيش .. أما الصواريخ فكانت صدور العاهرات البارزة والمدببة.

لقد قالت النكت .. إنها قيادة اهتمت بكل شىء إلا الحرب .. فكان لابد أن تقع الهزيمة.. وكان أقل عقاب هو أن ينكت الشعب عليها.

ولو كان الشعب نكت على جنوده .. أى على نفسه، فإن ذلك كان بالنسبة له نوعاً من الانتقاد .. فلماذا يموت مرتين .. مرة فى سيناء، سحقاً .. ومرة أخرى فى حياته اليومية، كمداً ؟

ثم .. لماذا لا يضحك ممن ضحكوا عليه .. واعترفوا بذلك ؟ فقد قال جمال عبد الناصر للمشير عامر بالحرف : "إحنا الاتنين ضحكنا على الشعب" .. وكانت العبارة بداية خناقة بدأت بمناقشة.

لماذا لا يفرِّج عن نفسه بالضحك والحزن معاً .. بالنكت والدموع معاً .. ما المانع ؟

إننا مع الذين قالوا ... إن الشعب المصرى بكى بعين، وضحك بالعين الأخرى .. بكى وضحك فى وقت واحد .. نحن معهم، فما حدث كان أكبر من قدرة هذا الشعب - الذى اخترع الصبر - على التوازن النفسى، والعصبى، فراح يتأرجح ويترنح بين المأساة والملهاة.

ولو .. لم يسخر الشعب المصرى من جيشه، ونفسه، وقائده، لخرج من ثيابه، ومن عقله واندفع عارياً، هائماً ... بعضهم حدث له ذلك فعلاً.

****

وقد لفت ما حدث انتباه جميعهم .. الروائى .. الصحفى .. المفكر .. وطبيب النفس البشرية. ففى رواية "قشتمر" يقول نجيب محفوظ على لسان الراوى .. أو على لسانه : "غلب علينا الاستسلام للواقع، وتخلصنا من كثير من رواسب الماضى، واجتاحنا ما يشبه النعاس الهنىء والحلم العذب حتى انتفضنا قائمين على صوت انفجار كالبركان فى يوم من الأيام، عجيب، اسمه ٥ يونيو ... دهشة وتساؤل وتعجب، حيرة وعدم تصديق، ثم دهشة وتساؤل وتعجب وتجرع لواقع لا مفر منه .. كيف، لا ندرى ؟ لماذا .. لا ندرى ؟ ثم سيل ينهمر من الحواديت، وفيضان من النكت، واضطراب بلا حدود لعواطف متناقضة، من أقصى الحزن إلى أقصى الفرح .. ولكن جرثومة الكآبة استقرت فى كل نفس".

"وفى رسمها الشاعرى لشخصية مصر، تقول د. نعمات أحمد فؤاد :

"إن الذى أمسك شخصيتنا بعد سنة ١٩٦٧ أننا لم نعتبرها هزيمة أمة .. ولو فعلنا لانسحقنا .. اعتبرناها هزيمة قيادة .. والقيادة يمكن محاسبتها .. ولو لم يكن العقاب بالسجن، أو بالإعدام رمياً بالرصاص .. فبالسخرية، أو بالإعدام رمياً بالنكات" .. "لقد جرحت الهزيمة حتى البسمات وسنابل القمح، ورقة الياسمين .. جرحت السنين فى شيخوخة الآباء، وجرحت نضارة الطفولة فى الأبناء .. جرحت السرور فى القلب والكبرياء .. جرحت الثقة والقدوة .. جرحت الليالى ... ليالى القاهرة فلم تعد عذبة ولم تعد ساحرة ... وبكى الفجر فى الحقول حتى بلل الصبر، وتشابهت الأيام فلم يدر بها العمر ... ومع هذا لم تعرف مصر ولم يعرف تاريخها حائط المبكى"(٨).

أى أننا بعد الهزيمة لم نقم نصباً تذكارياً للدموع .. واعتبرنا الحزن جزءاً من الغزو - الاحتلال - فقاومناه بالنكت الثقيلة .. أو النكت القادرة على التسلل خلف الخطوط.

ويرى د. يحيى الرخاوى : أن قسوة النكتة السياسية وصلت إلى حد الانتحار فى تلك الأيام السوداء.

أما موسى صبرى فيقول :

" إن صدمة الهزيمة ألهبت مشاعر الجماهير فهبت تطلب الصمود والثبات .. ولكن أخبار الهزيمة، وقصص المذبحة، والجحيم، وصلت إلى كل بيت، وجرت فى كل شارع .. وكانت الجماهير تتصور أن رجال القوات المسلحة لم يؤدوا واجبهم وأنهم تسابقوا فى الجرى والفرار.

وعبر الشعب الفيلسوف كعادته عن مأساته الباكية، بالنكتة الساخرة .. كان فعلاً هو الضاحك الباكى .. بل كان هو الباكى بضحك هو البكاء.

واشتدت الحرب النفسية التى شنتها إسرائيل بعد الهزيمة، وطوقتنا الألسنة الشامتة فى كل بلد عربى .. وكان كل مصرى يقابل بالتساؤل المخزى .. شو .. ها الزعبرة، شو .. ها التهريج .. وين يا مصرى الصاروخ الظافر والقاهر".(٩)

****

بعد ليلة عامرة من ليالى المشير عامر، ركب سيارته، ومعه شمس بدران .. وفجأة صاح فيه :

- خد بالك يا شمس حتدخل فى عمود النور.

---

(٨) شخصية مصر - ص ٢٢٦.
(٩) وثائق ١٥ مايو - المكتب المصرى الحديث - القاهرة - ١٩٧٧ - ص ٨٣.

فقال شمس بدران :

- لكن إنت اللى سايق يا فندم.

وقيل إن المشير عامر، فى حفل تخريج دفعة جديدة من الضباط سأل أحدهم :

- تحب تخدم فين ؟

- فى مكتبك يا فندم.

- إنت مجنون ؟

- هل ده شرط ؟

وقيل : إن النسور التى على أكتاف كبار الضباط، طارت .. فأصبح العميد نقيباً .. والعقيد ملازماً أول .. والمقدم ملازم ثانٍ .. والمعنى أن هذه هى الرتب التى تناسبهم .. أو التى يستحقونها.

وسخر المصريون من الجنرالات الذين يضعون شرائط حمراء على الكاب ... ووصفوهم بسلاح الإسعاف .. فرجال الإسعاف يستعملون الشرائط نفسها، فلا فرق إذا كانت المسألة مسألة شكل، ولون وشرائط، وكاب أحمر.

وكان يكفى أن يجرى جندى أو ضابط فى الشارع ليلحق بأتوبيس حتى يضحك الناس من حوله .. ولا مانع من أن يقول أحدهم له : "أحسن .. يا وحش" .. فالمشهد يجسم ما لم يروه فى سيناء .. والضحك هنا رأى .. والرأى .. أن العسكريين لايصلحون إلا للجرى.

وقيل : إن شخصاً قال بعد تناول الطعام عند آخر :

- ربنا يجعله .. "عامر"

فرد عليه الآخر :

- لا والنبى اعمل معروف، إحنا مش ناقصين نكسة .. تانى !

وقيل .. إن تجار الحشيش أطلقوا على صنف جديد منه اسم "المشير" .. وقيل إن اسم "عامر" من "التعميرة" .. وقيل ما هو أصعب وأشد ويستحيل نشره.

ولأن النكت كانت مثل الحمى، فقد تطورت، وتهورت ودخلت مرحلة الهذيان.

بدأت بالسخرية من الجيش المهزوم، ومن هروبه وانسحابه، وعودته سيراً على الأقدام... "قولوا لعين الشمس ما تحماشى أحسن الجيش المصرى راجع ماشى" .. ثم راحت تنتقم من المؤسسة العسكرية كلها، ومن تصرفاتها قبل وبعد الهزيمة ... "لبسته البدلة الكاكى،

قلعته البدلة الكاكى، قعدته على وراكى، ولسه بيعيط" .. ثم .. تحولت إلى السخرية من المصريين كلهم، وصورتهم جثة هامدة، لا أمل فيها، ولا رجاء .. وسبحان من يُحيى العظام وهى رميم .. ثم .. وصلت النكت إلى مرحلة اليأس من الحرب، ومن الانتصار على إسرائيل .. وهنا .. تحولت النكتة إلى سلاح مضاد فى يد العدو استعمله لتحطيم الروح المعنوية.

ولُوحظ ... أن نسبة كبيرة من النكت بذيئة .. أو محشوة بعبارات بذيئة .. ويبدو أن ذلك كان من طبائع الأمور .. فالمحرمات أصبح من السهل خرقها .. والسب أصبح لغة شعبية.. والجنس اختلط بالسياسة. وحط من شأنها وشأن من يمارسها .. ثم إن الهزيمة هى - أولاً وأخيراً - احتلال أرض، وعرض.

ولُوحظ أن النكت كثيراً ما ذكرت الحكام بالاسم .. جمال عبد الناصر .. عبد الحكيم عامر .. شمس بدران .. شعراوى جمعة .. على شفيق، مدير مكتب المشير .. مثلاً.

وأحياناً كانت النكت تصورهم فى أوضاع غير لائقة، وتجعلهم ينطقون بألفاظ يعاقب عليها القانون ... فقد أراد الناس أن يؤكدوا لأنفسهم أن هؤلاء الأقوياء، ليسوا آلهة ولا أنصاف آلهة .. وأنهم مثلهم يتعرون، وينهزمون، وينهارون، ويتوجعون، ويصابون بالخوف والإسهال والإمساك .. وينطقون ألفاظاً خارجة جارحة أيضاً.

فنحن نضحك على من هم صورة منا .. أو نضحك على من نريد أن نثبت لأنفسنا أنهم صورة منا .. أو أنهم لم يعودوا مختلفين، أو مميزين أو أقوياء عنا.

كذلك فإن النكت ذكرت أسماء بعض الفنانين مثل فؤاد المهندس .. شويكار .. وردة .. برلنتى عبد الحميد .. وغيرهم !

****

أين المفر ؟

نكت فى الداخل وشماتة فى الخارج .. أحمد فؤاد نجم من الأمام، ونزار قبانى من الخلف.. هزيمة خاطفة نزعت ورقة التوت، وقيادة "مسطولة" عاجزة عن الخروج من الغيبوبة ... لا مفر من الاستقالة !!

فى مقر القيادة قال جمال عبد الناصر لعبد الحكيم عامر : إحنا الاتنين لازم نمشى" ! .. وبعد ساعات أذاع جمال عبد الناصر بيان التنحى من مقر رئاسة الجمهورية بالقبة .. ثم عاد إلى بيته وتناول حبة "فاليوم" مهدئة، واستغرق فى النوم .. وعندما استيقظ كانت المظاهرات تحوط بيته، وتطالب بالعدول عن قراره.

إن الشعب الذى كان ينكت قبل قليل، وجد أن الموقف لا يحتمل، فاستعاد جديته، وعناده

وخرج إلى الشارع يطالبه بالبقاء .. وبألا يتخلى عن موقعه فى هذه الظروف الحرجة ... وكان له ما أراد .. وبقى جمال عبد الناصر فى مكانه .. وعندما اطمأن الشعب إلى ذلك عاد إلى السخرية .. بل إنه أضاف إليها سخرية طازجة من التنحى ... فقال ...أ ...أ ... لا تتنحى" .. والعبارة شهيرة، وسوقية، ولكنها تعنى أن التنحى، لا يجوز، والمركب تغرق.

وقد أوجعت السخرية جمال عبد الناصر نفسه، فكان أن طالب الشعب أن يكف عن النكت.. وفعل ذلك علناً، فى أول خطاب له فى مجلس الأمة بعد الهزيمة والتنحى .. وقال بالحرف :

"إحنا من غير ما نعرف بنسمع الإذاعات ونرددها ونقول ما فيش فايدة .. الشعب المصرى يسمع أى حاجة وينكت عليها ... تعرفوا موجة النكت اللى طلعت فى الأيام اللى فاتت .. أنا عارف شعبنا .. شعبنا طبيعته كده .. وأنا لم آخذ الموضوع بطريقة جدية (!!) وعارف الشعب المصرى كويس، ما هو أنا منه واتربيت فيه .. كل واحد أما يقابل واحد يقول له سمعت آخر نكتة .. ويحكى ! .. وممكن يستخدمونا بأن تقال بعض النكت اللى تأثر على كرامتنا .. كرامتنا كشعب له طلائع قاتلت وماتت".

"برضه باقول إن موجة النكت اللى طلعت إحنا انجرينا فيها، ومافهمناش بسبب إيه النكت اللى طلعت ؟ .. النكت اللى طلعت جرحت كرامة ناس هم ولادنا وإخواتنا وأنا نفسى كنت باسمع النكت برضه .. واحد يقول لى : سمعت آخر نكتة، زى ما بتقولوا لبعض .. وأنا ما أخذتش من هذه النكت أبداً أى تعبير !".

"لكن أنا عارف الشعب المصرى، ده شعب عمره سبعة آلاف سنة، وقهر كل الغزاة، وكسرهم .. خلص عليهم من قمبيز إلى نابليون .. وقعد ينكت عليهم .. شعب له فلسفة وطنية .. وشعب صلب، قوى .. لكن .. هو شعب يحب النكتة .. وأنا باعتبر إن دى ميزة لإنه بيفلسف بيها الأمور .. فإذا جه أعداءنا واستغلوا فينا هذه الطبيعة عشان يحققوا آهدافهم لازم نكون ناصحين .. كل فرد يكون ناصح".

كانت مفاجأة أن يتحدث حاكم مصرى، علناً وأمام البرلمان، عن النكت، وهو ليس أى حاكم.. إنه جمال عبد الناصر، الزعيم الذى حملت الجماهير سيارته، وهتفت بحياته .. وكانت مستعدة أن تفديه بالروح والدم.

والأخطر أنه اعترف أن النكت فلسفة، وسلاح .. فلسفة وطنية .. وسلاح كسر به الشعب الغزاة .. فهل ارتد السلاح إلى الداخل، وصوب إلى أعلى ؟

ويقول أنيس منصور : إنها "أول مرة يتوجع رئيس دولة من النكت" .. و "أول تجريم وتأثيم للنكت على هذا المستوى". (١٠)

(١٠) أنيس منصور : "عبد الناصر" – المكتب المصرى الحديث – ص ١٧٣.

وهذا الرأى ليس دقيقاً .. فنابليون وفرانكو وهتلر وستالين وسلاطين المماليك سبقوا جمال عبد الناصر فى تجريم النكت، وتأثيمها، والتوجع منها.

ونشر أنيس منصور رأيه فى كتابه "عبد الناصر" الصادر فى سنة ١٩٨٨ .. وكان قد نشر نفس العبارات تقريباً على لسان الرئيس حسنى مبارك، فى حواره معه، فى مجلة "أكتوبر" عقب اغتيال الرئيس أنور السادات، وبعد موجة النكت التى أصابت الرئيس .. القتيل.

□ سيادة الرئيس :

سؤال أخير : نلتقى فى القاهرة بعدد كبير من المحللين الأجانب الذين يدورون الكرة الأرضية يقيسون الرأى العام ... ويضعون أصابعهم على نبض الرضا والسخط فى كل البلاد .. وقد ظهر أخيراً مذهب فى علم النفس السياسى، اسمه "علم نفس الصراع" لأن الذى يزعزع الأفراد والمجتمعات والشعوب هو الصراع أو النزاع بين الجميع .. وجاءوا إلى مصر وتنازعتهم ظاهرة غريبة : إنهم لم يفهموا كيف حزنت مصر على جمال عبد الناصر الذى كانت وفاته طبيعية، ولم يحزنوا على أنور السادات الذى اغتيل فى يوم النصر، هذا الفيض الهائل من النكت والسخرية من كل ما حدث .. فكيف تفسر ذلك ؟ .

أجاب :

"إن النكت لم تتوقف فى أى وقت. إنما هى فقط تظهر وتختفى. ولكنها دائماً هناك، ونحن مصريون، ونعرف المزاج المصرى الذى يواجه المواقف الصعبة أو الأزمات العنيفة بالسخرية منها ومن نفسه أيضاً، ولعلنا نتذكر أن الرئيس جمال عبد الناصر فى أول خطاب إلى مجلس الأمة بعد النكسة طلب إلى الشعب أن يكف عن النكت. أى طلب إلى الشعب ألا يضرب قواته المسلحة من الظهر، وربما كانت أول مرة فى التاريخ نجد رئيس دولة يعلن "تأثيم" الضحك .. فقد كانت النكت قاسية، موجعة .. كأنما الشعب يسخر من أبناء القوات المسلحة .. أى يسخر من أبنائه وآبائه .. أى يسخر من نفسه. فكان يبكى بعين، ويضحك بعين ويضحك بالعين الأخرى .. يبكى ويضحك على نفسه فى وقت واحد... وأرى أن هذا هو الذى حدث أخيراً، وليس غريباً علينا"[١١].

وكان ذلك فى أكتوبر ١٩٨١، لكن بعد حوالى (٧) سنوات، تراجع أنيس منصور عن بعض ما جاء فى هذا الرأى، وقال فى كتابه عن "عبد الناصر" .. إن "النكت ليست ضد الجيش وإنما ضده هو" .. والمقصود بـ (هو) ... جمال عبد الناصر .. ثم أضاف : "ومعنى موقف عبد الناصر : أن الجيش يستحق هذه السخرية، ولكنه يرجونا أن نكف عن ذلك .. من أجل خاطره هو".[١٢]

---

(١١) أنيس منصور : "الدين والديناميت" - مدبولى - ص ٥٦٥.
(١٢) ص ١٧٣

ومعنى موقف أنيس منصور : أن الكاتب ممكن أن يغير رأيه حسب الطلب .. ولا مانع من توصيل الطلبات إلى المنازل .. فالخدمة "تيك أواى" ! ..

****

قيل : ثلاثة لا يدخلون الجنة.

سألوا : من ؟

قيل : شمس بن بدران، وعبد الحكيم بن عامر، وجمال بن عبد الناصر.

سألوا : لمَ ؟

قيل : الأول ترك الجيش بدون عدة، والثانى مات حباً فى وردة، والثالث تنحّى وقت الشدة.

والنكتة ساخرة فعلا وتأخذ أسلوباً مختلفاً .. وترجع أسباب الهزيمة لجهل شمس بدران، واستغراق عبد الحكيم عامر بعيداً عن القيادة .. ثم تعتبر تنحى جمال عبد الناصر على نفس المستوى فى الذنب .. فقد تنحّى وقت الشدة فارتكب أكبر الكبائر مثلهما.

وقد سُجن شمس بدران فى السجن الحربى، ثم غادر البلاد ليعيش فى بريطانيا .. ومات عبد الحكيم عامر وحتى الآن لم تُحسم الطريقة التى مات بها .. أى هل انتحر أم قُتل ؟.. أما جمال عبد الناصر فلم يحتمل قلبه سوى ثلاث سنوات أخرى .. وتوقف إلى الأبد.

وقيل إن دليلاً مصرياً، صحب مجموعة من السياح الأجانب لزيارة الأهرام وأبى الهول .. وكان ذلك بعد الهزيمة .. وأثناء الشرح أراد أن ينتهز الفرصة ويقوم بالدعاية لبلاده .. فقال لهم :

- إن مصر أقدم حضارة فى التاريخ.

فكرر صدى الصوت عبارته فقال :

- وهى أم الدنيا.

فأعاد رجع الصوت ما قال .. فوجدها فرصة ليقول :

- وسوف تحارب إسرائيل.

فإذا بصدى الصوت يرد :

- بس يا مغفل !

والمعنى أن كل شىء ممكن، إلا أن نحارب إسرائيل .. فالانتصار الخاطف الذى حققته،

حولها إلى أسطورة .. وجعلنا نشعر بأننا أصبحنا جثة محنطة .. وقد تحطمت الأسطورة فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ .. وتخلصنا من الشعور بأننا جثة .. فالجثث لا تعبر القناة.. تطفو فوق سطحها فقط.

وبعد الهزيمة أيضاً ... قيل إن قائداً على الجبهة، فوجىء بجندى يسلمه مدفعاً رشاشاً إسرائيلياً، حصل عليه من العدو ففرح القائد، وأمر بترقيته.

وبعد أسبوع جاء الجندى بمدفع رشاش إسرائيلى آخر .. ففرح القائد به أكثر وأمر بترقيته، هذه المرة أسرع .. وتكرر الحادث أكثر من مرة بعد ذلك .. فشك القائد فى الأمر.. وراح بنفسه يراقب الجندى فاكتشف أنه يحصل على المدفع الرشاش مقابل تسليمه دبابة !

والمقصود .. أن إسرائيل لا تخسر قطعة سلاح إلا إذا خسرنا نحن أمامها قطعة سلاح أكبر منها .. أو المقصود أننا تركنا أسلحتنا للعدو فى سيناء، فلا غرابة أن نفرط فيها ثانية .. وقد كان على الجيش المصرى أن يواجه كل هذه الحرب النفسية، وهو يستعد للثأر فالمهم من يضحك أخيراً.

وقيل .. إن جندياً آخر اسمه عوضين كان يخدم على الجبهة اشتكى لقائده .. قائلاً :

- اليهود يا فندم بيشتمونى كل يوم الصبح.

- بيقولوا لك إيه ؟

- بيقولوا يا فندم يا عوضين .. اسكت يا جاهل.

- اشتم اللى بيشتمك إنت كمان.

- ما اعرفش اسمه.

- قل له يا كوهين.

فجر اليوم التالى استيقظ عوضين مبكراً، وصاح بأعلى صوته :

- يا كوهين.

- مين اللى بينده.

- عوضين.

- اسكت يا جاهل !

والمقصود أن اليهود لن يُفاجَأوا .. لن يأخذهم المصريون على غرة .. فهم الأذكى

والأشطر .. لكن، ذلك الغرور تبدد فى يوم العبور .. فقد فوجىء اليهود بالحرب وهم بملابسهم الداخلية .. فوجئوا بأن المصريين فى داخل دشمهم الحصينة وكأنهم مثل القضاء والقدر .. وحتى الآن لا تنسى المخابرات الإسرائيلية هذه المفاجأة ... كل الكتب التى صدرت عنها وعن حرب أكتوبر تقول ذلك.

وقيل إنه بعد انسحاب المصريين، وتشتت الجنود فى صحراء سيناء، فوجىء ثلاثة جنود برجل تجاوز سن الشباب، يرتدى ثياب الجيش المصرى التى كانت سائدة قبل الثورة، ويضع على رأسه طربوشاً ... فسألوه :

- إنت مين ؟

- أنا عسكرى فى الجيش المصرى.

- ولابس كده ليه ؟

- يعنى إيه لابس كده ليه .. لابس لبس الجيش المصرى.

- أنهى جيش مصرى ؟

- الجيش المصرى اللى حارب اليهود فى فلسطين، سنة ٤٨ !

والمعنى أن هزيمة المصريين وتشتتهم فى سيناء بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧، ليست الأولى من نوعها .. إنها مسألة معتادة منذ قيام دولة إسرائيل .. أى أنه لا أمل فى الانتصار فى حرب أخرى .. ولا مبرر للاستعداد لتلك الحرب ... فالهزيمة قدرنا .. ورمال الصحراء مقبرتنا ولسنا فى حاجة الآن أن نقول، إن ذلك أصبح - فيما بعد - نكتة !

وقيل ... كذلك .. إن يهودياً مر على اثنين من المصريين، يجلسان على قهوة فقال لهما :

- السلام عليكم.

فرد أحدهما السلام، واستنكر الآخر ذلك، وقال :

- ده يهودى .. إزاى ترد عليه السلام ؟

- وإيه يعنى ؟

- إيه يعنى .. ده اليهود قتلوا المسيح !

فهب الرجل من مقعده وأمسك باليهودى، وقتله ... وأمام المحكمة سأله القاضى :

- إنت قتلت الراجل ده ليه ؟

- ده يهودى يا سعادة البيه واليهود هُمّ اللى قتلوا المسيح.

- لكن الكلام ده كان من زمان .. زمان قوى.

- علَىّ الطلاق ما عرفت إلا يوم ما قتلته.

والمقصود .. أن لا سبب معقول ومقبول لمحاربة اليهود الآن .. اللهم إلا إذا كان السبب دم السيد المسيح عليه السلام !

****

إذن ... نحن أمام نكت لها أكثر من معنى .. وأكثر من مغزى : -

١ - أن محاربة إسرائيل مسألة مستحيلة.

٢ - أن أحداً لا يمكن أن يفاجئهم.

٣ - أنه لا مبرر لهذه الحرب المستحيلة.

٤ - أن هزيمة العرب قدر لا فكاك منه.

وهناك إجماع على أن مثل هذه النكت "مدسوسة" ... أى أنها صنعت فى إسرائيل .. وسُربت إلينا .. ولأننا كنا فى حالة ترنح، التقطناها دون أن ننتبه إلى أنها مثل الشراك الخداعية.

ويقول محمود السعدنى :

"إن الدليل على ذلك هو أن النكتة المصرية - بطبيعتها - تؤلم ولا تجرح .. وتنغز ولا تحطم الروح المعنوية .. أما مثل هذه النكت فقد كانت تهدف للإجهاز على ما تبقى فينا من مقاومة وكبرياء".

ويقول محمود عوض :

"إن أبناء العسكرية المصرية هم أبناء الشعب المصرى، وبدونهم لا يمكن استعادة سيناء، وتحريرها .. لذلك فتحطيم معنوياتهم بالنكت هدف لا يمكن إلا أن يكون إسرائيلياً .. كما أن الرواج المفاجىء للنكت ذات الاتجاه الواحد، والموضوع الواحد - فى فترة زمنية قصيرة وضد فئة محددة - لا يمكن أن يرجع - فقط - لحب المصريين التلقائى للنكتة" !

والمعنى أن إسرائيل استخدمت النكتة كسلاح فى الحرب النفسية، وأنها نجحت فى أن نستخدم نحن هذا السلاح ضد أنفسنا ... أى أنها زينت لنا الانتحار النفسى، والموت المعنوى .. فالحرب لم تنته بالهزيمة .. والهدف الذى سعت إليه لم يتحقق - الصلح

معها - ومن ثم، كان عليها - بعد أن احتلت الأرض - أن تحطم الشعب.

وقد قال لى الفريق أول محمد فوزى :

"كانت الروح المعنوية مهمة بالنسبة للجنود، بعد ما جرى لنا فى سيناء، حتى إن أوامر التقييم اليومى للأسلحة، كانت تتضمن الحالة المعنوية .. وكان ذلك إضافة جديدة .. لم تكن من قبل .. وهو ما جعل إسرائيل تسعى إلى ضرب وتدمير الروح المعنوية بالنكت.. مستثمرة حالة شماتة الشعب فى المؤسسة العسكرية بعد الهزيمة.

□ قلت لى : إن الجنود أحسوا أنهم اتخموا فى الحرب، وأنهم قرروا ألا يتكرر ذلك لهم.

- كلمة "اتخمينا" كلمة مصرية، صميمة، لا نظير لها فى المؤلفات العسكرية .. لكنها هى التى صنعت حرب الاستنزاف .. وجعلت عدد القتلى اليهود من (٣ : ٤) قتلى فى اليوم الواحد .. وقد اشتعلت حرب الاستنزاف رداً على محاولة من العدو لاستفزاز مشاعر جنودنا على الجبهة.

□ كيف ؟

كان جندى إسرائيلى، يستحم فى القناة، ومعه فتاة .. وتجاوز أسلوبهما فى الاستحمام اللياقة .. فأطلق جندى مصرى عليهما الرصاص، فقتلهما، وكان ذلك مساء ١١ يونيو ١٩٦٧ .. وقد تصرف ذلك الجندى على هذا النحو بمبادرة منه، فالأوامر التى أصدرتها كانت التهدئة وضبط النفس !!

□ يعنى ما حدث كان مخالفة للأوامر ؟

- نعم .. لكننى أمرت بنيشان للجندى .. فأصبحت الروح المعنوية فى القمة، فاغتاظت إسرائيل، فأغرقتنا بالنكتة المضادة لإعادة الروح المعنوية لما كانت عليه قبل ساعة صفر حرب الاستنزاف.

والفريق فوزى، رجل عسكرى، صارم، كان عليه إعادة ضبط وربط الجيش، بعد سنوات من التسيب، انتهت بالهزيمة، وفى كل ٥ يونيو كان يصر على أن يذكر الضباط بما حدث، فكان يرفع البيارق من سيارات القادة، وكان يأمر بأن يبقى الجميع فى وحداتهم، فى ذكرى هذا اليوم.

ولأنه صارم، ومستقيم، فقد رفض اسم "النكسة" وكان يصر على اسم "الهزيمة".

وفى المؤتمر القومي العام تحدث عن الهزيمة بصراحة، لكنه استخدم مثلاً فى غير موضعه، فقال : "إيه حكاية الكلام عن مواجع ما بعد الهزيمة ؟ ! ... ما يضير الشاة سلخها بعد ذبحها" .. فكان أن قال له جمال عبد الناصر : "إنت يا فوزى راجل عسكرى مالكش فى السياسة .. خليك مكانك".

ولأنه عامل الضباط بقسوة .. فقد أحس الناس أنه يعيد إليهم صلابتهم المفقودة، فسعدوا به وعبروا عن ذلك برواية الحكايات عنه .. بل .. إنه هو الوحيد الذى قيلت فى حقه نكتة طيبة.

والنكتة ... أن "بغبغاناً" كان يعمل ناضورجياً لتاجر مخدرات، وكانت مهمته تحذيره من البوليس .. أصبح من ممتلكات الدولة بعد القبض على صاحبه .. ووضع أمواله تحت الحراسة .. فتقرر أن يوضع البغبغان عند مدخل مجلس الأمة، ليعلن عن دخول كبار الشخصيات قاعة المجلس "فكان ينادى على كل شخصية تمر من أمامه باسمها .. وعندما مر من أمامه الفريق فوزى .. صرخ فى الأعضاء : "كبسة" !.

وقد قيلت النكتة بعد دوره فى مكافحة دخول المخدرات من كافة حدود مصر .. كما أنها قيلت بعد أن قبض على رجال المشير الذين اشتهروا بتعاطى الحشيش !

****

ما قاله قائد القوات المسلحة العام فى ذلك الوقت، يجعلنا نقول : إن النكت التى سخرت من الجنود، جعلت أيديهم متوترة على الزناد .. وهكذا انفجرت حرب الاستنزاف .. والتسمية بالمناسبة إسرائيلية .. فإسرائيل هى التى شعرت بالاستنزاف .. أما نحن فلا خسارة أكثر من التى كانت.

ولو كانت حرب الاستنزاف قد رفعت من الروح المعنوية لجنودنا، فإنها ضاعفت من قسوة الحرب النفسية الموجهة إليهم .. ومن ثم زادت النكت الثقيلة، المضادة، التى تشكك فى كل ما تقوله القيادة المصرية .. فكان لابد أن تواجه السلطة هذا النوع من النكتة بحزم وشدة .. ولم يعد يكفى تحذير رئيس الجمهورية .. وتنبيه الشعب كى يصبح واعياً .. أو "ناصح" على حد تعبيره.

قيل لى من بعض الناصريين : إن أعضاء منظمة الشباب فى أحياء بعينها، كُلفوا بجمع النكت التى تقال فى البيوت وعلى القهاوى وكتابتها ورفعها إلى أعلى.

وهذا يعنى أن مهمة مطاردة النكتة – فى تلك الفترة العصيبة – أصبحت مهمة سياسية شعبية أيضاً .. لا مهمة أمنية فقط.

وروى لى سامى شرف .. واقعة القبض على مدرس الابتدائى فى الأتوبيس وهو يلقى بنكتة من ذلك النوع المريب .. وكان إبعاده عن التلاميذ، حماية للجيل الجديد منه .. من مشاعر اليأس والإحباط التى يمكن أن يسربها إليهم !!

لكن ...

بالرغم من ذلك – يضيف سامى شرف: لم يكن جمال عبد الناصر ضد أن يسعد الناس،

ويعيشوا وينبسطوا .. فقد رفض اقتراح وزير الثقافة، د. ثروت عكاشة بإظلام البلد بسبب الهزيمة، وقال له : إن لندن لم تغلق مسارحها و القنابل تنهمر فوق رأسها فى الحرب العالمية الثانية.

وبعد نجاح فيلم "أبى فوق الشجرة" ومباريات عد القبلات فيه، قال لسامى شرف :

- ما تروح يا سامى تشوفه.

- ليه يا فندم ؟

- بيقولوا فيه (٣٨) بوسه.

وحتى الآن لم يشاهده سامى شرف و إن تمنّى ذلك عملاً بوصية جمال عبد الناصر !

وتنفيذاً لتعليمات جمال عبد الناصر بدأت أجهزة الإعلام والثقافة فى الترويح عن الناس بشتى الطرق .. حتى يكون الضحك الشرعى والرسمى بديلاً عن الضحك السرى .. وهكذا ... فظهرت أغنية "العتبة جزاز" وأغنية " الطشت قاللى يا حلوه ياللى قومى استحمى" .. وظهرت مسلسلات إذاعية مثل "شنبو فى المصيدة" و "انت اللى قتلت بابايا" .. لعبت بطولتها شويكار، التى نجحت فى تحطيم اللغة العربية من خلال أسلوبها المختلف فى النطق .. فشنبو يصبح شنوبى .. وخالص، تصبح خالص مالص بالص .. وبابايا تصبح باباتى ... أو تصبح بابااايا.

وتجاوزت الرقابة كثيراً عن مشاهد الجنس وعبارات النقد السياسى .. وبدأت المجلات الشهرية فى إصدار أعداد خاصة عن الفكاهة.

وخطوة خطوة، بدأ المجتمع يستعيد توازنه بوسائل طبيعية .. بل .. إن جمال عبد الناصر نفسه استعاد أسلوبه السهل الساخر فى حواراته السياسية !

ولعل أشهر حوار من هذه العينة - جرى فى تلك الأيام - كان الذى جرى بينه وبين الشيخ عاشور نصر، إمام مسجد "أبى العباس" بالإسكندرية، فى الدورة الطارئة للمؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى .. بعد مظاهرات الطلبة والعمال، التى انفجرت فى نوفمبر ١٩٦٨ .. كان جمال عبد الناصر قد بدأ يسمع الناس أكثر .. فقال الشيخ عاشور :

"لقد تأخرت الأمة الإسلامية يوم أصبحت دولة كلامية .. وحتى فى التطبيق الاشتراكى لا نجد فقط إلا الذين يتكلمون عن الاشتراكية .. فقد حضرت المحاضرات عن الاشتراكية .. ييجى المحاضر راكب عربية مرسيدس ثمنها (٧) آلاف جنيه، وبعدين لا بس خاتم يساوى له ألفين جنيه .. وبعدين يطلع من المحاضرة ياخد .. الشلة معاه، يروح المطعم يتعشوا، يدفع له سبعة، ثمانية جنيه، وهو فى المحاضرة لسه بيقول اربطوا الحجر على بطنكم للجوع .. جوع .. جوع إيه الله يخرب ...... انت خليت فيها جوع وانت ما

بتجوعش ليه .. هو الجوع ده مكتوب علّى أنا .. هى الاشتراكية عليّه وعليك لا .."

ثم .. انتقل الشيخ عاشور من موضوع إلى آخر، حتى أشار إلى دخول السيدات مسجد "أبى العباس" بالمينى جيب .. وكان أن أطلق تشبيهاً جعل الأعضاء يضجون منه، وطالبوه بالنزول. وتدخل جمال عبد الناصر للرد .. فقال : "الشيخ عاشور برضه أفادنا فى إنه رفه عننا شويه فى وسط هذا الاجتماع" .... "أما الكلام عن المينى جوب الكلام ده فى الحقيقة غير مقبول. أنا أعتقد أن العملية الأساسية لأن الكلام ده إذا اتقال فى المسجد، فى مسجد أبو العباس، والناس ضحكت زى احنا ما ضحكنا النهاردة، تبقى العملية هزلية وليست عملية جدية" (١٣)

ومع أن جمال عبد الناصر رد السخرية بسخرية، فقد أصبح الشيخ عاشور حديث البلد والناس .. وحصل على وسام الجرأة من الطبقة الأولى .. لأنه قام .. ولأنه قال ..بل .. أكثر من ذلك، وصفه أحمد فؤاد نجم بأنه "عاشور قلب الأسد" .. وقال : لو دستَه منه مكانش كان .. كل اللى كان .. ولا كان دا حالك .. يا بلد".

ويروى د. ثروت عكاشة أن جمال عبد الناصر، قال له فى حضور وزير الداخلية :

- ريحهم يا ثروت !

وكان يقصد التقارير الملفقة، المُسفة التى تطارد جميعهم حتى الوزراء وأقرب الناس إلى جمال عبد الناصر، بل ورفاقه من الضباط الأحرار.

ثم أضاف :

- ريحهم وأوقف مسرحية "ثورة الزنج" التى جابت لى تقارير الداخلية والاتحاد الاشتراكى الصداع بسببها .. واطمئن احنا قضينا على "الزنج".

"فأشاعت عبارته الأخيرة قهقهة عالية بين الحاضرين" بينما وقف ثروت عكاشة "مندهشاً" من كل ما سمع، دون أن يفهم "سر هذه الضحكات الحارة إلا فى المساء" حين عرف أن الرئيس قد منح نائبه الأوحد حينذاك (أنور السادات) أجازة يأوي فيها إلى بيته.(١٤)

****

بدأت نوعية النكت الجارحة للقوات المسلحة فى الانحسار بعد حادثين كانا على درجة كبيرة من الأهمية والإثارة .. لكن .. فى الوقت نفسه ولدت نوعيات أخرى .. راحت مثل

(١٣) انظر نص الحوار فى كتابنا "الهجرة إلى العنف" - ص ١٠١.
(١٤) د. ثروت عكاشة - المصدر السابق - ص ٥٣٩، لكنه لم يذكر اسم السادات صراحة،. ولم يذكر أن وزير الداخلية كان شعراوى جمعة.

موجات البحر العفية، تتجه بقوة نحو الشاطىء، ليتلقفها الناس .. كبديل.

كان الحادث الأول .. حادث رحيل المشير عبد الحكيم عامر .. وقد تلاحقت تفاصيله بسرعة مجنونة، وكأنها تفاصيل فيلم "أكشن" مثير، تمتزج فيه الكوميديا بالموت .. فعندما حاول التمرد بضباطه .. استدعاه جمال عبد الناصر إلى بيته .. وهناك حاول الانتحار .. وبعد إنقاذه ركب سيارته ليعود إلى بيته .. ولكنه كان تحت حراسة مشددة من رجال الحرس الجمهورى، الذين حملوا البنادق سريعة الطلقات .. حتى إن المشير اقترب من أحدهم صائحاً : "حاسب يا شاطر من اللعبة اللى فى إيدك أحسن تعورك" .. ثم .. هتف ساخراً : "يا امّه .. أنا خفت خلاص" .. وبعد أيام .. انتهى الرجل الثانى فى الدولة، وكان ذلك مساء يوم ١٣ سبتمبر ١٩٦٧.

تلاشت الكوميديا .. وبقى الموت فانتهى الحادث بلغز .. هل انتحر أم قُتل ؟ .. ولا يزال اللغز مستمراً .. والسبب أن الحقائق لاتزال ناقصة .. لكن .. المؤكد أن النكت التى طاردته حياً لم تتركه ميتاً.

وكان أغلبها عن تعاطيه المخدرات .. فقيل إنه : "عاش مسطولاً ومات مسطولاً ودفن فى أسطال" .. وأسطال اسم بلدته .. بالمنيا .. وقيل : إنه بعد أن مات دخل الجنة .. لكنه كان يتسلل إلى النار خلسة، ليأخذ "ولعة".

وأشيع أنه كان على علاقة بالمطربة "وردة" .. ومع أن ذلك كان أكذوبة، فإن هذه العلاقة تأكدت لدى الرأى العام إلى حد شيوع تفاصيل دقيقة عنها، ونكت تدور حولها .. كما قال محمود الجيار.[١٥]

وأصل الشائعة أن سيارة "وردة" تعطلت بها فى "طريق بين دمشق والمطار" .. وكانت تمر سيارة المشير - وهو ليس فيها - واستنجدت وردة بالسيارة التى لم تكن تعرف من هو صاحبها لتنقلها إلى المدينة .. ونزلت وسط دمشق، وفى أحد فنادقها من سيارة المشير عامر .. وهكذا بدأت الشائعة .. على حد رواية صلاح نصر.[١٦]

وقد طلب المشير أيامها من عبد الناصر إبعاد وردة عن مصر، قطعاً لهذه الشائعة .. "ولكن عبد الناصر قال إن إبعادها هو الذى يؤكد الشائعة .. وتمسك بها".

فقيل إن المشير عامر عندما مات، طلب أصفياؤه أن يفتحوا فى المقبرة طاقة حتى يدخل منها "شمس" ... أى شمس بدران .. وقيل إنهم وضعوا على قبره .. "وردة" !

وقيل إنه دفن فى هرم أضيف للأهرام الثلاثة الأخرى .. وعندما سأل السياح عن المدفونين فيها، قال الدليل لهم :

---

(١٥) مصدر سبقت الإشارة إليه - ص ١٦٣ و١٦٧.
(١٦) عبد الله إمام - المصدر السابق - ص ١١٥.

– إنهم بالترتيب "خوفو" و "خفرع" و "منقرع" ومنهرب .. أى من هرب !. ولوحظ أن النكت التى أطلقت على عبد الحكيم عامر لم تجد من يعترض عليها .. أو من يقبض على مروجيها .. فهل كان ذلك مدبراً .. ومتعمداً ؟

وفى تلك الفترة .. سمعت بعض النكت على المشير تتردد فى أروقة ومكاتب مبنى الاتحاد الاشتراكى الرئيسى .. وسمعت بعضها فى مكتب أحد الوزراء، الذى كان أحد ضباط الصف الثانى فى الثورة .. فهل كانت هذه النكات حلالاً .. وغيرها خطيئة ؟ .. هل كانت رداً متأخراً على النكت التى أطلقها رجال المشير من قبل على جمال عبد الناصر ؟ .. أم أنها استُثمرت لوضع أخطاء الهزيمة فى سلة واحدة، وتحميلها لشخص واحد ؟

أما الحادث الثانى .. فكان حادث إغراق المدمرة إيلات .. إن هذا الحادث جعل الشعب المصرى يستعيد الثقة فى قواته المسلحة .. ومن ثم أصبح يستسخف التنكيت عليها .. وعندما بدا أن هذه البضاعة لم تعد مناسبة للاستهلاك. أغرقت الأسواق ببضاعة أخرى... وهكذا .. عادت النكت مرة أخرى للحديث عن ديكتاتورية جمال عبد الناصر .. وما فعلته بأم الدنيا ..

لقد أفرطت صحافة العالم، فى ذلك الوقت، فى الكلام عن القاهرة المظلمة، التى فقدت مرحها، وترهلت بالبشر، وأرهقت بضعف الخدمات ... فقيل .. إن إحدى المجلات السياحية، أجرت مسابقة بين قرائها .. كانت جوائزها كالتالى :

الجائزة الأولى : إقامة أسبوع فى القاهرة.

الجائزة الثانية : إقامة خمسة عشر يوماً فى القاهرة.

الجائزة الثالثة : إقامة لمدة شهر فى القاهرة.

وهكذا ...

والنكتة لاذعة جداً .. موضوعة بعناية .. فكلما تأخرت الجائزة زادت مدة الإقامة .. أى مدة العقوبة.

وقيل إن الرئيس كان يلقى خطاباً .. عندما عطس أحد الحاضرين .. فتوقف قليلاً .. وسأل :

– مين عطس ؟

فلم يرد أحد .. فأمر بإطلاق النار على الجالسين فى الصف الأول .. وسأل :

– مين عطس ؟

فلم يرد أحد .. فأطلق النار على الصف الثانى .. وسأل :

- مين عطس ؟

فرفع رجل أصبعه وهو يهب واقفاً، وقال :

- أنا يا ريس !

فرد الرئيس :

- يرحمكم الله !

والنكتة مستوردة من أمريكا اللاتينية .. لكنها .. انتشرت قليلاً فى مصر، ثم اندثرت.. انتحرت .. ليس فقط لأنها لم تكن مناسبة للذوق المصرى، وإنما هناك ما هو أشد وأصعب قد حدث ... مات فجأة، مساء يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠، جمال عبد الناصر .. فلم يعد لها ما يبررها .. ولو مؤقتاً.

****

بعد ظهر ذلك اليوم، تغيرت خريطة برامج الإذاعة والتليفزيون .. مارشات جنائزية، وقرآن .. ثم أذيع النبأ .. مات "أشجع الرجال" .. مات رجل والرجال قليل، كما نعاه البيان الأول للسادات. انهار الرجال .. اهتز الصغار .. انطلقت النساء عاريات الرءوس .. امتلأت الشوارع ببشر بدوا وكأنهم يتامى .. توقفت الحياة تماماً .. لا بيع ولا شراء .. لا جنس ولا رضاعة .. وبدا أن الشعب المصرى قد غرق فى بحر من الأحزان لاقرار له، ولا نجاة منه.

صباح يوم الخميس أول أكتوبر، ودعه إلى مثواه الأخير، (٦) ملايين شخص، بالدمع، والنحيب، والتشنج .. والانتحار أحياناً فى جنازة لم يكن لها مثيل من قبل .. فى إيقاع جنائزى أشبه بترانيم قدماء المصريين - عبارة واحدة .. "الوداع يا جمال يا حبيب الملايين".

بين إعلان النبأ والجنازة، عاشت مصر ثلاثة أيام كئيبة .. وعاش المصريون حالة حزن جماعى .. غاب فيها الوعى .. وسيطرت فيها الانفعالات السوداء، الحادة، المتطرفة.

ودُهشت الدنيا .. أصابها الذهول .. وتعجب "العقل الغربى" من ذلك .. فحسب تقديرات هذا العقل "الحسابى"، أو "الرياضى" كان لابد أن يحدث العكس .. أى "أن يفرح المصريون لموت الطاغية الذى احتقرهم وعذبهم وامتهن إرادتهم .. أو أن يكتفوا بالترحم عليه انصياعاً للمشاعر الدينية التى تؤثم الشماتة فى الموت "اذكروا محاسن موتاكم"، فإذا حتم الأمر بعض المبالغة فليكن الدمع قليلاً .. أما أن تنتشر تلك الحالة العنيفة من "الاكتئاب الجماعى" فإن الأمر يصبح عسير الفهم" . [١٧]

ولم يجد العقل الغربى تفسيراً مقبولاً لذلك .. سوى أننا شعب "مستذل" .. يتلذذ

(١٧) صلاح عيسى : "مثقفون وعسكر" - مدبولى - ١٩٨٦ - ص ٥٠٥.

بالطغيان.. ويستمتع بالقسوة .. ويصنع الطاغية إذا عز وجوده". [١٨]

والتفسير قديم يخضع لطبيعة البيئة .. أى لطبيعة الأرض، والنهر، والبحر والصحراء .. ومن ثم كان الشقاء والصحة من نصيب البادية .. والشجاعة والفتنة من نصيب الشام .. والخصب والذل من نصيب مصر.

على أنه بعد أن انفض موكب الوداع التاريخى، الباكى، الحزين، وعاد المشيعون إلى بيوتهم... انطلقت النكت من جديد .. وبجنون .. وكانت ضد الزعيم الراحل شخصياً .. وراحت تفتش فى ثوبه وعقله وسرواله، وعلاقته بأقرب الناس إليه ... والمذهل أنها لفت البلاد فى دقائق .. وكأنها جزء من الهواء الذى يتنفسه الناس.

ويقول صلاح عيسى :

"إن هذه النكات كانت من النوع "الحرّيف"، ساهم المصريون جميعاً فى تأليفها وترديدها.. وقد شرحت "الرجل" بقسوة، ورسمت له صوراً كاريكاتورية جسمت عيوبه، وركزت بالذات على شخصيته الطاغية المؤثرة .. "بل إن المصريين الذين يعتقد كثيرون أنهم من أكثر شعوب الأرض تقديساً للعقائد والنصوص الدينية، قد أذهلوا الجميع، عندما جاءت فكاهاتهم عن "عبد الناصر" مزجاً بين المحرمات الثلاثة : الجنس والدين والسياسة".

ويضيف :

"وبالانتقال من مواكب إلى مهرجانات الضحك والتهريج زادت عريضة الاتهام الموجهة إلى الشعب المصرى تهمة جديدة ... أننا لم نعد أمام شعب مستذل، مازوكى (يستعذب القسوة) تافه، بل وشيزوفرانيك (مصاب بفصام الشخصية) أيضاً، فهذا الانتقال الهستيرى من الحزن الفاجع إلى الضحك الهادر، ومن التقديس إلى التجريح، ومن البكاء حباً إلى السخرية كرهاً أو ازدراء فى نفس الزمن، من الأمور التى لا تخفى دلالتها على أحد ... وفى أهون التقديرات فإن ذلك دليل على عدم النضوج الانفعالى إن لم يكن دليلاً على الفصام". [١٩]

وزاد الطين بلة .. أن هذه الحالة الغريبة ليست جديدة .. وكانت قريبة .. فقد عاشها المصريون بعد الهزيمة .. وبعد أن طالبوا جمال عبد الناصر بألا يتنحّى .. ثم نكتوا على ذلك كثيراً.

فهل نحن لا نتعلم ؟ .. وهل تُلدغ مشاعرنا وتجاربنا من نفس الجحر مرتين .. وأكثر ؟

ومن جديد .. كان السؤال .. لماذا النكت بعد الدموع .. والسخرية بعد الاكتئاب ؟

فى تفسير صلاح عيسى أن الإعلام شحن الجماهير فى اتجاه الحزن الجماعى .. وأن

---

(١٨) (١٩) صلاح عيسى : "مثقفون وعسكر" - مدبولى - ١٩٨٦ - ٥٠٧، ٥١٣.

التنظيم السياسى (الاتحاد الاشتراكى) دعم ذلك بتأجير "ندابات" فى الجنازة .. ثم .. كان أن اندفع "القطيع" !

وفى تفسيره أيضاً .. أن الذين شيعوا "الزعيم" ليسوا كل المصريين ... مع أن عدد المشيعين كان (٦) ملايين إنسان حسب تقديرات الخصوم.

وفى رأى الطبيب النفسى الشهير د. جمال ماضى أبو العزايم أن الحزن على رحيل جمال عبد الناصر "كان حزناً من القلب لا تمثيل فيه ولا ادعاء .. فلا مبرر لذلك" .. كما أنه "كان تلقائياً" لم يكن فى حاجة لشحن الجماهير فى اتجاهه بالندابات.

ويروى د. أبو العزايم أنه يوم مات جمال عبد الناصر اتصل به وزير الصحة تليفونياً، وقال: "الحق يا دكتور جمال .. الناس بتتشنج أمام قصر القبة .. دى حالة هستريا جماعية يا دكتور .. إنزل إنت ودكاترة المستشفى (مستشفى الأمراض النفسية) وشوفوا حتعملوا إيه !" [٢٠]

"وكانت المرة الأولى التى أواجه فيها حالة قلق جماعى .. فوجدتها فرصة لأن أحول هذه الحالة - التى قد لا تتكرر - إلى بحث علمى على الطبيعة .. وبالفعل اتصلت بأطباء المستشفى .. وحولنا المكتب التنفيذى للاتحاد الاشتراكى - الذى يقع أمام القصر الجمهورى - إلى عيادة للعلاج النفسى مجهزة بالأدوية اللازمة وجهاز الصدمات الكهربائية" .. وبعد علاج كل حالة كنا نسأل أصحابها ما يفيد البحث .. وبتحليل الحالات وجدنا أن ٨٠ ٪ من المتشنجين سيدات صغيرات، تتراوح أعمارهن بين (١٥)، (٢٥) سنة .. وأكثر من ٧٥ ٪ منهن غير متزوجات .. "والنسبة الأكبر فى العينة كانت ترى أن وفاة جمال عبد الناصر أشد قسوة من وفاة الأب، أو الزوج".

وفى تلك الليلة فوجىء "أبو العزايم" بسيدة من أسرة ثرية أصيبت بالذهول العقلى، كانت جالسة على سجادة لكنها كانت تتصور أنها جالسة على الرصيف .. فكانت كمن يأخذ من التراب ويضعه على رأسه .. وسألها :

- عندك كام سنة ؟

- ٤٥ سنة !

- إنت مش عبد الناصر أخذ أموالك ؟

- أيوه.

- طب عاملة فى نفسك كده ليه ؟

---

(٢٠) انظر كتابنا المشترك : "نفوس وراء الأسوار" - الدار العربية ص ١٢٧.

- لأنه هو اللى خلانا محترمين.

انتهى.

وفى رأيى ... أن المصريين بكوا أفضل ما فى جمال عبد الناصر ... الجرأة، الصمود، التحدى، الوطنية، الانتماء للفقراء .. ثم إنهم سخروا من أسوأ ما فيه ... الجبروت، الصرامة، والهزيمة .. والنكت التى قيلت طعنت هذه العيوب .. فالدموع عليه كانت وفاء.. والنكت التى أصابته كانت عقاباً .. ولا تناقض فهو يستحق الاثنين معاً.

ثم ... !

لا يمكن تفسير ذلك بعيداً عن فهم المصريين للموت !

فالمصريون هم الذين "اخترعوا الأبدية" .. أى الخلود و"علموها للآخرين" .. والعبارة لوزير الثقافة الفرنسى الأسبق أندريه مالود ... والأبدية أن تتجاوز الحياة الدنيا إلى ما بعد الموت .. أو تتجاوز الحدود إلى ما بعد العدم .. وأن نمد جسوراً أو حبالاً من الإيمان بين الأرض والسماء .. بين عالمنا والعالم الآخر .. وأن يكون الفناء جزءاً من البقاء .. فلا ضياع ولا انقطاع .. فالموت انتقال من حياة إلى حياة .. لذلك لا أحد منا يقطع صلته بالموتى.

لقد أحب المصريون الحياة، فانتصروا على الموت بالخلود .. ومن حبهم لا ينطقون اسم الموت .. وإنما يرمزون إليه .. فيقولون عن الميت .. رحل إلى السماء .. انتقل إلى الرفيق الأعلى .. توكل .. وكان الفراعنة يقولون : "سافر حياً" .. أو "عبر إلى الضفة الأخرى" .. أو انتقل إلى الحياة الأخرى .. "حيث النعيم" فالموت إذن ليس شراً، ولا فناءً. وإنما سلم أو أسانسير للصعود إلى عالم أفضل.

وكان الفراعنة يدفنون - مع الموتى - كل متع الدنيا .. الطعام، الحلى، والثياب .. لكنهم لم يدفنوا معهم زوجاتهم كما كان يفعل الهنود .. فجمال الحياة الأخرى ليس على حساب الحياة الأولى .. وكانوا يدفنون موتاهم فى وضع القرفصاء .. وضع الجنين فى رحم الأم.. فالمقبرة أيضاً رحم .. رحم يؤدى إلى حياة الفردوس.

وهذا التصور الجميل للحياة بعد الموت كان فكرة عبقرية، فرعونية، للاستعلاء على الموت، وطرد شبحه .. حتى لا يعطلنا عن متع الدنيا، ويؤرقنا ونحن نتعامل معها.

ويقول د. أبو العزايم : إن من حسن حظ المصريين أنهم يخرجون انفعالاتهم عند التعامل مع الموت .. فيكون الصراخ والعويل والندب والتشنج، فى الحال .. كل الانفعالات تخرج.. لا شىء منها يبقى .. لا شىء منها يُكبت .. وهذا نوع من غسيل النفس يحميها من المرض.

ونحن نزور المقابر فى الأعياد .. ونوزع الحلوى والفطائر وثمار الفاكهة على أرواح الموتى..

وندخن، ونأكل ونتسامر هناك .. فلا نحن نخشى الموت ولا هو يمنع المزاح والتنكيت. ونحن نحتفظ بشىء من "ريحة المرحوم" .. ونتذكره فى المناسبات السعيدة ... "الله يرحمه كان بيحب المسقعة" .. "الله يرحمه كان يستحم بالماء البارد فى الشتاء" .. إلخ.

وفى صفحات الوفيات أزمة .. فالذين يريدون إعلان خبر الموت أكثر من المساحات المخصصة .. وبعد كل إعلان تدب خناقة بين الأحياء .. لماذا جاء اسم فلان قبل اسم علان فى النعى .. لماذا تجاهلوا الفرع الفقير فى العائلة ؟ ... فكأن الموت فرصة للدعاية الشخصية فى الصحف !

وفى صفحات الوفيات أيضاً .. رسائل من الأحياء إلى الموتى .. مع أننا نعرف أن صحيفة "الأهرام" لا تصل إليهم .. حتى طبعتها "الدولية" لا يحصلون عليها لكننا نحس أنهم سيقرأون رسائلنا .. وإن كنا لا نعرف ... كيف ؟!

أبى الحبيب :

سأبكيك ما حييت لأنه لا حياة لى بلا حنين. فبفراقك افتقدت كل شىء. ولكن سلواى الوحيدة أنك مع النبيين والصديقين والشهداء – ابنك محمد عبد الرازق. (٢١)

بابا الحبيب :

ودعناك بالدموع فاستقبلتك الملائكة بالشموع – ادوارد وفايقة ورضا ورامى.

وفى القاهرة مليون ونصف مليون مواطن حى يعيشون فى المقابر .. يتزوجون .. يتناسلون.. يتشاجرون .. يتعلمون .. يعدون الطعام .. يتناولونه ويحمدون الله على نعمته.. وعلى شواهد القبور ينشرون الغسيل .. وداخل الأضرحة .. ينامون .. والقبر نفسه ممكن أن يكون فراشاً أحياناً.

تعايشوا مع الموت .. فأخضعوه للحياة .. جعلوه جزءاً منها .. فضاعت هيبته .. ونُزعت رهبته .. فكان من السهل تقبله، والتعامل معه .. لا حزن أكثر من اللازم .. ولا أكبر من المعتاد.

والمقبرة مجاناً للموتى فلا جثة تقف فى الطابور تنتظر دورها فى الدفن .. مع أن المقبرة بخلو رجل، وإيجار للأحياء .. فالموت ميزة قد لا تتوافر فى الحياة.

ومنتهى الحب أن تقول لامرأة .. "باموت فيكى" .. وهى يسعدها ذلك كثيراً .. أن تكون مقبرتك إلى الأبد .. أو أن تكون نهايتك على يدها .. أو فى فراشها .. سيان .. مع أن الأصح أن تقول لها "باعيش فيكى" .. لكن .. هذا لا يسعد المرأة .. فالذى يعيش فى واحدة، يعيش فى أخرى .. أما الذى يموت فمرة واحدة.

---

(٢١) الأهرام ١٩٨٦/٢/٨ – ص ١٤ عمود ٤، ٦، مصدر رسائل الأحياء إلى الموتى.

فما الغرابة - بعد ذلك كله - فى أن نبكى جمال عبد الناصر بعين، وننكت عليه بالأخرى.. فهذا طبع ولن نشتريه .. و الطبع غلاب !

****

قيل ... إن أحد بشوات ما قبل الثورة أصر على الاشتراك فى جنازة عبد الناصر، وكان يبكى بحرقة، ويصيح :

- أشوفه .. عايز أشوفه .. لازم أشوفه.

ومن شدة الحالة التى كان فيها الرجل، سمحوا له برؤية الجثمان .. فدخل .. وهدأ .. وتلاشت دموعه .. ورفع الكفن .. ثم قال :

- أيوه .. هو فعلاً .. الحمد لله.

أى أن الذين أضرهم لم يصدقوا أنه مات .. أو أنه يمكن أن يموت وهو فى هذه السن .. فقد كان كابوساً بالنسبة لهم .. ومن الممكن الآن أن يستردوا كل ما فقدوه من ثروة وسلطة.. من نقود ونفوذ .. وقد حدث ذلك، فعلاً .. فيما بعد.

وفيما بعد أيضاً أطلقت هذه النكتة، بعد أن حل السادات محل الباشا .. فالسادات لم يصدق هو الآخر أن عبد الناصر مات .. ولم يصدق أكثر أنه يمكن أن يخلفه.

لكن .. ما إن أصبح السادات مكانه حتى سمح بفتح النيران عليه .. على عهده، وشخصه، و أسلوبه فى الحكم، وذمته المالية .. مع أن السادات كان يقول دائماً إنه كان شريكه فى كل شىء!

وبالرغم من ذلك كان السادات يقول : إنه "يمشى على طريق جمال عبد الناصر" .. فكان أن قال المصريون : فعلاً .. هو بيمشى عليه بأستيكة !

وكان أن أضافوا : "إن السادات لا يفرق بين طريق عبد الناصر وطريق الكورنيش".

وفى الشارع سأل سائق التاكسى الراكب :

- تحب تروح مصر الجديدة عن طريق صلاح سالم، ولا طريق جمال عبد الناصر ؟

انتهت النكتة.

وقد نسب السادات لنفسه كل شىء بعد رحيل جمال عبد الناصر .. تأسيس تنظيم الضباط الأحرار .. تفجير الثورة .. التضامن العربى .. إلخ .. وكان يكرر دائماً عبارة "أنا قلت له يا جمال" ... ولم يكن ليصدقه أحد حتى أقرب الناس إليه.

يقول أنيس منصور :

"إن عبد الناصر استراح لأن السادات لا رأى له، ولا موقف، وأنه بعيد طول الوقت .. ولاخوف منه " !

وأضاف :

"إن الناس كالمسامير، الذى له رأس هو الذى يمكن خلعه .. ولذلك اختار أنور السادات ألا يكون له رأس، وأن يغوص فى الخشب فلم يخلعه عبد الناصر". [٢٢]

وكان أن أطلق المصريون هذه النكتة ... جاء عبد الناصر للسادات فى المنام .. وقال له :

- يا أنور ؟

- أفندم يا ريس !

- إنت بتقول إنك عملت تنظيم الضباط الأحرار .. ماشى .. وبتقول إنك اللى عملت الثورة ماشى .. وبتقول إنك الوحيد اللى حاربت الفساد ماشى .. لكن قل لى، إنت بذمتك إنت كنت تقدر تقولى .. يا جمال .. كده ؟

والمعنى أنه كان أضعف مما يدعى .. وأقل مما ينسب لنفسه.

وقد قيلت هذه النكتة والسادات على قيد الحياة .. ويحكم .. لكنه، لم يفهم الرسالة وواصل تزييف التاريخ .. فانصرف الناس عنه، وسخروا منه .. فكان مثل ممثل تراجيدى حاول أن يُبكى المتفرجين، فأضحكهم ... والصحيح أنهم ضحكوا عليه.

استثمر بعضهم الحملات السياسية المضادة، والشرسة على جمال عبد الناصر بإعادة تصنيع النكتة التى حاكمت عهده من قبل .. وقيلت وهو على قيد الحياة .. النكت التى أطلقت على التعذيب .. والطوابير .. والمخابرات .. والفساد .. والأزمات .. ومعاناة الناس.

وهناك من يؤكد على أن تلك النكت كانت من تدبير خصومه فى الداخل والخارج لتشويه صورته، وتحطيم سمعته، وتمهيد الطريق لقبول سياسات مختلفة لسياساته.

ولا مانع من قبول ذلك .. لكن .. الظاهرة الملفتة للنظر أن النكت "المدبرة" جاء الرد عليها بنكت تلقائية .. فورية .. عاجلة.

مثال ذلك أن مواطناً صلى فى مسجد جمال عبد الناصر وراح يتمتم، وهو يرفع يديه إلى السماء .. فسأله جاره :

---

(٢٢) أنيس منصور - المصدر السابق - ص ١٧٩.

- يتعمل إيه ؟

- باقرا الفاتحة لسيدى المفترى !

أما النكتة - الرد .. فتقول : - إن الرجل الذى كان فى مسجد عبد الناصر، سُئل :

- بتعمل إيه ؟

فقال :

- باقرا الفاتحة لسيدى المشتوم !

وهكذا ...

اشتعلت حرب النكتة حول جمال عبد الناصر ... فهو - بالرغم من كل ما حدث - لا يزال مؤثراً!

****

إن ما جرى فى تلك الأيام، جعل موضوع النكتة السياسية خنجراً فى ضلوعى، كان لابد من انتزاعه، مهما كان الجهد، ومهما كان الثمن ..

إنها قصة مثيرة لا يمكن أن نرويها إلا بأثر رجعى .. مثل كل شىء يتعلق - فى حياتنا - بالسياسة و السلطة !



في الجنس والسياسة .. النكتة حرام !

"عندما ترانى أضحك فإننى إنما أفعل ذلك
لأمنع نفسى من الاسترسال فى البكاء"

"أغنية بلوز زنجية"

طائر أخضر جميل .. يسكن القلب .. ينعش الشفاه .. ينشط أيامنا الرتيبة، المتشابهة كأوراق الشجر، وحبات الأرز، وشعب الصين ... ويدغدغ صدورنا الحزينة، فتهتز طرباً، وكأنها صالة "ديسكو".

لكنه ...

طائر غريب الأطوار ..

ينقلب فجأة إلى صقر جارح .. شرس .. لا يفهم فى أصول "البروتوكول" ... ولا فى آداب الحديث .. يطير من حلوقنا إلى القمم العالية لينقر الأصابع، والجفون، ومقاعد السلطة، وفراشها، وثيابها الداخلية، وما تحتها .. ولينقر أيضاً أعمدة الحكم، والقهر، والفقر، والظلم، والإرهاب، والكبت، والقسوة، والاعتقال، والتعذيب، والتلفيق، والتصنت، وتقارير الأمن .. والذين يحكمون بالحديد والنار وقنوات التليفزيون .. والذين يحولون الشعوب إلى باكو "لبان"، أو مكعب "شوربة" جافة، أو بقايا سيجارة "كينج سايز".

هذا الطائر الأسطورى هو النكتة.

بالتحديد ... النكتة السياسية التى نتداولها همساً، ونتعاطاها سراً .. وتدور كالدوامة .. وتهبط كالصاعقة، وتهرب كالبرق، وتنتشر أسرع من الصوت، وتحول الترقب إلى منشور، والرأى إلى صنعة، والسخرية إلى شظايا، والضغوط إلى ضربات موجعة تحت الحزام، والشعوب المغلوبة على أمرها إلى ديناصورات.

****

عُرف عن الزعيم السوفيتى الأسبق "نيكيتا خروشوف" أنه صياد ماهر .. وكان يفخر بذلك ... وذات يوم دعى بعض الوزراء إلى رحلة صيد .. فلما طارت أول "بطة"، صوب بندقيته إليها، وأطلق النار، ولكنه لم يصبها .. فصاح أحد الوزراء :

– إنها معجزة حقاً ! ... هذه أول بطة – على ما أعلم – تستمر فى طيرانها، وهى ميتة !

فى الاتحاد السوفيتى أيضاً .. لكن .. فى عهد "ليونيد بريجنيف"، سأل مواطن عن عنوان طبيب "أنف وأذن وعيون" معاً .. فقيل له :

– هذا التخصص لا وجود له .. الموجود "أنف وأذن وحنجرة".

– لكنى أحتاج إلى طبيب "أنف وأذن وعيون".

– ولم هذا الإصرار ؟

– لأن ما أسمعه (فى هذا البلد) غير الذى أراه !

****

فى الثلاثينيات، كان فى مصر "وزارة" مكروهة من الشعب، اشتهرت بمصادرة الصحف، وتزييف الانتخابات .. وكان الشعب، يطلق عليها "حكومة اللصوص والحرامية" ... فقيل إن مواطناً كان يسير أمام "مجلس الوزراء"، فصاح :

- دى حكومة لصوص وحرامية.

فسمعه الحارس، وأمسك به، قائلاً :

- قدامى ع السجن.

- ليه ... هو أنا عملت إيه ؟

- ألم تقل إن "دى حكومة لصوص وحرامية" ؟

- أنا بأشتم حكومة عدلى باشا .. حكومة سعد باشا .. أى حكومة يا أخى !

- أنا موجود هنا من (٣٠) سنة، ومشفتش حكومة "لصوص وحرامية" غير الحكومة الموجودة دلوقتى !

فى مصر أيضاً .. لكن فى الستينيات .. أيام كبت الحريات .. التقى صديقان، فبادر أحدهما الآخر :

- هل علمت أن "فلاناً" خلع ضرسه من أنفه ؟!

- ولماذا لم يخلعه من فمه ؟

- هو حد يقدر يفتح فمه ؟

****

وقف مواطن أمريكى أمام البيت الأبيض، يسب الرئيس الأمريكى، ويصفه بالجهل .. وأمام المحكمة لم ينكر ما حدث .. فحكم القاضى بالبراءة فى تهمة السب العلنى، وحكم عليه بالسجن (١٠) سنوات لأنه - عندما وصف الرئيس بالجهل - أفشى سراً من أسرار الدولة العليا.

****

رسم زعيم عربى وشماً على ذراعه، يصور خريطة فلسطين المحتلة .. فلما سئُل عن السبب، قال :

- حتى لا أنسى.

- لكن ... ماذا ستفعل لو تحررت فلسطين، والوشم لا يُمحى ؟ .

- أقطع ذراعى.

****

دخل جهنم أربعة أشخاص، سُمح لهم بالاتصال بذويهم الأحياء على الأرض .. فدفع الروسى (١٠) آلاف روبل ثمناً للمكالمة .. ودفع الأمريكى ألف دولار .. ودفع الإنجليزى (٥٠٠) جنيه .. ولما جاء دور السودانى - وكان جعفر نميرى لا يزال فى الحكم - لم يدفع سوى (٥) قروش فقط، فاحتج الآخرون .. فكان الرد :

- إنها مكالمة محلية.

****

باختصار .. يعيش طائر النكتة فى كل مكان .. ويحط على كل الرءوس .. فوطنه حيث يوجد الإنسان .. لكن .. لا أحد يعرف من أين جاء، ولا شجرة عائلته، ولا أصل جنسيته، ولا إلى من ينتسب ؟

على أننا نعرف أنه قادر على المطاردة .. بارع فى المناورة، والمراوغة .. ينقض على فريسته فى الوقت المناسب .. يهاجمها دون أن تصيبه قوات الأمن المركزى .. لا تؤثر فيه قنابل الغاز المسيل للدموع .. يفر من الكمين قبل اصطياده، أو اعتقاله .. ولم ينجح حاكم عسكرى واحد فى فرض قانون الطوارئ، أو قانون الاشتباه السياسى عليه.

فمهما كان نظام الحكم باطشا فإنه لا يقدر على حبس الطيور .. والنكات.

ومهما كان نظام الحكم صارماً، فإنه لا يجرؤ على تقديمها إلى المحاكمة بتهمة تحقير السلطات، أو تدبير انقلاب.

ولكن ...

هذه الميزة هى - فى الوقت نفسه - عورة.

فلا يجوز أن تقاتل الطيور نيابة عن الشعوب .. ولا يعقل أن تكون النكتة - مهما كانت جارحة - بديلاً للرأى، والفعل والحزب، وجماعة الضغط، والنقابة، والصحيفة، والحركة، والمشاركة وتذكرة الانتخاب، وتصحيح الخطأ، وتغيير المنكر، وصياغة علاقات سليمة بين المواطن والحاكم.

إنها وسيلة قاصرة .. عاجزة .. مثل - المايوه البكينى - لا لزوم له أحياناً ثم ... إنها يمكن أن تكون سلاحاً مضاداً فى يد السلطة، أو فى يد العدو ... نظريات الدعاية السياسية، والحرب النفسية، تؤكد ذلك ... وتجارب الماضى القريب أيضاً.

فالنكتة قد تأتى من أعلى .. لتصفية حسابات وصراعات فى كواليس الحكم .. وعندما تصل إلى أسفل، يضحك الناس عليها دون أن يعرفوا أصابت من ؟ .. فالشعوب كثيراً ما تضحك دون آن تعلم .. أو كثيراً ما تضحك على طريقة "الأطرش فى الزفة".

فى الصراع الخفى بين جماعتى جمال عبد الناصر، وعبد الحكيم عامر، استُخدمت النكتة .. كانت كقبضة ملاكم يوجه ضرباته تحت الحزام .. ومن ثم نزعت عورة الحكم، وعبثت بالمحرمات، وتجاوزت الحدود .. وراح كل طرف يقذف بها الطرف الآخر .. ليشوه صورته .. لتصبح صورة مهرج فى سيرك، يغطى ملامحها البيض والطماطم ليضحك الناس عليها، فيسقطوا صاحبها من نظرهم، ومن فوق عرشه.

والنكتة قد تأتى من الخارج لتشعل النيران فى الداخل .. إنها فى هذه الحالة تسعى إلى زعزعة الأفراد والمجتمعات والشعوب .. تسعى إلى زيادة رقعة النزاع بين الجميع !

وفى كتابه "الحرب النفسية - معركة الكلمة والمعتقد" يقول صلاح نصر - رئيس جهاز المخابرات العامة الأسبق : إنه من الغريب، المخزى، وجود "سفارة أجنبية فى القاهرة، تستخدم النكات كوسيلة من وسائل الحرب النفسية علينا، وكان بها قسم خاص، وظيفته خلق الشائعات، وترويجها فى شكل نكات، يساعدها فى ذلك، شرذمة من الخونة والمأجورين".[1]

وبعض الظن (وليس كل الظن إثماً)، أنه كان يقصد السفارة الأمريكية .. فالطبعة الأولى من الكتاب، صدرت فى ١٣ سبتمبر ١٩٦٦ .. أى فى وقت اشتدت فيه المعركة بين جمال عبد الناصر والولايات المتحدة، ووصلت إلى مرحلة الاشتعال الذاتى، بسبب القومية العربية، وحرب اليمن، وتأميم الاقتصاد القومى، فيما عُرف بالقرارات الاشتراكية .. وفى ذلك الوقت، كان جمال عبد الناصر، يسخر من "الأمريكان"، وفى خطاب علنى، قال:

إن عليهم أن يشربوا من البحر، فإن لم يكفهم البحر الأبيض، فهناك البحر الأحمر.

وقرر "الأمريكان" أن يردوا بالمثل .. فحولوا سفارتهم إلى "مجلس نكتة" ... أى مجلس يصوغ النكتة، تمهيداً لنشرها.

وفى تلك الأيام قيل إن جمال عبد الناصر، تخفى كى يتفقد أحوال الناس، فسمع موظفاً يقول لزميله : إن راتبه ينفد فى اليوم العاشر من الشهر، وسأله زميله :

- وكيف تعيش باقى أيام الشهر ؟

- أعيش على الستر.

فأصدر جمال عبد الناصر قراراً - فى اليوم التالى - بتأميم الستر.

(١) الجزء الأول - ص ٢٤٣ - الناشر دار القاهرة.

وقيل ... إنه عُثر على تمثال فرعونى، احتار علماء الآثار فى تحديد أصله، فاقترح جمال عبد الناصر، إرساله إلى المخابرات لكشف غموضه .. وبعد ساعات قالوا له :

- لقد تأكدنا أنه تمثال رمسيس الثانى.

- كيف ؟

- اعترف بنفسه يافندم ؟

وبعد هزيمة يونيو ١٩٦٧، جربت إسرائيل سلاح النكتة المضادة بنجاح ... فقد أرادت تحطيم الشعب بعد أن حطمت الجيش .. وقد عرفنا ذلك قبل صفحات.

****

ونحن نكتفى بترديد "آخر نكتة" .. ونضحك عليها ... فشر البلية ما يُضحك .. لكن .. لا الذى سخرنا منه تغير .. ولا حياتنا أصبحت أفضل.

كل ما يهمنا أن نضحك .. مهما كانت العواقب.

وقد لاحظ ذلك عبد الرحمن بن خلدون منذ اليوم الأول لنزوله مصر .. وقال : "أهل مصر كأنهم فرغوا من الحساب" .. أى كأنهم تجاوزوا كل ما هو جاد.

أما تلميذه المقريزى فكان أشد صراحة منه، عندما قال : "ومن أخلاق أهل مصر الإعراض عن النظر فى العواقب" .. "والانهماك فى الملذات والاشتغال بالترهات" .. وهم بارعون "فى الملق والبشاشة" إلى حد التفوق "على كل من تقدم ومن تأخر".

"وعدم الإمعان فى حساب العواقب، يستتبع الفرح والمرح، لأن الإنسان إذا لم يفكر فى العواقب لم يحمل هماً فيكون مجال النكتة عنده فسيحاً." (٢)

ويضيف أحمد أمين : "ومن غريب ما نلاحظه فى هذا الباب أن أشد الناس بؤساً وأسوأهم عيشة وأقلهم مالاً وأخلاهم يداً أكثر الناس نكتة، ففى القهاوى البلدية حيث يجلس الصناع والعمال ومن لا صنعة لهم ولا عمل، وفى المجتمعات الشعبية حيث يجتمع البؤساء والفقراء نجد النكتة بينهم تحل محلاً ممتازاً؛ ونجد ابن النكتة محبوباً مقدراً، يُفتقد إذا غاب، ويُبجل إذا حضر كأن الطبيعة التى تداوى نفسها بنفسها رأت البؤس داء فعالجته بالنكتة دواء".

****

سُئل مصرى، وسودانى، وعراقى :

---

(٢) أحمد أمين - قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية - مكتبة النهضة المصرية - ص - ١٠.

- ما رأيك فى أكل اللحمة ؟
فأجاب المصرى :
- يعنى إيه "لحمة" ؟
ورد السودانى :
- يعنى إيه "أكل" ؟
وقال العراقى :
- يعنى إيه رأى" ؟

****

كان أمير من أمراء النفط، يمشى فى الصحراء، فعثر على مصباح "علاء الدين" السحرى... وعندما خرج له المارد، سأله :

- شبيك لبيك عبدك بين إيديك ... إيش تطلب ؟

فنظر إليه الأمير النفطى شذراً .. وقال :

- انت ... ايش تطلب ؟

****

أثناء حرب الخليج، زادت هجرة المصريين إلى العراق إلى حد أنهم سيطروا على معظم المرافق والخدمات .. وعثر مواطن عراقى على المصباح السحرى، واستدعى الجن، الذى سأله عما يريد، فقال المواطن العراقى :

- أريد التخلص من المصريين فى العراق.

فقال الجن مستعطفاً :

- حرام عليك يا بيه .. داحنا غلابه !

****

بعد حرب أكتوبر، زار جمال عبد الناصر، الرئيس أنور السادات فى المنام.

فقال له السادات :

- أبشر يا جمال ... فقد عبرنا القناة وحطمنا خط بارليف.

فسر جمال عبد الناصر، وقال :

- دى حاجة .. ترد الروح.

فانزعج السادات، وقال :

- استنى .. ما بعد كده جت الثغرة !

****

كل شيء قابل للنكتة إذن.

الحكام ... الشعوب ... التصرفات ... والسياسات.

لا شيء مقدساً أمام النكتة.

لا فرق عندها بين الحرام والحلال .. بين الجنس والدين .. بين أنور السادات ومارلين مونرو .. فهي طلقة طائشة، مجهولة العيار .. تنطلق همساً ... وتتفجر ضحكاً.

والنكتة جمعها نكات .. والفعل نكت .. أي ضرب الأرض بقضيب من حديد، فأثر فيها، وحطم قشرتها .. ويقال "نكت فلان" يعني ألقاه على رأسه.

وفي "القاموس المحيط" .. إن النكات تشبه "الوسخ في المرآة" .. والمقصود أنها تشوه الصورة وتطعن أصحابها، وتلطخهم بغير المستحب.[٣]

****

بسبب مضاعفات مرض السكر، كان جمال عبد الناصر، يشعر بآلام حادة في ساقه اليمنى، فسافر للعلاج في مصحة تسخالطوبو بالاتحاد السوفيتي، عندما أصبح يمشي بصعوبة .. وبعد عودته من رحلة العلاج، سُئل :

- دلوقتي تقدر تمشي ؟

- أيوه !

- طب ما تمشي !

****

النكتة - على عكس ما هو شائع - مسألة جادة جداً.

فقد اهتم بفحصها علماء النفس .. وأحاطها الفلاسفة بالرعاية ... وربط بينها وبين ما حولها علماء الاجتماع .. وجمعها رجال الأمن .. وحللتها أجهزة المخابرات .. أما خبراء السياسة والحكام والزعماء فقد حسبوها دائماً على قوى المعارضة.

وحتى الآن توجد (٧٥) نظرية علمية تفسر ظاهرة النكتة.

---

(٣) القاموس المحيط - طبعة دار الجليل - بيروت - الجزء الأول - ص ١٦٥.

وأولى هذه النظريات ... فرعونية ... فيقال : إن المصريين القدماء كانوا يعتقدون أن العالم خُلق من الضحك .. فحين أراد الإله الأكبر أن يخلق العالم أطلق ضحكة قوية فكانت أرجاء العالم السبعة .. ثم أطلق ضحكة أخرى فكان النور .. وأطلق ضحكة ثالثة فكان الماء .. وهكذا حتى تم خلق الروح من الضحكة السابعة. (٤)

وفى التاريخ .. أن الفيلسوف اليونانى "أرسطو" كان أقدم، وأول فيلسوف اهتم بالنكتة .. فراح يتأملها .. وكان الفلاسفة من قبله يوجهون عقولهم إلى المطلق (الكون والخلق والطبيعة وما وراء الطبيعة) .. وقد اعتبر أرسطو النكتة، إهانة، فقال : "إذا نكت إنسان على إنسان فقد شتمه" .. وكانت بالنسبة له نوعاً من التحدى "الوقح" فى مواجهة "التأمل الفسفى.

ثم ... إنها أيضاً، صورة من صور الحكمة .. حكمة البسطاء، والسفهاء الذين يشتمون السادة الكبار بذكاء، ويحطمون هيبتهم بالسخرية منهم، دون أن تطولهم يد العقاب .. فعندما يعجز الفعل يكون الرأى، وعندما يُسحق الرأى، لا مفر من السب .. فمزحة الصغار تهدد كرامة الحكام.

ووضع أرسطو النكتة بين "الواقع" و "الفن" ... فهى "تنبثق عن الواقع، وتقترب من الفن" .. وهى تنتشر أكثر عندما ينحدر الفن، وتشتد مرارة الواقع .. وسرعة انتشارها فى تلك الأوقات تعنى أن الناس تتوقع مصائب أكبر .. فتكون النكتة - فى هذه الحالة - أشبه بمصدات الرياح .. فالضحك بعده بكاء .. أو كما يقول المثل الفرنسى : "من يضحك يوم الجمعة يبكى يوم الأحد".

وبعد أن ينتهى المصريون من الضحك، يقولون : "اللهم اجعله خير" .. وكأن الضحك سحابة حبلى بالشر، ستمطر الحزن والنكد.

وفى الكتاب المقدس .. "نهاية المرح والطرب شعور القلب بأثقال الهموم".

وفيه ... "القلب يكون مفعماً بالأسى حتى فى حالة الضحك".

والفرنسيون يقولون : "اضحك على الشىء قبل أن تبكى منه".

لذلك ... تنتشر النكتة أكثر وقت الخطر .. وأيام الحرب ... فالضحك هو الوجه الآخر للموت.

ففى كتابات مونتجمرى (القائد البريطانى الشهير الذى هزم روميل فى معركة العلمين) حكاية عن قائد اشتهر بتشدده وقسوته فى معاملة جنوده .. وذات يوم لاحظ أن أحد الجنود مع الحلاق، يقص له شعره، فقال له :

---

(٤) د. أحمد أبو زيد - الفكاهة و الضحك - مجلة عالم الفكر - المجلد١٢-العددالثالث-ص٣.

– ما هذا ؟ أتحلق شعرك أثناء ساعات العمل ؟

– نعم .. لقد نما شعرى أثناء ساعات العمل !

– ولكن .. شعرك لا ينمو كله أثناء ساعات العمل ؟!

– حقاً يا سيدى .. لذلك قلت للحلاق ألا يقص كل شعرى.

وروى البريجادير مارك هنكر أحد قادة القوات البريطانية فى شمال أفريقيا، أن قائداً استدعى أفراد وحدته، وشرح لهم العملية المطلوبة، وقال : إنها تحتاج إلى مائة متطوع سيقتلون جميعاً باستثناء رجل واحد، فتقدم مائة جندى للتطوع، وسجلت أسماؤهم، وانصرفوا للاستعداد، وفى ثكناتهم سُمع كل واحد يتمتم بأسى :

– كم سيؤلمنى أن أفقد كل زملائى فى هذه العملية !

وفى كتابه "سيكلوجية الفكاهة والضحك" يقول د. زكريا إبراهيم : إن الإنسان .. ذلك المخلوق الناطق، الشقى، كان لابد أن يجد علاجاً لفكرة الموت .. " ومن ثم فقد كان الدين،وقد كان الضحك" ! .. وليست صدفة أن يكون الإنسان هو "الحيوان الناطق" .. وأن يكون فى الوقت نفسه هو "الحيوان المتدين"، وهو "الحيوان الضاحك".[٥]

ولعل هذا يفسر .. لماذا نضحك فى المآتم، والجنازات أحياناً .. إن الضحك هنا لا يكون على الميت، وإنما على نهايته، ونهايتنا .. على الدنيا .. ولو لم نضحك لأخذنا الحزن بعيداً.. بعيداً إلى مياه الاكتئاب العميقة .. ولكان من الصعب على الحياة أن تستمر.

حدث أن توفيت أم مطرب شعبى كان مشهوراً .. وكانت أمه راقصة واعتزلت، ولم تكن فوق مستوى الشبهات، وعندما ذهب صديقه المونولوجست، خفيف الظل يعزيه، بدا المطرب فى حالة تأثر شديد، وأراد أن يدلل على صلاح الفقيدة، فقال :

– إن نعشها كان يجرى بها جرياً.

فعلق المونولوجست :

– لازم كانت خايفة من بوليس الآداب !

إن هذا النوع "الفورى" من النكات محاولة لرفع الروح المعنوية .. بالضحك .. إنه لا يختلف كثيراً عن الضحك الهيستيرى الذى يجد فيه جنود الخطوط الأمامية أنفسهم، على إثر انفجار بعض القنابل على مقربة منهم، وتسببها فى قتل عدد من زملائهم.

وحدث أن خرجت امرأة إنجليزية عجوز، ترقص ضاحكة فى الشوارع، على أثر انفجار

(٥) الناشر مكتبة مصر – ص ٦ – طبعة ١٩٨٨.

قنبلة شديدة أطاحت بالمنزل المجاور لمسكنها ... كانت تقهقه بصوت مرتفع وهى تقول : "لقد أصبحنا الآن فى الخطوط الأمامية".

وتكررت الواقعة .. لكن .. مع شاب فى الإسماعيلية، بعد حرب الاستنزاف التى اشتعلت على طول خط قناة السويس بعد هزيمة يونيو.

إنه الألم إذا ما زاد عن الحد انقلب إلى هزل.

والتراجيديا إذا ما تجاوزت الحجم انقلبت إلى كوميديا.

وهذا بالتحديد ما يُضحكنا فى شارلى شابلن، ونجيب الريحانى، وعادل إمام .. إننا نتعاطف معهم حينما نضحك .. فطابعهم التراجيدى أزيد من اللازم .. وقد حاولوا فى البداية تمثيل المأساة، لكنهم فوجئوا بالجمهور يضحك .. لا يبكى .. مع أنهم قصدوا الدموع .. فكان أن تحولوا إلى الكوميديا .. ولو أصروا على التراجيديا لبقوا حتى الآن فى صفوف الكومبارس.

ولو سقطت فتاة مراهقة أمامك تحت عجلات سيارة، فإنك ستلاحظ أنها ستنفجر ضاحكة بمجرد نهوضها بعد الحادث .. والتفسير هنا جنسى بحت .. أى أن الفتاة المراهقة، شعرت من الصدمة، أن ما حدث أشبه بعدوان جنسى، رمزى .. هذا لا يحدث للمرأة العجوز، التى تواجه مثل هذا الموقف بخوف شديد، وغضب أشد.

وما دام التفسير جنسياً، فلابد أن نفتش عن فرويد.

وفرويد هو رائد مدرسة التحليل النفسى، وقائد أكبر انقلاب حدث فى علم النفس .. فقد وضع على عينيه نظارة الجنس، وتأمل من خلالها كل شىء .. إن الاضطرابات التى نتعرض لها سببها الكبت .. والنصف السفلى للإنسان يتحكم فى النصف العلوى .. أى الغريزة تسيطر على العقل.

لذلك .. ليس مثيراً للدهشة أن يربط بين الجنس والنكتة .. فهى - فى رأيه - من العمليات "الإخراجية" التى تريح الإنسان، وتخفف عنه توتراته.

وعندما ننكت نعود إلى طفولتنا .. نرتد إلى سنوات البراءة، والحرية، والمرح، والانطلاق.. نهرب بعيداً عن رقابة الكبار .. ونتحرر من الطاقة المكبوتة .. تماماً كما يندفع التلاميذ الصغار إلى الطريق العام، فرحين، متهللين، لخروجهم من المدرسة .. وحسب نوع الكبت يكون نوع النكتة .. فالغضب والخصام يولدان النكات العدوانية، والدعابات الساخرة .. والشعور بالنقص يثيران النكات الخفيفة التى تتسم بالحياء والخجل .. والميول الجنسية تعمل على ظهور النكات الماجنة .. والضغوط الاجتماعية والاقتصادية تخرج على شكل نكات سياسية حراقة.

ويروى فرويد لنا بعضاً مما أسماه "نكات المشنقة" .. وهى قصص حقيقية، من شدتها تحولت إلى نكات ساخرة .. كقصة المحكوم عليه بالإعدام الذى اقتيد إلى غرفة المشنقة صباح يوم الاثنين (وهو أول أيام الأسبوع فى الغرب) فابتدر منفذى الإعدام بقوله :

– حقاً .. إنها لبداية طيبة للأسبوع !

وسُئل شخص آخر، محكوم عليه، قبل تنفيذ الحكم :

– عندك حاجة تقولها ؟

– أيوه .. قولوا للقاضى إنه عمل طيب لحكمه علىّ بالإعدام، عشان أبقى أتعلم !

أى أن المحكوم عليه بالإعدام – فى القصتين – يتجاهل موته تماماً .. كأنه ينكر الواقع .. أو يستخف به .. حتى يحتمل الموقف .. ويسلم رقبته إلى حبل المشنقة.

ومن الموت، يقفز فرويد إلى الجنس .. ويهتم اهتماماً كبيراً بدراسة النكات البذيئة .. وفى كتابه "النكتة وعلاقتها باللاشعور" .. يلاحظ أن النكتة الجنسية تنطوى على عنصر تخفف أو راحة .. فهى تحررنا إلى حين من القيود الصارمة التى يفرضها علينا المجتمع، فيدع لنا مطلق الحرية فى أن نتعرض لتلك المسائل المحرمة، أو المحظورة التى اعتدنا عدم الإشارة إليها.

لكن .. النكتة الجنسية تتجاوز تفريغ الكبت إلى الاستثارة، والإثارة، والتحريض، إذا ما رُويت فى وجود الجنس الآخر .. ومن يفعل ذلك، كمن يكشف عورته .. أو كمن يتمنى ذلك .. ومن يركز – وهو يروى نكاته الجنسية – على شخص ما من الجنس الآخر، فهو يخدش حياءه، حتى يضطره إلى انتهاك حرمة القانون الأخلاقى .. أى أن الفتاة التى تضحك على نكتة بذيئة قالها شاب .. يمكن أن تقبل منه ما هو أبعد .. وأخطر .. فالنكتة دعوة إلى وجود رأسين فى الحرام.

فى المترو القادم من محطة "كوبرى الليمون" فى طريقه إلى "مصر الجديدة"، كان "الكمسارى" مشغولاً بالتطلع إلى فتاة لم يكن فيها من جمال سوى بروز صدرها الناهد .. وفى تلك اللحظة بالذات سأله راكب :

– "منشية البكرى من فضلك" ؟

فأجابه وهو يواصل تطلعه إلى الفتاة :

– لا .. "منشية الصدر" .. الصدر بس !. [٦]

---

(٦) د. زكريا إبراهيم – المصدر السابق.

ولو كانت النكتة الجنسية نوعاً من الالتفاف حول القواعد الأخلاقية للخوض فى المسائل المحرمة، فإن النكتة السياسية نوع من الالتفاف حول القواعد الأمنية، والقمعية للخوض فى المسائل الممنوعة .. وفى الحالتين يكون الضحك مثل قنابل الدخان التى تستر من يُطلق النكتة، أو يسمعها، وتحميه من البطش والعقاب.

لذلك ...

فالشعوب الفقيرة، المقهورة تعتبر النكتة ضرورة مثل رغيف الخبز، وقرص الأسبرين، وكوب الشاى، وإنجاب أكبر عدد ممكن من الأطفال.

وهى تتلهف عليها .. تتذوقها .. تتداولها .. وتتعاطاها.

إن الضحك عند هذه الشعوب .. رغبة .. مقاومة .. تشبث بالحياة .. طبقة من السكر تغطى كتلة من الإهانة .. تفريغ لطاقة الغيظ .. عجز عن المشاركة السياسية .. جوزة .. وجنس .. وحشيش.

والحشيش بالذات منشط للنكتة .. ومخدر للضمير .. وهو يخلق الوهم، ويصنع الضحك المزيف .. أو الضحك الأشبه بالمغص .. ينتقل بين الحلق والبطن .. ويفجر الألم اللذيذ .. أو اللذة المؤلمة.

والنكتة تزيد عندما يرخص الحشيش .. والرأى للكاتب الساخر "محمود السعدنى" .. لهذا فالنكات الآن أقل .. فثمن "قرش" الحشيش، ضعف ثمن جرام الذهب .. ومعنى ذلك أن الضحك لم يعد فى متناول الفقراء .. فلا هم يأكلون اللحم، ولا هم قادرون على السخرية منه.

والمخدرات الرخيصة .. البديلة تدمر الجهاز العصبى .. وتنزع عقل من يتعاطاها، وتضع بدلاً منه "صرمة" قديمة .. الأقراص المخدرة، وحقن "الماكستون"، مثلاً .. فهى تفرض البلاهة، والجمود، ورد الفعل البطىء .. ولو قلت لواحد من مدمنيها "صباح الخير" فى "القاهرة" .. رفع رأسه فى "بنها" .. ونظر إليك بعيون ميتة فى "طنطا" .. وابتسم ابتسامة جافة فى "دمنهور" .. وهز رأسه فى "الإسكندرية" .. ورد الصباح فى "مرسى مطروح" .. لكنك لن تسمع الرد، لسبب بسيط هو أنك لن تكمل معه إلى "مرسى مطروح" .. وأغلب الظن أنه سلك الطريق الخطأ، فقد كان يريد الذهاب إلى بيته فى "حلوان".

****

وعلماء النفس الذين جاءوا بعد "فرويد" كانوا - فى تفسيرهم للنكتة - أكثر حياءً منه. أجمعوا على أن النكتة، محاولة لإعادة التوازن داخل النفوس القلقة .. أو المضطربة .. وأضافوا : إنها تُحدث مناعة نفسية تحول بيننا وبين مصائب الآخرين من حولنا .. أى أن النكات نوع من "الأنتيبوتك" ضد النكبات .. وهى تأتى فى الوقت المناسب، فتجعلنا نتحمل

"تلك الجرعة الزائدة من المأساة" .. وتساعدنا على التحرر من الألم .. ومن ثم .. هى "أداة فعالة للمحافظة على صحتنا النفسية".

وهم يقولون : إن الابتسامة رد فعل للسرور .. والضحكة رد فعل للألم.

والابتسامة مشروع ضحكة .. أو ضحكة صامتة .. أو حضانة ضحكة .. والسعيد حقاً يبتسم ولا يضحك .. مع أن الابتسامة تعبر عن مشاعر أخرى، متنوعة .. السخرية .. الإغراء .. التحريض .. التشجيع .. مثلاً.

والعيون قد تبتسم قبل الشفاه ... والطفل يبتسم قبل أن يتكلم .. وهو يبكى بعد ثوان من خروجه للحياة .. ويبتسم بعد أسبوع .. ويضحك بعد شهر .. ثم .. يلعب بعد ذلك.

وأيام أجدادنا، كان الضحك "قلة أدب" .. خاصة إذا كان بلا سبب .. وكانت الضحكة دليلاً على الابتذال والسوقية .. أما البسمة فدليل على الأرستقراطية.

ويقال إن الملك "فؤاد" لم يضحك فى حياته أبداً.

وكان الملك "فاروق" يتصنع السعادة .. فكان يبالغ فى الضحك .. وكثيراً ما كان يراهن حاشيته على مبالغ هائلة، إن أضحكوه .. وكان يكسب الرهان .. وكان يدفن همومه فى "القمار" .. و "الطعام".

****

وفى علم النفس .. الأكثر ضحكاً هو الأسرع اكتئاباً.

والمرح الزائد مثل الحزن الزائد .. مرض .. فخير الأمور الوسط.

وعندما تضحك، تتحرك فى جسمك (٢٦) عضلة، فى البطن، والصدر، والرقبة، والظهر.. كأنك مارست بعض التمرينات البدنية .. وهذا يعنى أن تنفسك سيكون أفضل.. والحجاب الحاجز سيكون أكثر ليونة .. ولن تتعرض لمتاعب فى الهضم.

والمصاب بالقلق المزمن إذا سمع نكتة وضحك .. فقد شُفى .. فالإقبال على العمل، والاستجابة للنكتة من أهم علامات الصحة النفسية.

والمثير للدهشة أن طبيباً أمريكياً اسمه "هيرام براونيل" استخدم النكتة فى تشخيص حالة المخ المصاب بجلطة .. إنه يلقى بنكتة .. فإذا لم يضحك المريض، كانت الجلطة فى الفص الأيمن من المخ .. والجلطة على هذا الجانب لا تحرم المريض من الحوار، لكنها تحرمه من تذوق النكتة، والتقاط مغزاها .. ومن ثم لا يضحك عليها .. فالفص الأيمن هو فص الإبداع والاستمتاع.

ولا مبرر - بعد ذلك - للاستهانة بالنكتة !

****

والإنسان هو المخلوق الوحيد الذى يضحك.

الكلب يهز ذيله .. الحمار يحرك أذنيه .. القرد يُبرز أسنانه .. والإنسان يضحك .. فالضحك انفراد إنسانى، مثل الخبرة، والتجربة، والكذب، وإطلاق الصواريخ، واستعمال حبوب منع الحمل.

ولا يضحك الإنسان إلا على الإنسان.

لذلك ... يقال إنه حيوان يَضحك ويُضحِك.

ولو ضحكنا على الحيوان .. فهذا فقط لأنه يقلد الإنسان .. فنحن لا نضحك على القرد إلا إذا ارتدى بدلة؛ ودخن سيجارة، وأمسك بسماعة التليفون .. أو إذا شرب اللبن من "البزازة"، وقلد "نوم العازب"، وقام "بعجين الفلاحة" .. ولا نضحك على الكلب "الكانيش" إلا إذا شرب الخمر، وترنح منها .. ولا نضحك على الفيل إلا إذا لعب كرة القدم مع الدب فى السيرك القومى.

وقد تأمل البشر صفات الحيوانات، وأطلقوها - من باب التكريم - على الحكام .. ففرعون مصر كان يُوصف بأنه "الفحل القوى" من البقر "الذى يحمى الوادى" .. والعرب قالوا : "فلان كبش قومه" .. أى سادهم .. وسيطر عليهم .. وآخر خلفاء بنى أمية سُمى "مروان - الحمار" لصبره على مرارة الحرب، واحتماله بأس القتال .. واسمه الأصلى كان مروان بن محمد.

ونابليون وصفوه بالنسر .. وأتاتورك وصفوه بالذئب .. وعمر المختار وصفوه بالأسد .. أسد الصحراء .. مع أن الأسد لا يعيش فى الصحراء.

وقد درب الإنسان الحيوانات على تقليده .. وشيد لها خيام السيرك .. وفتح مدارس ومعاهد خاصة بذلك .. وحاسب وزارة الثقافة على تقصيرها فى هذا الجانب .. ثم .. راح بعد ذلك يسخر من الحيوانات، ويضحك عليها، ويرميها بالفشار والفول السودانى... مع أنه فى القرون البعيدة عبدها، وقدسها، وقدم لها القرابين .. ثم إنه جعلها تنطق بالحكمة، والموعظة .. وتدعو للعقل والحيلة عند مواجهة البطش والاستبداد .. والدليل كتاب "كليلة ودمنة".

ففى هذا الكتاب الخالد، تتحدث الحيوانات بلسان البشر .. وتقول - للديكتاتورية - ما يصعب علينا أن نهمس به أحياناً.

والكتاب يُنسب لفيلسوف هندى، بوذى، اسمه "بيدبا" .. وضعه فى مواجهة طاغية من ملوك الهند يقال له "دبشليم" ... "هابته الملوك، وخافته الرعية، فلما رأى ما هو عليه من المُلك والسطوة، عبث بالرعية، واستصغر أمرهم، وأساء السيرة فيهم، وكان لا يرتقى إلا إذا ازداد طغيانه .. ومكث على ذلك برهة من دهره".

وكان بيدبا - الفيلسوف، يرى أن العاقل يبلغ حكمته وغايته بالحيلة، لا بالقوة .. بالدهاء لا بالسيف ... بالعقل لا بالعضلات .. فقرر مواجهة الملك الظالم، الباطش بالسخرية منه.. ورده إلى الخير والعدل، برواية سيل من القصص الموحية على ألسنة الحيوانات واستخراج الحكمة منها .. وكل ديكتاتور بالإشارة يفهم.

وأغلب الظن أنها المحاولة الأولى من نوعها فى التاريخ .. محاربة الطغيان بالإبداع الأدبى.. وصياغة الرأى المعارض بأسلوب ساخر .. جذاب .. يفهمه كل الناس، ولا يرد عليه بالرصاص .. أسلوب أقرب للنكتة.

وهذا بالتحديد ما أغرى "روزبه بن دانويه" الشهير بابن المقفع بترجمة الكتاب إلى اللغة العربية ... فقد وجد فيه فرصة لا تعوض لمواجهة عسف الدولة "العباسية" بإخراج ألسنة الحيوانات لها ... والدولة "العباسية" كانت فى عز قوتها .. وقد عاشت بالسيف .. وبالسيف انتهت.

وهناك مفاجأة تاريخية، يفجرها بعضهم .. هى أن كتاب " كليلة ودمنة" لم يترجمه ابن المقفع، إنما ألفه .. وقد نسبه إلى بيدبا - الفيلسوف، الهندى الذى لا وجود له، خوفاً على حياته .. أى أن بيدبا اسم مستعار .. وهمى .. والكتاب خدعة هندية ... ممكن !

ويدعم ذلك ... أن ابن المقفع كان مشغولاً فى معظم كتاباته بقضية "السلطة والسلطان" .. وفى هذه الكتابات نجده ينصح السلطان .. أى سلطان، بالسهر على عمله .. ورعاية الناس .. والابتعاد عن شهوة المال والجاه .. واختيار بطانته من "أهل الدين والمروءة" ... وأن يرضى "الأخيار منهم وذوى العقل" .. وأن يباشر الأمور الجسام بنفسه ... وأن يتجنب سرعة الغضب، وسرعة الرضى .. "فليس أسوأ حالاً من أهل السلطان الذين يفرطون باقتدارهم فى غضبهم، وبتسرعهم فى رضاهم".

وليس لذى سلطة "أن يكذب، وليس له أن يبخل، وليس له أن يكون حلافاً، لأن أحق الناس بالإيمان، الملوك".[٧] وهو يذكر الملوك لأن على أيامه لم يكن هناك جنرالات، ورؤساء، وزعماء أحزاب.

ويختتم كلامه قائلاً :

"إنك لا تأمن أنفة الملوك إن أعلمتهم، ولا تأمن عقوبتهم إن كتمتهم، ولا تأمن من غضبهم إن صدقتهم" .. أى لا أمان لحاكم فى كافة الأحوال .. فالبعد عن السلطة "غنيمة".

ولأن "باب النجار مخلع" فالنصيحة التى قالها ابن المقفع لم يعمل بها .. فكان أن قربته كتاباته من السياف لا من السلطان .. وعندما أدرك ذلك، أنكر أنه مؤلف "كليلة ودمنة" .. وزعم أنه ترجمه .. مع أن أحداً لم يعثر فى اللغة الهندية القديمة على أصل له.

---

(٧) عمر الطباع - "كليلة ودمنة - دراسة ونصوص" - دار المفيد - بيروت - ١٩٨٢.

وقيل : إنه نسب الكتاب إلى أحد فلاسفة الهند طمعاً فى الرواج .. فعقدة "المستورد" على ما يبدو أقدم مما نتصور.

وقيل : إنه كان يقصد بالملك "دبشليم"، الخليفة "أبا جعفر المنصور" .. أما "بيدبا" الفيلسوف، فهو ابن المقفع نفسه، وفعل ذلك احتيالاً كى ينصح الخليفة، ويتقى - فى الوقت نفسه - بطشه، ويحافظ على رقبته.

على أنه سواء ترجم ابن المقفع الكتاب، أو صاغه بنفسه، فإنه لم ينجُ من القتل .. فالسخرية التى طهرت الملك دبشليم من ديكتاتوريته، ضاعفت من غيظ وغضب الخليفة "المنصور"، فاتهم ابن المقفع بالزندقة .. أى بالكفر والإلحاد (مع أنه لم يكن يسارياً) وأمر بالتخلص منه .. وتم ذلك بتقطيع جسمه جزءاً، جزءاً، وهو على قيد الحياة، ووضع هذه الأجزاء - أمام عينيه - فى ماء يغلى ... منتهى الوحشية.

وأصبح ابن المقفع فى ذمة التاريخ ... ولا يزال.

أما الخليفة - السفاح فقد لعنه الناس .. وسيظلون يلعنونه إلى يوم القيامة.

فالكاتب يبقى .. والحاكم يتلاشى .. هذه حقيقة .. مثل الشمس، والقمر، والنجوم، ورحم المرأة، وسكون الليل، وخفة دم برناردشو.

لكن ... من يفهم ؟! .

****

ومنذ ذلك الزمن البعيد، والحيوانات تنطق بما يريد البشر، أو بما يعجزون عنه .. لقد قطع البشر ألسنتهم، ووضعوها فى حلوق الحيوانات ... وكثير من النكات السياسية التى نضحك عليها، ونسخر بها ممن حولنا أبطالها من ذوات الأربع.

مثلاً ... (٨)

لم يحتمل الأرنب الجوع، وسمع أن الدب يحصل على ما يريد فى السيرك، فتوجه إليه .. ورحب به الدب قائلاً :

- أهلاً .. يا أرنب.

- أرنب .. أنا الدب، وأنت الأرنب !

احتد الدب، وارتفعت أصواتهما، فلجأ الاثنان إلى المحكمة، حيث يجلس القاضى (الأسد).

---

(٨) محسن محمد - أخبار اليوم - ١٩٨٧/٥/١٦ - الصفحة الأخيرة.

قال الأسد :

- فى هذه البلاد كل شىء إثباته بالمستندات.

لم يكن الدب مستعداً، بينما جاء الأرنب بمستندات قاطعة ومختومة بخاتم الدولة (خاتم النسر) فأصدر القاضى حكمه بأن الأرنب هو الدب لذلك أخذ مكانه فى السيرك.

وظل الدب يسير مشرداً فى الشوارع، ليكتشف بعد ذلك أن الأسد الذى يجلس مكان القاضى حمار يحمل شهادة بأنه أسد.

ومثلاً ...

عند الحدود قابل فيل أرنباً ..

فسأله الأرنب :

- على فين ؟

- سأهرب من البلد !

- ليه ؟

- لأنهم يحبسون الفئران.

- لكنك فيل .. مش فار.

- أيوه .. لكن إزاى أثبت لهم كده ؟! .

وهذه النكتة، قيلت فى الستينيات، فى مصر .. وعبرت عن سطوة الأجهزة السرية، وضرباتها العشوائية، وخلط الحابل بالنابل عند القيام بحملات الاعتقال ... إلى حد القبض على مواطن مسيحى بتهمة انتمائه لتنظيمات الإخوان المسلمين .. وبعد أن أثبت أنه مسيحى، لم يفرجوا عنه، وحولوه إلى عنابر الشيوعيين .. وعند الإفراج عنه كان قد أصبح شيوعياً بالفعل.

****

لقد أراد الإنسان دائماً أن يتوارى وراء غيره .. فجعل الحيوان ينطق، لأن الحيوان لا يعتقل إذا ما تكلم فى السياسة أو سخر من الفقر والقهر .. فلم نسمع عن حيوان قبض عليه بتهمة تحقير نظام الحكم والحض على كراهيته والتنكيت عليه .. ولو أن ذلك حدث فالسجن سيكون أفضل حديقة حيوان .. كذلك فإن الإنسان جعل الجماد يفكر، ويتصرف ليوسع دائرة الذين يعبرون نيابة عنه، خاصة إذا لم يكن يثق فى نوابه فى

البرلمان.

.. وما الدنيا إلا مسرح عرائس كبير !

وفى هذا المسرح يختلط الجد بالهزل .. وتوضع رءوس الحيوانات فوق أجساد البشر ... ورءوس البشر فوق أجساد الحيوانات .. ولا أحد يتحسس رأسه .. ولا جسده !

وفى هذا المسرح تصاغ الحكمة بحروف النكتة .. أو يوضع سم النقد فى عسل الضحك.. فالحكام يفضلون المعارضة على طريقة عادل إمام .. أى لابد أن يضحكوا قبل أن يفهموا.

وهذا بالتحديد سر عبقرية مهرج البلاط .. أو بلياتشو السلطان .. أو مُضحك الملك .. فهو يقول الحق ولا يبدو عليه .. ويؤلم الحاكم ويسعده .. ويعرض شكوى الناس وهو يتشقلب .. ثم .. إنه يغطى وجهه بالأقنعة والمساحيق .. وذلك يعطيه قوة .. ويجعله حالة أو وظيفة .. ولو غسل وجهه، وعاد إلى صورته الطبيعية، فقد جرأته .. وتميزه، وأصبح مثله مثل أى مواطن آخر، ضعيفاً .. فلابد من غطاء يجعله على غير حقيقته ليقول الحقيقة .. ونحن أيضاً.

والحاكم يقبل منه أى شىء مادام قادراً على إضحاكه.

فالضحك أسلوب لإخضاع القوى .. فلو قلت نكتة وضحك أمنت شره .. لذلك .. كان السيف - فى بلاط الملوك والخلفاء - لا يطول رقبة الأخف ظلاً .. وكان العفو دائماً من نصيب المجرم، حاضر البديهة، سريع القفشة، القادر على أن يُضحك الحاكم .. فلو ضحك الحاكم بدت له الجريمة دعابة، وتحول المجرم فى نظره إلى مهرج.

ادعى رجل النبوة .. فسأله الخليفة المأمون :

- ألك علامة على نبوتك ؟

- علامتى أنى أعلم ما فى نفسك.

- وماذا فى نفسى ؟

- فى نفسك أنى كاذب.

- صدقت.

فضحك منه وخلى سبيله.[٩]

وادّعى رجل النبوة أيام المعتصم، فلما حضر بين يديه، قال :

---

(٩) الأبشيهى - المستطرف - دار الكتب العلمية - بيروت - جـ ٢ - ص ٥٢٣.

- أنت نبى ؟

- نعم.

- وإلى من بعثت ؟

- إليك.

- أشهد أنك سفيه أحمق.

- إنما يبعث إلى كل قوم بمثلهم.

فضحك المعتصم وأمر له بشىء.

وتنبّى آخر فى زمن المتوكل، فلما حضر بين يديه قال له :

- أنت نبى ؟

- نعم.

- ما معجزتك ؟

- ائتونى بامرأة عاقر أنكحها تحمل بولد يتكلم فى الساعة ويؤمن بى.

فقال المتوكل لوزيره الحسن بن عيسى، أعطه زوجتك حتى تبصر كرامته .. فقال الوزير: أما أنا فأشهد أنه نبى الله، وإنما يعطى زوجته من لا يؤمن به، فضحك المتوكل، وأطلقه.

****

ولو ضحك الأمير فإنه يصبح مساوياً للغفير .. فالنكتة تساوى بين الرءوس .. ولا يتقبلها الشخص إلا ممن يرى أنه ند له .. ولو نجح الأقل منه شأناً فى إضحاكه، صار مثله .. ولو فشل تأكد الفرق .. فخفة الظل تذيب الفوارق الطبقية .. وثقل الدم يؤكدها.

وسلطة مُضحك الملك دليل على ذلك .. فهو إنسان بسيط من عامة الشعب، قفزت به خفة ظله إلى أعلى .. فأصبح مقرباً .. وقربه أكثر من قرب غيره فى الحاشية .. فمن يُسعد الحاكم بالنكتة، أفضل ممن يشقيه بمتاعب الرعية .. ثم إن مضحك الملك، أو المهرج قادر على أن يسخر من العرش، بشرط أن يُضحك من يجلس عليه .. وهو ينقل متاعب الناس، لكنه يطلق بين الشكوى والأخرى .. نكتة .. وبين الوجيعة والوجيعة، دعابة.

ولو فقد المهرج قدرته على الإضحاك .. يجب أن يستردها فوراً، وإلا فقد وظيفته، ونفوذه، ووجد نفسه فى الشارع.

وفى كتاب "المستطرف" أن سابور ملك "فارس" كان له نديم مضحك يسمى مرزبان .. ظهر له من الملك جفوة .. فقرر إزالتها .. تعلم نباح الكلاب وعواء الذئاب ونهيق الحمير وصهيل الخيل، وصوت البغال ... ثم احتال حتى دخل موضعاً بقرب خلوة الملك، وأخفى أمره .. فلما خلا الملك بنفسه نبح نباح الكلاب، فلم يشك الملك فى أنه كلب .. وقال : انظروا ما هذا .. فعوى عواء الذئاب ... فنزل الملك من سريره، فنهق نهيق الحمير .. فمضى الملك هارباً .. ومضى الغلمان يتبعون الصوت .. فلما دنوا منه صهل صهيل الخيل، فاقتحموا عليه وأخرجوه عرياناً، فلما وصلوا به إلى الملك، ورآه مرزبان ضحك الملك ضحكاً شديداً، وقال له :

- ما حملك على ما صنعت ؟

- إن الله عز وجل مسخنى كلباً وذئباً وحماراً وفرساً لما غضب علَّى الملك.

- لقد سامحتك ... فعد إلى مرتبتك الأولى.

إلى هذا الحد يصل المهرج ... وهو حد يثير الشفقة .. والتأمل أيضاً ... فالفلاسفة يقولون : إن المهرج شخصية كوميدية تمثل الأب العاجز، المُستهزأ به ... ومع أنه يبدو ضاحكاً فإنه يمثل الوجه المحزن للأشياء ... حتى ينتهى به الأمر إلى الموت .. فيصبح رمزاً له ... فالموت مهرج هو الآخر .. يعبث بالأحياء ويسخر منهم.

وفى مسرحية "الملك لير" لشكسبير نجد أن المهرج "بهلول" يتجاوز حدوده، بعد أن أصبح الملك وحيداً، لا حول له ولاقوة، حتى أنه ينادى الملك ببهلول - لقب المهرج - فهما مصير واحد.

لير : أتدعونى بهلولاً .. يا ولد ؟

بهلول : ألقابك الأخرى كلها تخليت عنها، أما ذلك اللقب فقد وُلد معك.

وبعد عدة مشاهد ...

بهلول : إذا كان عقل المرء فى كعبه ألا يُخشى عليه من التشقق ؟

لير : نعم ياولدى.

بهلول : افرح إذن، أرجوك .. فلن يحتاج عقلك إلى نعل يحتذيه !

لير : ها ها ها ![١٠]

ولو كان الملك لير تدهورت به الحال فقبل سخرية المهرج، فإن الملكة فيكتوريا طردت مهرج

(١٠) الملك لير - ترجمة جبرا إبراهيم جبرا - دار المأمون - بغداد.

البلاط لأنه كان طويل اللسان ... وعندما أعادته اشترطت عليه أن يضحكها، فإن لم يستطع قطعت رقبته .. وبعد ست ساعات من المحاولة فشل ... فكان أن مات بالسكتة قبل أن يموت بالسيف.

إن الضحكة أحياناً تساوى حياة .. والنكتة فى تلك الأحيان مخاطرة ... خاصة إذا كان الطرف الآخر فى السلطة .. أو كان هو السلطة.

والمشكلة ... أن بعض الحكام إلى الآن لا يزال يفضل المعارضة - البهلوان .. والحزب.. السيرك .. والرأى الآخر على طريقة "المدبوليزم".

وهذا النوع من الحكام يتصور أنه يضحك على الشعب، مع أن الشعب فى الحقيقة هو الذى يضحك عليه.

فالشعب يراه وهو لا يراه .. والشعب يسخر منه وهو لا يقدر على ذلك ... والشعب ينكت عليه وهو ينفجر من الغيظ ... فجحيم الحاكم .. نكتة ... نكتة تؤلمه، وتعريه، وتتجاوز محارمه.

****

وأشهر فيلسوف - فى القرن العشرين - تأمل النكتة، وكتب عنها، وصاغ منها نظريات، هو الفيلسوف الفرنسى هنرى برجسون ... ومن سخرية القدر أنه عاش محروماً من الضحك .. فقد كان مشلولاً، حزيناً، ترافقه المرارة كظله.

وقد نجح فى تفسير الضحك مع أنه لم يعرفه .. وكان أفضل من كتب عنه مع أنه لم يتذوقه .. فالحاجة أم الاختراع .. وأم الفلسفة والمعرفة أيضاً.

وليس بالضرورة أن يكتب عن الضحك من يمارسه .. وليس صحيحاً أن نجوم الكوميديا هم أسعد الناس، كما نتصور .. وربما كان العكس حقيقة .. فلا هم يأكلون النكات ويشربون النكات .. ولا هم يمرحون ويضحكون طوال الليل والنهار .. وأنا أعرف أن عادل إمام يمثل على المسرح ونيران القرحة تحرق أمعاءه .. وهو يغضب إذا ما وجد الناس تضحك لرؤيته فى الشارع .. فهو - كما يقول - ليس أراجوزاً .. وأعرف أن سهير البابلى لا تحفظ أى نكتة تسمعها .. وهى دائمة القلق .. وتعيش على أقراص - يصعب تحديد عددها - يومياً .. وفى مسرحية "مدرسة المشاغبين" كان عليها - ذات ليلة - أن تصعد خشبة المسرح وتُضحك الجمهور، بعد أن دفنت شقيقتها الصغرى، التى ماتت وهى تلد، بسبب خطأ من الطبيب الذى ثقب الرحم، فقتلها.

ويعترف د. زكريا إبراهيم، أستاذ الفلسفة السابق بجامعة القاهرة أنه لم يهتم بمعالجة مشكلة "الضحك" إلا بعد أن رحل والده، وحاصرته هواجس الموت.

لـم يكـن برجسـون، حالـة شـاذة إذن .. وقـد وضـع مـا توصـل إليـه فـى كتـاب أسمـاه "الضحـك - LE RIRE" .. والاسم ليس على مسمى .. فالكتاب ثقيل الظل .. لا يضحك.. ومن الصعب أن تفهمه من أول مرة، خاصة إذا قرأت ترجمته اللبنانية[11] .. فالترجمة تحتاج إلى ترجمة.

والكتاب صغير .. فى حجم الكف .. ونُشر أول مرة فى باريس، فى يناير سنة ١٩٢٤.

وفى الكتاب يقول برجسون .. إن النكتة شىء حى مهما كانت خفيفة ... فالأشياء الخفيفة تصنع الحياة .. ونحن نحترم الحياة، فلا مبرر أن نحتقر النكتة .. ثم .. إن النكتة، توضح لنا مدى كفاءة شعب ما على التخيل الجماعى العام .. وهى تحتاج إلى ذكاء.. وتُحدث ما يشبه "التخدير المؤقت للقلب".

ولا أحد يتذوق النكتة إذا كان وحيداً ... فالضحك يحتاج إلى صدى .. إنه شىء يبدأ بانفجار ضعيف، ثم يزيد، ويزيد حتى يصبح مثل الرعد .. إن ضحكتنا دوماً ضحكة المجموعة .. لذلك .. فالضحك أقوى وأشد فى المسارح الأكبر .. فالعدوى هناك أسرع وأسهل.

والفرجة على المسرحيات الكوميدية فى التليفزيون ليست كالفرجة عليها مباشرة، وسط الجمهور فى المسرح.. فشاشة التليفزيون تعزلنا عن المتفرجين .. وتجعل الفرجة فردية.. وتمنع فيروس الضحك من التكاثر، أو تخفف من نشاطه .. ولهذا تلجأ بعض محطات التليفزيون لتسجيل أصوات جمهور يضحك على شرائط البرامج والتمثيليات الكوميدية.. مع أن القانون يجرم ذلك، ويعتبره خدعة، وغشاً تجارياً.

ويلاحظ برجسون أن الكثير من المآسى، يفجر الكوميديا .. راقب رجلاً متغطرساً، متأنقاً، يبدو كمن يملك الأرض ومن عليها، وهو ينزلق على قشرة موز .. وراقب ناظرة مدرسة، صارمة، مثلها الأعلى فى القسوة هتلر، أخطأت الجلوس على المقعد .. وراقب حركات زعيم دولة وهو يلقى خطاباً في البرلمان، ينقله التليفزيون، بعد إلغاء الصوت .. وافعل الشىء نفسه أثناء إذاعة موعظة يلقيها رجل دين.

وبعض منا جرب ذلك مع خطب الرئيس الراحل أنور السادات .. وضحك .. مع أن سماع ما كان يقوله، كان يُضحك أكثر .. أحياناً.

وللنكتة علاقة وثيقة بالقيم .. سواء القيم المقدسة أو القيم الفاسدة .. فنحن فى الشرق نقدس الزواج، لذلك فنكات الخيانة الزوجية أقل مما هى عليه فى بلد مثل فرنسا مثلاً.

أجرى التليفزيون الفرنسى استفتاءً عن الرجال .. وماذا يفعلون بعد الجنس .. فقال ٥ ٪

---

(١١) ترجم كتاب برجسون للعربية د. على مقلد، ونشرته فى بيروت المؤسسة الجامعية - ١٩٨٧. وقد نقلت أهم ما جاء فيه بتصرف، وأضفت بعض الأمثلة من عندى.

من الرجال إنهم يفضلون تدخين سيجارة .. وقال ١٥ ٪ إنهم ينامون فوراً .. وقال ٨٠ ٪ إنهم يعودون إلى بيوتهم !

عاد الزوج إلى بيته، بعد طول سفر، وبينما هو وزوجته فى الفراش، دق الباب، فهبت الزوجة فزعة، وهى تقول : "جوزى" !.

إن هذا الطراز من النكات لا ينتشر فى الشرق .. حيث يرفض المجتمع الخيانة .. ولا يقبل ممارسة الجنس دون زواج .. لكن يمكن أن توجد نكات عكسية .. أى نكات تعكس الكبت الجنسى.

ويروى الأبشيهى :(١٢)

أن أعرابية دخلت على قوم يصلون، فقرأ الإمام "فانكحوا ما طاب لكم من النساء" وجعل يرددها، فجعلت الأعرابية تعدو وهى هاربة حتى جاءت لأختها، فقالت : يا أختاه .. مازال الإمام يأمرهم أن ينكحونا حتى خشيت أن يقعوا علَّى.

ولا نتعامل مع "الحماة" بنفس التقديس .. لذلك ننكت عليها .. وهذه جريمة لا تغتفر فى الصين، حيث يحترم المجتمع الحماة جداً ويضع فى يدها الكثير من السلطات.

سأل شخص آخر :

– ما هو القضاء والقدر .. وماهى المصيبة ؟

– القضاء والقدر أن تسقط حماتك فى النيل.

– والمصيبة ؟

– المصيبة أن تنجو من الغرق.

على أن النكات عن "الحموات" خفت .. وربما اختفت .. والسبب التغير الاجتماعى الذى دفع الأبناء للاستقلال بعيداً عن أسرهم، فلم تعد الحماة تتدخل في حياتهم.

وهذا يعنى أن النكتة تتغير بتغير المجتمع، كما أنها تعكس طبيعة الصراع فيه .. فالصراع الطبقى يخلق النكتة الاجتماعية .. وعسف السلطة يولد النكتة السياسية .. والكبت الجنسى يفرض النكتة الجنسية .. والفقر يجعل النكتة عدوانية .. وعندما تهدأ التوترات والمتاعب الوطنية، تبرز الدعاية الإقليمية .. مثل النكات التى تقال عن خبث الفلاحين .. وحرص الدمايطة .. وسذاجة الشرقاوية .. ومثل النكات التى تقال عن الصعايدة .. ولا

---

(١٢) هو شهاب الدين أبو الفتح الأبشيهى، مؤلف كتاب "المستطرف فى كل فن مستظرف"، وهو مصرى ، من إحدى قرى محافظة الغربية، وألف كتابه بعد أن تجاوز الأربعين، وقد ولد سنة ٧٩٠ هـ، وتوفى سنة ٨٥٠ هـ.

مانع من الشك فى سوء نية من يطلقون هذه النكات ... أحيانا.

****

والضحك - فى رأى برجسون - يهذب السلوك ... فعندما نسخر من البخيل فإنه يحاول أن يدارى بخله، وإن أصر عليه بينه وبين نفسه.

لكن ... إذا بادر شخص وسخر من عيوبه بنفسه فإنه يعترف بأنها ليست عيوباً ... ومن ثم لا يكون في حاجة لإصلاحها.

وقد اكتشف الإسكتلنديون هذه الحقيقة، فسبقوا الآخرين فى السخرية من صفة البخل التى اشتهروا بها .. فسدوا ثغرة كانوا يُطعنون منها، فلم يعد الضحك عليهم يشبع نزعة الاستعلاء التى يواجههم بها غيرهم.

ويقال إن اسكتلندياً اكتشف خيانة زوجته، فطلب منها ومن عشيقها أن يقف أحدهما خلف الآخر، حتى يقتلهما برصاصة واحدة.

وحدث أن سقطت سيارة تاكسى فى النهر، فطلب الراكب - وكان اسكتلندياً - من السائق أن يوقف العداد.

ودخل عشرة من الاسكتلنديين حانة، وطلبوا كوب ليمون .. وعشر مصاصات .. شاليمو.

وكتب قارىء غاضب من "أدنبرة" إلى صحيفة يومية كبرى فى لندن، يقول : "إنى أحذركم.. إذا لم تتوقفوا عن نشر النكات السخيفة حول بخل الاسكتلنديين المزعوم فسوف أتوقف عن اقتراض جريدتكم بعد اليوم".

ويقال إن الاسكتلندى يقف دائماً فى آخر طوابير الشراء حتى يُبقى نقوده فى جيبه أطول مدة ممكنة.

ويقال أيضاً .. إن الرجل وزوجته هناك يستعملان - من باب التوفير - طقم أسنان واحداً.

وسُئل شاب عن فتاة أحلامه فقال :

- أريدها حورية من حوريات البحر .. لأنها ستوفر الأحذية ![١٣]

و"الصعايدة" فى مصر يرددون النكات التى تقال عنهم .. ويضحكون عليها .. فلا هى ضايقتهم .. ولا هى دفعتهم للغضب .. فمميزاتهم أكثر مما تصوره النكات.

اتفق أربعة صعايدة على سرقة بنك .. ووزعوا مهامهم حسب الخطة كالتالى ... الأول

---

(١٣) المصدر - سمير شيخانى - موسوعة الضحك العالمية.

يراقب الطريق ... والثانى يقتحم البنك .. والثالث يفتح الخزنة .. والرابع يبلغ البوليس !

اختطف خمسة صعايدة فتاة لاغتصابها، وركبوا تاكسيا، ولما أشار السائق إلى أن التاكسى (٥) راكب فقط، طلبوا من الفتاة أن تنزل !

سأل قاهرى، صعيدياً :

- أنت صعيدى ؟

- نعم .. لكنى اتعالجت !

****

ويقول برجسون :

إن المجتمع الذى تسخر منه النكات لا يرد عليها بالقوة .. لأنه لم يصب بأذى مادى. فالنكتة مؤشر .. وبالكاد تهديد وفى المحصلة إشارة .. فلماذا يرد عليها المجتمع بالضرب أو الحبس إلا إذا كان مجتمعاً بلا عقل. والضحك - بفعل ما يوحيه من ترهيب - يقمع الشذوذ والانحراف .. فهو نوع من الاتصال المتبادل بين الناس، يحفز على التغيير.

وهو يلاحق - بشكل غير واعٍ وغير أخلاقى أحياناً - هدفاً نافعاً للصالح العام، حتى يصيبه .. أى أنه يعبر عن نقصٍ فردى أو جماعى يستدعى التصحيح الفورى المباشر.

فالنكات التى تدور حول الاعتقال وكبت الحريات تشير بوضوح إلى هبوط حاد فى دورة المجتمع الديمقراطية .. والنكات التى تتحدث عن الفساد الحكومى تعنى أن نسبة الانحراف فى أوعية المجتمع الدموية زادت عن النسبة الطبيعية .. وأن علامات الخطر قد وصلت إلى اللون الأحمر.

ذهب معلم إلى قريبه وزير التعليم، وقال له :

- الحقنى .. سيعيدون امتحان المعلمين .. وحتماً سأسقط.

فرد الوزير :

- فى هذه الحالة أنا مضطر أعينك رئيس لجنة الامتحان.

والسخرية هنا من الفساد والمحسوبية، ومن علاج الخطأ بخطأ أفدح .. وتحمل النكتة شحنة هائلة من تحقير ذلك كله.

ويسهل علينا اكتشاف نفس المعانى، فى النكات السياسية التالية :

□ قال شاب لآخر :

- إسرائيل هاجمت جنوب لبنان.

- وأين العرب ؟

- يستعدون للهجوم.

- على مين ؟

- على العرب طبعاً.

□ اعتادت قيادة الحزب الوطنى الحاكم فى مصر منح الأعضاء الكبار سيارات مرسيدس، فلما توجه أحدهم إلى ألمانيا ورأى سيارات مرسيدس كثيرة تنتظر أمام أحد المتاجر، قال :

- الله ... هو الحزب له فرع هنا كمان !

وهذه النكتة قيلت من قبل أيام كان الاتحاد الاشتراكى هو السلطة العليا فى مصر ... أى لا شىء تغير سوى اللافتات.

□ اتصل ممثل إحدى الشركات الأجنبية بالمدير المختص وأعطاه عشرة آلاف دولار ليرسى عليه عطاءً، ثم شكا بعد ذلك للوزير المختص، الذى قال له :

- المدير ليس مختصاً بمنحك هذا العطاء، أعطنى عشرين ألفاً فأعطيك العقد وأطرد المدير.

روى مندوب الشركة القصة لنائب فى البرلمان، فقال النائب :

- هذه فضيحة .. الأمور فى بلادنا لا تمشى بهذه الطريقة .. ليس هذا من اختصاص الوزير ... أعطنى (٣٠) ألفاً تأخذ العقد وأقدم استجواباً ضد الوزير.

شكا الأجنبى إلى رئيس الوزراء، فقال له رئيس الوزراء :

- هذا أمر لا يحتمل ... إنه خالف الدستور ... امنحنى خمسين ألفاً، فتأخذ العقد وأحل البرلمان.[١٤]

ويُطلق على هذا النوع من النكات .. النكتة المفتوحة .. أى النكتة التى لها بقية.

وتذكرنى هذه النكتة، بنكتة السائح الذى نزل مدينة لا قيمة فيها إلا للمال .. وقابل السائح قواداً عرض عليه أنواعاً مختلفة من النساء وتسعيرة كل منهن .. فاغتاظ السائح، وقال:

(١٤) أخبار اليوم - المصدر السابق.

- مفيش ولا واحدة شريفة ؟

فقال القواد :

- فيه .. ولكنك ستدفع أكثر.

****

نحن نضحك لأسباب كثيرة متنوعة.

نضحك على التكرار .. تكرار جملة أو إشارة أو حركة أو مصادفة.

فلو التقيت ذات يوم، بصديق لم تكن رأيته منذ سنوات .. فإنك ستقبل عليه وكأنك غير مصدق .. فالموقف لا يوجب الهزل .. لكن .. إذا تكرر اللقاء مصادفة أكثر من مرة، فى اليوم نفسه .. فستجد نفسك تضحك .. وهو أيضاً سيضحك.

وبعد أن تولى أنور السادات الحكم، لُوحظ أنه يكرر عبارة "الله يرحمه" ويمط فيها، كلما أراد طعن سلفه جمال عبد الناصر .. فكان ذلك التكرار يثير الضحك على أنور السادات... "ااالله يرحمه".

ونحن نضحك على التناقض.

لوريل وهاردى .. رفيعة هانم والسبع أفندى .. المعلم رضا وتابعه النحيل عبد السلام محمد ... مثلاً.

ونحن نضحك على الأوضاع المقلوبة.

طفل يوبخ والده لأنه كذب .. لص ينصح وزير الداخلية بإحكام بيته ... مثلاً.

ونحن نضحك على الارتداد .. أى رجوع الشىء إلى صاحبه، على طريقة المثل الشهير "من حفر حفرة لأخيه وقع فيها" .. فلو شرب شخص المقلب الذى دبره لغيره، ضحكنا قطعاً عليه.

قال المحامى لموكله :

- إذا سألك القاضى عن الفلوس التى سرقتها، فلا تقل له سوى .. لوس .. مفيش لوس.

وأمام القاضى، نجحت الحيلة، فأفرج عن المتهم .. فجرى إليه المحامى، ليطلب أتعابه، فإذا بالمتهم يقول للمحامى :

- لوس .. مفيش لوس !

ونحن نضحك من التنكر .. والسذاجة .. وجمود العقل.

فمهرج السيرك يُضحكنا تنكره .. والبهلوان، والبلياتشو، والأراجوز، أيضاً.

والسذاجة تجعل صاحبها أقل من مستوى الذكاء العام .. مثل تلك السيدة التى دعاها الفلكى الفرنسى "كاستين" لتأتى وتشاهد كسوف القمر .. وبعد أن وصلت متأخرة، قالت له :

- "مسيو كاستين .. هل يمكن أن تعيد التجربة من أجل خاطرى ؟".

ومثل ذلك الحاكم الطيب الذى سافر إلى نيويورك، هو ونائبه، وشاهدا ناطحة سحاب شاهقة، قال عنها الدليل الذى رافقهما :

- إن من يسقط من فوقها يصل الأرض بعد (٣) أيام.

فسأل النائب :

- ويموت ؟

فقال الحاكم :

- طبعاً .. يموت من الجوع !

ومثل ذلك القروى الساذج، الذى يُدعى موسى .. سرق حقيبة يد، ثم دخل المسجد يصلى، فقرأ الإمام :(وما تلك بيمينك يا موسى)، فقال القروى : والله إنت مكشوف عنك الحجاب .. ثم رمى الحقيبة وخرج.

وفى فيلم "الفتوة" الذى أخرجه صلاح أبو سيف، نجد بطل الفيلم هريدى، وقت أن كان ساذجاً، يضع أمواله فى صندوق البوستة، عملاً بنصيحة من قالوا له : "ضع نقودك فى البوستة".

****

ويرى برجسون أن النشاط الإنسانى، ينتمى إلى الروح أكثر منه إلى الجسد .. وهذا النشاط لا يبرق، ولا يزدهر إلا بفضل ما نؤمن به من مثل وقيم ومبادىء عليا، تشعرنا بالشفافية، وتخفف من أوزاننا، ومن قوة الجاذبية الأرضية .. فلا نلتفت إلى تصرفات وحركات أجسامنا، ولا نأخذ بالنا منها.

إن وزن كامل الشناوى كان ثلاثة أضعاف وزن هتلر .. لكن .. روح كامل الشناوى العذبة، جعلته أخف من هتلر .. فهو رشيق من الداخل .. وهذه الرشاقة جعلته يتجاوز ثقل جسمه.. ولا يشعر به .. ونحن أيضاً .. فكأنه مثل "عوامة" انقطع حبلها، فحملتها مياه

النيل كما تحمل ورقة شجر طافية على سطحها.

إننا عندما نتذكر مشاعرنا، ننسى أجسامنا، وعندما ننسى أجسامنا تزيد حيويتنا .. ويتضاعف خيالنا .. ونتحول من حيوانات ناطقة إلى طيور وزهور وعبارات مأثورة.

أما إذا وجدنا ما يشد انتباهنا إلى ما فيه جسدنا .. نستشعر أن الجسد غلاف ثقيل، يضايقنا، ويربطنا بالأرض .. وهنا .. سيتولد الانطباع الهزلى .. أى أنه عندما تتضايق الروح من الجسد يُولد الضحك.

فنحن نضحك من رجل دين يلقى بموعظة عن سمو الروح .. ثم .. فجأة .. يعطس .. ونضحك على قائد عسكرى صارم، متجهم، يستعرض قواته وهو يحاول تلافى "الزغطة" .. ونضحك على معلم يشرح درساً فى الكيمياء، وهو يشعر بضيق الحذاء.

وروى لى أحد الوزراء ... أنه قبل أن يعين وزيراً، استدعاه جمال عبد الناصر لمقابلته فى بيته ... وقبل الموعد كان فى صالون بيت جمال عبد الناصر .. وكان ما يشغله هو كيف سيقابل الرئيس وجهاً لوجه .. ماذا سيفعل ؟ .. وفجأة وجد جمال عبد الناصر أمامه، فهب واقفاً، ثم وجد نفسه يمد يده، ثم سحبها، وشبك أصابع يديه، ووضعها خلف ظهره، ثم عاد ووضعها حول بطنه، وبعد قليل أحس بأن ذراعيه لا لزوم لهما، ولم يعرف ماذا يفعل بهما، وتمنى أن يتخلص منهما.

لقد أحس بأن جسده عبء عليه لأن نفسه كانت أضعف من الموقف.

وفى رواية "مائة عام من العزلة" يصف الكاتب الحاصل على جائزة نوبل جبرييل جارسيا ماركيز حالة شيخ أحس برغبة تشتعل فى أعصابه عند رؤية فتاة شابة، متفجرة الأنوثة، فقال : إنه شعر بجزء ما فى جسمه يؤلمه ... ثم ... أحس أنه يمشى وكأن فى حذائه حصاة ... إنه وصف مضحك لحالة توتر جنسى .. حالة عبر فيها الجسد عن نفسه، وفرض إرادته على صاحبه.

إن انتباهنا – فى مثل هذه الحالات – يرتد من الروح إلى الجسد .. فنضحك على هؤلاء لأننا شعرنا أن أجسادهم تضايقهم، وتحاصرهم، وتضغط عليهم، وأنهم يريدون التخلص منها، ويفتشون حولهم عن موضع آخر يريحهم.

وقد لاحظ نابليون أن الانتقال من التراجيديا إلى الكوميديا يتم بتغيير موضع الجسد .. الجلوس بدلاً من الوقوف مثلاً ... فبعد أن ضم أجزاء من بروسيا، استقبل ملكتها التى قالت له بلهجة مأساوية :

– سيدى .. نحن نطلب العدالة.

وتضايق نابليون من هذه اللهجة .. وحتى يغيرها طلب من الملكة أن تجلس .. وعندما

فعلت بدت لهجتها أكثر هدوءاً .. فلا شيء – كما كتب نابليون فى مذكراته فيما بعد – يقطع المشهد المأساوى مثل الجلوس .. فعند الجلوس يتقدم الجسد على الروح، ويطغى الشكل على المضمون.

وجرب بنفسك أن تقنع شخصاً غاضباً منك بالجلوس، ستجد أن ثورته ستهدأ، وأن ابتسامة ما ستولد على شفتيك .. فحركة الجلوس، تعيد الجسد إلى الصورة، وتنبهك إلى ثقله وعيوبه.

ولهذا السبب، نضحك من طبيب مريض بالسعال .. ومحام يتلعثم .. وعملاق فى حجم الملاكم تايسون يخرج من سيارة سيات صغيرة ... "مينى كار" .. وعجوز فى فمها مصاصة أطفال ... وزعيم معارضة تصوره كاميرات التليفزيون وهو فى مقعده، يأكل أرزاً مع الملائكة.

****

والإنسان السليم نفسياً وبدنياً هو الذى يضحك من (١٠٠) إلى (٤٠٠) مرة فى اليوم .. بمعدل (٢٠٠) ساعة فى العام .. وعندما نضحك يقوى القلب بنسبة (١٤،٧ ٪) .. وتتقلص عضلات الجسم كلها لتطرد الإجهاد .. ويزداد النبض نشاطاً إلى الضعف من (٦٠) إلى (١٢٠) .. ويرتفع ضغط الدم المنخفض.

ولو ضحكت .. فتأكد أن خلايا مخك سليمة .. وقلبك أيضاً .. ولو كنت معرضاً لأزمة قلبية، فسيتأخر ذلك، سنة أو أكثر .. فالضحك يطيل العمر.

والإنسان البدائى يعرف قيمة الضحك بالفطرة .. وحتى الآن لا تزال بعض القبائل فى كينيا تمارس الضحك يومياً بطريقة جماعية بعد الغروب .. لعدة ساعات لغسل هموم النهار .. مع أن همومهم أقل إذا ما قيست بهمومنا.

وربما .. لهذا السبب نحن نفتش عن النكتة .. ولا مانع من أن نشتريها بأعلى سعر .. فى المسارح الخاصة .. فثمن التذكرة الآن أغلى من مهر جدتى وشبكتها وأثاث بيتها .. وتباع هذه التذكرة فى السوق السوداء أحياناً .. مثلها مثل السلع الضرورية .. السكر والأرز والزيت مثلاً.

****

وتتطلب النكتة من راويها براعة، وحسن إلقاء، وخفة ظل، وإلا تحولت إلى "علقة"، وجلبت الملل، لا المرح .. كما أنها تفرض اختيار المجتمع المناسب، وإلا قوبلت بالاستهجان.

كذلك .. فإنها تسمح بتمثيل المواقف بالإشارة أو حركات الوجه وأصابع اليدين .. ولابد أن يستشعر الراوى أن النكتة جديدة .. وإلا احترقت .. واحترق معها، وقيل له "قديمة".

ولو كان تلقى الضحك يحتاج ذكاء، واستجابة، وسرعة خاطر، فإن صانع الضحك يحتاج إلى موهبة خاصة وخفة ظل إلى جانب ذلك.

وهؤلاء نسميهم "الظرفاء" .. وللتاريخ باب خاص يدخلون منه .. والذين دخلوا منه كانوا أقل من الذين دخلوا من باب الزعماء .. "فحكم أمة أسهل من إضحاكها" .. والعبارة تُنسب إلى فيدل كاسترو، وأعتقد أنها صحيحة.

□ كتبت سيدة إلى الأديب الساخر برناردشو، تدعوه إلى منزلها، بطريقة مبتكرة، فتركت رسالة له تقول : "سأكون فى منزلى الساعة السادسة من مساء يوم السبت القادم" .. فكان رده فى رسالة مختصرة تقول : "وأنا أيضاً".

□ كان حافظ إبراهيم جالساً فى حديقة داره بحلوان، ودخل عليه عبد العزيز البشرى، وبادره قائلاً :

- شفتك من بعيد فتصورتك واحدة ست.

فقال حافظ إبراهيم :

- والله يظهر إن نظرنا ضعف، أنا كمان شفتك وانت جاى، افتكرتك راجل.

□ فى مجلس العموم البريطانى استفز هدوء أعصاب ونستون تشرشل، سيدة من حزب العمال المعارض، فقالت له :

- لو كنت زوجى لوضعت لك السم فى الشاى.

فقال لها تشرشل :

- لو كنت زوجك لشربت هذا الشاى فوراً.

□ كان عبد العزيز البشرى وحافظ إبراهيم مدعوين إلى رحلة، ودخل البشرى على حافظ فى غرفة النوم وطلب إليه أن يرتدى ملابسه بسرعة، فقال حافظ :

- أنا لسه ما غسلتش وشى.

فقال له البشرى :

- وشك مش عايز غسيل .. نفضه كفاية.

□ وروى لى المذيع التليفزيونى صلاح زكى أنه بعد أن تعرف على كامل الشناوى، أو كامل "بك" كما كانوا ينادونه، واظب على حضور مجلسه فى كافتيريا "نايت أند داى" التى كانت فى فندق "سميراميس" القديم .. وفى إحدى الليالى، نفدت سجائر صلاح زكى، فكان

يدخن من سجائر الآخرين، وفى اليوم التالى، كان كامل الشناوى يقول عنه : إنه لا يملك من أدوات التدخين سوى فمه !

□ بقدر ما كان تاليران وزير خارجية فرنسا الأسبق داهية سياسياً، كان ساخراً أيضاً.. وقد تعرض كثيراً للسخرية بسبب عرجه .. وذات يوم سألته سيدة فى عينيها حَوَل، وهى تُعرّض بعرجه لإيلامه :

- كيف "تسير" الأمور ؟

فأجاب بسرعة :

- كما "ترين".

****

باختصار ..

الضحك للأذكياء فقط .. أما الأغبياء فيمتنعون.

****

ويقول برجسون ... إن الضحك لا يكون إلا فى هدوء .. الانفعال يفسده ... ويحوله إلى مأساة ... ومن يروى النكتة لا يضحك عليها.

ويقول أيضاً إن من يعزل نفسه عن المجتمع يتعرض للسخرية .. فعيوب الآخرين هى التى تُضحكنا بسبب تنافرها مع المجتمع .. ولا يهم أن تكون الشخصية التى تثير سخريتنا طيبة أو شريرة .. لا يهم .. المهم أن تكون غير اجتماعية .. فلو كانت كذلك أصبحت مضحكة.

إن من أهم وظائف الضحك التذكير بحالات الغفلة والسهو .. للحصول على أكبر قدر من الألفة الاجتماعية.

وهناك وظيفة أخرى للضحك .. فمع الميل نحو الانفصال والعزلة .. فالضحك يصحح الجمود، ويفرض الليونة، ويعيد تكييف الفرد ليتلاءم مع الآخرين.

ولو كانت القسوة نزوة القوى .. فالنكتة نزوة المقهور .. إنها تدارى خوفه .. وتخفى شعوره بأنه ضحية .. ومن ثم يعلو فوق ما يتعرض له.

انتهى أهم ما قاله برجسون.

****

والواقع .. أحياناً .. أشد إضحاكاً من النكتة.

فى مذكرات محمود الجيار، أن جمال عبد الناصر كان يتباحث فى موسكو مع خروشوف عندما حان وقت صلاة الجمعة ... ولأن جمال عبد الناصر أراد أن ينهى الجلسة حتى لا تفوته الصلاة، فإن خروشوف احتراماً لشعور الضيف الدينى، فوض مدير المخابرات فى الاتصال تليفونياً بإمام مسجد موسكو ليؤجل صلاة الجمعة ساعتين فقط، حتى لا تضيع فرصة الصلاة على جمال عبد الناصر وصحبه.

وعندما سمع جمال عبد الناصر ذلك انفجر "فى موجة ضحك عارمة".

وقال لخروشوف :

- إن الدعاية المضادة ستستغل هذا الموقف وتقول إن الروس أقنعوا عبد الناصر بأن يكفر.

فلوح خروشوف بذعر بكلتا يديه، وصاح وكأنه يدفع مصيبة :

- إذن قم يا صاحب السعادة .. قم .. ولا تجلب لنفسك ولنا المشاكل.[١٥]

وفى مذكرات صلاح الشاهد - كبير الأمناء السابق برئاسة الجمهورية - واقعة أخرى تدلل على ما نقول .. ففى أثناء العدوان الثلاثى - ١٩٥٦ - طلب السفير الأمريكى فى القاهرة جون بادو، مقابلة عاجلة مع جمال عبد الناصر .. واستقبله محمود الجيار الذى فهم خطأ أنه يريد الذهاب إلى دورة المياه قبل المقابلة، فقاده إلى هناك، حيث أغلق الباب.

ومرت ساعة إلا ربعاً .. والسفير رهين دورة المياه .. ولما طال الوقت خشى الجيار أن يكون قد أصاب السفير مكروه .. ففتح الباب عليه، ووجده واقفاً مذهولاً.

وبدون كلام، صحب الجيار السفير الأمريكى إلى مكتب الرئيس، الذى عرف ما حدث، فأغرق فى الضحك.

وقال له السفير :

- "لقد تصورت أن الأوامر صدرت بإلقاء القبض علّى، فاستسلمت لها".[١٦]

وحدث أن جلس الروائى الفرنسى الساخر تريستيان برنار فى مأدبة طعام إلى جانب شاعرة مجنونة بفكرة المساواة بين الرجل والمرأة .. وكان يستمع إليها ويهز رأسه ويقول

---

(١٥) ضياء الدين بيبرس - "الأسرار الشخصية لجمال عبد الناصر" - مكتبة مدبولى - القاهرة - ص ١٢

(١٦) صلاح الشاهد - "ذكريات فى عهدين" - دار المعارف - القاهرة - ١٩٨٦ - ص ٣١٦

"نعم . نعم" .. واحتار أصحابه .. كيف يسكت عن كل هذا الاعتداء على الرجال دون أى تعليق منه على الشاعرة المنحازة لبنات جنسها، حتى إذا انتهت، قام واقفاً، وقال لها : سأذهب إلى .... وأشار إلى التواليت المخصص للرجال ... "فهل تأتين معى".[١٧]

****

والواقع الذى يُضحك أحياناً، يصبح عبارة، رشيقة، ساخرة، أحياناً أخرى.

ولو قالت العامة هذه العبارة، لصارت مثلاً .. ولو قالتها الخاصة، لصارت قولا مأثوراً .. ولا حصر لمثل هذه العبارات هنا .. وهناك .. لكن .. لا بأس من الاختيار.

فمن الأمثال الشعبية التى تثير السخرية .. "إن كان بدك تضحك على الأسمر لبسه أحمر" .. و "من عجبك يا فتى تلبس هدوم الصيف فى الشتا" .. و "يادى الشيلة، يادى الحطة، رحت على جمل، وجيت على قطة".[١٨]

ومن الأقوال المأثورة التى تشبه النكتة ...

□ يروج استعمال الكذب قبل الانتخابات، وأثناء الحرب، وبعد الأسبوع الأول من الزواج - ونستون تشرشل.

□ مشكلة التضخم تتلخص فى أنه فى الوقت الذى يستطيع فيه الرجل الزواج يصبح عاجزاً عن الإنجاب - مارك توين.

□ حياة الممثلة تبدأ عندما تجد صعوبة فى إدخال صدرها داخل البلوزة ... وتنتهى عندما لا يعود فى استطاعتها أن تحشر نفسها فى الجونلة - شارلى شابلن.

□ إن عبارة "مستوى بطالة مقبول" تعنى أن رئيس الحكومة الذى أطلقها لا يزال لديه عمل" - شارل ديجول.

□ سر حيويتى وأنا فى الثمانين، بسيط جداً .. فأنا لم أشرب نقطة من الخمر أو أدخن سيجارة أو أعرف امرأة أو أسهر .. قبل أن أبلغ العاشرة من عمرى - بيكاسو.

□ ثلث زوجتى أيرلندى، والثلث الثانى إيطالى، والثلث الأخير جهاز لكشف الكذب - بوب هوب.

****

.. وبعد كل ما كان .. ما هى النكتة ؟

---

(١٧) أحمد تيمور - "الأمثال العامية" - الطبعة الرابعة - مؤسسة الأهرام.

(١٨) أحمد عبد المجيد - "رحلة مع الظرفاء" - كتاب اقرأ - العدد ٤١٦ - ص ١٥٣.

لا أحد أجاب بدقة .. ولا إجابة ترضى الجميع.

وحتى لا تُوصف بالسخف - فى مجتمع يغفر أى شىء إلا ثقل الظل - أنا مع الكاتب المجرى الساخر جورج ماكس فى تعريفه المميز للنكتة [19] خاصة أنه يقدمه من خلال نكتة.. والنكتة يهودية، خلاصتها أن يهودياً مسناً، أعمى، سأل فتاة شابة عن "صفة" اللبن... فسألته الفتاة فى دهشة :

- اللبن ؟!

- نعم .. اللبن ؟ .. أنت تعرفين أننى أعمى وليس فى وسعى أن أتخيل صفة اللبن.

- حسناً .. اللبن أبيض اللون.

- أبيض ؟ .. إننى أعمى .. ولا أعرف معنى أبيض !

- الأمر سهل .. الأوزة بيضاء.

- لكنى لم أر أوزة قط.

- إن رأسها منحنٍ.

- منحنٍ ؟ .. ما معنى منحنٍ ؟

فرفعت الفتاة ذراعها اليمنى وأحنت رسغها إلى الأمام كرقبة الأوزة .. وقالت : جس ذراعى إنها منحنية.

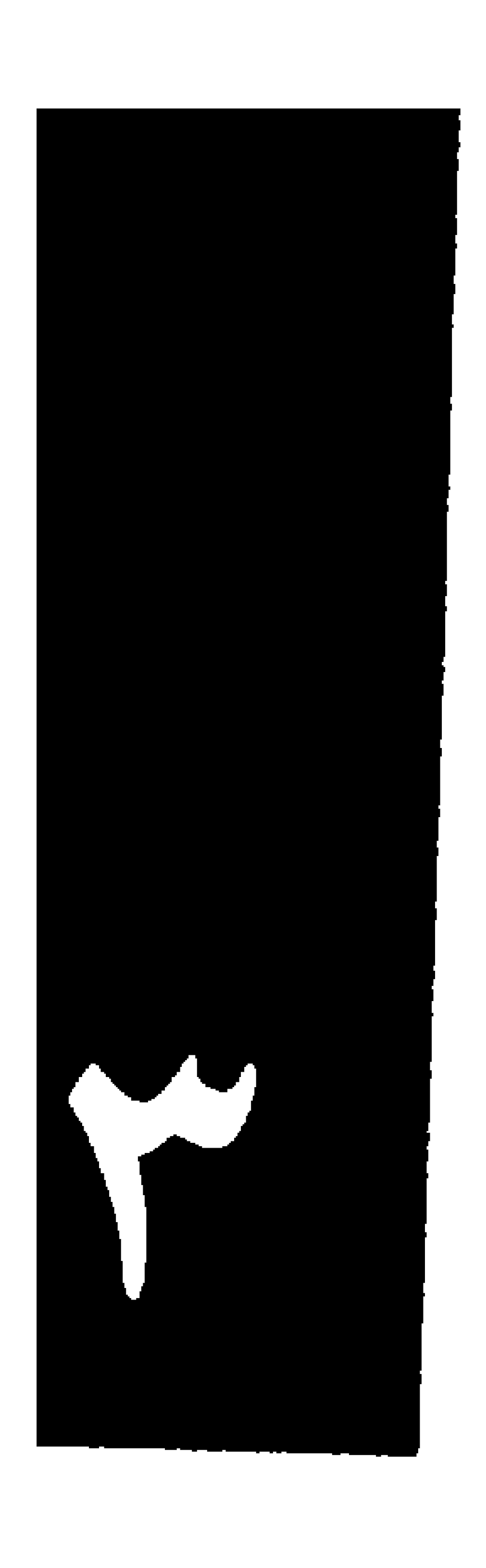
فجس العجوز ذراع الفتاة، وتحسسها عدة مرات، ثم صاح مبتهجاً : الحمد لله .. أخيراً عرفت ما هو اللبن !

ويضيف جورج ماكس : إن الفلاسفة وعلماء النفس والنقاد كتلك الفتاة، يذكرون لنا معلومات بارعة، وحقيقية عن النكتة دون أن يقولوا لنا ما هى .. إننا لا نعرف عن النكتة إلا ما عرف الرجل المسن عن اللبن .. فاللبن عند ذلك الرجل ذراع الفتاة منحنٍ .. والنكت عند الفلاسفة والعلماء شىء لا علاقة له بالنكتة .. ربما كانت له علاقة بالجزارة أو سبك المعادن، أو مضغ اللبان، أو تقشير البطاطس .. لكن .. بالنكتة .. لا !.

وهكذا ...

حسم الساخرون الأمر !

(١٩) مجلة رسالة اليونسكو - العدد ١٧٩ - يونيو ١٩٧٦ - ص ٥.



النكتة.. حيازة سلاح بدون ترخيص!

"ابن البلد، رجل خفيف الظل ..
إذا قال لك : نهارك سعيد ضحك..
وإذا أخبرته أن الجو جميل ضحك..
وإذا سمع أن فلاناً مات، ضحك".
"قاسم أمين"

لو فتحت رأس "مصرى" .. ونظرت إلى ما فيها "خلسة" .. ستجد أشياء وأشياء لا توجد إلا فى "الموالد" المزدحمة .. ستجدها فى حالة فوضى وكأنها مخزن "روبابيكيا" ... أشياء وأشياء مثل ... "جوزة" .. جمرات فحم مشتعلة .. ماشة .. كوب شاى أسود، مغلى .. قرص منشط جنسياً .. ورقة "دمغة" .. رغيف "عيش" .. سورة "يس" .. خمسة وخميسة .. عسكرى بوليس .. كيس حمص .. كرة قدم .. بطاقة تموين مزورة .. صورة لنجمة إغراء بالمايوه .. رقم تليفون بدون اسم صاحبه .. علبة سجائر "كليوباترا" .. باكو "معسل" .. قطعة حشيش .. شرائط فيديو مسجل عليها مسلسل تليفزيونى .. طلب أجازة بدون مرتب .. ختم النسر .. صفحة الوفيات فى جريدة "الأهـرام" .. روايـة لإحسـان عـبد القـدوس .. مائـة دولار .. عـقد عـمل .. طبـق جـمبرى .. يمـين طلاق .. ورقة مطوية مكتوب عليها عدد مذهل من النكت الجنسية والنكت التى تسخر من السلطة.

ولو رأيت هذه الأشياء ... ونجحت فى التعرف عليها، فإنك بالقطع لن تبلغ شرطة الآداب، ولا مباحث أمن الدولة، وستجد أن من الأفضل أن تغلق الرأس، وتعيدها إلى ما كانت عليه، وكأن شيئاً لم يكن.

لكنك ... ستكون بالقطع انفردت بمعرفة مكونات، ومقومات الإنسان المصرى الطبيعى.. وستتيح لك هذه المعرفة تفسير التناقض الواضح الذى يعيش فيه طوال حياته.

فهو يهاب الموت ويعشق الجنس ... يخشى الله ولا ينتج سوى نصف ساعة فى اليوم ... يصف نفسه بالفهلوة ويضع تحويشة العمر فى شركة "الريان" .. يعدد فوائد الرياضة البدنية ولا يمارسها إلا فى الأتوبيس والفراش ... يفخر بأن حضارته قديمة قدم التاريخ، ويقضى حاجته بجانب آثارها .. يقول عن بلاده إنها "أم الدنيا" ويصر على أن الذى بناها "كان فى الأصل حلوانى" .. يقاتل من أجل حريته فى الجلوس بجانب نافذة القطار، ولا يزعجه تزوير الانتخابات .. يطالب بقطع يد السارق، ورجم الزانى، ويكرر على مسامعك "إذا سرقت اسرق جمل، وإذا عشقت اعشق قمر" .. يشكو من المتاعب المالية ويقترض لشراء "فص" أفيون .. يقدس السلطة فى الصباح ويرجمها بالنكت الظهر والعصر والمغرب والعشاء وبعد العشاء أيضاً.

وفى مخزون المصريين "الحضارى" خوف وحذر لا نهاية لهما من السلطة.

فهم أقدم محكومين على وجه الأرض .. وبهذه "الأقدمية" أصبح الحكام آلهة .. وفى عصور الانفراجة الديمقراطية كانوا أنصاف آلهة .. قالوا : "يا فرعون إيه فرعنك" ؟ .. قال : "ما لقيتش حد يردنى".

فنحن صنعنا السلطة ثم عبدناها .. وسجدنا للديكتاتورية ثم سخرنا منها .. والحكومة عندنا مقدسـة مهما كان الذى يتربع على عرشها .. عجلاتى أو قرداتى .. فمن أقوالنا المأثورة، والموروثة .. "ارقص للقرد فى دولته" .. والمعنى واضح.

والحكمة الشعبية المرة لا تتصور وجود شخص يمكن أن يتجرأ، ويعارض الحاكم .. فلا أحد يستطيع أن يقول : "للغول عينك حمرة" .. والحاكم "غول" .. والأمن والكهنة والتليفزيون والصحافة عينه "الحمرة".

ولأن "سيف السلطنة طويل" .. فضربة الحاكم "شرف" حتى ولو كانت بالشلوت .. وخد الشعب "مداس" .. و "الحيطان لها ودان" .. و "الخوف يربى الجوف" .. و "طاطى لها تفوت" .. و "تروح فين يا صعلوك بين الملوك" .. و "طاعة اللسان ندامة" .. و "لولاك يا لسانى ما اتسكيت يا قفاى" .. و "اصبر تنول" .. و "الصبر مفتاح الفرج".

لكن ...

بالرغم من هذا الذل والخنوع، يضيف المصريون فى أمثالهم ... أن "السلطان مع هيبته ينشتم فى غيبته" .. وهذا يعنى أن التشهير الخفى بالحاكم، عادة مصرية قديمة، مزمنة.. مثل البلهارسيا، وبيوت الطين، وجريان النيل .. كذلك النكتة السياسية التى تطعنه فى الظهر.

والشرط أن يكون الحاكم جاهلاً .. متسلطاً .. باطشاً .. أو أجنبياً .. أى لا يفرق بين الأرض ومن عليها .. ولا بين الجاموسة ومن يحلبها.

هنا .. تكون النكتة مقاومة .. مقاومة ساخرة، واعية، فيلسوفة، وحية .. وربما سلبية أيضاً .. مقاومة تعطى الشعب "الأمان، وتعبر عن إرادته التى لا تفنى، ولا تقر الخوف، وتسعى إلى أن تتجاوزه" ... إنها "انتقام مقدس" .. دافع به الشعب عن نفسه "ضد الطغيان" ... ولا يزال[(1)].

ولا تحفظ ذاكرة التاريخ نكتة واحدة من هذه النكات .. فالتاريخ خادم فى بلاط الحكام.. والنكتة تولد فى العشش لا فى القصور .. ثم إن هناك إحساساً بأن النكتة تحت مستوى التدوين .. فالكتابة عند قدماء المصريين، مثلاً، جعلوا لها إلهة سموها "سيشات" وزوجوها من إله الحكمة، وبذلك ضمنوا أنها لن تهبط إلى مستوى الناس، وتسجل مشاعرهم ومتاعبهم.

على أن الأوصاف الساخرة - التى وصف بها المصريون حكامهم الأجانب - أفلتت من هذا الإهمال .. فقد وصفوا بطليموس الأول بالزمار .. ولقبوا القيصر الرومانى فسبسيان بتاجر السردين "الزفر" .. الذى "لا يساوى ستة مليمات" .. ولقبوا قيصراً آخر بالنسناس الصغير المدلل .. وفيما بعد وصفوا حاكماً مملوكياً بالحمص الأخضر .. ولقبوا آخر بالبقرة العانس.

---

(١) د. حامد الهوال - "السخرية فى أدب المازنى" - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٢ص - ٧٨.

وعندما كان الرومان يحتلون مصر حرموا المحامين المصريين من دخول محاكم الإسكندرية، لأنهم كانوا يسخرون من القضاء الرومانى، ويهزأون من ضعفه فى تحقيق العدالة، وكانوا فى المحاكم يستعملون النكتة والقافية والدفاع عن المساجين السياسيين.

كان ذلك قبل الميلاد بحوالى (٢٠٠) سنة .. وفي ذلك الوقت قال الشاعر الرومانى ثيو كريتوس : "إن المصريين شعب ماكر لاذع القول، روحه مرحة".

قالها ثيو كريتوس .. وأثبتها هرودوت .. أبو التاريخ.

ففى كتابه الشهير عن مصر يصف المرح والمجون الذى كان عليه أجدادنا .. خاصة فى احتفالات الأعياد المقدسة .. بأن هذه الاحتفالات كانت تتحول - بلغة اليوم - إلى مهرجانات وكرنفالات جماعية صاخبة، وساخرة .. وأهمها كان الاحتفال بإيزيس .. وفى طريقهم إلى معبد الاحتفال، كان الرجال والنساء معاً، يبحرون فى قوارب كبيرة .. ويُطبّل بعض النسوة "على الطبول التى بأيديهن" .. ويزمر بعض الرجال، طول الطريق .. "أما باقى النساء والرجال فيغنون ويصفقون .. فإذا ما بلغوا مدينة من المدن، جنحوا بزورقهم إلى الشاطىء .. وعلت أصوات النساء ساخرات بنساء هذه المدينة .. وبعضهن يرقصن... كما تقف بعضهن رافعات ثيابهن ... وهكذا ... عند كل مدينة على شاطىء النهر، حتى يصلوا إلى مكان الاحتفال .. فيقدمون أضحيات عظيمة .. ويستهلكون من النبيذ أكثر مما يستهلكونه فى بقية العام كله .. ويبلغ عدد المجتمعين فى هذه المناسبة - وفقاً لأقوال أهل البلاد - سبعمائة ألف من الرجال والنساء .. عدا الصبية".[٢]

وسخرية النساء على ذلك النحو تسمى الآن "الردح" .. والردح وسيلة حريمى للزهو بالنفس، مع تحقير الأطراف الأخرى .. وهو مسرح "منوعات" .. فيه النكتة، والرقصة، ورفع الثياب .. أى الأستربتيز.

وفى الاحتفال بعيد الإخصاب، كان المصريون يضعون تماثيل لرجال أشداء، يتدلى منها عضو التذكير، ويتحرك .. وكانت النساء تحملها وتطوف القرى .. و "كان عضو التذكير لا يقل كثيراً فى طوله عن باقى الجسم .. ويتقدم الموكب المزمار .. تتبعه النساء اللاتى تتغنى بديونيسيس .. إله الإخصاب" .. أما الرجال فكانوا يحتسون النبيذ، ويتبادلون الأنخاب، والنكت الجنسية.[٣]

وديونيسيس هو النطق اليونانى لكلمة أزوريس .. وأزوريس أشهر شهداء الفراعنة .. مزقوا جسده .. وبعثروا أشلاءه فى أربعة أنحاء الوادى .. أما عضو التذكير فألقى به فى النهر، فابتلعته سمكة جائعة .. ففاض النيل .. وأصبح أزوريس رمزاً لوفرة المياه .. وكثرة

(٢) هرودوت يتحدث عن مصر - ترجمة د. صقر خفاجة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٧ - ص ١٦٠.

(٣) هرودوت - ص ١٤٧.

الإنجاب وفرصة للصخب والمرح، والقول الساخر، والفعل الفاضح الذى تشجعه الآلهة، ولا يعاقب عليه القانون.

وفى مثل هذه الاحتفالات كان الغناء ضرورة .. وكانت كلمات الأغانى تدعو إلى الفرح : -

كن فرحاً حتى تنسى أن الناس سيحتفلون يوماً بموتك ..

متع نفسك ما دمت حياً ..

ضع العطر على رأسك ..

البس الكتان الجميل ..

دلك جسمك بالروائح الذكية ..

زد كثيراً فى المسرات التى تملكها ..

ولا تجعل قلبك ينكسر.[٤]

أما الأثرياء فكانوا يقدمون الدليل إلى أصحابهم وضيوفهم على أن الدنيا "فانية" ... فبعد أن ينتهوا من الأكل، كان يطوف بهم بعض الخدم، بنعش من الخشب، داخله كفن .. فيقول صاحب الدعوة .. "انظروا هذا هو مصيرنا .. ليس أمامنا الآن سوى أن نشرب، ونضحك ونستمتع بالحياة" .. وبلغة عصرنا .. "ساعة لقلبك وساعة لربك" .. "اتمتع بالدنيا وسيبك"، "اضربها طبنجة".[٥]

وفى شكاوىَ الفلاح الفصيح أن سيداً متغطرساً طلب من خادمه أن يذهب إلى شقيقه ليعاقبه بدلاً منه، لأنه مشغول الآن، ولا يريد أن يؤجل عقاب اليوم إلى الغد .. وذكرنى ذلك بنكتة الخادمة الصغيرة التى دقت باب جارتهم فلما فتحت الجارة بادرتها الخادمة قائلة : "ستى بتصبح عليكى وبتقول لك اضربينى قلمين علشان إيدها مش فاضية" .. فهل خرجت النكتة من الشكوى .. أم أنها تحوير ساخر لها ؟

****

وفى البرديات، رسوم كاريكاتيرية، تنتقد الأوضاع السياسية والاجتماعية .. وعلى قطع الفخار أيضاً .. وهى محفوظة فى أشهر المتاحف ... تورنتو، ولندن، وميونخ، وبروكلين .. وبدون تعليق .. وتلجأ إلى الرمز .. فالحيوانات تعبر وتتصرف نيابة عن البشر.

---

(٤) د. الهوال - المصدر السابق - ص ٨٢.

(٥) هرودوت - ص ١٨٤.

فهناك صورة فئران تهاجم قلعة للقطط . الفئران تركب العجلة الحربية، وتمسك الحراب والدروع، وتشد السهام والأقواس .. أما القطط فترفع يدها مستسلمة.[٦]

والفئران رمز للهكسوس .. ولغيرهم من الغزاة .. أما القطط فرمز للحضارة المصرية .. والمعنى أن فى أوقات الضعف، وانهيار السلطة، تنقلب الأمور .. "إن غاب القط العب يا فار" .. وإن ضعف، أو نزعت مخالبه كذلك.

وليس صدفة أن يرمز الفنان الفرعون للسلطة الوطنية .. بالقط .. فهو حيوان مقدس .. تُقدم له القرابين .. والنذور .. وذلك بأن يحلق أصحاب النذور شعر أولادهم، ثم يقدموا وزن الشعر فضة إلى الحارسة التى تربى القط وترعاه .. وعندما كانت قطة تموت موتاً طبيعياً فى منزل من المنازل، يحلق كل سكانه حواجبهم .. ويحنطونها .. ويصنعون لها التماثيل .. وفى بعض الجبانات بسقارة وبنى حسن عُثر على قبور للقطط.

وهناك صورة أخرى لفأر فى ملابس الفرعون، يجلس على مقعد من مقاعده، وبيده كأس وباليد الأخرى زهرة .. وأمامه قط يقوم على خدمته، يقدم له مروحة وأوزة ومنديلاً.

وهناك صورة ثالثة لفرقة موسيقية، مكونة من تمساح وقرد وأسد وحمار .. إنها حيوانات خشنة، نكرة الصوت، لكنها .. مع ذلك تعزف وتغنى .. وقد لوحظ أن هذه الصورة رُسمت فى الوقت نفسه الذى رُسمت فيه الصورة الأولى .. وهذا يعنى أن الانهيار السياسى قد يصحبه جليطة فنية .. ويعنى أن فى فترات الفساد، يسود الغناء على طريقة "حبّة فوق وحبّة تحت" .. و"سلامتها أم حسن".

ويتجلى التعبير عن الفساد بصور أخرى مختلفة .. صورة قط يرعى قطيعاً من الأوز .. وصورة ذئب يحرس الأغنام .. وصورة نمر وأسد يحرسان مجموعة من البط .. وهذه الصور ترمز من بعيد لبعيد للصوص الذين حكموا مصر .. فكانوا أشبه بالقط الذى سلموه مفتاح الكرار .. وكان حاميها حراميها.

وتصل الأوضاع المقلوبة إلى مداها .. فنجد الصورة لحمار يلاعب أسدا الشطرنج .. الحمار رمز الغباء .. والأسد رمز الملك .. ولكن الخلل الذى أصاب المجتمع، جعلهما أمام رقعة شطرنج واحدة .. صعد الحمار إلى قمة السلطة، واضطر السلطان أن يقبل ذلك .. إنها الصورة الواقعية التى يمثلها أثرياء الحروب .. حيث الفلوس مع التيوس .. والتى يمثلها الثراء الطفيلى .. حيث تحول الصعاليك وتجار المخدرات إلى أعضاء فى البرلمان، يملكون النقود، والنفوذ، ويلعبون مع الحكومة - لا شطرنج - وإنما "عشرة طاولة".

---

(٦) سعيد أبو العينين - رخا فارس الكاريكاتير - مؤسسة أخبار اليوم - ١٩٩٠ - ص ٢٥، وما بعدها.

والصورة الأخيرة، لفأر يجلس، منتشياً، مغروراً، فى فمه ماصة طويلة، يشفط بها الشراب الذى تقدمه مجموعة من القطط تعمل على خدمته، وتقوم بتسريح شعره .. والفأر رمز للأجنبى .. والماصة الطويلة كان لا يستخدمها سوى الأجانب .. وهذا يعنى أن الأجانب نجحوا فى أن يصبحوا طبقة أرستقراطية متميزة، كسرت أنف المصريين، وفرضت عليهم خدمتها على هذا النحو الذى فعله الأتراك فيما بعد .. وكانت آخرة خدمتهم علقة !

لقد واجه المصرى عضلات الغزاة بالسخرية منهم وكان بهذه السخرية يحافظ على نفسه.. مشاعره .. ذاتيته .. قيمته .. حضارته .. اتقى شرهم .. واعتزلهم .. أما لماذا لم يطلق عليهم النيران ؟ . فذلك لأنه يعرف أن وجود حكام من لحمه ودمه لن يغير الكثير.. سيذهب الظلم المستورد وسيأتى الظلم المصنوع محلياً .. وأنا مع الدكتورة نعمات أحمد فؤاد، فى أن "المصرى لم ينصفه حكامه" .. فالحكم مفسدة للقريب والغريب .. ولعل المصرى عند الغزو قال فى نفسه : أيموت دفاعاً عن كرسى هؤلاء ؟ .. ومن يدرى لعل هذا هو منبع حكمته التى تقول .. اللى يموت على السد ما يعرفش الفلاحة.[٧]

ما دام لا مصلحة حقيقية فى الحكم .. فليبتعد عن حلبة الصراع .. وليعكف على عمله الذى يحبه ويجد ذاته فيه .. ولينتمى إلى الحزب السياسى الوحيد الذى لا كذب فيه ولا مناورة .. حزب الكرة .. فهو حزب لا يحتمل التزوير .. وقادته نجوم يولدون أمام عينيه فى الملاعب .. ويموتون أمام عينيه أيضاً فى الملاعب ... وبين الشوطين يتحمس، ويسخن ويغضب ويعارض، ويصرخ، ويحتج ... أى يمارس كل العمليات السياسية الحيوية التى يمارسها غيره فى البرلمان، أو فى الحمام.

إن فلسفته "أن يتقوقع على نفسه النفيسة، ويصوغ من دموعه فى محارته أو عزلته، لؤلؤة.. فناً وصناعة وطرفاً".[٨] ونكتة مؤلمة تعرى الحاكم من ثيابه وسياسته، وتؤكد له أنه رغم كل ما يبدو عليه - لم يُخدع.

****

إذن .. مصر أقدم مجتمع عرف النكتة السياسية .. وتوافرت فيه شروطها .. مجتمع مقهور .. حضارته عريقة .. لا يتمتع بحريات التعبير .. ليس لأبنائه فرصة ولا مصلحة للمشاركة فى الحكم .. ويرون أن البعد عن السلطة غنيمة .. والاقتراب منها احتراق .. وكسر هيبتها فى نفوسهم بالنكت حماية للذات.

وتتوافر بعض هذه الشروط فى مجتمعات النهر .. الصين والهند والعراق مثلاً .. لكن ..

(٧) د. نعمات أحمد فؤاد - شخصية مصر - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٨ - القاهرة - ص ٢٢٦.

(٨) المصدر السابق - ص ٢٢٦.

بعض الشروط فقط لا تكفى .. لذلك .. فالناس هناك يضحكون قليلاً .. ويقاتلون كثيراً.

والفرق أن طبيعة الحياة فى مصر هادئة .. الجو صاف .. النهر ساكن .. الدفء رخيص.. لا عقاب صارماً من الطبيعة .. أى لا زلازل ولا براكين ولا سيول تثير الخوف وتضع القلق فى بؤرة التوتر، والترقب .. فكان أن انعكس ذلك علينا .. فنحن فى نعومة البيئة التى حولنا .. أخذنا من النهر سهولة العيشة والعشرة .. ومن الشمس دفئها وسخونتها .. ومن الصحراء التى تحاصرنا الجلَد والقناعة وشكر الله على النعمة .. ومن الخضرة البشرة الحسنة .. أخذنا من المكان أخلاقه وصفاته .. الحنان .. التبسط .. المرح .. العطاء .. الإيمان بالمكتوب والقضاء والقدر .. لكن .. ذلك كله أغرى الآخرين بخطف ما فى أيدينا.. فكان الغزاة أكثر من الهم على القلب .. فعلوا بنا ما لم تفعله الطبيعة .. عاملونا بجهل وغطرسة وحماقة .. فانعزلنا عنهم استعلاءً واستخفافاً .. وكنسنا الهموم التى فرضوها علينا .. بالنكت .. والسخرية دائماً .. وبالسلاح أحياناً .. وفى الفترات القليلة التى حكمنا فيها واحد منا .. كنا لا نصدق .. ولا هو أيضاً .. فكان أن حولناه من حاكم إلى بطل .. ومن بطل إلى زعيم .. ومن زعيم إلى ديكتاتور .. ومن ديكتاتور إلى مهرج .. مهرج لا يعرف أنه كذلك .. نحن نعرف .. فهذا النوع من الحكام آخر من يفهم .. أو هكذا ينتهى.

وفى كتابه عن مصر، يقول الكاتب البريطانى تى. إيه. ويلسون : "قد تكون الحضارة المصرية حصيلة الموقع الجغرافى، والأرض السمراء الخصبة، المستدفئة بشمس أفريقيا العفية .. ولكن السبب الأكبر الذى يكمن وراء هذه الحضارة، هو عقيدة المصرى القديم بأن مصر يحكمها إله هو ابن الشمس، الذى يمنح مصر الخلود القديم، ويحرر أهلها من الخوف".[٩]

والتحرر من الخوف يبعث على الاطمئنان .. والاطمئنان الأب الشرعى للتفاؤل .. والتفاؤل الوجه الآخر للضحك .. والضحك يعترف بأن النكتة ابنته البكرية من امرأة حادة الذكاء اسمها السخرية.

وترى د. نعمات أحمد فؤاد أن "النكتة" ليست "أمراً سهلاً" .. فهى فى مصر "وراءها بديهة حاضرة وذكاء لماح وقدرة على اصطناع التورية وتخديم الألفاظ فى براعة وسرعة وفن ولباقة أيضاً" .. وكانت وحدها ترعب الأقوياء .. ثم إنها عنصر من عناصر الشخصية المصرية .. لها دور فى صراعنا مع الأحداث .. أى أنها "نكتة مرتبطة" .. وإن كان لها وجهان : الأول "حفظها للذات" .. والآخر أنها "عامل تعويق" .. فهى تثير الضحك .. والضحك .. يحدث خلخلة "فى صرامة الموقف تضعفه، فتستحيل ناره إلى رماد لوكفى الله القتال المؤمنين والكافرين على السواء .. وبعدها نحس السلبية والتفريط فنستعلى عليه بالإفراط فى المباهاة".[١٠] فنضاعف من عيوبنا الاجتماعية.

****

---

(٩) أحمد عبد المجيد - المصدر السابق - ص ١٥.
(١٠) د. نعمات أحمد فؤاد - المصدر السابق - ص ١٩٩.

أما كون النكتة ليست أمراً سهلاً، فهذا لأنها تطلق للسخرية من الحاكم، وحاشيته، وبطانته، وتصرفاته وسياساته .. وتعبر عن متاعب الناس المزمنة .. وتصور أمانيهم ورغباتهم.

ولابد أن تكون هذه النكتة لها مغزى .. وأن تثير الضحك .. ويمكن أن تكون بذيئة، أى جنساً وسياسة معاً .. وعادة .. تكون قصيرة .. سريعة .. وربما خاطفة .. فهى تنتقل بالهمس من فم إلى أذن فى ثوان معدودة .. وخلال ساعات تكون انتشرت فى كافة أنحاء البلاد ... إنها مثل سباق التتابع .. شخص يسلمها لآخر، حتى تقع فى حجر الحاكم فى النهاية.

يقول المجرى الساخر جورج ماكس : إن النكتة التى تتندر على الحاكم - الطاغية، تشده من عليائه، وتنزله إلى مستوى البشر، فيظهر للناس أن هذا الرجل "العظيم" ليس سوى مخلوق يهيم فى بيداء الضلال، ويعيش فى ظل الخوف، ويمكن أن يصاب بالإسهال .. وزوجته تفتش جيوبه .. وأحفاده يبولون على ثيابه .. وقد يأكل "المسقعة" على أنها "بامية" .. وإذا مادخل حجرة "العمليات" اختار جراحين بلا أفواه حتى لا يعيدوا أرقام حساباته السرية فى سويسرا، والتى يقولها فى غيبوبة البنج .. وهذا ما يخشاه الطاغية على سمعته ومكانته.[١١]

ويعتبر د. سيد عويس النكتة السياسية "من قبيل اللغة السرية" ... ويقصد باللغة السرية اللغة الخاصة، التى يستخدمها كل من يخشى السلطة وعقابها .. مثل .. النشالين .. تجار المخدرات .. أعضاء التنظيمات السياسية تحت الأرض .. وتسمى فى اللغة العامية "سيم" .. ومفرداتها معروفة لكنها أعطيت دلالات خاصة .. إنها مفردات شفرة، يفهمها أصحابها بصورة غير التى يفهمها غيرهم .. فالأخضر فى سيم تجار العملة يعنى الدولار .. و "عباس" فى سيم النشالين يعنى المخبر، وأشفور فى سيم الجواهرجية تعنى الزبون المفلس.[١٢]

وفى الستينيات أطلق المصريون على جمال عبد الناصر اسم "عبد الجبار" .. وفى السنوات الأولى لحكم من خلفه، كان الاسم الكودى لأنور السادات "خيشة" .. واختفى الاسم بعد عبور أكتوبر ١٩٧٣ .. فقد تحول من رئيس بالصدفة إلى حاكم قادر على التصرف بمفرده.

ويضيف د. سيد عويس : أن النكتة السياسية، السرية .. هى تعبير عن رأى عام فى بعض قضايا المجتمع .. يلجأ إليه الناس إذا سُدت فى وجوههم منافذ التعبير الأخرى .. أى عندما لا تتوافر لهم أساليب تفريغ الشحنات العدوانية الناتجة عن قسوة المعيشة أو عن شدة الكبت.

---

(١١) مجلة رسالة اليونسكو - المصدر السابق
(١٢) د. سيد عويس - حديث عن الثقافة (بعض الحقائق الثقافية المصرية المعاصرة) - الناشر : مكتبة الأنجلو - القاهرة - ١٩٧٠ - ص ١٥٨ - ١٦٠.

وأساليب تفريغ الشحنات العدوانية المكتومة متنوعة .. أشهرها الفن .. وكرة القدم .. والموالد .. وهى أساليب سلمية .. رخيصة التكلفة .. فإذا ما أصابها جنون الأسعار، تكون الوسائل الأخرى أرخص .. التطرف .. وتكفير المجتمع .. وحمل السلاح .. وإطلاق الرصاص.

ووجهاً لوجه، قال د. سيد عويس :

- بصفة عامة السخرية أسلوب يفضله المصريون .. فهم يسخرون من الآخرين ومن أنفسهم .. وفى ظروف القهر تصبح السخرية لغة سرية .. تصبح من الممنوعات مثل الحشيش وحيازة سلاح بدون ترخيص .. فتخرج النكت متسللة من تحت الأرض إلى فوقها .. وهذا حدث أيام سعد زغلول، والملك فؤاد، ومصطفى النحاس، والملك فاروق، وجمال عبد الناصر، وأنور السادات .. ويحدث الآن.

وأعتقد أن النكتة .. "قصور فى الديمقراطية" .. وصرخة ألم فى مواجهة خناجر الأزمة الاقتصادية .. ومرهم مهدىء للالتهابات التى سببها حريق الأسعار ... فى مثل هذه الظروف تبرر النكت.

قال مواطن مصرى لآخر : "الأسعار مولعة تيجى نتدفى".

وعلى غلاف "روزاليوسف" رسم فنان الكاريكاتير "جمعة" ناراً حارقة كتب عليها الأسعار، وحولها مجموعة من أصحاب الكروش يستدفئون بها، كتب عليهم "التجار".

والنكت ليست الأسلوب الوحيد الذى يلجأ إليه المصريون فى هذه الظروف .. هناك أساليب أخرى، مثل "تزويغ" الموظفين .. إنه نوع من التمرد الخفى .. أيضاً تراخيهم فى العمل .. شبه الإضراب الصامت، الذى لا يعاقب عليه قانون الطوارىء .. كذلك .. تسريب المال العام فى بالوعة الإهمال .. ورمى فوانيس الإضاءة فى الشوارع بالطوب .. وكسر إشارات المرور والسير فى الممنوع .. ومعاندة الحكومة بكثرة الإنجاب .. وتمزيق مقاعد المترو .. والشخبطة على الجدران .. وكتابة عبارات بذيئة - سياسية وجنسية - داخل دورات المياه .. والتهليل فى ظلام دور السينما لمشاهد الاعتداء على رموز السلطة.. عسكرى البوليس مثلاً .. وهذا يحدث فى الشارع أحياناً .. فنحن لا نحب السلطة ولا نقدر على بعدها.

وقد قرأت عبارة على سيارة ملاكى تقول .. "أحسن حاجة إن الواحد مش فاهم حاجة".. والعبارة ساخرة .. تشرح الكثير مما نشعر به .. وتفسر لماذا نستعين بالنكتة فى هذه الظروف .. إنها صورة من صور "هتاف الصامتين" .. أى الذين يصرخون بالإشارة بعد أن قطعت ألسنتهم .. الأضعف يشير بسخرية إلى الأقوى .. ينكت عليه .. فلا حيلة أخرى.

انتهى ما قاله د. سيد عويس.

****

والنكتة عند المصريين .. هبل على شيطنة .. أحياناً. أى أن من يقولها شيطان يدعى البلاهة .. وأشهر من نجح فى ذلك، ساخر، جرىء، عاش زمن الدولة الإخشيدية هو "سيبويه المصرى" .. كان يُظهر الجنون والعبط حتى لا يُحاسب على نقده المرير للحكم ولرموزه .. ومن ثم كان أعقل من استثمر الجنون .. وكان الحكيم الذى استراح لقناع المجاذيب .. وهكذا .. كان مهرجاً، فيلسوفاً لكن فى بلاط الأمراء، وإنما على مقاهى الصعاليك.

وحدث أن كان الإخشيد يمر أمام حشد من الناس فى طريقه إلى المسجد، فقفز سيبويه المصرى - فوق أكتافهم كأنه فى مظاهرة - وراح يشير إليه، قائلاً : ما هذا الأصلع البطين .. والمسمن البدين .. قطع الله منه الوتين .. ولا سلك به ذات اليمين .. أما كان يكفيه صاحب ولا صاحبان .. ولا حاجب ولا حاجبان .. ولا تابع .. ولا تابعان ؟ ... لا قبل الله صلاة له، ولا قرب له زكاة، وعمر بجثته الفلاة.

قذف علنى مباشر لن يتكرر إلا فيما بعد .. فى "هايد بارك" .. لكنه .. لم يكن ليحدث ويمر بسلام لو صدر من شخص آخر .. فى بلادنا فحرية التعبير حق للبلهاء فقط.

وفى تلك الفترة قيل إن أمير المؤمنين، خرج للصيد، فابتعد بفرسه عن أتباعه، حتى وجد نفسه أمام خيمة أعرابى، فقال : يا أعرابى هل تساعدنى ؟ .. فأخرج له قرص شعير فأكله، ثم أخرج له بعضاً من لبن فسقاه، ثم أتاه بنبيذ، فلما شرب، قال : أتدرى من أنا ؟.. قال : لا ..

قال : أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصة .. قال : بارك الله لك فى موضعك، ثم سقاه مرة أخرى فشرب .. وقال : أتدرى من أنا ؟ .. قال : زعمت أنك من خدم أمير المؤمنين الخاصة .. قال : لا، أنا من قواد أمير المؤمنين .. فأخذ الأعرابى قربة النبيذ وأبعدها، وقال : والله لو شربت الثالثة لادعيت أنك أمير المؤمنين.

والواقعة حقيقية رصدها "الأبشيهى" فى كتابه "المستطرف".(١٣) لكن المثير للدهشة أنها أصبحت - بعد مئات السنين - نكتة سياسية، مصرية، معاصرة، بطلها "رئيس الجمهورية" نزل يتفقد أحوال الناس فى الأسواق، فساقته الصدفة إلى "غرزة" حشيش، تمتلىء بالدخان الأزرق، والمساطيل .. وبعد أن سحب النفس الأول من الجوزة، قال لأقرب مسطول : تعرف أنا مين ؟ قال : لا .. قال : أنا وزير التموين .. قال أنعم وأكرم .. ثم سحب النفس الثانى وقال : تعرف أنا مين ؟ قال : وزير التموين ؟ .. قال : لا .. أنا نائب رئيس الوزراء .. قال : شرفت وآنست .. ثم سحب النفس الثالث وقال : تعرف أنا مين ؟.. قال : نائب رئيس الوزراء ؟ .. قال : لا، أنا رئيس الوزراء نفسه .. فشد منه الجوزة بعيداً، وقال : كفاية عليك كده يا خفيف .. دا إنت لو أخذت نفس كمان حتقول إنك رئيس

(١٣) ص - ٥٠٩.

الجمهورية.

وهناك .. نكتة معاصرة لها أصل فى كتب التراث .. سُئل مواطن مصرى، يعيش فى الصعيد :

- لماذا لا تعلق صورة الرئيس ؟

- رئيس .. رئيس مين ؟

- الرئيس حسنى مبارك ؟

- ما اعرفوش !

- اللى جه بعد الرئيس السادات.

- سادات .. سادات مين ؟

- اللى جه بعد جمال عبد الناصر.

- ومين ده كمان ؟

- اللى قام بالثورة وطرد الملك فاروق.

- الملك فاروق ؟! ولا سمعت عنه !

- أيوه .. ابن الملك فؤاد.

- الله هو الملك فؤاد اتجوز ؟!

لقد تحول التاريخ إلى نكتة .. فالسخرية لا تفنى ولا تُخلق من عدم .. ومع بعض التحوير، يمكن أن تعيش النكتة زمانها وزمان غيرها .. خاصة فى بلد مثل بلدنا .. حيث تتغير القشور الخارجية فقط .. أما ما تحت الجلد فهو كما هو .. تماماً .. كنزع لافتة سجن أبى زعبل، واستبدالها بلافتة فندق ماريوت.

إن بقاء الأوضاع كما هى عليه، يجعل النكتة السياسية المصرية نكتة خالدة .. لا تموت .. ومع قليل من الصقل تكون صالحة لجميع الحكام.

****

يقول الكاتب الصحفى المعروف مصطفى أمين : "النكتة السياسية كانت وستظل وسيلة الشعب للتعبير عندما لا تكون هناك ديمقراطية".

س : كيف ترى العلاقة بين الديمقراطية والنكتة السياسية ؟

ج : إذا كانت هناك حكومات ديمقراطية، وصحافة حرة، وأحزاب تعبر عن الشعب، بالتأكيد، النكتة السياسية، ستضعف .. أما إذا لم يكن .. انتشرت النكتة .. وانفجرت.

س : لماذا يقال عن المصريين أنهم "ولاد نكتة" ؟

ج : لأن أكثر شعب فى العالم بينكت هو الشعب المصرى .. والنكتة السياسية بالنسبة له هى الصحيفة المعارضة الواسعة الانتشار .. أى أنها تنتشر رغم أنف القوانين التى تحاصر قيام أحزاب جديدة، وتقيد المعارضة، وتمنع إصدار صحف مستقلة.

س : هل النكتة سلاح ؟

ج : نعم .. إنها سلاح من لا سلاح له .. وحتى تكون مؤثرة وفعالة لابد أن توجه إلى الأقوى.. أما التى تصنعها الحكومة وتزرعها أحياناً بين الناس، فلا تُضحك .. فالناس تشفق على الضعيف ولا تسخر منه.

ومصطفى أمين من الكتاب الذين يعرفون قيمة النكتة، ويقدرون الأسلوب الساخر "الذى يجرح دون أن يسيل دماً" .. وكانت أول كتاباته فى "روز اليوسف" بهذا الأسلوب .. خاصة التى قدمها فى باب "كده كده" .. وعندما سافر إلى أمريكا كتب عنها مقالات ساخرة بإمضاء "مصمص"، جمعها فى كتاب باسم "أمريكا الضاحكة"، نشر طبعته الأولى فى سنة ١٩٤٣.

وكون مصطفى أمين "مجلس النكتة" فى "أخبار اليوم" .. الذى ضم على أمين، ومأمون الشناوى، ومحمد عفيفى، وجليل البندارى، وصاروخان، ورخا .. وكانت مهمة هذا المجلس الخروج بأفكار الكاريكاتير الذى ستنشره الصحيفة .. وكل فكرة تُقبل كان لها مكافأة .. وكان مصطفى أمين يضحك بشدة على كل نكتة أو فكرة .. ثم يقول "بايخة".

وقبل ذلك .. ساهم مصطفى أمين فى خلق معظم شخصيات فنان الكاريكاتير المبدع "رخا" .. مثل .. ابن البلد .. بنت البلد .. رفيعة هانم، والسبع أفندى .. شيوعى باشا .. ميمى بيه .. سكران باشا طينة .. وغيرها.

وابن البلد - كما قدمه مصطفى أمين - رجل بسيط .. يجهل البروتوكول .. يتكبر على المتكبرين .. على ضعفه عدو الظالمين، وصديق المظلومين .. ثائر على المتبع فى هذا البلد.. لا يكف عن الابتسام .. حاضر النكتة .. طيب القلب .. لا يتعصب ضد دين أو جنس .. لا يحقد على أحد .. لا ينتقم من مغلوب .. لا يغمد خنجره فى جريح .. لا يستطيع إلا أن يقول كلمته الخالدة خلود الأهرام "معلهش" .. أو ربنا يسامحهم أو "منهم لله".

وسبق هذا الوصف صورة لابن البلد، رسمها قلم قاسم أمين .. محرر المرأة .. تؤكد ملامحها على أنه "رجل خفيف ولطيف. لا تغيب البشاشة عن وجهه ولم يره أحد قط

غير مبتسم. إذا قال لك : نهارك سعيد، ضحك، وإذا أخبرته أن الهواء طيب، ضحك. وإذا سمع أن زيداً مات، ضحك .. زينة المجالس وأنيس النوادى، يرى نفسه مكلفاً بوظيفة السرور فيها ومنوطاً بنشر التفريح، حوله. يستخدم كل شىء لتسلية نفسه وأصحابه فيجد فى أهم الحوادث موضوعاً للتنكيت، وفى أحسن الرجال محلاً للسخرية، لو ضحيت بحياتك فى أشرف الأعمال فلابد أن يفتش فيها عن الجهة التى يتخذها واسطة للاستهزاء وجعلها أضحوكة للناس".

وفى كتابه "سنة أولى سجن" يقول مصطفى أمين : إن النكتة هزمت بطش السجان .. وأعطت الفرصة للمسجونين للسخرية منه .. فسقطت أنيابه وضاعت هيبته .. فقيل إن سجاناً غاب بسبب مرضه فأرسل برقية لمأمور السجن، قال فيها : "مريض وملازم الحصيرة" !!

والسخرية هنا من الفقر .. فالرجل لا يملك فراشاً حتى يبرق بأنه يلازمه .. وينام على الأرض .. ومع ذلك فإنه يتحكم فيمن يملكون كل شىء .. تماماً مثل عسكرى المرور القادر على إيقاف سيارات الأثرياء وأصحاب النفوذ، وهو لا يملك من حطام الدنيا فردة "كاوتش" .. وعلاقته الوحيدة بالسيارات هى أنه يحول إطاراتها القديمة إلى نعل لحذائه.. ولأن هؤلاء ضعاف .. فالناس تشفق عليهم، ولا تسخر منهم .. حسب ما قاله مصطفى أمين نفسه قبل قليل .. كذلك فإنه نسى أن السجان "عبد المأمور" .. ونسى أن أكثر الأطراف قلقاً فى السجن هو السجان، كما قال برنارد شو .. ونسى أن سجانه مثل ملايين البسطاء من شعبنا، السخرية منه .. سخرية منهم.

ويقال ... إن سجاناً سأل د. لويس عوض وهو فى المعتقل :

– بتشتغل إيه ؟

– مستشار فى وزارة الثقافة.

– وبتاخد كام ؟

– ١٠٠ جنيه.

– يا بوى .. مائة جنيه .. وبتتعارك مع الحكومة كمان .. طب خد !

وترجمة عبارة "طب خد" إلى لغة مصلحة السجون، تعنى صفعة أو شلوتاً أو شيئاً من هذا القبيل.

كان ذلك فى الخمسينيات .. فى وقت كان مرتب السجان فيه لا يزيد على خمسة جنيهات .. وهذا ما أطار عقله .. فهو يخدم الحكومة ومستعد أن يموت فى سبيلها بهذه الجنيهات، فى حين أن هذا السجين الذى يقبض (١٠٠) جنيه، يخاصمها ويعاندها ..

إذن هذا كافر بالنعمة ويستحق ما يجرى له .. وهكذا كان من السهل أن يتقبل هؤلاء البسطاء أى خرافة تقال لهم عن المعتقلين، لتبرير حبسهم، وتعذيبهم، وإهانتهم، وقتلهم إذا لزم الأمر .. فمن لا يعرف .. يقول "عدس" والعبارة مصرية جداً.

****

وليس صحيحاً أن هم المصريين كان دائماً على بطنهم .. فعندهم أيضاً ... أن الخبز وحده لا يكفى .. وأن الحرية قبله أحياناً .. ومهما كانت إصلاحات الحاكم، وإنجازاته فإنها لا تشفع له قسوته .. ولا تبرر معاملته للشعب، على أنه قطيع من الماعز .. فاللقمة المغموسة فى القهر والبطش، لقمة مسمومة.

لذلك ... سيظل "قراقوش" رمزاً للحاكم الشرس، الغبى، الذى حاول الإصلاح .. فنسى الناس والتاريخ إصلاحه وتذكروا غباءه .. فالاستبداد يبقى .. والطرق والمبانى تندثر .. ودخول جهنم لا يُكلف - هذا الطراز من البشر - سوى نية طيبة.

وقراقوش شخصية حقيقية .. تركى الأصل .. ظهر بعد نهاية حكم الفاطميين .. وكان مساعداً لصلاح الدين الأيوبى .. الذى كان يترك له تدبير أمور مصر حين يغيب عنها فى الحروب الصليبية .. ويُنسب لقراقوش أنه هو الذى حول البلاد من المذهب الشيعى إلى المذهب السنى .. كما أنه أجرى العديد من الإصلاحات فى نظم الرى والضرائب والتعليم .. وأمّن الطرق من اللصوص .. وملأ خزائن الدولة - المهجورة - بالمال .. مما ساعد صلاح الدين على تحرير القدس .. لكنه .. فعل ذلك، بقسوة هزت الأبدان .. وشدة لم يحتملها الناس .. وغباء صار مضرب الأمثال .. فانطلقت النكات والأزجال والشائعات تطارده، وتسخر منه .. وقد ذهبت الاصلاحات، وبقيت النكات التى بالغت فى عيوبه، ونسبت إليه ما ليس فيه، حتى أصبح اسماً "حركياً" للحاكم المصرى الباطش .. وأصبحت قراراته الشاذة صفة لكل القرارات الرسمية الظالمة.

لقد نزع قراقوش عقله ووضع بدلاً منه فردة حذاء .. وأحرق مشاعره وبرماد الحريق رسم تصرفاته السوداء .. وترك قلبه يجف، وعلقه فى متحف الشمع .. فكان سلطة بلا عقل، ولا قلب .. سلطة مقهورة، مجنونة.

وقد عاش فى القرن الثالث عشر، وكُتب عنه كتاب : "الفاشوش فى حكم قراقوش" .. والذى كتبه أسعد بن مماتى .. وكان وزيراً فى بلاط صلاح الدين .. أى كان زميلاً لقراقوش وشريكاً له فى إدارة شئون البلاد .. والكتاب ساخر .. موجه إلى السلطان .. أى أنه بلاغ رسمى مكتوب على طريقة شكوكو .. وفيه يستهل ابن مماتى كلامه بقوله : "إننى لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش محزمة فاشوش قد أتلف الأمة، والله يكشف عنهم كل غمة، لا يقتدى بعالم، ولا يعرف المظلوم من الظالم، والشكية عنده لمن سبق، ولا يهتدى عن صدق، ولا يقدر أحد - من عظم منزلته - أن يرد على كلمة، ويشتط اشتطاط

الشيطان، ويحكم حكماً ما أنزل الله به من سلطان .. صنفت هذا الكتاب لصلاح الدين، عسى أن يريح منه المسلمين".

وفى الكتاب .. أن رجلين من أصحاب اللحى الطويلة شكيا له رجلاً أجروداً عبث بلحيتهما، فظن قراقوش أنهما هما اللذان نتفا لحيته، فأمر بوضعهما فى السجن حتى تطلع لحية الرجل.

وقيل إنه أمر الرجال بحلاقة لحاهم .. وبعد ساعات حرم ذلك !

وفى الكتاب .. أن الشرطة قدمت له أحد غلمانه متهماً بالقتل، فأمر بشنقه، ولما أخبروه بأنه حداده، وفى قتله حرمان له ممن ينعل فرسه، فنظر أمام بابه فرأى قفاصاً، فقال : "اشنقوا القفاص وسيبوا الحداد".

وقيل إنه حرم على العامة أكل "الملوخية" وكان اسمها "ملوكية" .. أى طعام الملوك .. تماماً كما حرم الخليفة المأمون أكل "المأمونية" التى تعرف الآن باسم "الكمونية".

وفى الكتاب أن قراقوش طلب إلى أحد القضاة أن يأتى له بحساب القمح والشعير والفول والحمص، فقدم له القاضى الحساب فى ورقة واحدة، فأمر بحبسه، فتنبه القاضى إلى السبب، وأرسل له حساب كل محصول فى ورقة .. وعند ذلك عفا عنه قراقوش لظنه أنه ما استطاع ذلك إلا بعد أن فرق بين الأصناف الأربعة.

وقيل إنه سأل ابن مماتى :

- إن كل حاكم يحمل لقباً دينياً، مثل المعتصم بالله .. والمستنصر بالله .. والمعتز بالله، فأى لقب من هذه الألقاب أستحقه ؟

- لقب "أعوذ بالله".

ويقول ابن مماتى عن قراقوش أنه يجهل القرآن ولا يستطيع أن يفرق بينه وبين الكلام العادى، ويروى أن شاعراً امتدحه ببعض الأبيات، فلما فرغ منها، قال له قراقوش : يا مقرىء لقد أحسنت وقرأت قراءة طيبة " .. فقد ظنه يتلو قرآناً.[١٤]

لقد دخل قراقوش التاريخ من أسوأ أبوابه .. فمن اسمه، اشتقت كلمة "قراقوز" أو "كراكوز" التى تطلق فى تركيا على "خيال الظل"، والتى تحورت فى مصر حتى أصبحت "أراجوز" .. وكان ذلك أكبر دليل على نجاح ابن مماتى فى التشهير بقراقوش والتشنيع عليه.

ثم .. جاء المصريون من بعده ليضيفوا إلى قراقوش ما يتجاوز حدوده .. حتى تصور بعضهم أنه شخصية وهمية .. فقد تلاشت المسافة بين الواقع والوهم، وأصبح قراقوش مطية شعبية ترمز للسلطة الديكتاتورية.

****

---

(١٤) د.الهوال ـ المصدر السابق ـ ص٨٥ و ما بعدها.

وكما بالغنا فى صورة الحاكم الغبى .. بالغنا فى صورة البطل الشعبى المراوغ .. وهكذا تضخمت شخصية جحا، واستمرت، واستقرت .. ولا تزال .. إنها الوجه الآخر لقراقوش.. الوجه البارز غير المسموح لعملة الفكاهة فى بلادنا .. مع أن جحا ليس مصرياً، ولا عاش فى مصر .. ولكننا وددنا ذلك .. وتمنيناه .. فهو "ابن نكتة" .. يخرج من أى مطب كما تخرج الشعرة من العجين .. وهو يحمل غرائز الصعلوك، وحكمة القاضى، وأحاسيس الشاعر، وحيل النصاب، وخفة ظل ابن البلد .. وهذه "توليفة" توافق مزاج المصريين .. لذلك تعاملوا معه على أنه منهم، واحترموه كأنه وُلد بينهم .. وهذه حالة نادرة جداً ..

وجحا ... اسمه الحقيقى نصر الدين خوجا .. وخوجا فى اللغة التركية تعنى المعلم .. وتنطق هوجا .. ومع تنقل الكلمة من بلد لآخر أصبحت هوجا .. جوحا .. ثم جحا .. ومعناها المدرس أى أن جحا مهنة وليست اسماً أو لقباً.

ويقال إنه ولد فى قرية تقع غربى مدينة أنقرة، تُسمى هارتو، قبل حوالى (٥٠٠) سنة .. ويقال إنه مات فى سنة ١٣٩٢، ودفن بها، وله فيها ضريح.

لكن .. هذه الحقائق المجردة لا ترضى الخيال الشرقى .. فكان أن نسب الناس إلى جحا ما ليس فيه .. فهو أحمق، وطيب، وبخيل، وشهم، ولص، وشريف، ومحتال، وكريم.. هو كل هذه الصفات، حسب الحاجة .. وحسب الموقف .. أى أنه صورة من صور "البطل الكاذب " .. مثل الحمل الكاذب .. له مظاهر لكنه ليست له نتائج .. إنه حقيقة ساذجة تحولت إلى أسطورة كبيرة .. ولو لم يُوجد لاخترعناه .. وعلى شماعته علقنا كل نوادرنا ونكاتنا وآرائنا الساخرة، ونسبناها له حتى لا نعاقب ولا نصاب بمكروه .. والحقيقة أننا لم نفعل ذلك بمفردنا .. فنوادره مكتوبة ومنشورة بخمسين لغة.

وعلى المقاهى، والمصاطب التركية، يروى البسطاء، والفقراء الكثير من سخرياته من المغولى، الشرس، القبيح، تيمورلنك، فهو لا يزال بالنسبة لهم رمزاً للمقاومة التلقائية، ونحن أيضاً. (١٥)

قال له تيمور لنك :

- اشتهر كل خليفة عباسى بلقب خاص .. فالمستنصر معناه المعتمد على نصر الله .. والمعتزم معناه الذى يلتمس الحماية من الله .. والمتوكل معناه الواثق بالله ... فبم تلقبنى إذا كنت واحداً منهم ؟

اجاب جحا :

---

(١٥) ايفان سوب، كاتب وناقد أدبى يوغسلافى، ويعد أهم مرجع عالمى فى فكاهة البطل الشعبى نصر الدين خوجا .. وقد حصل على رسالة دكتوراه فى هذا الموضوع من جامعة بلجراد، ونشرت مجلة "رسالة اليونسكو" تلخيصاً لها فى عدد يونيو ١٩٧٦، وهذا التلخيص مصدرنا هنا.

- تيمور لنك .. كان الله فى عوننا منك !

ويقال إنه كان مع تيمور لنك فى قصره، عندما أحضر بعضهم مرآة من البلاتين هدية للغازى .. ونظر تيمور لنك فى المرآة فامتلأت عيناه بالدموع، ولحظ جحا ذلك، فراح يبكى، وسرعان ما تمالك تيمور لنك نفسه، فى حين استمر جحا ينتحب، فقال له تيمور لنك :

- أيا نصر الدين، عندما رأيت وجهى فى المرآة قبيحاً حزنت بعض الشىء، ولما كنت أعلم أنك تحبنى كثيراً لم أدهش حين رأيتك تقاسمنى حزنى، وأشكرك على ذلك، ولكن أخبرنى لماذا لا تزال تبكى، وأنا قد تغلبت على حزنى ؟

أجاب جحا :

إنك رأيت وجهك لحظة فى المرآة فحزنت بعض الوقت، ولكنى أراك طول اليوم فمن حقى أن أبكى وقتاً أطول.

وعندما أغار تيمور لنك على قرية جحا، خرج لاستقباله ومعه هدية .. أوزة مشوية .. لكنه سرعان ما شعر بالجوع فأكل فخذاً منها .. وحين قدمها لتيمور لنك سأله :

- أين فخذ الأوزة ؟

- أيها الملك إن الأوزة، وجميع الأوز برجل واحدة.

- كيف ذلك ؟

- انظر إلى أسرابه بين يديك.

وكان أمامه سرب منها واقف على رجل واحدة .. فلما رأى تيمور لنك ذلك أمر بضرب الطبول، فلما ضربت هاج الأوز ومشى على رجليه.

- والآن .. يا جحا .. ألا ترى أنه برجلين ؟

- أيها الملك الصالح، والله لو أفزعتنى بمثل هذا الطبل لمشيت على أربع.

وأكبر دليل على أن المصريين أحبوا جحا، واحترموه، وتمنوا منحه جنسيتهم، أن العقاد ألف كتاباً عنه .. لقد كتب العقاد كتباً عن الصحابة وسعد زغلول وجحا .. وتعمد العقاد أن ينشر أكبر عدد ممكن من نوادره .. ومنها أنه سئل :

- أيهما أفضل، المشى خلف الجنازة أم أمامها ؟

- لا تكن فى النعش وامش حيث تشاء.

ومنها .. أنه سكن فى دار، وراح يشكو إلى صاحبه أنه يسمع قرقعة سقفها .. فقال صاحب الدار :

- لا تخف إنه يسبح الله.

- وهذا ما أخشاه، فقد تدركه رقة فيسجد علينا.

ولقيه بعض معارفه فى الطريق فقال له :

إنى رأيت الساعة رسولاً يحمل مائدة حافلة بالطعام الفاخر.

- وماذا يعنينى أنا ؟

- إنهم يحملون الطعام إلى بيتك.

- وماذا يعنيك أنت !

وليست صدفة أن يقلل العقاد من غروره، ويكتب عن جحا .. فقد كان - على قسوة مظهره وصعوبة أسلوبه - خفيف الظل فى صالونه يتذوق النكتة، ويطلقها .. "وكأن التاريخ والأدب والفن والفلسفة والسياسة والنكتة كلها أصابع بيانو يلعب عليها معاً فى وقت واحد" .. على حد قول أنيس منصور الذى يضيف : "وكان الأستاذ (العقاد) يشجعنا أكثر وأكثر على أن نضحك وعلى أن نروى أحدث النكت. وكان بعضنا يفعل. ولكن العقاد كان يقول : لا ..

يا مولانا عندى نكتة أحسن ! ثم يروى النكتة وتكون ضحكته عالية".[١٦]

وعندما قرأ العقاد أن كمال الدين حسين أصبح رئيساً للجنة الطاقة الذرية، ضمن وظائف أخرى كثيرة يقوم بها، قال : يا مولانا إن الله لن يحاسبنى على ما أفعل .. كيف يحاسبنى وقد خلقنى فى عصر كمال الدين حسين وجمال عبد الناصر ؟ .[١٧]

إنه رأى جاد فى صياغة ساخرة .. أو هى مرارة شديدة مغطاة بالسكر .. أما سبب غضبه من جمال عبد الناصر، فهو تلك العبارة التى قالها يوم إطلاق الرصاص عليه فى ميدان المنشية بالإسكندرية .. "أنا الذى علمتكم الكرامة .. وأنا الذى علمتكم العزة".

وكان العقاد يقول : إن هذا الرجل عندما قام بثورته هذه وجد البيوت والشوارع وملايين الناس والأهرامات والثورات .. والجامعات ومئات الألوف من الكتب .. لقد سبقه للوجود كل هؤلاء .. وسبقته إلى القاموس كلمات أخرى غير العزة والكرامة .. الغرور والغطرسة.. مثل هذه الغطرسة.[١٨]

(١٦) "في صالون العقاد"-دار الشروق-القاهرة-١٩٨٣-ص٩.
(١٧، ١٨) المصدر السابق - ص ٢٢.

أى أنه كان يمزج – فى تعليقاته على ما يجرى – بين النكتة والحكمة.

وكثيراً ما كانت نكاته تتجاوز خفة الظل إلى الذبح .. فالدماء كانت تسيل من فمه الذى يثير الضحك ... أحياناً .. مثلاً .. كان يقول : لقد سألنى كثير من الناس إن كانت المطربة أم كلثوم لا تزال آنسة، وكان يجيب : قلت لهم : أنا لا أعرف شخصياً، ولكن كل الذين تزوجوها قالوا : إنها كذلك !(١٩)

ونشرت مجلة "الاثنين" صورة لتوفيق الحكيم مع حماره، وتبارى الكتاب فى التعليق عليها.. كتب مصطفى أمين : اختبر ذكاءك .. أيهما توفيق الحكيم ؟ .. وقال كامل الشناوى : هذا إعلان عن كتاب الحكيم الجديد .. وقال العقاد : يا حمارة الحكيم اذهبى إلى حماره. (٢٠)

ويكرر أنيس منصور .. أنه – أى العقاد – كان يشرح قضيته، ويسعفه التاريخ والأدب والسيرة النبوية والسياسة والنوادر والنكت أيضاً .. كل ذلك فى جلسة واحدة وفى قضية واحدة.(٢١)

أى أن النكت بالنسبة له طوبة، ورأى، وحكمة، وثقافة، ورد اعتبار تجاه كل من تصور أنهم أهانوه، أو اعتدوا عليه .. من أم كلثوم إلى جمال عبد الناصر .. ومن كمال الدين حسين إلى طه حسين.

****

والعقاد كان ساخراً بين أصحابه وتلاميذه .. لا على الورق .. فهو فى صالونه الأدبى كان أخف ظلاً من نجيب الريحانى .. أما عندما يكتب فكان أشد صرامة من ستالين .. ومثل العقاد كان زكريا أحمد .. وحافظ إبراهيم .. وسعد زغلول .. قناعاً من التجهم يخفى كتلاً متحركة من الظرف.

****

وينتسب إلى هؤلاء كامل الشناوى .. فقد كان ثقيل الوزن، خفيف الدم، لكن فى الحياة فقط .. أما على الورق فكان شاعراً رقيقاً، يصرخ من خيانة المرأة ويعيش عليها .. يتألم من الحبيبة – الذنب، ويتمنى من الله ألا يغفره .. والحبيبة – القيد، الذى حرص طوال عمره ألا يكسره.

ولو انتبه كل الذين شاركوه السهر والمرح، وجمعوا أولاً بأول تعليقاته الساخرة، لكانت لدينا الآن ثروة من الأدب الساخر، الجميل .. لكن ذلك لم يحدث .. لا معه، ولا مع غيره من

---

(١٩) المصدر السابق –ص ٣٠.
(٢٠) المصدر السابق –ص ٣١.
(٢١) المصدر السابق – ص ٤٦.

الظرفاء .. مأمون الشناوى .. عباس الأسوانى .. بيرم التونسى .. عبد العزيز البشرى.. عبد الحميد الديب .. إبراهيم ناجى .. محمد البابلى، وغيرهم .. فكانت نكت الليل مثل الزبد، ما أن تشرق عليها الشمس حتى تسيح.

و أشد ما كان يعذب كامل الشناوى .. ثقل الدم .. "فإذا دخل مكتبه رجل ثقيل، ضاقت به الدنيا، وشعر بالاختناق و استنجد بعدد من الظرفاء، من أصدقائه لينقذوه من الغرق فى الدم البارد و الثقيل."[٢٢]

ومن بين هؤلاء الأصدقاء، كان محمود السعدنى، الذى كتب عنه : "إن كامل الشناوى اختار لنفسه طريقاً وسطاً فى الحياة .. ينشد العدل ويدافع فى سبيله، ولكنه نصف دفاع.. ويناضل من أجل الحرية، ولكن نصف نضال .. ومن أجل هذا أيضاً خاض كامل الشناوى غمار كل المعارك التى خاضها الشعب ولكنه لم يدخل السجن أبداً، فقد كان يخوض المعارك عندما يكون الجو مناسباً للقتال، حتى إذا هبت العاصفة آثر كامل الشناوى أن ينحنى لها حتى تمر، فإذا انقضت عاد مرة أخرى إلى النضال .. ولعل هذا راجع إلى ذكاء كامل الشناوى، وهو ذكاء من فصيلة "الذكاء العام" للشعب .. لقد خاض الشعب المصرى عبر تاريخه الطويل آلاف المعارك، وشهد عشرات الغزاة والمحتلين، ولم يلن الشعب ولم يستكن، ولم يهدأ بل ظل يقاوم، ويناضل، وذهب كل الغزاة وكل الطغاة وبقى الشعب .. ذلك لأنه آثر ألا يدخل معركة حاسمة مع أعدائه قد تنتهى بإبادته..".[٢٣]

وحدث أن سأله العقاد عن المدرسة الفلسفية التى ينتسب إليها، فضحك كامل الشناوى قائلاً :

- إننى يا أستاذ أنتسب إلى مدرسة فى الفلسفة اسمها الماليشية .. أو الماليشيدية.

- لكنى .. لم أسمع عنها.

- إنها أقدم مدرسة فى الفلسفة .. وبسببها ظهرت كل المدارس الفلسفية لتعترض عليها.

- ربما تقصد النيتشية (نسبة إلى الفيلسوف نيتشه) .. أو لعلك تقصد المانيشية .. وهى فعلاً مذهب فلسفى نسبة إلى الفيلسوف الفارسى مانى ؟

- لا .. يا أستاذ .. إن المذهب الماليشى، أو الماليشيدى هو اختصار للشعار الذى اتخذته فى حياتى ولحياتى ولكل الفنانين أيضاً .. فالماليشيدية هى اختصار لكلمتين : ماليش دعوة !‏[٢٤]

وقالها وضحك .. ثم وقف واستأذن.

لكنه .. بالرغم من اعتناقه الماليشية أو الماليشيدية .. فإنه لم يطبق هذه الفلسفة فى

---

(٢٢) مصطفى أمين - "مسائل شخصية" - مطبوعات تهامة - جدة - ١٩٨٤ - ص ٢١٨.
(٢٣) محمود السعدنى "الظرفاء" - كتاب الهلال - فبراير ١٩٦٧ - ص ١٤٦.
(٢٤)في صالون العقاد-ص ٣٤٦

حياته.. بل لم يطبقها مع العقاد نفسه.

فقبل أن يتسلم العقاد جائزة الدولة التقديرية، قرأ كامل الشناوى كلمته التى سوف يلقيها أمام الرئيس جمال عبد الناصر، ولاحظ كامل الشناوى أن العقاد لم يقل كلمة واحدة تحية لجمال عبد الناصر أو للثورة .. وكان من الصعب عليه أن يطلب منه ذلك .. فكان أن قرر إنقاذ الموقف بمقلب من مقالبه .. وفعلاً كان .. فعندما ذهب العقاد وألقى كلمته، لم يكن صوته واضحاً، وتعالت أصوات الحاضرين فى قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة .. لا كان نطقه واضحاً ولا كان صوته مسموعاً .. أما الذى حدث فهو أن أحداً ما أشار بأن يكون الميكروفون بعيداً تماماً عن العقاد .. فكان الميكروفون أمامه ولكنه لم يكن مرفوعاً .. فأحنى العقاد رأسه وراح يقرأ ما لم يستطع أحد أن يتبين ما يقول.(٢٥)

وعندما قامت جماعة المشير عبد الحكيم عامر بطرد عدد كبير من كتاب جريدة "الجمهورية" .. وتحويلهم إلى شركة "باتا" .. قابل كامل الشناوى واحداً من أهمهم، هو عبد الرحمن الخميسى، فقال له :

- لقد بدأ مكسيم جوركى حياته "صرماتى" وانتهى كاتباً .. أما أنت يا خميسى، فقد بدأت كاتباً وانتهيت صرماتى ... ها ها.

ومع أنه كان يفضل منطقة الوسط، فإنه كان يكره لجوء غيره إليها .. "فليس أبغض على قلبى من الشىء الوسط ويستوى عندى نصف الأمى ونصف المتعلم".

لذلك فقد صنّف الشيوعيين المصريين إلى ثلاثة أصناف .. "صنف شيوعى" وهذا مفهوم.. وصنف "ميوعى" أى يقف على أطراف الشيوعية .. أو هو شيوعى من منازلهم.. أو شيوعى من بعيد إلى بعيد .. لا ينتمى إلى تنظيم، ولا يريد أن يدفع ثمناً لموقفه .. أما الصنف الثالث فيصفه بأنه "رجوعى" .. غير رجعى .. أى أنه كان شيوعياً ورجع فى شيوعيته .. أو فى كلامه.

ومع أنه كان "يقدر النكتة ويعشقها ويضعها أحياناً فوق كل اعتبار"، فإنه كان يفزع منها "ويرهبها إذا كانت مصوبة إليه" .. و"صحيح أنه يحب النكتة، ويطرب لها، ويضحك من أعماقه عليها، على شرط أن يكون هو قائلها، فى جلسة مريحة، وبين أصدقاء أعزاء، ولكنه يخاصم النكتة ويكرهها إذا كانت ضده، إذا كانت تعنيه .. إن موقفه منها كموقفه من المعارك يخوضها إذا كانت لا تقضى عليه".(٢٦)

وفى رأى كامل الشناوى، أن "النكتة المصرية القوية، تعتمد على المبالغة فى تصوير الحقيقة أو فى تشويهها".

---

(٢٥) المصدر السابق - ص ١٥٣.
(٢٦) محمود السعدنى - المصدر السابق - ص ١٤٧.

ويدلل على ذلك قائلاً :

إن عبد العزيز البشرى، وصف زيور باشا، أحد رؤساء الوزارة قبل الثورة، وكان ضخم الجثة، وصفه بأنه إذا ركب العربة لم يستطع أحد أن يعرف هل هو جالس إلى الشمال أو هو جالس إلى اليمين".

وقيل إنه كان يمشى فى حديقة داره فتراهن اثنان من المارة، هل هو يسير أمامهما أم هو يتجه إليهما ؟

ويقول كامل الشناوى أيضاً :

إن مأمون الشناوى كان يتكلم عن سرعة تضخم إحدى الشخصيات العامة، المفرطة السمنة، واطراد الزيادة فى وزنه، فقال إنه كان يجلس معه فرآه وهو "بيتخن".

أما النكتة السياسية، فهى فى رأيه "السلاح الفتاك الذى استخدمه المصريون فى محاربة الغزاة والمحتلين .. وهى الفدائى الجسور الذى استطاع أن يتسلل إلى قصور الحكام، وحصون الطغاة، فأقض مضاجعهم، وملأ صدورهم بالرعب والقلق".[(٢٧)]

****

ولا جدال أننا لو عدنا - من جديد - إلى التاريخ لوجدنا عنده حق.

ولقد جاءت قبل قليل سيرة "سيبويه المصرى" .. وها هو محمود السعدنى يصفه بأنه "أول نكتى شهير فى مصر" .. وقد سُمى باسم سيبويه لغرامه الشديد بالنحو، وتعلقه الشديد بالصرف .. وكان يركب حمارة "بيضاء اللون ويمشى فى الأسواق هاجياً أعداءه ومنافسيه بأفحش الألفاظ، وعندما سُئل لماذا تركب حمارة، قال لأن عندى فى البيت حمارة تركبنى" !.[(٢٨)]

وبعد الحروب التى خاضها المصريون فى عهد السلطان المملوكى الظاهر بيبرس لم تتردد السلطة فى امتصاص الحالة التى كان عليها الشعب بتشجيع المرح .. فدعموا الحشيش حتى يصل - إلى الجميع - بسعر مناسب .. وسمحوا بتداول النكت السياسية .. ويقال إنهم ألفوها ونشروها بين الناس .. فكان أول استعمال من أعلى إلى أسفل للنكتة .. وكان أول تحويل لها إلى أداة من أدوات السيطرة النفسية .. ثم إنها كانت مكافأة من السلطان المنتصر للشعب الذى حارب معه.

كان ذلك فى القرن الثامن الهجرى.. وفى ذلك الوقت ظهر مسرح ابن دانيال الساخر،

---

(٢٧) كامل الشناوى - تقديم كتاب "الظرفاء" لمحمود السعدنى - مصدر سبقت الإشارة إليه.
(٢٨) السعدنى - المصدر السابق - ص ١٥٠.

الذى ازدحمت شخصياته بنماذج فى المجتمع "تعيش على حسابه أو تعبث بقيمه أو تلعب بعقول الناس غشاً ونفاقاً".[29]

بل .. إن ابن دانيال فى تمثيلية واحدة، اسمها "عجيب وغريب" صور (٢٧) شخصية "تمثل نماذج من سكان القاهرة ممن تغلب عليهم الغرابة فى صورهم أو سلوكهم وأسلوب حياتهم".[30] مثل الأجنبى المتغطرس .. والدجال .. والوالى الغبى .. وأدعياء الطب .. الذين كان منهم "نباتة العشاب" الذى كان يظهر على المسرح الشعبى ليقول : "إننى يا سادة وذوى الفضل والإفادة، سيقول منكم قائل : ما فى هذه المنافع، وما الذى تضمنته من الخير الجامع .. هذه فيها حبة، تقلب البغضاء محبة .. أين الذى جفاه معشوقه، أو غضب عليه مولاه وصديقه .. دلوا على من غضب عليه السلطان أو تخبطه الشيطان وأرشدوا إلى من ضعفت قواه، هذا دواء المصروع والمجنون .. وهذا لإخراج الجنين والمسجون".

إنها نفس الشخصية التى كانت – حتى وقت قريب – علامة من علامات الموالد .. تبيع الوهم فى صورة "حباية" – معجزة تجعل الرجل فى الفراش كالحصان .. وتمنع النهجان من كثرة الدخان .. وتساعد العاشق على النسيان .. وتسهل إنجاب الصبيان !

وهذا يعنى أنه حتى النصاب يجب أن يكون فناناً .. خفيف الظل .. فمن خدعه الدواء أسعدته "النمرة" .. أو "العرض المسرحى" بلغة النقاد .. فلا خسارة مهما كانت النتيجة.

****

وبعد المماليك، جاء الأتراك .. جاءوا كالجراد .. وفى يدهم كرباج .. وفى ملامحهم غطرسة .. وفى عيونهم شبق وتوتر .. أما كروشهم فكانت علامتهم المميزة .. وكسلهم وضيق عقلهم أيضاً.

وسخر المصريون من نفختهم الكاذبة .. فقالوا "تركى بجم" .. وقالوا : "زى بعجر أغا ما فيه إلا شنبات" ..

وقالوا : إن آخر خدمة الغز علقة .. والغز طائفة من الأتراك.

وفى كتابه الشهير "عجائب الآثار فى التراجم والأخبار"، يقول الجبرتى : إن المصريين نكتوا على الباشا التركى .. ثم حولوا النكت إلى أغنية، لحنوها ورددوها .. "يا باشا يا عين القملة .. مين قال لك تعمل دى العملة .. يا باشا يا عين الصيرة مين قال لك تدبر دى التدبيرة" .. وقد ورثنا هذه الأغنية .. وعاشت معنا طويلاً .. أما النكت المباشرة عن الأتراك فنحن نعرفها إلى الآن .. وأشهرها التى تصف تركيا جلس أمام بيته وقد ملأ عدة

---

(٢٩) د. الهوال – المصدر السابق – ص٩٢.
(٣٠) قاموس العادات والتقاليد – ص ٢٣.

قلل بالماء ليشرب منها المارة .. وكان كلما رفع أحد قلة ليشرب منها، قال له آمراً : سيب دى، واشرب من دى.

ويقال إن تركيا معدماً كان ماشياً فى السكة فوجد نصف فرنك، فظل واقفاً جنبه لحد ما فات واحد فقير، فنادى عليه، وقال له : وطى يا ولد هات النص فرنك ده.

باختصار حسنة وأنا سيدك ! .. أو حسنة وأنا أسيبك !.

إن هذه السخرية كانت رد فعل لقسوة الأتراك الممزوجة بالإهانة .. والتى لم تترك أحداً إلا صفعته، لا على وجهه وإنما على قفاه .. إن المصرى .. فلاح .. والفلاح خرسيس .. والخرسيس حلال فيه الشلاليت.

ويروى أحمد أمين عن أحد أصحابه الأتراك، أن والده الباشا التركى، خرج ذات يوم بموكب كالمعتاد، وأراد أن يثبت لابنه سلطانه، فنظر إلى النيل فوجد ثرياً مصرياً يركب "ذهبية جديدة" يجرها أربعة من الفلاحين بالحبال .. فصاح الباشا فى الفلاحين، أن قفوا، وأمرهم أن يجروا الذهبية إلى البر ففعلوا، ورأى الثرى هذا المنظر فنزل وجاء إلى الباشا الذى قال له :

– منذ متى يركب فلاح ذهبية جديدة ؟

– مراحمكم وعدلكم ومراحم أفندينا خديوى مصر وعدله جعلتنا نستريح ونطمئن وده شىء يفرحكم وده خير يسركم.

– لكن كيف يجوز للفلاحين أن يتشبهوا بأسيادهم ويركبوا الذهبيات ؟

– الحمد لله إحنا بنجرى ونلعب على حسكم وفى ظلكم وظل أفندينا، والعبد وما ملكت يداه لمولاه فأنا عبدكم وعبد أفندينا. والذهبية ملككم وملك أفندينا.

– أنا أقول لك كيف تجاسرت وتشبهت بأسيادك وركبت ذهبية ؟

– أستغفر الله العظيم أن أكون أريد التشبه بكم.

– إذا كنت لا تريد التشبه بنا فلماذا اشتريت الذهبية، وركبتها فى البحر كأنك من أسياد البلد ؟ وتريد أن يشوفك الفلاحون ويقولون ده له شأن ومقام.

– يا سيدى إن كان لى مقام فهو بفضلكم إنتم وأفندينا.

– إنت فرعون .. ويا فرعون اتفرعنت ليه، قال ما لقتش حد يردنى.

– أستغفر الله إن كنتم ترون أن فى ذلك عيباً فوالله ورسوله لا أعود لركوبها أبداً .. وتبت إلى الله على يديك.

- توبتك مقبولة .. ولكن يلزمها تفكيرة.

- لا وراسك وراس أفندينا ما أنساها أبداً.

- لا لا .. لابد من تفكيرة ولو صغيرة .. يا ولد هات الخدم تعالوا اربطوه من نراعيه وهاتوا النسوة خليهم يرشوا الأرض حتى تصير وحلة، واسحبوه فوق الوحل ذهاباً وإياباً ليعرف أولاً قيمة الثياب التى يلبسها.

ففعلوا ذلك .. وأمر بضربه علقة حتى سال الدم من رجليه وركبتيه وظهره، ثم قال له الباشا :

- إن شاء الله ما تنساش !

إنها واقعة حقيقية .. تلخص سنوات طويلة من الذل والهوان وقلة القيمة وسحق الكرامة وتحويلها إلى خرقة تمسح بلاط أفندينا، وأحياناً مؤخرته.

وأفندينا كان لقب يتمتع به الخديو فقط .. أى كان فى مصر "أفندى" واحداً .. وأقل منه كان لقب الباشا، والبك ثم انقلبت الآية .. أصبح الباشا فوق الجميع، وأصبح لقب الأفندى من حق كل مواطن يرتدى الطربوش .. وفيما بعد .. سنجد أن الرئيس أنور السادات سيسخر من المثقفين المعارضين لسياسته .. وسيصفهم بالأفنديات .. وسيصف مواقفهم بالرذالات .. أى أنهم أفندية لا علاقة لهم بمشاعر الناس ومتاعبها .. فمن ليس معه، فهو ضد الناس .. منتهى الديكتاتورية .. أو التشبه بالأتراك على الأقل فى الغطرسة.

والتشبه بالأتراك مرض أصيبت به الأرستقراطية المصرية القديمة .. فقد أراد أثرياء مصر التخلص من لقب "فلاح" .. والحصول بأى ثمن على لقب من ألقاب الأتراك .. بك.. أو باشا .. ويروى أحمد أمين، أنه يعرف فلاحاً ورث بعض الفدادين عن أبيه، ثم اقتصد وجدّ حتى اشترى غيرها، فادّعى أنه من الذوات .. ثم باع بعض أطيانه واشترى بها لقب "بك" وصار يتكلم مقلداً الترك .. فيقول .. إنت عاوزة إيه يا راجل .. أنا موش يعرف .. ويقول هفا بدلاً من هوا .. أى هواء .. وحظراتكم بدلاً من حضراتكم .. ثم باع كثيراً من أملاكه وحصل على لقب "باشا"، فزادت وجاهته، واستطاع بها أن يظلم من حوله من الفلاحين وأن يسترد منهم ما دُفع فى الرتبة.[٣١]

وحتى الآن لا يزال الانتساب للأتراك مثار فخر للبعض منا .. خاصة النساء .. ولا تزال كلمة "فلاح" تستعمل للسخرية أحياناً .. ومن جديد عاد لقب باشا ليصبح عملة قابلة للتداول فى الأحزاب وأقسام الشرطة وشركات الاستثمار الخاصة .. ففؤاد سراج الدين

---

(٣١) المصدر السابق - ص ٧٩.

رئيس حزب الوفد هو أقدم باشا .. أو باشا سابق استرد اللقب .. وعثمان أحمد عثمان باشا بأثر رجعى .. أى كان من المفروض أن يكون كذلك لو لم تكن ثورة يوليو قامت .. ولأنها قامت وانتهت وعادت الأمور إلى ما كانت عليه فاللقب من حقه .. ومن حق ضباط الشرطة أيضاً .. وكل من يريده كذلك، مع أن الشعب كان قد حطم هيبة اللقب، واستخدمه فى معاكسة النساء فى الشوارع .. يا باشا يا باشا .. يا أحلى من البغاشة.

وورث بعضهم عن الأتراك التدين الشكلى .. فصلاة الأتراك لا تنهى عن الظلم والرشوة.. ويكفى عندهم بناء مسجد أو سبيل حتى تُرفع عنهم مثل هذه الجرائم .. وفى مصر الآن يعفى ملاك العقارات، من الضرائب إذا بنوا مسجداً تحتها .. فالتدين مكسب فى الدنيا على الأقل .. أو هذا النوع من التدين تحديداً.

على أن غالبية المصريين الذين ذاقوا الأمرين على يد الأتراك لم تقلدهم .. ولا تشبهت بهم .. بل على العكس فضحتهم، وسخرت منهم، وأضحكت الدنيا عليهم .. وحولتهم إلى عرائس تتحرك خلف ستارة "الأراجوز" .. ويقال إن باشا من الأتراك ممن يجمعون المال بالكرباج قابل جماعة من المصريين، ولاحظ أحدهم أن الليلة باردة، والباشا التركى بدون قفاز، فقال :

- غريبة يا باشا إنك مش لابس جوانتى فى البرد ده ؟

فرد عليه آخر :

- وهو عاوز الجوانتى ليه وإيده فى جيوبنا.

وشاعت بين المصريين نكتة خاطفة تقول : أن تركياً فهم مات !

وفى تاريخ مقاومة الأتراك، قصيدة شعبية، شهيرة، للشيخ "يوسف الشربينى" سماها "أبو شادوف"، شرحها فى كتاب أسماه "هز الكتوف فى شرح قصيدة أبو شادوف" .. والقصيدة "تصور جهل أهل الريف وبؤس حياتهم وموقف الحكومة منهم" .. وأسلوبها ساخر .. وأسلوب شرحها .. أيضاً .. إنها تصف أهل الريف بأن أحوالهم شياط وعياط.. ولا يفكرون إلا فى الغنم والأبقار .. ولا يهتمون إلا بحط العلف وهات الكلف .. وعلى لسان الملتزم التركى الباطش يورد الشيخ الشربينى خطبة تفضح الكثير .. "اعلموا يا أهل بلدنا أن عندكم قمح كثير وتبن وشعير وأنتم فى خير من رب العالمين، فأنتم تفيقوا لزرع الوسية (أرض الملتزم) والا صبحكم الكاشف بداهية وبلية، وغداً تسرحوا للعونة والسخرة، وفيقوا لدوركم وجداركم، وأكرموا الخطار بالعدس والبيصار تنجوا من عذاب النار". [٣٢]

والقصيدة، وثيقة .. والوثيقة عن ظلم الفلاح المصرى على يد الأتراك .. وقد حفظها بعضهم، ورددها والسياط تحفر جسده .. فهونت عليه .. وشدت من عزيمته .. وفسرت

(٣٢)لعل من المفيد الرجوع لكتاب الشاعر طاهر أبو فاشا عن هذه القصيدة التاريخية.. الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب.. كذلك.. انظر د. الهوال-مصدر سابق- ص٩٦.

له ما غاب عنه .. فمن يفهم سر العذاب يحتمله .. ومن يسخر منه يتجاوزه.

****

وفى كتابه "بونابرت فى مصر"، يعترف "كريستوفر هيرولد" بأن نابليون احتل مصر بالمدافع وخرج منها بالنكتة لقد أطلق على المصريين القذائف فردوا عليه بالنكت البذيئة. أى بقذائف أشد .. وفى هذه النكت اتهموه بالعجز الجنسى .. والسبب أنه رفض ست حسان، شرقيات، بحجة أنهن بدينات .. وبأن رائحة الحلبة تفوح منهن .. فكان أن صرفهن دون أن يمسسهن .. لأنه كان يفضل غصن البان لا أشجار الجميز .. البدن النحيل الممصوص، والأطراف الدقيقة مثل جوزفين .. لا أجساد فى حجم أبى الهول .. على عكس ذوق ومزاج المصريين فى ذلك الوقت، الذين كانوا يعتبرون أن الرشاقة قبح .. والنحافة سوء تغذية .. والبدانة ترف .. وأن شحم المرأة هو سر فتنتها وجاذبيتها الجنسية.

وإمعاناً فى السخرية من نابليون، أخرج له المصريون "على كاكا" .. وهو شخصية فلكلورية، أغلب الظن أنها بقايا التراث الفرعونى .. شخصية رجل يلف حول وسطه حزاماً تتدلى منه "قطعة على شكل الآلة الجنسية فى أضخم أنواعها" .. وكان هذا المنظر يثير ضحك النساء والرجال ضحكاً بالغاً" ... وكانوا "يصنعون منه نماذج من الحلوى فى الموالد" .. لقد صبوا مئات الألوف من هذا التمثال .. وباعوه فى كل مكان ليذكروا نابليون بفشله .. وعجزه .. وخيبته .. أو ربما ليذكروا أنفسهم بأنهم أقوى منه .. ومن مدافعه على الأقل فى الفراش .. وهى حرب نفسية، جنسية، غريبة .. أفقدت نابليون هيبته .. وأضاعت احترامه .. فتجرأ العامة على جنوده .. فذبحوا بعضهم واعتدوا على بعضهم الآخر ... وكان أن بدأ العد التنازلى لنهاية الحملة الفرنسية على مصر.

لقد أحس المصريون بأن من العار أن يحكمهم شاذ أو عاجز أو رجل لا يفهم فى النساء، أو قائد يؤخر الجنس عن الغزو، والحب عن الحرب، فسعوا لتحطيم معنوياته بالنكت والقفشات .. ومع انتشار الأمراض بين الجنود، أصبحت النهاية متوقعة.

ولم يقدر نابليون مساحة الجنس فى حياة المصريين، وإن نجح فى رصد أهمية "الدين" .. والسر أنه حَلم بالهند لا بالنهد .. كما أن أبواب المصريين كانت مغلقة تماماً على أنفسهم ونسائهم .. كذلك فإن علماء الحملة لم يكونوا قد انتهوا من كتابهم المذهل "وصف مصر" وعنوانه الكامل "مجموعة الملاحظات والأبحاث التى أجريت فى مصر أثناء حملة الجيش الفرنسى" .. الذى ظهر المجلد الأول منه عام ١٨٠٩، بعد عودة نابليون إلى فرنسا، واكتملت مجلداته التسع فى عام ١٨٢٢، أى بعد سقوط نابليون بسنوات.

وفى الكتاب .. إن طقس مصر يحول دون تكاثر الأجانب عموماً .. وإن الرجال يستمتعون فى الحمام بملذات عجيبة .. إذ لابد أن تقوم خادمة من الخادمات على الدوام، بتدليك

قدم الواحد منهم إما باليد، وإما بقطعة من الطوب الأملس .. وهنا تلتقى الشهوة والنظافة.

وفى الكتاب .. أن المصريين يضعون على وجوههم أقنعة من الخمول، وعدم الاكتراث، واللامبالاة .. "حتى تظن أن ليس فى الدنيا ما يشغلهم إلا أن يملأوا ويفرغوا على التوالى أرجيلتهم الطويلة، وتبدو مخيلتهم وكأنما تخدرت مثل أجسامهم لحد تخال معه أن سماعهم لحكم بالموت صادر عليهم لن يكون بمقدوره أن يثير مجرد دهشتهم" .. لكن .. ذلك غير صحيح .. فعادة الصمت تجعل أحاسيسهم أكثر حدة، كما أنها تعطى لأرواحهم دفعات من النشاط تجعلهم فى بعض الأحيان قادرين على الإتيان بأفعال بالغة الجرأة .. وفضلاً عن ذلك فإن الفكر يكسب بعمق ما كان يمكن أن يفقده لو كانت الروح متقدة .. إن ملكة الانتباه والقدرة على التذكر "تذهب إلى أبعد مدى عند هؤلاء الناس الذين نخالهم غارقين فى بلادة مطلقة" (٣٣).

وفى الكتاب .. "إن المصرى خجول بطبعه، وهو يتفادى الخطر بقدر ما يستطيع. لكنه - ما أن يجد نفسه وسط المخاطر - حتى يبدى همة ما كنت تظن فى البداية أنها لديه. وليس ثمة ما يساوى رباطة جأشه، وفى نفس الوقت تواكله. ولقد واتتنا الفرصة لتسجيل هذه الملاحظة عدة مرات أثناء حملتنا، وهذا ما يبرهن علي ما سبق أن قلناه من أن إصلاح مساوىء نظام الحكم سوف يؤدى بسهولة فائقة إلى أن يرد لهذا الشعب كل الفضائل التى فقدها. بل التى يظنها هو نفسه كامنة. كما أن ذلك سوف يوقظ فيه كل مشاعر النبل والهمة وعظمة الروح التى خنقتها إلى حين تلك الأنظمة الشيطانية التى يرزح تحت نيرها".(٣٥)

لم يكن نابليون قد عرف ذلك بعد .. فاصطدم بالجزء الخفى من جبل الجليد فى محيط الشخصية المصرية .. وظن أن الجزء الطافى فوق سطح المياه يكفى ويفيض .. فكان أن تصور أنه فى حفلة تنكرية مسلية تسمح له بخلع ثياب الجنرال، وارتداء ثياب الدراويش.. ثم راح يهتز بنشوة لم يشعر بها من قبل على إيقاعات حلقات الذكر .. ومن باب الرشاقة والريجيم صام أياماً فى "رمضان" .. ومن باب التودد والتملق، عاقب رجال حملته على الطريقة المصرية .. ويشهد بذلك الأمر اليومى المؤرخ فى ٨ يناير ١٧٩٩ .. ونصه :

"إن المواطن بواييه جراح مستشفى الإسكندرية بلغ به الجبن أن يرفض علاج المجروحين، المخالطين للمرضى الذين قيل إنهم يشكون مرضاً معدياً. إنه غير جدير بأن يكون مواطناً فرنسياً، وسيلبس ملابس النساء، ويوضع على حمار، ويسحب فى شوارع الإسكندرية. وعلى ظهره لافتة كُتب عليها "غير جدير بأن يكون مواطناً فرنسياً لأنه يخشى الموت" ..

---

(٣٣) ص - ٣٩ من الجزء الأول لموسوعة "وصف مصر" - ترجمة زهير الشايب - مكتبة مدبولى - القاهرة - ١٩٧٩.
(٣٥) ص-١١٥ من المصدر السابق.

ثم يودع فى السجن، ويعاد إلى فرنسا فى أول سفينة مسافرة". [٣٦]

إنه عقاب بالجرسة .. أى بالفضيحة .. والجرسة من الجرس .. والجرس صوت وإزعاج وإعلان ... إعلان الفضيحة .. والتشهير بصاحبها .. الذى كان يركب حماراً ووجهه إلى الذيل .. ويصيح الأطفال خلفه صيحات مناسبة للجريمة التى ارتكبها .. الحرامى أهوه، إذا كان لصاً .. اخص، اخص على النطاط، إذا ضُبط فى فراش غيره .. وهكذا .. أما نابليون فقد وضع الجريمة والعقاب على ظهر الجراح الفرنسى الجبان.

ولعل المصريين شجعوا نابليون على ذلك .. ثم سخروا منه .. ولعلهم أطلقوا عليه اسم "الحاج محمد نابليون"، كما أطلقوا على هتلر فيما بعد .. ثم فى الوقت المناسب ثاروا عليه.. وعندما فشلت الثورة، عادوا إلى النكتة .. إلى الممكن والممتع .. فتاريخنا قليل من الثورات كثير من النكات .. واصبر على جار السوء، يا يرحل، يا تجيله مصيبة تشيله.

---

(٣٦) ج. كريستوفر هيرولد - "بونابرت فى مصر" - ترجمة فؤاد أندراوس - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٨٦ - ص ٢٢١.

هذا الكتاب إهداء من
مكتبة يوسف درويش

٤

النكتة تلعلع بعد الثورة .. دائماً !

"رأى الناس منظراً عجيباً .. الباشا النحاس "يطرطر" .. فهل يتفق هذا الفعل الفاضح مع جلال وصفه "بصاحب الدولة" ... يا ضيعة الألقاب".

"مجلة الكشكول"

لا أحد يفهم الشعب المصرى أكثر من الشعب المصرى.

قالها نابليون عندما تلقى نبأ ثورة المصريين ضده .. فالثورة كانت مفاجأة .. والمفاجأة كانت مذهلة .. الذهول أن يتحرك هذا الشعب الخامل، الخامد، الذى يشرب أفراده عشرين فنجان قهوة، بدون سكر فى اليوم، ومن حقهم الزواج قبل سن البلوغ أحياناً، ويتشاجرون بالسباب لا بالنبوت غالباً، ويفضلون الألوان الزاهية، والثياب الواسعة، دائماً، ويدخنون الحشيش، ويأكلون الفول، ويحبون قول أو سماع النكت.

لكن نابليون لم يعرف أن الثورة فى مصر تخضع لقاعدة "ضربوا الأعور على عينه" .. أى أنها تشتعل عندما تنعدم المسافة بين الجوع والموت .. بين الحرية والسجن .. بين رأس المحكوم وحذاء الحاكم .. عندما يصبح الحشيش عاجزاً عن التخدير، والنكتة عاجزة عن التسكين، والجنس عاجزاً عن التنويم .. باختصار .. عندما يكون الألم أشد من المورفين.. والغضب أكبر من حلقات الذكر .. والانتحار هو السبيل الوحيد للحصول على رغيف العيش.

والذين قاموا بالثورة. هم "حشرات الحسينية وأوباش الناس" على حد وصف الجبرتى .. هم البؤساء الذين يتوقف بقاؤهم – على قيد الحياة – على عملهم اليومى الدءوب، على حد قول شابرول دى فولفيك أحد علماء الحملة الفرنسية.

أما السبب المباشر للثورة فهو فرض المزيد من ضرائب الأملاك والعقارات والحانات والحمامات والمحلات ومعاصر الزيوت .. "ولما أشيع ذلك فى الناس كثر لغطهم واستعظموا ذلك" .. "وتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم وأصبحوا متحزبين وعلى الجهاد عازمين وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب" .. أى أنها ثورة شعبية تماماً .. ثورة جياع لم يعد الصبر قادراً عليهم .. فخرجوا عن الحد .. "وامتدت أيديهم إلى النهب والخطف والسلب" .. أخذوا الطعام والشراب والثياب والأمتعة والنساء .. تمنوا النعيم ساعات ولو كان الثمن الموت .. فالموت بعد التخمة أفضل من الحياة مع الحسرة .. وكان أن نزل الفرنسيون بكل قوتهم لسحق الثورة.. وعندما أطلقوا مدافعهم، فُزع المشايخ، وعلماء الأزهر .. ونادوا : "يا سلام من هذه الآلام، يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف" .. وركبوا إلى "كبير الفرنسيس" .. وعندما قابلهم "عاتبهم فى التأخير واتهمهم بالتقصير فاعتذروا إليه فقبل عذرهم وأمر برفع الرمى عنهم" .. وكان هذا الاعتذار هو أول خيانة فى الثورة .. أما أفراد الشعب "فإنهم لم يزالوا مستمرين وعلى الرمى والقتال ملازمين، ولكن خانهم المقصود وفرغ منهم البارود والإفرنج أثخنوهم بالرمى المتتابع بالقنابر والمدافع".[1]

لقد استشهدوا فى خنادقهم .. قتلوا بخيانة المشايخ قبل أن تصيبهم المدافع .. وعلى

(١) الجبرتى – الجزء الثانى – طبعة دار الجيل – بيروت – ص ٢١٨ – ٢٢٢.

جثثهم دخل الفرنسيون الأزهر الشريف "وهم راكبون الخيول" .. وربطوها بقبلته .. وكسروا القناديل .. وهشموا خزائن الطلبة .. ونهبوا متاعهم .. ودشتوا الكتب والمصاحف "وعلى الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها، وأحدثوا فيه وتغوطوا وبالوا وتمخطوا وشربوا الشراب وكسروا أوانيه وألقوها بصحنه ونواحيه، وكل من صادفوه به عروه ومن ثيابه أخرجوه".

ومن جديد عاد المشايخ يقبلون الأعتاب، ويطلبون العفو والسماح .. أما الفقراء فقد بدأوا حرب العصابات .. وفى الظلام راحوا يقتلون الجنود الفرنسيين .. انتقموا منهم .. ومما فعلوا .. والبادى أظلم.

وعندما شفى المصريون غليلهم .. تراجعت الثورة وعادت النكتة .. أو النكت التى سماها الجبرتى "الأضاحيك" .. وكان معظمها موجهاً ضد خلاعة الفرنسيين وميوعتهم .. وانزعج نابليون .. وأمر "جماعة من أتباع الشرطة"، بشق الأسواق والحمامات والقهاوى، "ونبهوا على الناس بترك الفضول والكلام واللفظ فى حق الفرنسيس" .. وقالوا لهم : "من كان يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر فلينته ويترك الكلام فى ذلك، فإن ذلك مما يهيج العداوة" .. أى أن التنكيت على الفرنسيس رجس من عمل الشيطان .. تركه يُدخل الجنة.. والاستمرار فيه يثير العداوة والبغضاء .. أكثر من ذلك زرع نابليون جواسيسه وعيونه فى كل مكان لينقلوا إليه النكات .. وليشوا بمن يطلقها .. وكان العقاب .. القتل .. ويؤكد الجبرتى على أن النكات لم تتوقف، ولم تنته .. وأضاف "وربما قُبض على البعض وعاقبوه بالضرب والتغريم".(٢)

إنها المرة الأولى فى التاريخ التى تكون النكتة فيها جريمة من جرائم أمن الدولة .. يُعاقب من يرتكبها بالقتل .. أو بالضرب .. وكان تكييفها القانونى .. الحض على كراهية النظام.. والتحقير من شأنه .. والرغبة فى تحطيم معنويات جنوده .. مع أن نابليون – فى رأى المصريين – كان "ابن نكتة" .. وعلى حد وصف الجبرتى "كان بشوشاً ويباسط الجلساء ويضحك معهم" .. فما الذى جرى ؟ .. إنه الفشل .. فى إخضاع المصريين .. والفشل فى فتح عكا .. والفشل فى تحقيق أحلامه التى جذبته إلى سحر الشرق .. فكان من الطبيعى بعد ذلك أن يعود إلى بلاده، ويترك بدلاً منه "سارى عسكره الجديد – كليبر" .. أو "كلهبر" .. الذى كان عبوساً .. لا يعرف "بشاشة ولا طلاقة وجه بونابرت" .. أو بونابارته كما كان يُكتب أيامها. وقد قتل كليبر بخنجر لا بنكتة .. لذلك لم يكن القاتل مصرياً .. وهو سورى، من حلب، جاء إلى مصر عن طريق غزة .. أوهم خليفة بونابرت بأنه يريد تقبيل يده .. فمدها إليه .. فقبض عليها وضربه بخنجر أربع ضربات متوالية، فشق بطنه، وسقط على الأرض .. وأُعلنت حالة الطوارىء .. فقد تصور جنرالات الحملة أن ما حدث " من فعل مصر فاحتاطوا بالبلد وعمروا المدافع وحرروا القنابر، وقالوا لابد من قتل أهل مصر عن آخرهم، ووقعت هوجة عظيمة فى الناس، وكرشة وشدة انزعاج"..

---

(٢) ص ٢٦٢ .

لم تهدأ إلا بعد القبض على القاتل والتأكد من أنه مسئول بمفرده عن الاغتيال .. وأن أهل مصر كانوا فى حالة من حالات التنكيت والتبكيت معاً.

****

و "التنكيت والتبكيت" اسم مجلة أيضاً .. مجلة ارتبط صاحبها بثورة أخرى .. الثورة العرابية .. هو عبد الله مصباح إبراهيم .. وشهرته عبد الله النديم.

إسكندرانى .. شهم .. نحيف .. معدم .. نكاتى .. بلا حظ .. صعلوك .. متشرد .. على فيض الكريم .. أرزقى .. حشاش .. زجال .. ثم هو ثائر .. سيطر على البسطاء بالنكتة، وقادهم نحو الثورة.

ولد فى سنة ١٨٤٣ .. بحى كوم الدكة .. الحى الذى سيُولد فيه سيد درويش .. وفى المدرسة عرف كيف يفك الخط، ويقرأ ويكتب بصعوبة .. واكتفى بذلك .. فقد كانت الحياة تدعو إلى معرفتها وجهاً لوجه .. وصدراً لصدر .. وفماً لفم .. بعيداً عن مقاعد الدرس الجافة .. وكلمات المعلم الميتة .. "وفى المقاهى الصغيرة المنتشرة داخل أزقة أحياء الإسكندرية وحول الميناء وجد ضالته .. حيث يأوى كل مساء عشرات من الحمالين والسقايين، بل والنشالين، يشربون أقداح الشاى، ويغرقون همومهم فى دخان الكيوف .. ثم يقضون ليلهم كله فى الضحك والسخرية بجميع عباد الله، وبالأوضاع المقلوبة التى تجعل من بعض الناس سادة، ومن بعضهم الآخر عبيداً" .. على حد وصف الكاتب الساخر، محمود السعدنى .. الذى يضيف : أنه كان "يحوم حول هذه المقاهى كالفراشة، يستمع أول الأمر إلى ما يقوله هؤلاء الناس المكدودون ثم يشاركهم السخرية بعد ذلك بكل شىء .. السخرية بهم وبالخواجات، وبنفسه إذا لزم الأمر .. فإن اهتزاز الأوضاع فى زمانه لم يترك فى نفسه أثراً لاحترام أحد .." .[٣]

وكان أن طار صيته حتى لم تعد هناك نكتة جديدة إلا وتُنسب إليه .. لكنه .. لم يكن يقول النكتة .. للنكتة فقط .. وإنما كان يعنى من ورائها ما هو أكثر .. تحريض الناس على الغضب .. ثم تسخين الغضب ليصبح ثورة .. واستثمار الثورة فى التغيير.

إنه أول ثائر فى تاريخنا الحديث، خفيف الظل، خاطف البديهة، لا يتصلب، ولا يتشنج، ومن ثم كان قادراً على تجميع الناس، لا على تطفيشهم، كما يحدث الآن .. ثم إنه كان أيضاً أول من حول النكتة إلى ثورة .. وليس العكس .. أى الثورة إلى نكتة، كما حدث كثيراً فيما بعد ... ولا يزال !

وفى عصره كان الخواجات فوق القانون .. أو كانوا القانون .. لقد انكمش حلم محمد على، وانحصر فى مصر، ثم جاء أبناؤه، ليقعوا فريسة للترف والديون الخارجية .. وهكذا

(٣) السعدنى – المصدر السابق ص ١٥ – والنكات المنسوبة للنديم مقتبسة عنه.

ظهر الخواجات .. وبدأت الامتيازات الأجنبية .. والمحاكم المختلطة التى كانت ترهب المصريين، لأنها لم تكن تنصف سوى الخواجات.

ويروى النديم :

أن خواجه وقف أمام القاضى، فسأله :

- انت قتلت الراجل ده يا خواجة ؟

- لا .. يا خبيبى .. هو "كتل" روخه".

فهتف القاضى منشرحاً :

- براءة.

وجاء دور أحد أبناء البلد؛ فسأله القاضى :

- انت ضربت الراجل ده بالسكين ؟

- لا والنبى ياسيدى القاضى.

- أمال يعنى هو اللى ضرب نفسه ؟

- أيوه يا سيدى.

- غريبة .. فيه حد يضرب نفسه .. انت اسمك إيه ؟

فرد ابن البلد الذكى فى سرعة :

- اسمى مخمد خسين !

وعلى لسان النديم يروى السعدنى هذه النكتة أيضاً :

شاهد خفير لصاً يهبط من نافذة ومعه صرة ملابس .. فصرخ الخفير فى اللص :

- مين هناك ؟

- أنا خواجا ...

- لا مؤاخذة .. كنت أحسبك مصراوى !

وفى تلك الأيام خُلق ما نعرفه "بعقدة الخواجة" .. والخواجة هو غير المصرى .. أو غير المسلم .. وهو كل من يضع على رأسه "برنيطة" .. ويتحول وجهه فى الشمس إلى ثمرة "بنجر" .. وينطق الحاء .. خاء .. وهو فى رأى المصريين مصنوع من عجينة بقلاوة .. لا

يكذب .. ولا يسرق .. ويمكن أن يكون أقرب للأنبياء منه للبشر .. وسر هذه العقدة ليس كمال الخواجات وإنما مركب النقص فى المصريين.

وكانت عقدة الخواجة فى ذروتها، عندما كان النديم يسخر منها .. وينكت عليها .. ويحاول إقناع البسطاء بتجاوزها .. لكن النكتة مهما كان دورها، ليست حرفة .. وهى تسعد النديم، لكنها لا تخرس عصافير بطنه .. ولا تقنعها بالكف عن عزف سيمفونية الجوع .. ولأنه حساس، وفنان، ومتمرد، لم يقبل أن يعيش على حساب غيره .. فالثائر الساخر لابد أن تكون له حرفة أيضاً وإلا أصبح مهرجاً.

وكانت الحرفة التى تعلمها .. دق برقيات التلغراف .. وكان التلغراف فى ذلك الوقت - مثل الكومبيوتر الآن - معجزة تكنولوجية، ساحرة .. لذلك، لم يكن غريباً أن يجد وظيفة فى سراى أم الخديو، التى كانت تُسمى "والدة - باشا" .. وكان أن دخل القصور .. وكان من الممكن أن يضعف ويستسلم للنعيم، وأن يخون طبقته، ويبيعها بثوب مزركش .. أو جارية رومية .. خاصة أنه خفيف الظل .. أى أنه يملك موهبة نادرة، فى قصور موحشة، يغلب عليها الصمت، ويحلم أصحابها باهتزاز كروشهم من الضحك .. ولو كان قد فعل، ما كنا عرفناه، ولكان مجرد مهرج .. وراح.

لكنه .. لم يفعل .. فلا لقمة العيش أغرته بالاستسلام .. ولا باع رسالته من أجل نيشان.. بل على العكس .. سنجده يختنق فى ثيابه الرسمية .. ويرتعد من رطوبة العلاقات الإنسانية .. ويكتم ضحكاته فى سره من الجد - الهزل الذى يراه حوله.

كان يحكم القصر "أغا باشا" .. كرشه فى حجم عربة الرش .. ورأسه مثل رأس الفيل .. وعقله فى حجم الناموسة .. وتصرفاته يحكمها سلوك الديك الرومى .. و "حبكت" النكتة.. فقال النديم فيه زجلاً :

"شوف الأغا فى النغنغا .. زى التيران فى المزرعة .. لو كنت أنا صاحب الأغا .. كنت اشتريتله بردعه".

وسمع الأغا الزجل .. فأمر بضربه بالقباقيب .. وبطرده من القصر .. وفعلاً كان .. وعاد النديم إلى ما كان عليه.

وبقليل من النقود .. تاجر فى الخردوات .. بالمنصورة .. لكنه لم يفلح .. لأنه سخر من البضاعة ومن الزبائن .. "واحد زبون عايز يشترى فانلة بياقة" .. "واحد فلاح امبارح طلب منى عمّه صيفى" .. "واحد خواجه أسلم ولف شال على البرنيطة".[4]

وبعض الظن أن النديم كان أول من أطلق النكتة - التلغراف التى تبدأ بكلمة "واحد" .. "واحد جه يقعد على قهوة، قعد على شاى" .. مثلاً .. ولعل السبب خبرته فى النكتة والتلغراف معاً.

---

(٤) السعدنى - الظرفاء - المصدر السابق - ص ١٨.

وترك النديم المنصورة .. وجاء إلى القاهرة التى كانت رائحة الثورة قد بدأت تفوح منها .. وكان وراء إشعال النار، رجل دين، قادر على تفجير الغضب، هو جمال الدين الأفغانى .. "تعجب من الحال التى وصلت إليها مصر .. شعب صابر ومسالم .. وحاكم فاجر .. وعصابة من اللصوص الأجانب".(٥)

وفى قهوة "متاتيا" بميدان "العتبة الخضراء" جلس الأفغانى يحرض على الثورة، ويصرخ فى وجه تلاميذه "عجبى على هؤلاء المصريين، يجرى النيل فى بلادهم بينما أبدانهم المتسخة، تفوح برائحة العفن .. إنكم تعيشون عيشة البهائم، بينما جلادوكم يعيشون عيشة الملوك .. إنه خير لكم لو توقفتم عن شق بطن الأرض لتزرعوها، وتشقوا صدور أعدائكم .. ولو انتصرتم لغنمتم كل شىء ولو خسرتم فلن تخسروا إلا البؤس والفاقة".(٦)

وكان من تلاميذ الأفغانى .. أحمد عرابى .. محمد عبده .. محمود سامى البارودى .. وانضم إليهم عبد الله النديم .. وقد تحول هؤلاء - فيما بعد - من تلاميذ إلى ثوار .. يُكمل كل منهم نقص الآخر .. الجندية .. الفتوى .. القصيدة .. والنكتة .. وكانت هذه مفردات الثورة وأدواتها.

لقد وجد عبد الله النديم نفسه بين هؤلاء .. ولو لم يعثر عليهم .. لما سمعنا عنه .. ولمات فى سكون وإهمال، مثله مثل عشرات الظرفاء الذين عاشوا فقط من أجل التنكيت والتحشيش.

إن الصعلوك، الذى لم ينجح فى شىء سوى النكتة، أصبح مسئولاً عن حشد الجماهير، ودفعها نحو الثورة .. وكان أن قفز بالنكتة إلى مستوى المنشور ... "أيها المصريون لا حياكم الله ولا نجاكم، ما دمتم تعيشون كالسائمة، تأكلون من حشائش الأرض، وتقبلون أياديكم المشققة ظهراً وبطناً" .. وهكذا قال .. "أيها المصريون، لعن الله من يكره الحرية، لعن الله من تعف نفسه عن أطايب الطعام، لعن الله من يكره الراحة، لعن الله من يقعد متفرجاً، لعن الله من لا يتبعنا" .. هكذا أضاف.

وكان .. أن هتفت الجماهير للثورة .. وتركت الشاى الأسود، وكتل الحشيش، والنوم فى القهاوى والمساجد، والضحك بسبب وبدون سبب .. واندفعت وراء النديم.

أدركت الجماهير أن الثورة أسهل مما تصورت .. وأن خصومها أضعف مما اعتقدت .. وأن أسلحتها أقرب إليها مما كانت تظن .. الشوم .. الطوب .. الفئوس .. البارود .. والقلب القوى .. والغضب بأثر رجعى .. والاستهانة بالموت .. والسخرية منه.

ففى قلب المعارك، وجدوا النديم، يمشى بين جثث القتلى الإنجليز، فسألوه :

- بتعمل إيه عندك يا نديم ؟

---

(٥) و (٦) محمود السعدنى : "مصر من تانى" - كتاب اليوم - مارس ١٩٩٠ - ص ١١١.

- أتأكد إن الإنجليز ماتوا .. أحسن يكون عزرائيل خواجا !

إنه لا يترك النكتة حتى فى ساحة القتال .. لكن .. سرعان ما توقف القتال .. وهُزم أحمد عرابى .. وفشلت الثورة .. فهرب النديم متنكراً فى زى أحد المشايخ .. وذاب فى بحر الريف المصرى تسع سنوات، لم يُقبض عليه خلالها، رغم أن الإنجليز رصدوا مكافأة (١٠) آلاف جنيه ذهباً - حوالى (٣٠٠) ألف جنيه اليوم - لمن يدل عليه.

وسبق ذلك مصادرة صحيفته الشهيرة "التنكيت والتبكيت" بمجرد هزيمة الثورة .. ولم تسخر هذه الصحيفة من "أفندينا" والخواجات فقط، وإنما من الأمراض الاجتماعية، التى انتشرت فى تلك الأيام بين المصريين .. مثل التشبه بالأجانب .. والغرور .. والنفخة الكذابة .. واللغة الفرانكو آراب . وألا يعيش الفلاح عيشة أهله .. وشرب الخمر فى الأماكن العامة حتى مرحلة السكر - طينة .. أى السكر الذى يُوقع الإنسان فى الطين.

وقد كتب النديم - على لسان نوبتجى قسم بوليس - نقداً ساخراً لشاربى الخمر، تحت عنوان "صورة عرضحال خامورجية بندر طنطا" .. وقال : "إننا كنا أكثر الناس فى الليل جنوداً ومعاملة ونقوداً، كانت تأتينا السكارى من عمد ومشايخ بلد وأرباب الرواتب وأصحاب النكت والغرائب، فيدخلون علينا من كل حدب وبغاية الخضوع والأدب فيجلسون حيث نأمرهم، ولا يتكدرون منا ولا ننهرهم، ويأكلون ويشربون ، ولا يبالون يربحون أو يخسرون، حتى إذا دبت الخمر فى رءوسهم ولعبت بنفوسهم، قاموا يهتزون وهم السفهاء ويرقصون ولا حتى رقص عواهر النساء، فتارة نضع فى عنق الواحد منهم حبلاً ونسقيه من كئوس السخرية ذلاً، ونأمره ولا مائة مرة بالقيام والقعود، وهو يضحك ويلعب، وكأنه ولا تشبيه من بعض القرود، وتارة نصفعه على قفاه باليد أو بالنعال وهو يقدم لنا واجب الشكر الصحيح على تلك الفعال، ثم نفتح لهذا الخبيث باب الحديث فيحدثنا عن أهل بيته .. حيه وميته، ثم نرميه خارج الباب كأنه من بعض الكلاب".

وينشر النديم زجلاً لطالب أزهرى يسخر من الأجيال الجديدة التى تتكلم لغة المستعمر :

الشمس طلعت صح النوم .. والساعة بالعربى عشره

والله عجب يا جيل اليوم .. يا اللى على سنجة عشره

حقا الزمن ده زمن عايب .. يصبح السيد مملوك

والندل دايماً فيه غالب .. والحر ضاع جنب الصعلوك

بونوسوار صارت بالكوم .. أما السلام أجره على الله

وعمتك "جود نايت" اليوم .. سمى ومحفضه باسم الله

الوقت ده وقت "البردون" .. وادى "البرول" لحقه فى كعبه

وخد لى بالك كلمة "جون" .. وابن الحرام حسبه ربه

وبعد "التنكيت والتبكيت" .. أصدر النديم صحيفة "الأستاذ" .. كان قد قبض عليه .. ثم نُفى إلى "يافا" لمدة عام .. وعندما عفوا عنه .. عاد .. ولم يلبث أن أصدر "الأستاذ" .. التى قارن فيها - بأسلوب ساخر، سهل - بين ازدهار الخواجات، وتدهور حال المصريين .. ورسم على صفحاتها صورة واقعية للحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .. صورة فيها النكتة .. وفيها الدمعة .. ننقل جزءاً منها، من خلال حوار جرى بين النديم وشخصية من اختراعه .. "المعلم حنفى" :

النديم : إزاى حالك اليوم إن شالله تكون الصنعة وياك مبحبحة والزهر مشخشخ شوية ؟

حنفى : إنت معذور بقى لك عشر سنين وانت زى اللى فى الجب ما انت عارف الدنيا جرى فيها إيه .. إنت فتنى وأنا فى أنهى كار ؟

ن : فى انهو كار .. انت فت الشبكشية ؟

ح : ما فتناها من زمان .. يا نديم من يوم ما طلعت السجارة اتقفلت بيوتنا .. وقمت عملت خراط .. وجولنا الجماعة الألافرانكة وعملوا الدرابزينات الحديد والشبابيك الأمريكانى.. بطلت صنعتنا .. ورحت عملت فوطى .. طلعت الصنعة عال .. التفتنا لقينا الفوط جايه من بلاد بره معمولة من القطن القطاع والكهنة اللى بياخدوها من عندنا، يحلوها تانى ويعملوها قماش أشكال وألوان ويضحكوا علينا بها .. لما شافوها الجماعة بتوعنا عينك ما تشوف إلا النور، سابونا قاعدين ننش وراحوا للخواجات .. تقول يا أخى ما حدش يفتكر فى الكلام ده ويقول ضيعنا فلوسنا للغريب وموتنا صنعة بلادنا وخلينا الصنايعية دايرين صايعين .. لا وعينيك ده كل إنسان زى اللى على عينه غما وسابونا قراية على الترب.

ن : على كده عمك الأسطى حسن الخياط فات الصنعة والحاج محمود الحرايرى فات عمل القمصان والشرايط والزراير وعمك يوسف ما بقاش بيغزل والمعلم على فات النجارة والسيد درويش القصبجى قفل دكانه والجماعة اللى زى الحمصانى والهجين فضوها سيرة وبقية إخوانا الصنايعية والتجار بقى حالهم عبره.

ح : أنا باقولك إنت كنت فى الجب تقول اطلعوا من البلد .. صنايعنا راح عليها ليل .. والعمد والأعيان والذوات قاعدين .. اللى بيزرع واللى مستخدم واللى بيتاجر وكل ما جالهم نصين على بره تقولش ألا احنا فعلة للخواجات بنشتغل عندهم باللقمة .. أدحنا بقينا زى دودة الحرير تموت نفسها فى الحرير وغيرها يلبسه.

ن : بقى العبارة على الحديدة ما بقاش عندنا صنايعية أبداً .. دا شىء يغم.

ح : الحمد لله لسه الزبالين منا والحمارة والشيالين والخدامين والفعلة ومساحين الجزم

والبوابين وشوية عطارين على كام بتوع بفتة على جزارين وشوية حدادين وخردجية وبياعين طعمية وكرشة وكحك وفول نابت وفجل وكرات وبرسيم على شوية عياشة وبياعين طواقى وكام صرماتى، على كام نحّاس وإنت تفهم الباقى .. يعنى ما بقلناش الا الحاجة الدقة .. والدكاكين اللطيفة والبضايع العال كلها بتاعة الخواجات وهيا اللى ماشية فى البلد.(٧)

هكذا أصبح حال العامة بعد الاحتلال .. سجائر لا صنايع .. استهلاك لا استثمار .. كيوف وضرب بالكفوف .. استيراد لا إنتاج .. فقر وتنبلة .. وقراية على الترب.

أما .. الخاصة .. أولاد الذوات، فحالهم يلخصه النديم فى الحوار التالى، الذى يدور بين اثنين منهما .. لطافت وظرافت :

لطافت : بونوسوار مسيو ظرافت كُومَن سافا مُنّشير.

ظرافت : بونوسوار عزيزى إنت جاى منين ؟

ل : من المحل إياه ولكن يا موسيو أنا اجننت وطلّعتْ عفريتى الليلة .. رحت ألعب قمار ويا أسيادنا اللى انت عارفهم خسرت ميتين جنيه فى ساعتين وطلعت أفرّج عن نفسى شوية رحت البيرة إياها خدت أربعة أنصاص بيرة واتنين مارتل واستلفت خمسة جنيه من ينى لحد الصبح ورحت عند البنت وجدتها مش ولابد مع إن فلوسى كلها رايحة عليها وعلى القمار وحياة أبوك خمسة آلاف جنيه اللى بقيت مضيعهم السنة دى.

ظ : تشكى لى وأنا أبكى لك .. الحالة من بعضها .. وعلى رأى المثل ما يغرك الباب وتزويقه اللى جوا نشفان ريقه .. أنا لى حكاية عجيبة بس خايف نديم يسمعها يقوم يحطها فى الجرنال بتاعه.

ل : بلا نديم بلا غيره إحنا إذا كنا رايحين نحسب حساب ده وحساب ده، ولا احنا مسليين ولا رايحين ولا جايين .. دا زمن حرية ياعم وأبوك ما هو أبوك وأخوك ما هو أخوك. هو نديم مش شايف لما رايح يتكلم فى أسياده، أُمّال اللوكاندات دى والخماير والمحاشش وقهاوى الرقص دى معمولة لمين. موش للكام جدع النضاف فى البلد يسلو غلبهم فيها.

ظ : معلهش أقولك على اللى جرى لى وستين سنة ولكن اصبر علىّ لما أفوق أحسن أنا سكران والكلام دلوقت ما يطلعش موزون.(٨)

لم تستمر "الأستاذ" طويلاً .. فقد أُجبر النديم على الرحيل من جديد .. فسافر إلى تركيا.. وهناك مرض بالسل .. وفى ١١ أكتوبر ١٨٩٦ مات .. عن (٥٨) سنة .. ودُفن بمقبرة يحيى أفندى فى منطقة "باشكفاش" .. ولم يمش فى جنازته أحد يعرفه .. إلا

---

(٧) الأستاذ - الجزء الثالث من السنة الأولى - الثلاثاء ١٨٩٢/٩/٦ - ص ٦٥.
(٨) النديم - "الأستاذ" - ص ٦٩.

جمال الدين الأفغانى .. لقد عاش "الأستاذ" ليدفن التلميذ .. وإن كان مصيرهما واحداً فى النهاية .. النفى.

ويقول محمود السعدنى : إن النديم عندما خرج إلى تركيا "ترك خلفه دعاء على طريقة دعاء (نصف شعبان) والناس تقرأه فى المقاهى وحول حلقات الدخان وهم يضحكون : اللهم ياذا المن ولا تمنى إلا البشر والإسعاد .. اللهم اكتبنى عندك فى أم الكتاب إنجليزياً وإذا كان عسيراً عليك يا ذا المن - فاكتبنى عندك خديوياً، فإذا لم يكن، فاكتبنى عندك باش أغا، أو آغا، اللهم لا تكتبنى عندك مصرياً، ولا فلاحاً إنك سميع مجيب الدعاء يارب العالمين".[٩]

ومحمود السعدنى ساخر معاصر يعرف قيمة النكتة، ويطلقها، ويتذوقها، ويكتبها .. ثم إنه يفسر التاريخ من خلالها .. فهو يؤمن بأن "الشعب المصرى شعب ضاحك، بطبعه، علمته سنوات الذل والكبت والعدوان أن يسلى همه بالنكت والتأليس والضحك على الفاضى والمليان ! ولذلك كان من الصعب أن تكون ساخراً فى مصر، إذ كيف يستطيع فرد واحد أن يضحك شعباً من الساخرين العظام !" .. وهو يرى أن "النكتة المصرية مثل الطرشى والليمون المعصفر والطافيا ... معتقة وحراقة وكاوية تنطلق أحياناً كالرصاصة تندب فى الضلوع !" .. وهو يصر على أن الثائر ساخر .. والساخر ثائر .. فكلاهما لا يقبل الأمر الواقع .. كما أن السخرية لون من ألوان الثورة !

ومحمود السعدنى من مواليد سنة ١٩٢٧ .. أفندى أحياناً .. وابن بلد أحياناً .. وساخر دائماً .. يعشق الحوارى، والقهاوى، والترحال، والسفر .. وكان السفر - فى بعض الأوقات - أشبه بالمنفى .. حتى ولو كان المنفى اختيارياً .. الكويت .. بغداد .. لندن .. أو حتى باريس .. وحدث ذلك، بعد الإفراج عنه، بعد حبسه على ذمة قضية (١٥ مايو ١٩٧١)، والتى دبرها أنور السادات لخصومه من رموز الناصريين .. سامى شرف .. على صبرى .. الفريق أول محمد فوزى .. شعراوى جمعة الذى كان وزيراً للداخلية، وصديقاً للسعدنى .. ولم تكن المرة الأولى التى يُسجن فيها السعدنى، فسبق أن اعتقل مع اليساريين، بعد ثورة يوليو بسنوات قليلة .. وهو يعلق على ذلك قائلاً :

- بعد أن خرجت من السجن، قررت أن أصاحب وزير الداخلية، حتى لا أدخله مرة أخرى.. أليست السجون تفتح وتغلق بأمره .. وفعلاً .. كان .. لكن المنحوس، منحوس .. فقد وجدت نفسى، أنا ووزير الداخلية، ورئيس المخابرات، ووزير الحربية فى السجن.

أى لا أحد كبير أو بعيد عن السجن، حتى السجان نفسه.

وما قاله السعدنى، يذكرنى بالنكتة التى قيلت عن وزير الحربية الأسبق شمس بدران، عندما دخل السجن، بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ .. لقد أصبح مسجوناً فى السجن الحربى،

(٩) الظرفاء - ص ٢٢.

بعد أن كان متحكماً فيه .. والنكتة تقول إن سجيناً راح يعرف زميلاً له بباقى المساجين.. فقال مشيراً لأحدهم :

- ده مسجون لأنه أيد شمس بدران.

- وده ؟

- ده مسجون لأنه عارض شمس بدران.

- طب وده ؟

- وده بقى شمس بدران !

والنكتة قيلت أيضاً عن صلاح نصر، والمشير عبد الحكيم عامر، وشعراوى جمعة ... وجنرالات وحكام أمريكا اللاتينية، وأفريقيا كذلك.

وفى بيته .. على النيل عند الجيزة، قال لى محمود السعدنى :

- إن الشعب المصرى يستخدم النكتة كسلاح ضد الحاكم الذى لا يسمح بالمناقشة، أو الحاكم غير القادر على أن يحس بمطالب ورغبات الناس .. إن بعض حكام مصر اهتز من النكتة إلى حد أن عاقب من ضُبط يرددها بالقتل .. فالسلطان الأشرف شعبان، عندما وجد العامة تكثر من التنكيت عليه، أمر بتوسيط بعضهم .. أى ضربهم فى الوسط.. فى ذلك الوقت كان العامة يسكنون فى القاهرة القديمة التى تُسمى "مصر العتيقة" وكان محرماً عليهم السكن فى القاهرة نفسها التى كانت حكراً على رجال الدولة فقط .. وكانت النكت تخرج من مصر العتيقة، ثم تتسلل إلى حيث يعيش السلطان وحاشيته .. فكانت مثل كور اللهب التى تأتى من حزام الفقر إلى مواقع الثراء.

وحدث أن اشتدت النكتة على الحاكم بأمر الله حتى أصبحت مثل الحمى، فراح بنفسه إلى موطنها .. مصر القديمة .. وفى الظلام اصطدم بامرأة .. ثم سمع صوتاً يسخر منه.. فظن أنها المرأة .. فعاد إليها ليكتشف أنها ليست امرأة وإنما "عروسة من قش وورق" .. فأحس بالإهانة .. وبالضعف .. وقرر الإيقاع بين المماليك والمصريين .. قال للمصريين: إن المماليك هم المسئولون عن الفساد الذى تعانون منه .. وقال للمماليك : قاوموا المصريين .. اضربوهم .. عذبوهم .. لا تأخذكم بهم شفقة.

لقد اغتاظ من النكت .. وعجز عن الفهم والإصلاح .. فكان البديل الوحيد أمامه إثارة الفتنة.

ويضيف السعدنى :

- أما فى التاريخ المعاصر، فإن بعض قهاوى مصر عرفت النكتة - القافية .. وفى "باب

الخلق" .. في المكان الذى توجد فيه "مديرية أمن القاهرة" الآن .. كانت هناك قهوة تسمى المضحكاخانة الكبرى .. هاجمها الإنجليز أكثر من مرة .. وأغلقوها .. واعتقلوا من فيها أكثر من مرة، بتهمة السخرية منهم.

والقافية – كما فى قاموس أحمد أمين – نوع من مزاح العوام .. "يقول أحدهم كلمة فيرد عليه الآخر بكلمة أخرى تثير الضحك".

وكان لكل حرفة قافية .. ولذلك كانوا يحترسون عند الكلام الجد، فيقولون "بلا قافية" .. أى أنه لا يمزح ولا يريد أن يدخل فى قافية.

ومن الأمثلة التى جمعها أحمد أمين .. قول أحدهم فى "قافية النحو" .. كيسك !.. اشمعنى .. ممنوع من الصرف .. شنبك مضاف .. اشمعنى .. وشنب التيس مضاف إليه.. أنت فى الجهل .. اشمعنى .. مركب .. ومن قافية الحلاقين .. أنت فى النصب .. اشمعنى .. أسطى .. أنت بين أصحابك .. إيدك خفيفة .. عيشتك .. على الناشف .. الأكلانة فى ودنك .. لازقة .. ومن قافية البلاد .. لما يصحوك من النوم يقولولك : أبو طور أبو طور .. إيدك فى الخطف ، منصورة .. قسمتك كل يوم والتانى .. فى طرة .. ومن قافية الساعة .. الخيرات عند بيتكم .. ممسوحة .. ساكن فى دقنك .. جوز عقارب .. عيشتك ما فيهاش تقديم .. صنعتك مع الفجر .. رقاص .. يرسلوك إلى طرة .. فى ظرف ساعة .. ومن قافية الهندسة .. خاطرك دايماً .. منكسر .. الهم على راسك .. محيط .. أكثر نومك .. فى الزاوية .. أنت والحمار .. متساويان ...[(١٠)]

ومن أشهر من قال القافية .. حسين الفار .. سلطان الجزار .. إمام العبد .. وأيضاً – صدق أو لا تصدق – نجيب محفوظ الذى كان – صدق أو لا تصدق كذلك – يهزم من يدخل له قافية .. وكان يشترك فى مباريات تستمر أحياناً أربع ساعات.

وسألت السعدنى :

س : ألا تعتقد أن التنكيت وسيلة العاجز ؟

ج : ممكن !

س : كيف ؟

ج : فى الدول الديمقراطية تحاسب الشعوب حكامها، وتخلعهم إذا لزم الأمر، ولا تكتفى بالسخرية منهم .. إن الإنجليز لم ينكتوا على الملك عندما اقتحم البرلمان بالقوة، بل أمسكوا به، وحاكموه، وتخلصوا منه .. وحتى الآن لا تجرؤ الملكة على دخول البرلمان قبل أن يؤذن لها .. فقد جرى العرف على أن يسبقها إلى البرلمان شخص يحمل عصا، يضرب

(١٠) قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية – ص ٢١٧.

بها الباب ثلاث مرات، فيسأله رئيس المجلس : من الطارق ؟ .. فيقول : الملكة تستأذن فى الدخول .. ويعلن رئيس المجلس : افتحوا لها.

وفى النظم الديمقراطية ، كل الطرق توصل إلى الحاكم .. كل الوسائل تنقل رسائل الشعب إلى السلطة .. الصحف .. الراديو .. التليفزيون .. المنشور .. البوستر .. الإضراب.. التظاهر .. المعارضة .. معاهد الرأى العام .. السب العلنى فى الحدائق العامة .... لكن فى النظم الأخرى، الأنابيب مسدودة .. والشرايين متصلبة .. والنكتة هى البديل .. ولا بد أن تكون ساخنة وحراقة حتى تكون موصلاً جيداً .. ومن ثم ليس أمام الناس سواها.

****

مصطفى كامل مراد رئيس حزب الأحرار موافق على هذا الرأى.وبعبارة أخرى يقول : إن النكتة تعبير لاذع عن موضوع يشغل بال الجماهير ولا تجد له حلاً .. وهى تزداد فى الأوقات التى تُقيد فيها الحريات .. وتبرز عندما لا يجد الناس الوسائل الديمقراطية أمامهم متوافرة .. وفى هذه الحالة تتسم النكتة بالقسوة والإهانة واللامبالاة .. فلكل فعل رد فعل .. والبادى أظلم.(١١)

ويعتقد أستاذ الطب النفسى المعروف د. يحيى الرخاوى، أن ظاهرة النكتة السياسية، ليست "سلبية" على إطلاقها .. "فبالرغم من أن لها جانباً سلبياً حتماً - بمعنى أنها تفريغ ساخر، يعفى صاحبه من مسئولية تغيير ما يسخر منه - إلا أن لها دلالة هامة جداً فى قياس الرأى العام لا يمكن إغفالها".

"والنكتة ليست تنفيساً فحسب ولكنها إعلان موقف وإنذار قاس أيضاً .. ولكن الإفراط فيها يجعل منها بديلاً عن الحوار المسئول والكلمة الناقدة ... وكل ذلك يتوقف على جرعة الديمقراطية ومدى مسئولية ودرجة نضج من يمارسها .. وأظن أن الشعب حين يجد وسيلة شرعية للقول والنقد والحوار فإنه لا يلجأ إلى النكتة .. والعكس صحيح".(١٢)

أما أستاذ علم الاجتماع السياسى، د. سعد الدين إبراهيم، فيؤكد من جديد أن "النكتة السياسية تعبير عن قصور فى البناء الديمقراطى .. وهى وسيلة لتوصيل صوت الشعب إلى الحاكم .. ولو .. وجدت الديمقراطية فسوف تختفى النكتة السياسية الموجهة ضد الحاكم الطاغية .. أو ضد الحاكم الفرعون .. لكن .. ستظل الناس تعبر عن نفسها بالنكتة فى مجالات أخرى".(١٣)

ويقول د. سعد الدين إبراهيم : لو وُجدت الديمقراطية ... لو ... !

(١١) حوار مباشر معه.
(١٢) مجلة "الوادى" - عدد يناير ١٩٨٢ - ص ٣٤.
(١٣) الوادى - المصدر السابق.

وباختصار .. يقول مختار السويفى : "إن النكتة السياسية هى أقصى ما يمكن أن نفعل" .. ومختار السويفى مثقف، ومترجم، وباحث، وعاشق من عشاق مصر الفرعونية .. وهو كاتب ساخر أحياناً .. وشرح عبارته الخاطفة، يعنى أن النكتة السياسية هى الأسلوب الوحيد، المتاح، لمسلوبى القوى، المقهورين، المطحونين، الذين لا يملكون سوى ألسنتهم.[14]

ويطمئننا النائب فى "مجلس الشعب" الشيخ يوسف البدرى على أن النكتة حلال .. فيجوز لنا شرعاً أن ننكت .. الحمد لله .. وعلى مسئوليته .. أن الصحابة كانوا يمزحون بإلقاء قشر البطيخ على بعضهم بعضاً .. ثم .. يقول : إن الشعب المصرى هادىء بطبعه .. يميل إلى التغيير فى هدوء .. لذلك فهو يغضب قليلاً وينكت كثيراً .. والحاكم لا يسمع، ويده ثقيلة، والأمن والسجن أول أدواته .. إذن لا مفر من النكتة .. ونحن ننكت .. بشرط أن نشبع أولاً .. فالشعب الجائع لا ينكت مهما كانت قوة الظلم .. فلا وقت عنده، ولا مزاج.. فالمهم اقتناص لقمة العيش من بين أنياب السبع، والسبع هو الفقر وارتفاع الأسعار، والبطالة، والفساد، والسوق السوداء، والزحام، والطوابير، ونقص السلع الضرورية ... وفى هذه الحالة تكون النكتة .. للقادرين فقط !

ولو سمع الحاكم النكت التى تقال عنه، وجمعها، وبحث عنها، لعرف أوجه النقص، ومواقع الظلم على خريطة السلطة .. بعيداً .. بعيداً عما تخفيه التقارير .. خاصة تلك التى تقول له : كله تمام يا فندم .. والشعب مبسوط لأنك تحكمه .. وهو يدعو لك، لا عليك .. فالشقق خالية .. والأمن مستتب .. والتجار يبيعون بأقل من التسعيرة ... والشرطة تعامل المواطن وكأنه سيدها وتاج رأسها .. والمعارضة زهقت من كثرة ما عبرت عن نفسها ... إن كل شىء على مايرام، ولا ينقص الشعب سوى رؤياك .. فإن مر يوم من غير رؤياك ما يتحسبش من عمره !

ويعترف الكاتب المجرى الساخر جورج ماكس بأن "النكتة المصرية تلفت الأنظار" .. "فالمصريون يتميزون – على هدوئهم الظاهرى ومجاملاتهم الواضحة – بالنكتة اللاذعة، الجارحة، الخاطفة .. وهم يميلون – فى النكتة – إلى المبالغة .. ويعطون أنفسهم – من خلالها – حقوقاً لا يحصلون عليها فى الواقع، وصفات لا يتمتعون بها فى الحقيقة .. على عكس الإنجليز – مثلاً – الذين يتميزون فى نكاتهم بتهوين الأمور وتصويرها على نحو أقل من الحقيقة".[15]

كان جورج ماكس يتحدث عن قومية النكتة .. فقال : إن النكتة تتجاوز الحدود أحياناً ..

---

(١٤) حوار مباشر معه.
(١٥) يدلل جورج ماكس على ذلك بنكتة تقول : إن إنجليزياً سقط فى الماء من زورق فى القناة الإنجليزية، وهبت عاصفة هوجاء على مياه المحيط، فأطل الرجل برأسه من الماء، وسأل باقى الركاب بهدوء : "الجو عاصف إلى حد ما .. أليس كذلك ؟". ومن النكات الأخرى ذلك الحوار الذى جرى على سن قلم الكاتب الإنجليزى الساخر ب. ج. ود هاوس : هل رأيت المستر فنك نوتل جيفز ؟ كلا .. يا سيدى. إننى سأقتله حسناً جداً يا سيدى.
راجع مقالنا : "الضحك قبل الحرب دائماً" – مجلة "الوادى"- يناير ١٩٨٢ – ص ٢٨.

وفي هذه الأحيان سيضحك الناس فى جميع أنحاء العالم على النكتة نفسها .. وربما احتاجت بعض التحوير .. لا بأس .. فالنكت التى قيلت على موسوليني قيلت على هتلر.. والنكت التى قيلت على تيتو قيلت على جمال عبد الناصر .. والنكت التى قيلت على أزمة اللحم فى بولندا قيلت على أزمة الأرز فى مصر .. والنكت التى تقال عن فساد ذمم الحكومات تصلح لكل زمان ومكان ... وقد حدث ذات مرة أن كتبت صحيفة فرنسية مشهورة : "إن نصف مجلس الوزراء حرامية" .. فقدم مجلس الوزراء بلاغاً إلى النيابة التى اتهمت الصحيفة بتحقير الحكومة، وطالبتها بنشر تكذيب لما كتبت .... وفى اليوم التالى، قالت الصحيفة : "نشرنا بالأمس أن نصف مجلس الوزراء حرامية، ونحب اليوم أن نصحح ذلك، بأن نصف مجلس الوزراء غير حرامية".

إنها نكتة عالمية بمعنى الكلمة .. فلا توجد دولة واحدة فى العالم .. لم تعانِ من وزراء فى حكومة ما من حكوماتها ... حرامية.

والنكتة لا تحترم الحدود .. وتتسلل إلى أى دولة رغم أنف رجال الأمن والجمارك، والكلاب البوليسية ... تدخل كممنوعات لا يمكن ضبطها أو مصادرتها .. لكن .. شيوع النكتة "المستوردة" يتوقف كثيراً على المزاج القومى، ومستوى الذوق، والتعليم، وتوقيت النكتة ومدى الحاجة إليها.

إن الشعوب مستعدة لشراء الضحك من السوق السوداء .. أو استيراده بدون تحويل عملة إذا لزم الأمر .. فهذا النوع من السلع النفسية، لا يفرض - على الأقل - أية تنازلات سياسية.

والمهم أن يضحك الناس على النكتة .. فلا أحد يفتش فى أصلها .. ولا أحد يتساءل عن جنسيتها !

ومن جديد يقول رئيس المجموعة البرلمانية لحزب الوفد ياسين سراج الدين إن النكتة سلاح المظلوم ضد الظالم .. لا يسقط إلا إذا تغير المسئول أو غير من نفسه .. والمقاومة بالنكتة أسلوب ظاهره السلبية وباطنه الإيجابية، وإلا ما اعتُبرت النكتة قنبلة شديدة الانفجار .. وفى مصر تعد النكتة السياسية صورة من صور المعارضة القاسية، الملفوفة فى حرير .. والحرير هو الضحك .. فإذا ما سقط الحرير، برز الشوك من تحته ... لذلك فالنكتة أحياناً تدمى القلب .. قلب الحاكم .. إذا كان له قلب !

****

ومع أن النكتة "قد" تؤدى إلى الثورة .. أو "قد" تحرض على إشعالها .. فإن النكتة تختفى فى الثورة .. فتوتر الحدث يمنع السخرية .. ثم إن النكتة وسيلة العاجز عن التغيير .. والثورة وسيلة القادر على إحداثه .. فالذى يثور لا ينكت والذى ينكت لا يريد أن يثور .. أو لا يتعجل ذلك.

والثورة فعل .. والنكتة قول .. والفعل هنا جرىء .. رصاص، وحماس .. أما القول - وسط الصخب - فلا أحد يسمعه .. أو لا أحد يقدر .. ومن ثم تتراجع - فى الثورات - النكات والمخدرات.

ولو فشلت الثورة، تقدمت النكتة .. فالإحباط والقهر والهزيمة ميادينها .. جثث تقف عليها .. فالشعوب كالطيور المذبوحة تضحك من شدة الألم.

وأول دليل على ذلك .. ما حدث بعد فشل الثورة العرابية .. فقد زاد استهلاك السجائر والخمور والمخدرات والنكات .. وظهرت فى مصر قهاوى الضحك، أو المضحكخانة .. حيث كانت الناس تتجمع .. "ليصنعوا بنكاتهم وفكاهاتهم وتعليقاتهم الساخرة دائرة لحياتهم، ويبلورون بها الفكرة العامة عن الأحداث الجارية، وتفاعلات الشعب مع السياسة، والأحوال الاقتصادية والمعيشية".[١٦]

ثم ... كان أن راحت المجلات الساخرة، الناقدة، اللاذعة .. تتدفق.

ولو كانت "التنكيت والتبكيت" أول مجلة مصرية ساخرة .. فإنها لم تكن أول مجلة من نوعها تصدر فى مصر .. لقد صدرت "التنكيت والتبكيت" فى سنة ١٨٨١ بمدينة الإسكندرية .. لكن .. قبلها بثلاث سنوات صدرت فى القاهرة مجلة "أبو نضارة" ليعقوب صنوع.

ثم .. إن "التنكيت والتبكيت" بعد استيلاء أحمد عرابى على السلطة، فقدت طابعها الساخر، وأصبحت جريدة الثورة الرسمية وتغير اسمها إلى "اللطائف" .. وذلك حسب رغبة أحمد عرابى نفسه .. الذى تصور "فوات زمن التنكيت" .. فاقتضى الأمر التبديل.. لتصبح الصحيفة "سياسية تهذيبية للذود عن حقوق الأمة".

وهكذا .. عاد يعقوب صنوع ليصبح الساخر الأوحد فى دنيا الصحافة المصرية .. ويعقوب صنوع يهودى .. وُلد فى سنة ١٨٣٩ .. ويقال إن أمه وهبته للإسلام بعد أن أنبأها عراف بأن ذلك سيجلب إليه الخير الوفير .. لكن .. أغلب الظن أن السبب كان رغبة الأم فى استمرار العيش فى قصور أسرة محمد على باشا .. وقد كان .. وعندما جاء جمال الدين الأفغانى إلى مصر فى سنة ١٨٧١، ارتبط به يعقوب صنوع، وأوحى له الأفغانى بإصدار مجلة ساخرة، وعجزا عن اختيار اسم مناسب لها .. وبينما هما فى الطريق، ذات مرة، أحاط بهما "المكارية" .. أى أصحاب الحمير ... أو تاكسيات ذلك الزمان .. وراح كل منهم يشدهما إليه .. ونادى أحدهم : "تعال .. هو ده يا بو نضارة" .. وكان يقصد يعقوب صنوع الذى يضع على عينيه نظارة دائماً .. فانبسط من الاسم .. وهكذا صدرت مجلة "أبو نظارة زرقاء" .. وكُتب تحتها عبارة : "جريدة مسليات ومضحكات".

---

(١٦) د. الهوال - ص ٩٧.

وامتلأت المجلة بمحاورات ساخرة بين شخصيات متنوعة ... مثل شيخ البلد أو شيخ الحارة أو فرعون وكان يقصد به الخديو إسماعيل ... "وأبو الغلب" وكان يرمز به للفلاح المصرى .. أما أبو نضارة فكان هو نفسه .. وهذه إحدى محاوراته ..

شيخ الحارة : التوبة من دى النوبة، اشفق يا بو نظارة على عمك شيخ الحارة، جريدتك ضربها قاسى، أخاف منها على راسى، دى حطت فى قلبى الرعبة بأقوالها السخيفة الصعبة، إذا رفعت عنيد الجريدة أرجع لطرايقى الحميدة.

أبو نضارة : إنت عمرك ما تتوب ولو رجموك بالطوب، ده أنت أمرك عند الجميع معلوم، بقى كيف أشفق عليك ياشوم. والله ما أرحمك، يا مطعم الناس للسمك، يا خبيث، يا مسموم الريق، يا قاتل الصديق.

أبو الغلب : ماتشفجش يا بو نضارة .. الشفجة فى الفاجر ده خسارة، ده قتلنا من الظلم والجور، ونازل علينا زى ما ينزل السواق على التور، داهيه تلمه، وتعتقنا من ظلمه.

نُشر ذلك فى أول عدد من المجلة أصدره فى فرنسا، بعد أن أُغلقت فى مصر سنة ١٨٧٨، بعد أن نُفى يعقوب صنوع خارج البلاد.

وفى فرنسا غيّر يعقوب اسم جريدته من "أبو نظارة" إلى "أبو صفارة" .. ثم إلى "أبو زمارة"، حتى يتحايل على قرار مصادرتها فى مصر .. لكن ذلك لم ينجح كثيراً .. فكان يضع صفحة فى مجلات مصورة وكراسات موسيقى ويرسلها إلى مصر .. بل ... وإلى الخديو نفسه .. فكان غضبه لهذه الجرأة شديداً .. و "كانت النسخ التى تضبط فى الجمرك يقرؤها الموظفون أولاً ثم يعطونها لأصدقائهم، ثم يبيعها هؤلاء إلى الباعة الذين يوزعونها سراً بثمن مرتفع جداً".

وبعد عام عُزل الخديو إسماعيل، ونُفى هو الآخر .. وتولى الخديو توفيق، فلم يغير يعقوب صنوع، موقفه .. وكان آخر ما كتبه عن إسماعيل .. وهو أقرب إلى المونولوج أو المناجاة .. أو باختصار يكلم نفسه :

"راحت عليك يا أبو السباع، الله يلعن اليوم اللى فيه توليت شيخ حارة، ده كان يوم نحس، وأنا كان مالى ومال الشبكة دى اللى زى الطين، المكتوب على الجبين لازم تراه العين، نعمل إيه فى طمع الدنيا ؟ آدينى أصبحت أشقى مخلوقات الله، والخوف قاتلنى، مائتين عسكرى ومدفعين حولساريتى وبرضه مرعوب، وكل ما أسمع حد جاى علّى أنفزع، وقلبى يطب، وتلامذة المدارس، وأولاد البلد والفلاحين جايين ينتقموا منى، ويقبضوا روحى، ويأخذوا مفاتيح الصهاريج وينهبوا الأموال اللى لميتها بغاية التعب والمشقة بلا هلس، ده أنا سيدهم فى المكر، ولا أخاف من ملك الشياطين، أما الجماعة مستحلفين لى بحتة علقة، ما يطلعش من إيدهم حاجة، البصاصين كتير، ومأمور الضبطية جدع، أما أبو نضارة اللعين راح جدد له جرنان تانى، وقال : إنه فى حب الوطن، أهو زى الكلب اللى

بينبح خليه يعوى، آه يا إسماعيل انت بتسلى غلبك، أهو الليل بيفوت بطوله، وعينك ما بتدوق النوم، آدينى سامع تشخير الأغاوات يا بختهم، دول مبسوطين، ولا هم عارفين الدنيا بتعمل بهم إيه، والناس اللى ما تفهمش الصورة إيه تقول عليهم دول مساكين لكونهم محرومين من لذات الدنيا، آه يا مغفلين والله ما حد محروم غيرى أنا لكوني ما باستلذ ولا باكل ولا بشرب من خوفى إن خدامينى يسمونى، ولما أخرج من البيت كل ما أعدى على شارع وتعبر فيه زحمة يبان لى يوم القيامة جاء، وأنظر يمين وشمال، ومن لحظة إلى لحظة يتراءى لى أن العالم رايحه تهجم على عربيتى وتهلكنى، آه من عيشتى ما أمرها".

وبعد عزل إسماعيل، وصف "الشيخ" صنوع الخديو توفيق بالواد الأهبل .. ووصف مجلس النواب بجمعية الطراطير المشهورة بالضحك على ذقون العالم .. ووصف مصر بالبقرة الحلوب .. ووصف آم الخديو بالبقرة غير الحلوب .. لذلك رسم صورة ساخرة لجنازته وفى مقدمة المشيعين مجموعة من الثيران.

ولقب "الشيخ" هو اللقب الذى منحه المؤرخ عبد الرحمن الرافعى لليهودى – الأفندى يعقوب صنوع .. أى أن اللقب غير مناسب .. ثم إن يعقوب صنوع كان وراء تأسيس أول محفلين ماسونيين فى مصر ... فهل كان هذا الساخر الجرىء مناضلاً أم متآمراً ؟

على أن المذهل .. أنه عندما كان فى فرنسا، أرسل له الخديو إسماعيل خطاباً، يطلب منه فيه الكف عن الهجوم عليه، والسخرية منه، مقابل ما يشتهى من أموال وألقاب .. لكنه رفض، ونشر صورة زنكوغرافية من الخطاب فى جريدته .. فتضاعف غيظ إسماعيل، وأصيب بحالة هيستيريا، وكان يخبط رأسه فى جدران قصره.

ولم تكن مجلات صنوع وحدها ... كانت هناك مجلات أخرى مثلها .. مثل "الابتسام" التى أصدرها روفائيل مشاقة سنة ١٨٩٤ و"الخيلة الكدابة" التى صدرت سنة ١٨٩٨، و "سلسلة الفكاهات" التى أصدرها نخلة قلقاط سنة ١٨٩٣، و "ظريف المعانى" التى صدرت فى الزقازيق سنة ١٩٠٢، و "الخلاعة" التى أصدرها راغب حسن، وعلى عبد الله الروسى سنة ١٩٠٣، و "الظرائف" وكانت جريدة يومية، وأصدرها نصر الدين زغلول، ودرويش مصطفى، سنة ١٩٠٣، و "الخلاعة المصرية" التى أصدرها عبدالرءوف حلمى، وعلى صادق الحكيم، سنة ١٩٠٤، و"الخلاعة الوطنية" التى أصدرها فى العام نفسه شكرى عصفور، و "البهلول" التى أصدرها محمد شرف سنة ١٩٠٥، و "لق لق" التى أصدرها م. فضلى سنة ١٩٠٧، و "النكتة" التى أصدرها نسيم فهمى، وعبد السلام محفوظ، سنة ١٩٠٦، و "التمساح" التى أصدرها على شوقى سنة ١٩٠٧، و "خيال الظل" التى أصدرها أحمد حافظ عوض فى العام نفسه.

سيل من الصحافة الساخرة فتحت به مصر أبواب القرن العشرين .. الذى على وشك الرحيل .. بدون صحيفة أو مجلة واحدة من هذه العينة تصدر الآن .. فهل كانت ديمقراطية تلك الأيام أفضل ؟ ... وحرية الصحافة أكبر ؟ وخفة الدم .. والإحساس

بوجيعة الناس .. والقدرة على مواجهة السلطة بالنكتة أشد ؟ .. أم أنه قدرنا ومرضنا .. التقدم للخلف .. والنظر للوراء فى فرح، وللأمام فى سخط ؟

إن السطور التالية قرأها المصريون مطبوعة فى مجلة تباع بخمسة مليمات فى الشارع، قبل أكثر من (٩٠) سنة، وكانت تُسمى "خمارة منيتى" .. وكان صاحبها وكاتبها يُسمى "محمد توفيق" :

"يابركة عاشورا فوق وش الفطورا بالجوز وبالطورا، يا عم يا أبو قوره سلك لنا الماسوره للأمه تنسطل من قبل ما تنهطل على الأخ العزيز اللى بيحسبنا معيز ويفوتنا فى مهاميز ويروح بلاد الإنجليز واحنا وكلين بهريز، والواحد موش واخد م الدنيا حاجة غير لطم الخواجة، أسيادنا النظار قاعدين فيها راكية نار، دايماً ليل نهار، يا سند العواجز، يا مجوهر يا حمص، خايف بطنى تمغص".

ولو عرفنا أنه يقصد بالأخ العزيز : حاكم مصر وقتها الخديوعباس، ويقصد بالنظار : الوزراء، لعرفنا إلى أى مدى كان أجدادنا أقوى منا .. وأشد جرأة ... فهل نقول للزمان ارجع يا زمان ؟

وهذا الكم من الديمقراطية الساخرة .. يعنى أن النكتة السياسية أصبحت فعلاً محترماً فى الطريق العام .. وأنها لم تعد تُطلق فقط فى المواخير، ومع تدخين الحشيش ... وإنما أصبحت وسيلة معلنة .. للمعارضة .. ثم .. إنها رفعت مرتبة الساخرين من مستوى الصعاليك إلى مستوى الأدباء .. بل إننا يمكن أن نقول بالفم "المليان" إن فى مشوارنا الأدبى، كانت النكتة أسبق من الرواية.

****

والنكتة مثل البصمة تدل على صاحبها.

هذا .. ما قاله لنا مؤخراً فنان الكاريكاتير المعروف "زهدى" .. والمعنى أن النكتة تحمل ملامح أصحابها .. وأنها مرآة ترى فيها الأمة نفسها ... لذلك هى فى مصر مثل أبى الهول والغورية والبشرة السمراء وطبق الفول والشعر المجعد والساقية والتربة السوداء .. تدل علينا.

وزهدى فنان مشاكس له رأى .. ورأيه محدد .. أصر عليه فدفع ثمن إصراره فى السجن.. اعتُقل فى زمن جمال عبد الناصر ... وفى زمن أنور السادات ... وخرج من المعتقل أكثر صلابة.

وهو يرى أن النكتة السياسية تلغراف رأى يلخص وجهة نظر الشعب فى السلطة والحكم، يرسله للحاكم مجاناً، ودون أن يعانى مشقة الذهاب إلى مكاتب التلغراف.

س : هل تلخص النكتة السياسية رأى الشعب فى الحاكم أيضاً ؟

ج : نعم .. بالطبع.

س : كيف ؟

ج : مثلاً .. النكت التى أطلقت على جمال عبد الناصر صوَّرته على أنه قوى .. يده ثقيلة.. والنكت التى أطلقت على أنور السادات عكست الاستخفاف به.

س : والآن ؟

ج : النكت التى تقال الآن تلخص مطالب الشعب فى التغيير، وتعترض على معاندة السلطة لذلك، وعلى إصرارها على العمل برموز وسياسات من سبقها.

س : ثم ...

ج : ثم إن هذه الصورة لا يقرها شخص بعينه، وإنما هى صورة من ضمير الناس، تبرز فى نكتة، وتؤكدها باقى النكت.

س : أى أن ...

ج : أى أن المعنى واضح .. لو حرمت الناس من التعبير عن مشاعرهم، أفرغوا الكبت بالتنكيت .. والتشنيع .. وخاضوا فى الأعراض والمحرمات .. ومهما كانت النكتة السياسية قاسية، فإن الواقع أشد ... وقد حدث أن طلب صحفى ألمانى أن يرى السجن فى اليمن قبل الثورة .. فقال الإمام : "ودوه السجن" .. فذهبوا به إلى السجن .. وسجنوه.. فلا الإمام فهم – ولا رجاله – أن الصحفى يريد أن يكتب عن السجن، لا أن يبقى فيه .. وكان السجن فى اليمن عبارة عن مغارة فى جبل، يتدلى إليها الماء والطعام .. وعندما انتبهت منظمات حقوق الإنسان، كان الصحفى الألمانى قد جن .. فلم ينفعه التعويض الكبير الذى حصل عليه .. مليون مارك.

وليست نكتة – وإن بدت كذلك – تلك الرواية التى تقول : إن المشير عبد الله السلال، قائد الثورة فى اليمن توجه إلى مستشفى القوات المسلحة بالمعادى، فلما فحصه الطبيب، قال له :

– أنت تحتاج لعلاج بالكهرباء.

فقال السلال :

– يبدو أن الكهرباء ستدخل جسمى قبل اليمن !

الفنان زهدى يمثل الخبرة .. وخبرته تعكس رأيه .. ورأيه لا يختلف عن رأى الباحث

السياسى، الدكتور جهاد عودة .. إن الخبرة والجامعة يلتقيان .. فالأكاديمى الشاب يرى أن الثقافة العربية ثقافة صوتية، كلامية .. فالرزين فى اللغة هو الذى لا يتحرك .. والكريم هو من يأتى الناس إليه .. إنها ثقافة لسان .. جعلت مشاركة الناس السياسية مشاركة بالكلام لا بالسلوك .. بالقول لا بالفعل .. ومن ثم فإن النكتة شكل من أشكال المشاركة السياسية، واختفاءها يعنى، ضعف هذه المشاركة... فعلاً.

ولأن النكتة فى مصر مشاركة سياسية فهى أما خنجر أو وسام .. تقول "إخص" أو "برافو".

ونحن لا نزال نذكر هزيمة يونيو أكثر من عبور أكتوبر .. مع أن العبور كان بعد الهزيمة .. لكن العبور فعل، والفعل حركة والحركة ليست من طبائعنا.

ثم إن العمل السياسى فى بلادنا كلام فى كلام .. مؤتمر، ندوة، مقال، صحيفة، شعار، ملصق .. والأحزاب المعلنة نشاطها – فقط – فى هذه المجالات .. إذن النكتة حزب من لا حزب له .. حزب الأغلبية الحقيقية.

ولأن الحاكم مثلنا .. فإن الأذن أكثر أعضائه حساسية .. ومن يملكها يملكه ويملكنا.. وهو يهتم كثيراً بما يقال عنه .. لذلك فإن سلوكه يتغير بتغير النكت التى تقال عنه .. كما أن النكت المصنوعة، الموجهة يمكن أن تكون مثل الماكياج .. تجمل صورته .. أو يمكن أن تكون مثل "مية النار" تشوه صورة خصومه .. أو يمكن أن تكون مثل الضمير الحى تجعله يتلافى عيوبه.

يضاف إلى ذلك ... أن النكتة السياسية تحمل مطالب الناس للحاكم .. فليس فى بلادنا من يرفع هذه المطالب إليه .. فكل الأسلاك غير موصلة للنبض .. وأغلبها مقطوع .. وعلى الحاكم أن يعى ذلك أو يهتم بتجديد الأسلاك بينه وبين الناس .. ولو كانت النكتة وسيلة مشاركة قاصرة، وعاجزة، ومشلولة الساقين، ومقطوعة الذراعين، فما باليد حيلة.. فهذا هو الله، وهذه هى حكمته.

****

وبديل النكتة فى النظم الديكتاتورية .. الصمت .. ابتلاع اللسان .. أو الخرس السياسى.وحتى وقت قريب كان المواطن العربى الخاضع لنظم هذا الطراز .. طراز المجزر الآلى .. أو الذبح الآلى، لا يعرف النكتة، ولا يتعاطاها .. ولا يستخدمها فى المواجهة أو المعارضة السياسية .. فالشعر أسهل .. والتمرد والاغتيال وتحريك الدبابات والتصفية الجسدية أيضاً.

وبعض الشعوب العربية كانت تحب النكتة المصرية، لكن بشرط أن تقال عن المصريين .. وبعضهم هذا أثرت فيه اللهجة والأغنية والسينما المصرية .. أما بعضهم الآخر فظل

متجهماً .. صارماً .. يعتبر الضحك فضيحة .. قلة أدب حتى ولو بسبب .. وكان يرى أن النكتة المصرية .. خلاعة .. وميوعة، لا حضارة ومقاومة.

لكن .. فى السنوات الأخيرة تغيرت الصورة كثيراً .. إن ثراء ما بعد جنون أسعار النفط، جعل المصريين يسافرون بحثاً عن الرزق ... وجعل العرب يأتون بحثاً عن المتعة والحرية.. فكان أن تلامست الشعوب .. وتداخلت .. وتزاوجت .. وتبادلت المشاعر والأخطاء .. وكان أن بهتت النكتة المصرية على الشخصية العربية ... فاعترفت بخطورتها .. واستخدمتها كسلاح .. وحورتها قليلاً لتصلح للاستعمال المحلى.

فى عهد عبد الكريم قاسم، طارد رجال الأمن لصاً .. فخاف اللص أن يقتلوه اعتقاداً منهم أنه بعثى، فأخذ يصيح قائلاً : "أنا حرامى .. والله العظيم حرامى".

أى أن تكون لصاً أرحم من أن تكون معارضاً للنظام .. والأصل هنا، واقعة "إحنا بتوع الأتوبيس" التى ذكرها جلال الدين الحمامصى فى أحد كتبه السياسية المضادة للعهد الناصرى، ثم تحولت إلى فيلم لعب بطولته عادل إمام وعبد المنعم مدبولى، ينتمى إلى ما يُسمى بالكوميديا السوداء .. أى الكوميديا التى تجعلك تبكى بعد الضحك .. أو تجعلك تندم على ما ضحكت .. والواقعة أن رجال الأمن قبضوا على رجلين كانا فى أتوبيس، على سبيل الخطأ، وأودعوهما السجن على ذمة قضية سياسية .. وفى كل مناسبة يقولان : إحنا بتوع الأتوبيس .. لكن لا أحد يسمع.

وفى فيلم "البرىء" للمخرج عاطف الطيب نجد الخطأ يتكرر مع قواد .. والقواد يقول لقائد المعتقل إنه بتاع "نسوان" لا سياسة .. فالدعارة فى مثل هذه الظروف أرحم.

وهناك نكتة أخرى تقول : إن أحد رجال الأمن السريين اقترب من بائع صور يفرش بضاعته على الأرض، وسأله :

- بكم صورة السيد المسيح هذه ؟

- بخمس ليرات.

- وبكم صورة رئيسنا المحبوب ؟

- بنصف ليرة.

- هل هذا معقول، تبيع صورة المسيح بخمس ليرات وصورة الرئيس القائد بنصف ليرة ؟

- اصلبوه وأنا أبيع صورته بخمسين ليرة.

وفى سنة ١٩٨٢، أضرب العمال فى السودان، فاجتمع الرئيس جعفر نميرى بوفد منهم لمعرفة شكواهم، فقالوا :

- فيه أزمة فى كل حاجة .. ما فى زيت ولا سكر ولا لحم .. سلع فى السوق ما فى .

- ومطالبكم إيه ؟

- زيادة الأجور!

- وتعملوا بيها إيه ؟

والأصل .. نكتة مصرية قيلت أيام الرئيس السادات، عقب مظاهرات الطعام فى يناير ١٩٧٧، فقد دخل الرئيس مجمعاً استهلاكياً فسأل عن زيت، فلم يجد، وعن سكر وصابون وشاى، فلم يجد، فقال مندهشاً :

- الله .. حاجة غريبة .. يبقى الناس بتودى فلوسها فين ؟

وقيل .. إن ضابطاً فى نظام ديكتاتورى، عربى، طلبوا منه اصطياد قرد من غابة خلال أربعة أيام .. وبعد انتهاء المدة، وجدوه يقيد حماراً فى شجرة، ويضربه قائلاً:

- اعترف بأنك قرد !

لكن .. ليست كل النكات السياسية العربية لها أصول مصرية ... فهناك ابتكارات محلية تماماً .. ففى إحدى الدول العربية كان الراديو والتليفزيون يرددان أغنية عن الحاكم تصفه بأنه "غالى .. غالى" .. فقال أحد البسطاء : "مادام "غالى" طب ما نبيعه" !

وينشر محسن محمد النكتة التالية ... أمسك ملكا الحساب بعراقى مات فجأة فى حادث تصادم ليحاسباه على ما فعل فى دنياه .. وسئل : ديانتك .. قال : بعثى.. وإلهك؟.. ميشيل عفلق .. ونبيك ؟ .. الرئيس أحمد حسن البكر .. فحار الملكان (ناكر ونكير) فإنهما لم يسمعا عن هذه الديانة من قبل، فأبلغا النبأ لمن هو أعلى منهما مقاماً، فاستدعى الرجل، وسأله : ديانتك .. فقال : الإسلام .. وإلهك ؟.. لله سبحانه وتعالى .. ونبيك .. محمد عليه الصلاة والسلام .. ولماذا لم تقل ذلك منذ البداية ؟ .. قال : افتكرت اللى بيسألنى من رجال الأمن ![١٧]

وتستدعى هذه النكتة إلى ذهنى عبارة رددها الإيرانيون أيام حكم الشاه خوفاً من جهاز أمنه الرهيب .. السافاك .. والعبارة تقول : "لا تدعو الله ولو فى سرك حتى لا يسمعك السافاك" .. أستغفر الله.

****

ولو كان العرب فى فجر النكتة السياسية، فإن المصريين تجاوزوا وقت العشاء.. التاريخ يقول ذلك .. وتاريخ ثوراتهم بالذات .. فالثورة فى مصر تبدأ عندما تعجز النكتة .. أى

(١٧) أخبار اليوم - ١٦/٥/١٩٨٧.

عندما لا تقدر النكتة على أن تتحمل الواقع .. أو عندما لا يؤثر مُسكّن النكتة فى آلام سرطان الواقع .. وعندما يكف المصريون عن التنكيت فهذا نذير غضب .. فالنكتة مثل ملابسنا الداخلية، عندما تُنزع منا فلا مفر من الانفجار.

ولو انتهت الثورة .. عادت النكتة .. فالواقع الجديد يفرض التنكيت .. وهكذا ...

إن ذلك حدث فى ثورة المصريين ضد نابليون.. وفى ثورة عرابى..وفي ثورة ١٩١٩.

ومفاجأة أن سعد زغلول كان ساخراً، ثائراً هو أيضاً .. وكان تلميذاً فى ثورة عرابى، وأستاذاً فى ثورة ١٩١٩ .. وقد قُبض عليه بعد نفى أحمد عرابى، وعندما عاد إلى الحرية، وجد الناس تتهم محمد عبده بالخيانة، وترمى عبد الله النديم بالشعوذة، وتقول إن جمال الدين الأفغانى جاسوس للإنجليز .. واضطر سعد زغلول أن يحترف المحاماة.. وكانت فى ذلك الوقت مهنة حقيرة ... ولم يكن فى مصر كلها محام واحد يحمل شهادة عليا .. إلا هو.

وبينما كان نجمه يزدهر، كان مستوى حكام مصر ينحدر .. فهو من محام إلى وزير إلى زعيم .. وهم من الخديو توفيق المسئول عن الاحتلال إلى الخديو عباس الذى قضى (٢٢) سنة فى حكم البلاد وهو يحاول أن يلوث سمعة أحمد عرابى .. إلى السلطان حسين الذى أصيب بالجنون فى أواخر أيامه .. إلى السلطان فؤاد الذى أصبح - فيما بعد - الملك فؤاد.

إن أول قرارات فؤاد كان أن تتولى الدولة تسديد "ديون متأخرة للبقال والجزار والخدم وديون قمار مستحقة لخزانة نادى محمد على، وديون للترزى الإيطالى ديليه ثمن ملابس حصل عليها ولم يدفع ثمنها .. وبعض الديون دفعت لصاحبات بانسيونات كان يتردد عليهن .. وهكذا ظهر أن سلطان مصر كان يأكل "بالشكك" ويلبس "بالشكك" ويحب "بالشكك" أيضاً".[١٨]

لقد كان بخيلاً .. مفلساً .. لا يسدد ديونه .. ويقامر بنقود غيره .. ويحب نساء غيره.. ومثله سيكون ابنه الملك فاروق، كما سيقول لنا التاريخ فيما بعد.

وقد أراد فؤاد كسر أنف سعد زغلول فأرسل إليه من يقول : إن فؤاد يريد أن يعين عدداً كبيراً من سيدات مصر وصيفات فى القصر، وأنه اختار صفية زغلول لتكون وصيفة .. "وثار الفلاح فى سعد زغلول. غضب أن يفكر السلطان العازب فى أن يجعل زوجة سعد زغلول وصيفة فى قصره. وقال سعد زغلول لرسول السلطان وهو ينتفض غضباً : قل للسلطان .. إن سعد زغلول ينصحك أن تتزوج فوراً".[١٩]

---

(١٨) لمصرى الحديث، ص ٢٣ لطبعة الثانية - ١٩٨١.
(١٩) ومصطفى أمين - من واحد لعشرة - المكتب المصرى الحديث، ص ٢٤، ٢٩ - الطبعة الثانية ١٩٨١.

ولم يكذب فؤاد خبراً، وفى اليوم التالى أعلن خطبته على نازلى عبد الرحيم صبرى، ابنة مدير المنوفية، وخطيبة سعيد ابن شقيقة سعد زغلول .. والتى كانت تحبه وترحب بالزواج منه .. لكن .. نازلى لعبت "الشايب" وقبلت الزواج من السلطان.

"وعندما قامت ثورة ١٩١٩، وهاجم الشعب السلطان اتهمها الشعب فى أغانيه وأناشيده بأنها كانت عشيقة السلطان قبل أن تتزوجه، وأنها حملت منه، وأنه اضطر إلى زواجها ليخفى جريمة اغتصابها وحملها، وأن فاروق ابن زنى."[٢٠]

ونظم بيرم التونسى زجلاً نشره فى مجلته "المسلة"[٢١] وصف فيه الزفاف الذى تم قبل الخطبة والحمل الذى وقع قبل الزواج :

مرمر زمانى يا زمانى مرمر

البنت ماشية من زمان تتمخطر

والغفلة زارعة فى الديوان قرع أخضر

يا راكب الفيتون وقلبك حامى

اسبق على القبة وسوق قدامى

تلقى العروسة زى محمل شامى

وأبوها يشبه فى الشوارب عنتر

وغطى زهر الفل فوقها وفوقك

وجبلها شبشب يكون على ذوقك

ونزل النونو القديم من طوقك

يطلع كويس لا الولد يكبر

ويوم ما ينزل فى الجاكتة الكاكى

تسمع قولتها ...

العافية هايلة والولد متشطر

الوزة من قبل الفرح مدبوحه

(٢٠) مصطفى أمين – من واحد لعشرة – المكتب المصرى الحديث، ص ٢٤، ٢٩ – الطبعة الثانية ١٩٨١.

(٢١) هرباً من الترخيص كان بيرم التونسى يكتب تحت "المسلة" أنها "لا جريدة ولا مجلة".

والعطفة من قبل النظام مفتوحه

ولما جت تتجوز المفضوحه

قلت اسكتوا خلى البنات تتستر

لقد نهش الشعب فى عرض السلطان .. لم يتردد فى استثمار الفرصة والتشنيع عليه .. والفرصة مغرية .. فيها سلطة وجنس وخطيئة .. وطبعت منشورات تتهم ولى العهد الأمير فاروق بأنه ابن حرام .. مع أن ذلك غير صحيح، كل ما فى الأمر أنه كان "ابن سبعة" .. أى وُلد بعد الزفاف بسبعة شهور بسبب كبر حجمه.

****

وبيرم التونسى كان لسان الناس الطويل فى ذلك الوقت .. فناناً .. مثقفاً .. تونسى الأصل واللقب .. مصرى المزاج والهوى .. متشرداً .. فقيراً .. عاش حياته بالطول والعرض .. زاهداً .. عنيداً .. يعشق النكتة والمرأة والخروب .. يصف النكتة بالكيف .. يعامل الزجل كمنشور .. لم يهادن .. عينه على الغلابة ... لم يساوم .. لسانه ضد الطغاة ... وقلبه مع الدنيا كلها.

لم يفرق بين ما يقال سراً وما يقال علناً .. ولا بين ما يبوح به لأصحابه وما ينشره فى الجرائد .. ولم يفرق بين المخبر والمواطن ... ولا بين الملك فؤاد، وشارع فؤاد :

وجابوك الإنجليز يا فؤاد قعدوك

تمثل على العرش دور الملوك

وخلوك تبهدل فى أمة أبوك

وفين يلقوا مثلك مغفل ودون.

إنه يسب رأس الحكم .. يلعنه .. يصفه بأنه مغفل ودون .. يُضحك الناس عليه .. يعامله كأنه بلياتشو أو لاعب بيانولا يقفز أمام رواد القهاوى.

ثم إنه يترك العرش وينهش العرض .. ينزع الغطاء عن نازلى وفؤاد .. ويقدمهما عرايا للناس .. للفرجة .. للنكتة .. للقفشة .. وللحسرة.

وكان من الطبيعى أن يُجن جنون القصر .. وقُبض على بيرم .. وكاد أن يعدم .. لكن أنقذه من حبل المشنقة أنه كان غير مصرى، ويتمتع بالحماية الفرنسية .. فكان أن اكتفوا بضربه .. ثم "استأجروا بلطجياً جزائرياً يعيش فى مصر اسمه يوسف شهدى" ليتعقبه ويقتله .. فكان يضربه كلما قابله "ولكن يبدو أن الضرب لم يكن كافياً لقطع لسانه .. فنفوه".[٢٢]

---

(٢٢) السعدنى-الظرفاد- ص ١٣٢.

نفوه إلى باريس .. فكان أن أصبح أشد ضراوة، فليس "فى العالم أكثر ضراوة من رجل ضائع يضحك" .. وبعد (٢٠) سنة من النفى عاد ..

واقول لكم بالصراحة إللى فى زمانا قليله

عشرين سنة فى السياحة وأشوف مناظر جميله

ما شفت يا قلبى راحة فى دى السنين الطويله

إلا أما شفت البراقع واللبده والجلابيه

هكذا .. قال، عندما دخل مصر متسللاً من ميناء بورسعيد .. ولجأ إلى كامل الشناوى فى حى البغالة .. وتدخل أحمد حسنين باشا للعفو عنه .. على أن يكتب قصيدة اعتذار للملك فاروق، تنشر فى جريدة الأهرام .. وفيما بعد .. فى سنة ١٩٥٧ سأله محمود السعدنى :

-كيف تمدح الملك وأنت بيرم التونسى ؟

فقال :

- يا بنى .. التراب اتعمل للدوس، والخد للبوس .. لكن فى وجود الحاكم الظالم، يصبح التراب للبوس والخد للدوس !

****

كان عقاب بيرم التونسى بالضرب والنفى دليلاً للشعب على أن ضربات نكاته الموجعة قد أصابت .. وأنها جعلت الملك يشعر أن جزءاً من جسمه يؤلمه .. أو أن فى جزمته ... "حصوة".

ومع أن أخبار القصر كانت مصونة لا تمس، فقد عرف الناس ما يجرى فى جناح الملكة.. وعرفوا سرها المكتوم فى صدر رئيس الديوان أحمد حسنين الذى تزوجها سراً فيما بعد، فحكم ابنها الملك فاروق، بعد أن حكمها .. لكنها .. قبل ذلك .. عانت الأمرين من الملك فؤاد .. فهو غيور .. وعاجز عن شكمها .. وكان أن حاولت التخلص من توترها بالزار .. وبالصراخ .. وبالجنون .. وبشباب الحراسة .. لكنها لم تسترح .. ولأن المصريين غير قادرين على غفران عجز الحاكم، ولا قلة أدب زوجته أصبحت الملكة نازلى، هدفاً مغرياً للنكتة المصرية الحراقة.

فقيل إنها كانت تتكلم فى تليفونين فى وقت واحد .. وتقول :

يا شيرى ... إنت الوحيد اللى ممكن أسلمه نفسى !

وقيل إنها سألت أحمد حسنين :

- أفرط لك رمان ؟

فقال :

- فرطي لي .. "في عرضك".

****

ولم تكن نازلي سبب التوتر الوحيد بين فؤاد وسعد زغلول .. كانت هناك أسباب أهم .. على رأسها أن الإنجليز هم الذين وضعوا فؤاد على العرش .. وقد عجل ذلك برغبة سعد زغلول في الثورة.

وعندما اقترح عليه عبد الرحمن فهمي، وكان ضابطاً في الجيش، أن يقوم الجيش بالثورة، رفض سعد زغلول، فلم يكن "يؤمن بالحكم العسكري، فقد عاش (هذا النوع من الحكم) في أثناء الثورة العرابية وشهد هزيمته، ولمس الأخطاء التي ارتكبها، وانتقد مهازل ذلك الحكم وجهله وغروره. واتصل بحكم عمله في الثورة ببعض الضباط فهاله أن فيهم حماسة الثيران، وعقول الفراخ، وصيحة الأسود، وصفات الفئران، وأن الأبطال منهم هم الذين ماتوا أو سجنوا أو نفوا .. وأن أعلاهم صوتاً كان أسرعهم فراراً من المعركة. وكان من رأيه أن الحكم العسكري أشبه بالسيرك! له ضجيج السيرك وزيناته، فيه طبوله وزموره، مواكبه واستعراضاته .. له قدرة على اجتذاب المصفقين في الزفة والهاتفين في الحفلة والراقصين في الضوضاء، مع فارق واحد : أن في السيرك يتحكم آدميون في بعض الحيوانات، وفي الحكم العسكري يتحكم بعض الحيوانات في كل الناس".(٢٣)

لقد أراد أن تكون الثورة .. ثورة الشعب كله .. فلاح الترحيلة ... العامل في الورشة ... العاطل على قهوة .. الحاوي .. الممثل .. المطرب .. الأراجوز .. التلامذة .. وحريم البيوت.. بل ولا مانع من بنات الهوى .. فالثورة حق من حقوق الإنسان .. والثورة مطهر قوي .. يمسح الذنوب .. ويعيد التوازن للبشر .. مشاركة بالحركة لا بالنكتة .. بالمظاهرة لا بالتعميرة !

في الساعة الخامسة بعد ظهر يوم ٨ مارس سنة ١٩١٩ اقتحم الإنجليز بيت سعد زغلول.. وقال له قائد القوة :

- لدى أمر من القائد العام للقوات البريطانية بالقبض عليك.

وابتسم سعد زغلول وقال :

- لقد جئت متأخراً ! إنني انتظرتك منذ وقت طويل !

(٢٣) مصطفى أمين - المرجع السابق - ص ١١٤، ١٤٠.

ولم يفهم الضابط الإنجليزى النكتة فقال :

- إن الأوامر التى عندى أن أقبض على معاليك فى الساعة الخامسة مساءً .. والآن الساعة الخامسة مساءً !.[٢٤]

- اذن .. هيا بنا.

ومشى سعد زغلول .. ومشى وراءه الضابط البريطانى خائفاً متوجسا، متعثراً، ينظر حوله فى قلق وريبة .. "كأن سعد باشا هو الذى قبض عليه".

وفى اليوم التالى انفجرت الثورة .. إضرابات .. مظاهرات .. منشورات .. ولم يصدق أحد أن الشعب الذى ينكت على هذا النحو يمكن أن يثور كل هذه الثورة.. الفلاحون نزعوا قضبان السكة الحديد، فتوقفت القطارات، وحطموا أسلاك التليفونات، فانقطعت الأخبار، ووضعوا المتاريس فى الطرق الزراعية .. وأشعلوا النيران فى مخازن غلال الجيش البريطانى .. وأضرب الأزهر وجميع المدارس، ووُلدت الأغنية الشهيرة، التى أصبحت رمزاً لغضب الطلبة فيما بعد : "يا عم حمزة .. إحنا التلامذه .. واخدين ع العيش الحاف .. والنوم من غير لحاف .. ناس وطنيين .. دايماً صاحيين .. إحنا التلامذه ياعم حمزة" .. وخرجت النساء فى مظاهرة لأول مرة .. واجهها الإنجليز بالرصاص .. وسقطت أول شهيدة مصرية، من حى الجمالية اسمها حميدة خليل.

وساهمت صفية زغلول فى قيادة الثورة ... وتحريكها .. وفى أحد الأيام اجتمعت فى دارها بعبد الرحمن فهمى وأحمد ماهر وبعدد من أعضاء الجهاز السرى للثورة.. وتحدثت فى الاجتماع بعبارات نارية، تدعو إلى استمرار الثورة .. إلى المضى فى تحدى الإنجليز .. فى الاستهانة بالموت أمام المدافع والرصاص .. وفجأة صرخت، وقفزت، واقفة فوق المقعد، وقد ارتسمت عليها كل علامات الذعر والرعب والخوف وصاحت :

- الحقونى .. الحقونى !

وذهل الثوار الموجودون .. وتلفتوا حولهم فلم يروا شيئاً .. وأشارت صفية زغلول بيد مرتعشة إلى الأرض .. وتلفتوا نحو الأرض فوجدوا صرصاراً.

"وأغرق الثوار فى الضحك، ودهشوا من أن المرأة التى لا تخاف أساطيل الإنجليز وطياراتهم ومدافعهم ودباباتهم تخاف من صرصار !".[٢٥]

****

لكن .. الثورة عند المصريين .. ثورة خفيفة الظل أيضاً.

---

(٢٤) مصطفى أمين - المرجع السابق - ص ١١٤، ١٤٠ .
(٢٥) المصدر السابق - ص ١٨٢، ٣١٦.

ففى أثناء المظاهرات رددوا أغنية، مجهولة المؤلف، تقول : "باردون يا ونجت .. بلادنا خربت .. قتلوا ولادنا .. نهبوا بلادنا .. نفوا رئيسنا .. أكلوا دريسنا .. باردون يا ونجت... بلادنا خربت" .. وونجت، هو السير ونجت نائب ملك بريطانيا فى مصر أثناء الثورة.

وعندما أصدر القائد العام البريطانى أمراً بحبس كل من يذكر اسم "سعد"، ختمت النساء عبارة "يحيا سعد" على كل أوراق البنكنوت .. وغنت منيرة المهدية : "يا بلح زغلول يا حليوه يا بلح .. يا بلح زغلول عليك بنادى فى كل وادى .. واقول يا بلح.. يا بلح زغلول".

وخرجت أصوات تنادى بالسلام أو بالاستسلام، وعبرت هذه الأصوات عن نفسها فى الصحف .. وأشهرها "الأهرام" .. ورفض المتظاهرون الهزيمة ... وغنوا فى سخرية : "خد البزة واسكت ... خد البزة ونام .. يا واد ياللى بتقرا جرنال الأهرام".

وكتب مفتى الديار المصرية الشيخ محمد بخيت نداءً دعا فيه الشعب إلى ضبط النفس.. واستشهد بآيات من القرآن والحديث الشريف، وفى اليوم التالى كانت الجماهير تردد زجلاً لبيرم التونسى، يقول : "أول ما نبدى نصلى على النبى .. نبى عربى يلعن أبوك يا بخيت" .. هكذا .. خبط ، لزق !

وبقدر ما كان المصريون أذكياء ولماحين فى مواجهة خصومهم، كان أمراء مصر وحكامها الأتراك أغبياء فى مجاملة أصدقائهم .. فعندما عاد سعد زغلول من المنفى كان معه الأمير عزيز حسن الذى كان الإنجليز قد نفوه من قبل .. وعندما وصل الموكب إلى بيت الأمة احتشدت مئات الألوف أمام البيت تطلب كلمة من سعد .. لكن الأمير عزيز قال لسعد : أنا أريد أن أقول خطبة ... ولم يكن سعد يعرف مقدار بلاغة الأمير فى اللغة العربية .. فوقف وأشار إلى الجماهير أن تسكت، ثم قال :

- الأمير الجليل عزيز حسن سيلقى خطاباً وطنياً.

ووقف الأمير الجليل وقال :

- إسمع يا راجل انتى وهوه .. البلد دى ى ى فيها راجل واحد دى ى ى والباقى... كلهم أولاد كلب !(٢٦)

ثم جلس الأمير الجليل .. كان يقصد بالرجل سعد زغلول، وكان يقصد بأولاد الكلب الملك والوزراء وخصوم سعد .. لكنه فشل فى التعبير .. وجاء يكحلها فعماها .. وأراد أن يمدح زعيم الأمة، فشتم الأمة.

****

وقد أطاع الشعب سعد زغلول وهو زعيم الثورة .. وعصوه وهو - فيما بعد - رئيس وزراء.

(٢٦) المصدر السابق - ص ١٨٢ - وص ٢١٦.

أضرب العربجية، احتجاجاً على تزايد نفوذ السيارات، وتقلص نفوذ الكارو والحانطور .. وذهبوا لمقابلته .. فقابلهم .. وسمع منهم، وابتسم، ثم قال :

- إننى عربجى مثلكم، مهمتى أن أقود العربة كما تقودونها .. وحكومة الشعب هى العربة الحنطور .. ومصر هى الزبون الوحيد الذى يركبها .. والفرق الوحيد بينى وبينكم، إنكم تحملون الكرباج وأنا لا أحمله .. ونحن الآن فى عصر السرعة .. والسيارة علامة التقدم.. إنها تحل فى العالم محل الحانطور .. ولا أستطيع كزعيم هذه الأمة أن أسمح لها أن تتخلف .. أن تمشى ببطء فى عصر السرعة .. أفهم بدلاً من أن تطلبوا منع السيارات أن تلزموا الحكومة بأن تنشىء مدرسة لتعليم قيادة السيارات .. أن تساعدكم على الالتحاق بها فى وقت فراغكم .. وأنا أتكلم كواحد منكم. يهمنى مستقبلكم. سوف أفعل ما تريدون.. إذا كنتم تريدون أن تتقدم مصر بسرعة العربة الحانطور فسأخضع لرأيكم .. وإذا أردتم أن نتقدم بسرعة السيارة وبسرعة الطيارة فسوف أفعل ما تأمرون به ..

فصاحوا : بسرعة الطائرة.

- إذن اتفقنا.

- يعيش سعد باشا.

- لا بل قولوا يعيش الأسطى سعد.

- يعيش الأسطى سعد.[٢٧]

وعندما كان رئيس الوزراء عدلى يكن عائداً من لندن بعد محاولة للتفاهم مع الإنجليز، وجه سعد زغلول نداءً إلى الشعب بألا يخرج أحد إلى الشارع، ليمشى موكب رئيس الحكومة فى شوارع مهجورة .. فى مدينة خلت من الناس .. "ويومها انشقت الأرض وابتلعت كل سكان القاهرة .. لم يخرج أحد من بيته إلا جنود الشرطة" .. ومر موكب عدلى باشا فى شوارع القاهرة فإذا بها مدينة الأموات .. لا صوت .. لا حركة .. ولا إنسان .. "ولم يكد يرى رئيس الوزراء هذا المنظر المفزع المخيف حتى ذهب إلى السلطان فؤاد فى قصر عابدين وقدم استقالته من رياسة الوزراء فى الحال".[٢٨]

وحدث فى الشرقية أن فكهانياً أعطى صوته لمرشح ضد سعد زغلول، وعلمت زوجته بذلك، فرفضت أن تعيش معه وطلبت الطلاق.

وأغرب خطاب وصل إلى سعد زغلول كان من طالب بمدرسة العبيدية فى القاهرة يسكن فى حى الفجالة "ويقول إنه أحب بنت الجيران، وفوجىء بأسرتها تغلق نوافذ البيت

(٢٧) المصدر السابق - ص ٢٤١ .
(٢٨) مصطفى أمين - "من عشرة لعشرين" - المكتب المصرى الحديث - ١٩٨١ - القاهرة - ص ٨ و ص ٢٧.

بالمسامير، ويطلب الطالب من زعيم الشعب أن يصدر قانوناً يحتم على الناس أن يفتحوا نوافذ بيوتهم ليدخلها الهواء والهوى".[٢٩]

إلى هذا الحد تعامل الشعب المصرى مع زعيم الثورة الذى أصبح زعيم الأمة .. قدم دمه، حماسه، وطاعته، وجديته، للثورة .. وأثبت أنه قادر على تغيير الكون عندما يجد القيادة التى تستحقه .. وأنه لا يلجأ للتنكيت إلا عندما تتحول هذه القيادة .. من قيادة تستحقه إلى قيادة تسحقه .. قيادة تبهدله .. وتحول ثورته إلى ثروة .. ودموعه إلى ألقاب .. وأحلامه إلى أبعديات .. لقد أجهضت الثورة .. وانتهت إلى أحزاب متنافرة وضعت الشعب وراء ظهرها، وسعت لمفاوضة الإنجليز .. وتنافر الأحزاب أدى إلى تطاحنها .. وتطاحنها أضعفها وعزل الناس عنها .. فكان أن عادت النكتة السياسية "تلعلع" من جديد.

إن ذلك - على حد قول الساخر الودود يحيى حقى - كان الوسيلة الوحيدة التى وفرها الشعب المصرى "للتعويض عما يحس به من مرارة وألم لإجهاض الثورة" .. وكانت هذه الوسيلة "فى تلك الحقبة طعناً وتنفيساً فى آن واحد".[٣٠]

وانضمت إلى عائلة الصحافة السياسية الساخرة مجلات جديدة .. وكان أشهرها الكشكول التى أصدرها سليمان فوزى سنة ١٩١٤، ثم توقفت وقت الثورة، وفى سنة ١٩٢١ عادت من جديد لتكون ضد سعد زغلول وحزب الوفد بعد ذلك .. وفى العام نفسه صدرت مجلة "الضحوك" فى طنطا باسم عبد ربه بهاء الدين .. وأصدر إبراهيم فارس "حديقة الفكاهة" شهرياً سنة ١٩٢٢ .. وفى العام التالى أصدرت ميشال فؤاد وريشارد مكرزل "الدبور" .. وفى سنة ١٩٢٤ أصدر حسين رفعت "المقرعة" .. وأصدر محمد رفعت المازنى "ميمون" .. وفى العام التالى أصدر سيد السنى فى شبين الكوم "البهلوان" .. وأصدر محمد عبد الجواد فى الإسكندرية "الظريف".

واستثمر بعضهم أسماء مجلات ساخرة، كانت شهيرة، وتوقفت، مثل "أبو شادوف" التى صدرت يومية من جديد فى سنة ١٩٢٦، باسم محمد شرف .. وأصدر سيد البشلاوى مجلة باسم "أبو نضارة" .. وكانت السابقة الأولى ، "التنكيت والتبكيت"، التى أصدرها محمد فاضل ومحمد طلعت، يوم الثلاثاء ١٨ أكتوبر ١٩٠٤، على غرار مجلة عبد الله النديم .. وكان شعارها : "قل للذى ديدنه التنكيت.. وقل لمن فى الفضل يستميت ... هذا هو "التنكيت والتبكيت" فى جده وهزله عفريت".

لكن ... هذه المجلة حكمت على نفسها بالفشل من أول عدد، عندما طلبت فى "كلمة رجاء"

---

(٢٩) مصطفى أمين - "من عشرة لعشرين" - المكتب المصرى الحديث - ١٩٨١ - القاهرة - ص ٨ و ص ٢٧.
(٣٠) يحيى حقى - "تعال معى إلى الكونسير" مع الكاريكاتير فى موسيقى سيد درويش - المؤلفات الكاملة (٨) - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ص ٩٤. ولمزيد من التفاصيل عن رأيه فى النكتة، انظر كتابه "دمعة فابتسامة - مع الدعابة فى المجتمع المصرى" - الكتاب السادس من المؤلفات الكاملة للناشر نفسه.

من السلطان أن يبسط لها من القبول فى رحاب كرمه ما يجعلها تجتاز عقبات القيل والقال .. "فإنك يا مولانا إذا تفضلت علينا بالمأمول، فإننا لن نكتب إلا فى نافع وإن سبك فى قالب التنكيت، ولا نضرب بسهم إلا إلى حقيقة، وإن خرج عن قوس تبكيت، وأنت فى كل حال حسبنا ونعم الوكيل".

ثم .. إنها ابتعدت عن السياسة والإنجليز واكتفت بالضرب تحت الحزام ... أى فى المناطق الحساسة .. أى مناطق الأخلاق ... ولا بأس من قراءة هذه العينة التى نشرت تحت عنوان "درس جغرافى هزلى".(٣١)

س : أين تذهب الأموال الناتجة عن محاصيل المصريين ؟

ج : فى الأزبكية.

س : وأين هى الأزبكية ؟

ج : الأزبكية نقطة فى مدينة القاهرة ما تركت موبقة إلا احتوتها على أبشع ما يكون من الخلاعة والتهتك وهى على رأى ذلك الفاضل إسماعيل بك عاصم، حيث قال : فدان يبتلع ملايين من الأفدنة.

س : وهل كل الموبقات والملاهى قاصرة على الأزبكية ؟

ج : يا حبذا لو كان ذلك، فكل شوارع القاهرة ملاهٍ وخمارات وبيوت سرية وجهرية للفاحشة وغيرها.

س : وهل تعلم عدد تلك الخمارات .. فى القاهرة وحدها ؟

ج : نحو الخمسة آلاف.

س : وما هو عدد محلات الفسق ؟

ج : نحو نصف هذا العدد بالتقريب.

س : وما هو عدد محلات المقامرة ؟

ج : نحو السبعين.

س : كم معمل صناعى للغزل وخلافه حيث إن القطن كثير فى البلد ؟

ج : ....

---

(٣١) العدد الرابع - ٨ نوفمبر ١٩٠٤ - ص ٣١، والعدد الخامس - ص ٣٩.

س : كم مدرسة للعميان والخرس ؟

ج : كانت واحدة وماتت عليها رحمة الله.

وعلى سبيل المثال أيضاً، هاجمت جنون شراء أوراق "اليانصيب" التى أدخلها اليهود فى بداية هذا القرن .. "اليانصيب زاد فى الأوطان، بلع لنا مال الأطيان .. وضاع عليه حق الأقطان. وابن البلد أصبح عريان .. تلقى اليهودى الله يغمه، من وقت ما يفوت بطن أمه .. يتبع أخوه ويا عمه، ع اليانصيب زى الشيطان .. والحكم أهله نايمين، وفى القصور واكلين شاكرين .. وللبلد ما بقوش شايفين .. مشكلة قوت الملايين".(٣٢)

ثم .. إنها ابتعدت أكثر وأكثر عن الناس، واكتفت فى آخر أعدادها بالنكتة .. للنكتة فقط...

ابن المتوفى : خد التلاتين قرش دول أحسن والله ما عادش معايا غيرهم.

الحانوتى : معلهش عشان خاطرك، بس تبقى تعوضهم لنا المرة الجاية.

..... ونكتة أخرى ....

الأول : تسمح نتغدى سوا النهاردة.

الثانى : بكل ممنونية يا أخى.

الأول : طيب ادينى بقى عنوان بيتكم.

وفى العدد الأخير، نشرت الإعلان التالى : "مطلوب شبان وشابات من حملة وحاملات القماقم للسير وراء جنازة واحد راح يموت من الضحك" .. والصحيح .. جنازة مجلة ماتت من ثقل الدم !

لكن ...

المجلات الساخرة التى ظهرت بعد ثورة ١٩١٩ لم تكن على هذا النحو .. خاصة "الكشكول" التى بنت شهرتها وقوتها على سب وشتيمة سعد زغلول ، و "التريقة" و "التأليس" عليه.

فقد كتبت أن سعد زغلول بدأ حياته خادماً يسقى القهوة فى مكتب حسين بك صقر المحامى .. وسخرت كثيراً من داء القمار الذى كان مصاباً به .. ووصفته بأنه سفيه وذليل وأثيم وعريض القفا .... والكشكول .. صدر العدد الأول من إصدارها الثانى فى ٢٤ مايو ١٩٢١ .. وكانت تُسمى "الكشكول المصور" .. وكلمة المصور ليست من الصورة، وإنما من الرسم .. والرسم المقصود كان الكاريكاتير .. وكانت تصدر كل يوم ثلاثاء .. وفى

(٣٢) العدد السابع- ١٩٠٤/١١/٢٩-ص٥٣.

العدد الأول أوحت بأن "الوفد" نحس .. وفى العدد الثانى (ص - ٦) دللت على ذلك، بأن عدد حروف أسماء أبرز قياداته (١٣) حرفاً .. مثل محمد عاطف بركات .. ومحمود النقراشى .. والرئيس المحبوب (تقصد سعد زغلول) .. ومصطفى بك النحاس ... وجورجى بك الخياط ... ومحمد كامل نجاتى... وفى العدد السادس (ص - ٣) أضافت: و "لاحظنا على معالى سعد باشا وزملائه أنهم بدأوا عملهم بمقابلة الجنرال ونجت، نائب الملك فى دار الحماية يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨، وأن رقم (١٣) صحب الوفد فى كثير من المواقف، فكان عامل شؤم، وقد وجه نظرنا بعضهم إلى أن المفوضين الرسميين اختاروا (١٣) مستشاراً فنياً، (المقصود وفد التفاوض على الاستقلال) وإلى أن الذين يسكنون فى فندق كلاريدج بلندن (مقر إقامة وفد التفاوض) (١٣) أيضاً".

وفى عدد رقم ٢٩ (ص - ٢) ترتفع النغمة أكثر ....

"يقول العامة فى أمثالهم : "إن جيت تغيظ راجل سلط عليه امرأة، وإن جيت تغيظ امرأة سلط عليها عيل" .. و "جنود سعد" الذين يباهى بهم الأمم إن لم يكونوا كلهم من "الغلمان" فلا جدال فى أن طلائعهم من "العيال والنسوان" وهم دائماً إلى الأمام، يأتون بما يعجز عنه من ذبلت أعضاؤهم وصلبت أعوادهم".

وبعد وفاة سعد زغلول، انفلت العيار ... تماماً ...

ففى يوم ١٤ سبتمبر ١٩٢٨، خرجت بعنوان "النحاس يطرطر" .. وكتبت بالحرف الواحد: "رأى الذين يتفسحون فى سكة الهرم مساء يوم الاثنين الماضى منظراً عجيباً. كان الباشا النحاس والباشا الغرابلى يسيران على أقدامهما، ووقف النحاس على حافة الطريق وعلى مرأى من السيدات والرجال الذين يمتطون الأوتومبيلات بين صاعد إلى الهرم ومنحدر منه "يطرطر" بينما الباشا الغرابلى واقفاً ينتظره. فهل تجوز شهادة الباشا النحاس بعد هذا المشهد العجيب عند رجال الشرع، وأمام أية محكمة شرعية ؟ وهل كان خفير الشارع يتركه إذا رأى دولته، يطرطر فى الشارع العام ؟ وهل هذا العمل الفاضح يتفق مع جلال وصفه "بصاحب الدولة" ؟ ثم هل هذا يصدر عن رجل سليم العقل ؟ ... يا ضيعة الألقاب".

ومن جانبه لم يسكت الوفد، وراحت الصحف والمجلات المعبرة عنه، تردح هى الأخرى، وتفرش الملاية.

قالت جريدة البلاغ :

"استحوا يا دواعر .. استحوا يا شراميط .. فو الله إن كلمة الدعارة لأخف مما توصفون به" !.[٣٣]

ووجهت روز اليوسف "الموال" التالى إلى صاحب الكشكول بالاسم ... إلى سليمان

(٣٣) مصطفى أمين - من عشرة لعشرين - ص ١٥٥.

فوزى... أبوك وأمك مجال محناش فرسانه

الراية لك فيه ووش البركة ميدانه

ويا شيخ مراتك كمان والبيت وجدعانه

الله يسامح ويرخى الستارة ع الجانى

ونعيش لك انت كمان أسبوع على التانى

على الله نغسل قذارتك بالسليمانى

ونسقى للبأف كاس المر لكعانه!

"وكان هذا الموال من أعنف ما نشرته الصحافة المصرية، فقد اتهم صاحب مجلة الكشكول أن أباه وأمه من حى وجه البركة وهو حى العاهرات فى القاهرة واتهم زوجة صاحب مجلة الكشكول فى شرفها وعرضها".(٣٤)

لم تصف هذه المجلات حسابات السياسيين فقط وإنما سعت إلى تصفية حسابات الأدباء والمفكرين ... أيضاً ... وكانت مجلة "خيال الظل" الخنجر الذى طعن به عبد العزيز جاويش، الدكتور طه حسين .. ففى العدد الخامس ١٠ يوليو ١٩٢٤ - ص ١٢ وتحت عنوان "لقد هزلت" كتب عبد العزيز جاويش :

"ليس غريباً أن يسافر صاحب الدولة عبد الخالق ثروت باشا إلى الإسكندرية لقضاء فصل الصيف فيها ولكن الغريب والعجيب أن يصل الحال بدولة ثروت باشا إلى الاصطياف فى الإسكندرية هذا العام بينما يصطاف الشيخ طه حسين فى فرنسا فسبحان مغير الأحوال وسبحان المعز المذل".

ونحن نعجب غاية العجب من أن يكون سفر الشيخ طه هو لقضاء فصل الصيف فى فرنسا، فالمعروف عندنا أن طلاب الاصطياف يسافرون إلى فرنسا أو سويسرا للتمتع بمشاهدة مناظرها الطبيعية، وليس للشيخ طه - ولله الحمد - حظ فى ذلك فهو كما نعلم ويعلم الجميع خال من مؤهلات التمتع بمشاهدة هذه المناظر".

و "خيال الظل" صدرت ١٩٠٧، ثم توقفت .. وكان العدد الأول من اصدارها الثانى يوم الخميس ١٢ يونيو ١٩٢٤ .. وكان شعارها الدائم .. "رأيت خيال الظل أكبر عبرة لمن هو فى علم الحقيقة راق .. شخوصاً وأشباحاً تمر وتنقضى وتفنى جميعاً والمحرك باق" .. وقد ناصرت سعد زغلول، والوفد، ووقفت برسوماتها الكاريكاتيرية ضد الكشكول.

واهتمت أكثر من غيرها بنشر النكتة المباشرة ...

---

(٣٤) المصدر السابق - ص ١٥٦

ألقى أحد الأساتذة على طالب صغير السؤال التالى :

- تلميذ وتلميذ وتلميذ .. يبقوا إيه ؟

- يبقوا مظاهرة يا فندى.(٣٥)

وقال اللص لزميله :

- تعالى نحصى المسروقات اللى سرقناها ليلة إمبارح.

- ونتعب نفسنا ليه وبكرة نقراها فى الجرايد.(٣٦)

لقد انتهت الثورة إلى النكتة .. كل ما فى الأمر أن النكتة أصبحت تُطبع وتُنشر وتُستخدم فى صراعات القمم .. وبدلاً من أن تُطلقها الحوارى خرجت من القصور.. وبدلاً من أن يؤلفها أولاد البلد، كتبها البهوات .. ففقدت طعمها ومذاقها وحلاوتها.. وانحدرت إلى مستوى الردح والطرطرة وفرش الملاية.

ولو كنا نعيش فى ذلك العصر، لكنا قد سمعنا المصريين، يقولون لبعضهم بعضاً، وهم يشربون الشاى الأسود، ويدخنون المعسل :

- لقد قالها سعد باشا قبل أن يموت.

- قال إيه ؟

- ما فيش فايدة.

---

(٣٥) خيال الظل - ١٩٢٤/٦/١٢.
(٣٦) خيال الظل - ١٩٢٤/١١/١٧.



"حمار أفندى" يسخر من الرقابة !

"لأول مرة بدأت تقارير الأمن ترصد النكتة.. كان ذلك فى بداية عام ١٩٣٩ .. فى وقت أرادت إنجلترا فيه أن ترصد اتجاه الريح فى مصر قبل الحرب مع النازية".

"محمد التابعى"

على مقهى فى السيدة زينب، سأل مواطن، آخر :

- انت عدلست (نسبة إلى عدلى يكن باشا)، والاّ وفدست (نسبة إلى الوفد)؟

فقال :

- أنا فلست !

والمعنى .. أن الانقسام الحزبى الذى انتهت إليه وبه ثورة عام ١٩١٩ لم يجر الناس إلاّ للإفلاس .. الإفلاس السياسى والمالى .. فلا الإنجليز خرجوا .. ولا العربجية تركوا الكارو وركبوا الأتوموبيل .. ولا الفقراء أكلوا أكثر من "المش" والفول.

ولم يبق للأمة سوى أن تنكت على خيبة زعمائها.

ومع أن ذلك حدث - فى مصر - وسيحدث كثيراً .. فإن الكاتب اللامع صلاح حافظ يرى أن النكتة عندنا قد تنفصل عن الرأى .. وليس من الضرورى أن تكون موجهة إلى ما هو أبعد من الضحك، والتوازن النفسى.

ويرى أيضاً .. أن النكتة فن الشعبى .. وهى سياسية لأن المواطن المصرى يهتم بالسياسة .. وتزايد موجات النكت السياسية دليل على هذا الاهتمام.

ودليله على رأيه .. أن المصريين أطلقوا النكتة على كافة زعمائهم وحكامهم دون استثناء... رغم اختلافهم عن بعضهم البعض.. فسعد زغلول ليس مصطفى النحاس .. ومصطفى النحاس ليس جمال عبد الناصر .. وجمال عبد الناصر ليس أنور السادات .. وأنور السادات ليس حسنى مبارك ... ومع ذلك فهم جميعاً أصيبوا بالنكتة السياسية، وكانوا هدفاً لها.

وقد ضحك المصريون - بما فيهم الوفديون - على النكت التى أطلقت على مصطفى النحاس ... مع أنه كان زعيم الأمة .. والرئيس المحبوب.

ويضحك المصريون - بما فيهم الناصريون - على النكت التى تُطلق على جمال عبد الناصر ... مع أنه كان قائد ثورة يوليو، وزعيم العالم الثالث الذى شيعه إلى مثواه الأخير أكثر من (٦) ملايين مصرى، وهم يبكون عليه بحرقة .. وبعضهم انتحر، وأغلبهم انهار.

وأنا شخصياً أحب جمال عبد الناصر، وأعترف بدوره الثورى ... ومع ذلك لا أمنع نفسى من الضحك على أى نكتة تقال عنه، أو تُطلق عليه .. إنها مجرد نكتة .. ولا تؤثر فى رأيى فيه ولا فى مشاعرى نحوه .. ولا تستطيع ... ولو كانت النكتة رأياً فى حاكم، فلماذا نطلقها عليه بعد أن يموت ؟ ما جدوى ذلك ؟ .. إن جمال عبد الناصر مثلاً لا يزال يغرى بالتنكيت السياسى، رغم أنه رحل عن الدنيا والسلطة فى سبتمبر ١٩٧٠ .. أى منذ (٢٩) سنة.

وآخر ما سمعت من نكت عنه .. أنه كان يخطب فى الجماهير، عندما قاطعه مواطن.. قائلاً :

- ياريس .. عايزين نعرف فين مجوهرات أسرة محمد على، وفلوس الحراسات، وصفايح الذهب اللى جت من اليمن ؟

فقال له عبد الناصر :

- حارد عليك بعد الخطاب .. تعال اطلع عندى.

وقبل أن ينتهى من خطابه، قاطعه مواطن آخر .. قائلاً :

- يا ريس .. عايزين نعرف فين مجوهرات أسرة محمد على، وفلوس الحراسات، وصفايح الذهب اللى جت من اليمن .. والمواطن اللى طلع عندك من شوية ؟

ويصر صلاح حافظ على أننا نسخر من أى، وكل شىء بغض النظر عن علاقتنا به، بل إننا لا نتردد أحياناً فى السخرية من أنفسنا .. "اشمعنى هيه لا".

ويتذكر صلاح حافظ ... "أننا عندما اعتقلنا فى سجن الواحات الصحراوى، المعزول عن العالم، لم نجد سوى بعضنا بعضاً للتنكيت عليه .. وحررنا مجلة اسمها "حميدة"، كنا نحن مادتها وقراءها .. أى أننا كنا الجلاد والضحية .. "النكتة والدمعة" .. وإذا "كنا سخرنا من أنفسنا فليس معنى ذلك أننا مختلفون معها .. أو أننا نكرهها .. فلماذا تكون النكتة السياسية دليلاً على كراهية الحاكم ؟" .. إن هدفها - الأول والأخير - الضحك .. على أن ذلك لا يعنى أن استغلال النكتة فى الحرب النفسية غير وارد .. أبدا .. إن هذا الاستغلال بدأ بصورة علمية مدروسة فى عهد وزير دعاية ألمانيا النازية "جوبلز" .. ذلك الرجل الذى كان يتحسس مسدسه كلما سمع كلمة "ثقافة" .. وبعده ولدت أجهزة متكاملة، قادرة .. تصنع النكتة وتحللها وتعرف كيف تنشرها، وتصدرها، وتمسح بصماتها من عليها !

****

ومن صلاح حافظ إلى صلاح نصر .. أى من سيطرة الفن إلى فن السيطرة .. أو من تنشيط المخ إلى غسيله .. وصلاح نصر هو مؤسس جهاز المخابرات العامة فى مصر .. ثم .. هو الذى حوله إلى دولة فوق الدولة .. وقد حُوكم وسُجن، وتوفاه الله، لكن .. بقى منه كتابه عن الحرب النفسية.. وفى الكتاب يتحدث عن النكتة كسلاح فى يد أجهزة المخابرات .. ويعتبرها حالة من الحالات الشائعة .. مثل الثرثرة .. والتشنيع .. والتقول.. والقذف .. وادعاء العلم ببواطن الأمور .. لذلك فإنه يصفها بأنها "أشبه بموج البحر الذى يعلو فجأة على سطحه ثم يغطس ثانية إلى قاعه، ليعاود الظهور إذا ما تهيأت الظروف المناسبة".

وقد أقلقت الحكام "منذ فجر التاريخ" بدرجة جعلت بعضهم يتجسس على رعاياه بموظفين متخصصين ينقلون إليهم كل ما يهمس به الناس من شائعات ونكت .. وكانت قصص كل يوم تعتبر "بارومتراً" للشعور العام .. وعند الضرورة كان هؤلاء الموظفون يقومون بترويج الشائعات والنكات المضادة.

وتصنف أجهزة الحرب النفسية النكتة حسب الموضوعات التالية : سياسة .. مرض .. جنس .. علاقات خارجية .. دين .. أقليات .. شخص الحاكم .. وأشخاص مساعديه .. ويتحول هذا التصنيف إلى جداول وأرقام وإحصاء ومنحنيات .. ثم.. لابد بعد ذلك من التحليل والتفسير.

وأخطر النكت .. التى لا تموت .. فهى قد تنام أحياناً، لكنها تعود عندما تحين الفرصة، وتتشابه الظروف .. والدليل على ذلك نكتة الصياد والسمكة .. التى تظهر من آن لآخر، كلما نقصت سلعة هامة فى السوق، أو ارتفع سعرها ..

اصطاد صياد سمكة كبيرة، فرح بها، وعندما دخل بها على زوجته لم تفرح مثله، بل ولم تتحرك من مطرحها، فقال لها :

- مالك مش مبسوطة ؟

- ياما جاب الغراب لأمه.

- يا ولية دى سمكة كبيرة.

- حانعمل بيها إيه يا حسرة ؟

- حانقليها فى الزيت.

- مفيش زيت.

- حانطبخها بالصلصة.

- مفيش قوطة.

- حانسلقها فى الميه.

- مفيش جاز ولا بوتجاز.

فحمل الصياد السمكة، وعاد إلى الشاطىء، وألقى بها إلى الماء، فهتفت السمكة : "يعيش جمال عبد الناصر".

ومن قبل قالت السمكة .. " هاى هتلر" .. و"فيفا فرانكو" .. و "جراتسيا موسولينى" ..

و "دوام الحكم لك يا تشرشل" .. ثم .. إنها قالت بعد ذلك "يعيش أنور السادات" .. ويمكن الآن أن تهتف بحياة الرئيس حسنى مبارك .. فالظروف متشابهة .. والوجيعة والمخاوف أيضاً.

مدير المخابرات الأسبق يقول كذلك .. إنه لا مجتمع بلا نكتة .. ولا نكتة بلا سبب.. ومن ثم فإنها تفسر كثيراً من أخلاق المجتمع وسلوكه ومعتقداته وأمانيه ومتاعبه ورغباته .. وبعضها يكون من وحى الخيال الصرف، ولا يستهدف أكثر من الضحك.. لكن .. بعضها الآخر قد يحوى كراهية للحكم .. أو نقداً للحاكم .. أو يخفف من الكبت السياسى للمحكومين.

ثم .. إن النكتة عندما تصبح سياسية تكون مثل قنابل الدخان .. تخفى شعور الفرد الخاص، دون إجبار على الإفصاح .. فقد يتجنب المواطن التحدث فى السياسة، أو نقد نظام الحكم، أو إعلان سخطه .. ولكنه لا يتردد - عند أول فرصة - أن يندفع فى رواية النكتة السياسية .. ونشرها بسرعة البرق ... لأنها فى النهاية.. نكتة.

وفى قاموس الحرب النفسية، تسمى النكتة الخطرة، أى النكتة التى لا تموت، بالنكتة الغائصة .. والتعبير حقيقى وليس مجازاً .. والسبب تلك النكتة التى غاصت بعد الحرب العالمية الأولى فى أعماق المحيط الأطلنطى، لتظهر فى الجانب الآخر منه فى قارة أخرى بعد جيل من الزمان .. ثم غاصت مرة أخرى بعد الحرب العالمية الثانية لتظهر على سواحلنا على البحر الأحمر، بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧، وكان ذلك بعد أكثر من (٢٠) سنة.. وفى خلال غوصها كانت النكتة تقلب اتجاهها، وتضع ضحية مكان ضحية أخرى.

قيل - فى أعقاب الحرب العالمية الأولى - إن إنجليزياً كان يستحم فى بحر "المانش" .. وكان يلبس "مايوهاً" استلفه من صديق أمريكى .. أما "فانلة الاستحمام" فكان مكتوباً عليها : "أمريكا كسبت الحرب" .. ونادى الأمريكى على صاحبه الإنجليزى محذراً إياه من سمك القرش، فأشار الإنجليزى إلى العبارة المكتوبة على صدره، قائلاً :

- ما تخافش .. مفيش سمك قرش يرضى ياكل من الكلام ده !

وبعد الحرب العالمية الأولى، غاصت النكتة فى بحر "المانش"، لكنها - فى أثناء الحرب العالمية الثانية - ظهرت على شاطىء ميامى فى الولايات المتحدة .. حيث كان أمريكى على وشك الاستحمام .. وكان يرتدى "فانلة" استعارها من صديق إنجليزى .. مكتوباً عليها "بريطانيا امبراطورية عظمى" .. فلما حذره من سمك القرش، كان رده أيضاً : "مفيش سمك قرش يأكل من الكلام ده".

وعلى سواحلنا بعد الهزيمة، خرجت النكتة نفسها من تحت الماء .. ففى الغردقة، كان شاب مصرى على وشك الاستحمام، وكان يرتدى "فانلة" مكتوباً عليها "حنحارب" ولما حذره زميله من سمك القرش، أعاد العبارة القديمة نفسها .. سمك القرش لا يأكل من هذا الكلام.

إنها نكتة عاشت من نصف قرن .. وقطعت بحار ومحيطات العالم .. وغيرت ضحيتها أكثر من مرة .. وتكلمت أكثر من لغة .. وأصابت أكثر من هدف.

"فالفانلة" التى خلعها الأمريكيون .. لبسها الإنجليز .. ثم المصريون .. فالهنود .. فاليهود.. فما دامت على مقاس الإنسان والزمان والحدث والمكان فما المانع.

ويعترف صلاح نصر بأن أعداء النظام الناصرى روجوا ضده الكثير من الشائعات العدائية فى شكل نكات بذيئة .. عملوا - بكل جهد - على نشرها بين الناس .. وهذا النوع يُسمى بالنكتة ذات المأرب .. "فبدلاً من أن يصرح الرجعى أو الانتهازى بأنه يكره النظام، يلجأ إلى رواية هذه النكات التى تعبر عن أمانيه الشريرة".

وبعد الاعتراف كان لابد من التحذير ... "إن كل مصرى حر يجب أن يضع فى ذهنه أن مثل هذا النوع من النكات لا يهدف إلى التسلية ولا إلى الضحك، إنما يحمل بين طياته رغبات العدو وأمانيه فى تفتيت عضد الجماعة، وبث الفرقة بين أبنائها، وهز الثقة فى قادتها".[1]

ربما ... قفز بنا الرأى والتحليل من عصر لم ننته منه إلى عصر لم نقترب منه .. لكننا .. نتحدث عن خطورة وأهمية وتأثير النكتة السياسية فى مصر .. أكثر من قراءة التاريخ قراءة ساخرة.

****

ينضم إلى وجهة نظر صلاح حافظ الكاتب الصحفى محمود عوض ... الذى يقول : إن الشعب المصرى اشتهر عنه أنه ابن نكتة، بصرف النظر عن السياسة .. أما النكتة السياسية فهى عند رجل الشارع نوع من التعليق على الأحداث الجارية، يقوله بصورة عفوية خالية من الخبث ونية الهدم.

ومن شدة حب المصريين للنكتة .. أطلقوها على أنفسهم .. ثم .. إن هذا الحب أدى فى فترات الصراع مع القوى الأجنبية أو الإقليمية إلى استثماره فى نكت معينة.. تتعمد السخرية من الأوضاع القائمة .. مثلاً .. نسبة كبيرة من النكت التى قيلت أيام جمال عبد الناصر، ثبت فى "المراجع العلمية" !! أن لها أصلاً فى دول أخرى .. رُوجت فيها بواسطة أجهزة "مخابرات" دولية ...

وحبنا للنكتة ينشطها وينشرها أكثر .. لكن .. حينما توجد مصلحة وراء ترويج نوع معين منها، تتحول النكتة فى أيدينا إلى خنجر لاغتيال بعض منا دون أن ندرى.

وحدث بعد حرب يونيو ١٩٦٧ .. لو نتذكر .. أن انفجرت فى الشارع المصرى .. فجأة

(١) صلاح نصر - مرجع سبقت الإشارة إليه.

وخلال أيام معدودة .. مجموعة من النكت تسخر من العسكرية المصرية .. ضباطاً وجنوداً ... لدرجة أن جمال عبد الناصر اضطر - فى خطاب علنى - أن يناشد الشعب كى ينتبه ... ويتوقف.

هنا ... فى مثل هذا الموقف لا نستطيع أن ننسب رواج كل هذه النكت (ذات الاتجاه الواحد، فى فترة زمنية محددة، وضد شريحة بعينها) إلى مجرد حب تلقائى للنكتة .. لابد أن تكون وراء ذلك مصالح أخرى.

ولا يربط محمود عوض بين النكتة والديكتاتورية ... فالشعب الأمريكى .. مثلاً.. يميل إلى المرح فى حياته، وتعجبه النكتة "الحراقة" .. مع أن المجتمع هناك مجتمع ديمقراطى.. والإنجليز ينكتون على الملكة والحكومة .. وهم أقدم شعب عرف الديمقراطية الحديثة .. وثلاثة أرباعهم يحبون الملكة، ويصرون على بقائها.. وإن كانوا يقولون إن الملكة والحكومة مثل "المايوه البكينى" لا لزوم له .. فما يعريه أكثر مما يغطيه.. وبالتحديد يقولون عن صاحبة الجلالة .. إنها مثل "صدر" الرجل.. مجرد رمز تاريخى.

يعنى.. "لا نستطيع أن نصل إلى نظرية عامة مطبقة بهذا الشأن .. ولابد من دراسة حالة كل نكتة على حدة .. وفى إطار الظروف المحيطة بها .. والأفضل أن تفعل ذلك مراكز الرأى العام أولاً بأول .. فالنكتة على الأقل إحدى وسائل قياس مزاج الناس واتجاهاته .. كما أنها أحد المؤشرات التى تساعد على جس نبض حالة الشعوب النفسية".

أما الكاتب الصحفى صلاح عيسى ... فيضع كل الآراء فى سلة واحدة .. إذ يقول :

إن النكتة السياسية تعبير عن توتر ما تجاه ظاهرة سياسية ما .. وتعبير عن رغبة سياسية فى إبداء رأى سافر فى موضوع جاد.

لكن ... لابد أن نضع فى اعتبارنا أنها منتشرة فى البلاد الديمقراطية .. وإن كان مذاقها هناك يختلف عن مذاقها فى البلاد الديكتاتورية .. أو فى البلاد التى بها تناقض بين الشعب والسلطة .. وفى الحالة الأخيرة تنفجر النكتة تعبيراً عن هذا التناقض.

لذلك .. فالنكتة السياسية تنتشر كلما ضاقت فرص التعبير عن الآراء السياسية.. ونحن فى مصر نعرف ذلك أكثر من غيرنا .. فنحن أقدم حضارة، وأول ديكتاتورية، وأسخن نكتة .. وفى فترات الانفراج الديمقراطى تختفى أو تتقلص النكتة السياسية .. والعكس صحيح .. ومن ثم نستطيع أن نقول إن الظروف اللاديمقراطية - خاصة المليئة بالتناقض والفساد - تساهم فى ازدهار النكتة السياسية .. ولعلعتها !

ولو كانت النكتة سلاحاً فى يد الشعب .. فإن هذا السلاح يمكن أن يكون فى يد غيره .. وهذا ما يفسر وجود النكتة والنكتة المضادة .. أو ما يفسر وجود نكت فى فترة ما لتحقيق أهداف سياسية بعينها .. مثل التى قيلت لتمجيد حاكم كان فى السلطة .. أو التى قيلت

لتحطيم خصومه .. لكن .. هذه النكت المصنوعة لا تعيش.. فالعمر الأطول للنكتة التلقائية التى تخرج من صلب الجماهير

****

من جديد عدنا إلى نفس النقطة ونفس الرأى .. الرأى الذى يصر على أن النكتة تقل كلما زادت الحرية .. فالحرية تنقل النكتة من الهمس إلى النشر .. ومن بعض الناس إلى كل الناس .. ومن القهاوى إلى الصحف والمجلات والمسارح وجلسات البرلمان.

وقد كان ذلك واضحاً بعد ثورة عام ١٩١٩ .. حيث قفز إلى دائرة الضوء الأخف دماً، والأسرع بديهة، والأقرب إلى صورة المصرى العادى .. فكان أن دخل التاريخ سيد درويش.. وبيرم التونسى ... ونجيب الريحانى .. وحسن فايق .. وبديعة مصابنى .. وعلى الكسار .. لقد أصبح هؤلاء نجوماً لأنهم تكلموا لغة الناس فى الحوارى .. ونكّتوا على المسرح مثل نكاتهم على النواصى .. وسخروا مثلهم من الباشا التركى "وش القملة" .. والسلطان المنفوخ مثل "الديك الرومى" .. و "جون بول" رمز الاحتلال البغيض.

إن الفشل السياسى للثورة عوضته حرية الصحافة .. وازدهار المسرح .. ومساواة المرأة بالرجل .. وفتح نوافذ وأبواب العقل أمام التفكير .. وانتشار الكاريكاتير.. أو النكتة السياسية المرسومة .. التى كان نشرها ملونة، على أغلفة، أشهر المجلات الساخرة نوعاً من القتال بسلاح النكتة نيابة عن الشعب .. أو كان سلاح الكاريكاتير أشد من سلاح النكتة اللفظية .. فالكاريكاتير صوت وصورة .. أو نكتة ورسم ... أما النكتة اللفظية فصوت فقط ..

والكاريكاتير فن مشاكس .. شرس .. تتحول خطوطه إلى أنياب .. وتعليقاته إلى أظافر.. وسخريته "اللاذعة إلى طلقات تصيب الرءوس الكبيرة بالذعر .. وتحطم حالات الوقار المرسومة على ملامحهم .. وهو لا ينجح إلا إذا كان مثل عيدان الكبريت .. تحرق البطش والفساد .. وإلا إذا كان مع الناس .. فالفن عندما يكون للناس فإنه يسعى إلى التغيير .. والتغير يعنى خلخلة الواقع وإزالة قشرة الوهم التى تغطيه حتى يظهر على حقيقته بدون مساحيق، ولا شعر مستعار، ولا صدر منفوخ بالبالونات التى يلعب بها الأطفال.

ويكاد يكون هناك شبه إجماع على أن الكاريكاتير وُلد بعد الثورة - أى ثورة ١٩١٩ - فمصطفى أمين، ويحيى حقى، ورخا، وزهدى قالوا ذلك ... وهو الشائع أيضاً .. ثم إنهم أجمعوا كذلك على أن الأجانب كانوا أول من رسموه .. مثل سانتيز وجنسيته أسباطالى.. أى أسبانى على إيطالى .. ومثل رفقى - التركى .. وصاروخان - الأرمنى .. وهذا - مع كل الاحترام والتقدير غير صحيح.

إنه خطأ شائع .. اقترب من مستوى الحقيقة التاريخية .. وقع فيه المؤرخون والصحفيون وفنانو الكاريكاتير ... أيضاً .. وقد عشت شهوراً بين الصحف والمجلات المصرية القديمة

فى دار الكتب، حتى وضعت يدى على البداية الصحيحة للكاريكاتير المصرى بمفهومه الحديث لا الفرعونى .. وعطست كثيراً من التراب .. ومن الأوراق الصفراء التى قاومت الزمن وكشفت الخطأ.

إن أول رسام كاريكاتير فى مصر كان مصرياً ... وكان ضابطاً فى الجيش برتبة الملازم أول .. ثم استقال فى سنة ١٩٠٧، ليتفرغ لإصدار مجلة "السياسة المصورة" على غرار المجلة الإنجليزية الكاريكاتيرية اللاذعة "بانش – Punch" . بل إنه جمع بين الاسم على هذا النحو "السياسة المصورة – CAIRO PUNCH".

اسمه عبد الحميد زكى .. لم يكن قد وصل إلى الثلاثين عندما ترك الجيش، وتنازل عن مكافأته ليصدر مجلة ويرسمها .. ولأن المطابع المصرية وقتذاك لم تكن لترضى رغباته فى إصدار المجلة بالألوان .. فإنه سافر إلى أوروبا، واتفق مع أحد أصحاب المطابع فى فيينا على طبع الجزء الملون من المجلة.

واتفق عبد الحميد زكى مع بعض أصدقائه فى مصر على تحرير الجزء العربى وطبعه فى القاهرة، وظل هو فى أوروبا يرسل إليهم القسم الخاص بالرسوم الملونة مطبوعاً هناك.

وكان صاحب الفكرة فى تلك الرسوم، وكان يرسمها بنفسه .. لكنه لم يكن يلونها.. وإنما كان يدفع بها إلى بعض الفنانين المساعدين لتلوينها وتجهيزها للمطبعة.

وكانت أفكار الرسوم جريئة .. وتنفيذها يتسم بالحركة .. وتعليقاتها ساخرة .. فمثلاً .. يرسم كاريكاتيراً لمعركة أو خناقة بين أجانب ومصريين .. فيها رصاص، وخناجر، وضحايا .. واستغاثة بالبوليس .. لكن البوليس مجرد خيال مآتة يرتدى بدلة شاويش .. أى أنه منظر .. لا يصد ولا يرد .. وهذا الكاريكاتير عمره حوالى (٨٢) سنة.

ومثلاً .. يرسم الدولة العثمانية وقت انحلالها، وكأنها ديك رومى كبير، يتألف ريشه من الإمارات البلقانية .. والدول الأوروبية تسعى إلى نتف هذا الريش .. فتأخذ إيطاليا ريشة.. والنمسا ريشة .. وبريطانيا وفرنسا أيضاً .. أما ألمانيا فإنها بساطور حاد مكتوب عليه "الأناضول" كسرت جناح الديك.

وفى رسم كاريكاتير كتب تحته "فساد الآداب العامة بمصر"، رسم فتاة تمشى فى الشارع وتحاصرها تعليقات فريق كامل من المعاكسين، يجلس بعضه على القهوة.. "مفيش كده أبداً لطف وإنسانية" .. "أنا عبدك ومحسوبك والنبى" .. "بونجور يا هانم" .. "أنا خلاص دبت فى هواك" ... ويرسم تحت كلمة "بار" شيخاً صامتاً.. ولا نعرف هل يشارك فى هذه الزفة أم أنه عاجز عن إيقافها ؟

وكانت إدارة المجلة فى القاهرة .. رغم أن صاحبها فى أوروبا .. وكان يشترك فى

تحريرها – صدق أو لا تصدق – حافظ إبراهيم .. جورجى زيدان .. حفنى ناصف .. عبد العزيز البشرى .. وكانوا وقتها تحت الثلاثين .. أما المجلة نفسها فكانت مكونة من أربع صفحات، اثنتين منها للرسم الملون .. واثنتين لنشر التعليقات السياسية اللاذعة.

وظلت المجلة تطبع فى فيينا إلى أن جاوزت العدد العشرين .. وكان رواجها فى مصر كفيلاً بأن تستمر .. إذ كانت تطبع نحو (١٢) ألف نسخة فى الأسبوع.

وبحثاً عن تكلفة طباعة أقل، أخذ عبد الحميد زكى ينتقل فى بلدان أوروبا، حتى استقر فى مدينة "كولون" الإيطالية .. حيث كانت تُطبع مجلة شبيهة تُسمى "البابا جالو" .. وهناك استأنف إصدار المجلة حتى سنة ١٩١٢، ثم قامت الحرب الإيطالية فى طرابلس.. فقابلته سيدة كان يسكن فى بيتها وأسرّت إليه أن زوجها – الذى يعمل فى البلدية – أخبرها بأن السلطات اشتبهت فيه وتظن أنه جاسوس تركى .. ثم نصحته بالرحيل قبل القبض عليه .. وبعد يومين هوجم منزله وفُتش فلم يعثر فيه على شىء يدينه .. ولكن الإقامة فى إيطاليا كانت قد أصبحت لا تطاق .. فشد رحاله عائداً إلى مصر .. حيث واصل إصدار الجريدة .. إلى أن قامت الحرب العالمية الأولى .. فمنعته السلطات من إصدارها.

وانسحب عبد الحميد زكى من الحياة .. ثم سقط سهواً أو عمداً من التاريخ .. فنسيناه.. أو أراد بعضهم ذلك .. ثم .. كان أن جاء الخواجات إلى الصحافة ليرسموا فيها الكاريكاتير .. فقلنا إنهم الأصل .. وإنهم الرواد .. فعقدة الخواجة تريحنا .. وتهدىء من متاعبنا النفسية .. وتحسم خلافاتنا القومية.

فلا سانتيز ورفقى وصاروخان كانوا أول من رسموا الكاريكاتير .. ولا كانوا أول من نشروه ملوناً .. ثم .. إنهم كانوا مثل ماكينات الرسم .. عليها تلقى الفكرة من جانب، لتخرج كاريكاتيراً من جانب آخر .. أما الأفكار فكانت لرؤساء التحرير مثل سليمان فوزى.. محمد التابعى .. ومصطفى أمين فيما بعد.

****

كان سانتيز رسام "الكشكول " التى سخرت من الوفد بجنون .. ومن حسن حظ صاحبها أنه عثر عليه .. فالتقطه واحتكره .. وحسب وصف يحيى حقى، فإن مسيو "سانتيز" .. يلبس قبعة سوداء ، لينة، وربطة عنق ذات جناحين متهدلين على صدره .. شأن الفنانين فى ذلك الزمن .. فقد برع هذا الرجل فى رسم صور كاريكارتيرية لرجالات الأحزاب ... ولما كان العهد عهد مواكب ووفود ومظاهرات فإن رسومه كانت تفيض على صفحتين، مزدحمة بالأشخاص .. وكانت الرسوم "على هيئة زفة العرسان.. ورأى الناس لأول مرة عضواً فى حزب الوفد يدق على طبلة، وآخر ينفخ فى مزمار، وثالثاً يقوم بترقيص العمود الفنطزية على جبهته .. وهكذا .. وهكذا". [٢]

(٢) يحيى حقى – المصدر السابق – ص ٩٩ .

وعلى غلاف "الكشكول" (العدد ٢٩٢) رسم سعد زغلول وعدلى يكن فى فراش واحد، تحت عنوان "نوم الرئيسين" .. أما التعليق فعلى لسان سعد باشا : "الساعة بقت كام يا باشا ؟ النهار طلع واحنا فاكرين إنه لسه بدرى".

وعلى غلاف (العدد ٢٦٩) حُورت عبارة دولة الرئيس التى كانت تطلق على سعد زغلول، إلى دولة "الرقيس" ..

وعلى غلاف (العدد ٣٢٤) رسم سعد زغلول بجواره فتاة ترمز إلى مصر، تقول له : مصر - نهارك سعيد، لما انت يا باشا داير تتفسح بين بساتين بركات ومسجد وصيف، عايز مجد الزعامة ييجى لك فين؛ هو فيه زعيم يهرب من المسئولية.

وعلى الغلاف الأخير (العدد ٢٨٥) حوار بين أمريكا وبريطانيا حول القطن المصرى:

جون بول : ليه يا عم سام مش عاوز القطن يرخص، دانت خليت المصريين كمان يقلدوك.

العم سام : اطلع يا أونطجى، أنت عاوز تبلع الدنيا.

وبجانب الوفد سخرت "الكشكول" من المشايخ غير المستنيرين .. والتعصب المتبادل بين المسلمين والأقباط .. ودخول مصر عصبة الأمم ... والإنجليز أحياناً.

ويبدو أن ازدهار الكاريكاتير على هذا النحو، جعل من لا يعرفون هذا النوع من الفن، يتصورون أنه نوع من التهزىء .. فكان لابد من التوضيح .. فكتبت "الكشكول" توضيحاً للقراء (ص ٢ - العدد الثالث) تحت عنوان "التصوير الهزلى" قالت فيه :

الظاهر أن كثيرين من سكان القرى والأرياف وعواصم المديريات لا يفهمون معنى التصوير الهزلى (الكاريكاتير) ويظنون أن تصوير أى شخص بغير صورته الطبيعية لا يقصد منه إلا التهزىء.

والتصوير الهزلى نوع من أنواع الكناية الهزلية والتهكمية وله منزلة كبيرة فى أوروبا والغرض منه أن يتسع مجال الصحف للمصور، ليصور الصفات البارزة فى أخلاق عظماء الرجال كما يصور مواقفهم مرتبكين، مضطربين، أو ثابتين، كما يتسع مجال الصحف للكاتب فى أن يكتب كما يشاء، وكما يسمح له خياله وشعوره.

والجرائد التى تصور تصويراً هزلياً فى أوروبا تتعمد وضع الصور الهزلية لملوكها ورؤساء حكوماتها وزعمائها ونوابها بالشكل الذى تظهر فيه مميزاتهم بارزة، وهى تضع أحياناً وجوه هؤلاء على أجسام كلاب أو أفيال أو قردة أو خيل أو... أو ... ومع أننا لم نتعرض لشىء من ذلك بعد نظراً لأن أنواق جمهور قرائنا لم ترتق للحد الذى تتسع فيه صدورهم لأن يكونوا كقراء الجرائد الأوروبية إلا أننا نريد أن يفهموا أننا لا نقصد بالصور الهزلية تهزىء أحد، وأننا نقصد تصوير المواقف بما يستلفت النظر ويكون موضع الاعتبار.

أما مجلة "خيال الظل" فقد وجدت أن من الأفضل شرح معنى كلمة كاريكاتير .. فقالت (العدد رقم ٥) ... إن "الأصل فى لفظ كاريكاتير، الكلمة الإيطالية كاريكار التى معناها تثقيل الحمل. ولسنا نبالغ فيما لهذه الرسوم من أثر فى النفوس، ميزتها الأولى، وغرضها الأسمى هو التسلية والعبرة والفكاهة والموعظة، وأما السخرية فقد وضعناها للقضاء على الرذائل واستهجان العادات الذميمة لا للتشهير بأشخاصنا الموقرين لغايات دنيئة، فالمجال واسع فى هذا التصوير (الهزلى) لترويح العالم من مشقات الحياة المرة على ألا نؤذى كرامتنا أو نتخذ من أنفسنا هزءاً أو سخرية".

****

كان سانتيز يعيش فى مصر .. ويبيع الأدوات المنزلية فى محل شهير بالعتبة .. ثم اكتشفه سليمان فوزى وحوله من بائع بوابير جاز إلى رسام كاريكاتير.

أما صاروخان .. فالقصة التى تُروى عنه على لسان مصطفى أمين، بعد وفاة صاروخان، تختلف عن القصة التى رواها محمد التابعى عنه ونشرها فى مجلة "آخر ساعة" فى سنة ١٩٥٠، تحت عنوان "استبداد رسام كاريكاتورى".

يقول مصطفى أمين :[٣]

- إنه تعرف على صاروخان فى عام ١٩٢٧ فى ورشة حفر الأرمنى بربريان .. وعرف منه أنه رسام مفلس .. ضحية شاب مصرى من المنصورة قابله فى فيينا وأوهمه أنه صاحب جريدة كبيرة فى مصر، واتفق معه على أن يعمل رساماً فى جريدته بمرتب كبير .. وصدق صاروخان وركب باخرة إلى الإسكندرية ونزل إلى الميناء ولم يجد أحداً فى استقباله وسأل عن "محمد" فضحك الناس وقالوا له : إن نصف سكان مصر اسمهم محمد، ومشى متسكعاً، مفلساً فى شوارع الإسكندرية إلى أن وجد مطعم فول مدمس يملكه أرمنى، ودخله وأكل مجاناً، ثم نام فى مقعد فى إحدى الحدائق .. ونجح فى أن يقترض أجرة القطار إلى القاهرة فى الدرجة الثالثة، ثم منها إلى المنصورة ليقابل "محمد"، وهناك اكتشف أنه طالب فاشل، فعاد إلى القاهرة ليتوسط له صديق لعمه كى يعمل مدرس رسم فى المعهد الفنى الأرمنى ببولاق، وفى النهاية عثر عليه التابعى.

ويكتب التابعى :

- كان تلميذاً فى مدرسة الفنون الجميلة بفيينا وكان عمره (٢٥) سنة، وكان شاباً جميلاً، وكان شعر رأسه طويلاً، وكان هذا الشعر محل إعجاب بنات فيينا.

كان عمه يرسل له كل شهرثلاثة جنيهات، يدفع منها جنيهين إيجار حجرته، ويأكل بالجنيه الباقى طوال الشهر .. وكان شغوفاً برسم الصور الكاريكاتيرية وكانت ريشته

---

(٣) سعيد أبو العنين: "رخا فارس الكاريكاتير" - ص١٠٩.

تسخر من كل وجه وتتلاعب بكل أنف وتهزأ من كل جسم .. ولكن ريشته لم تستطع أن تسخر من وجه فتاة واحدة رآها وأحبها ووعدها بالزواج فى اليوم الذى يصبح فيه مرتبه (٤٠) جنيهاً.

وفى فيينا اقترح زميله المصرى عبد القادر الشناوى (اسمه عبد القادر لا محمد) أن يسافر معه إلى مصر ويصدرا مجلة كاريكاتورية ! ووعده عبد القادر أن يدفع له (١٥) جنيهاً كل شهر بخلاف مصروفات النوم والطعام .. وسافر عبد القادر إلى مصر وأرسل إلى صاروخان (٢٥) جنيهاً أجرة الباخرة ووعده بالانتظار على رصيف ميناء الإسكندرية.. ووصلت الباخرة إلى الإسكندرية وكان صاروخان مطمئناً إلى أن صديقه فى انتظاره فى الميناء فراح يوزع ما فى جيبه على خدم الباخرة شأن أصحاب الملايين.

ولم يجد صديقه على الميناء، وسار فى شوارع الإسكندرية وفى جيبه بضعة قروش يبحث عن مخرج من هذا المأزق وعن طريقة يعود بها إلى مدينة فيينا.

كان فى ضيق شديد، وصعد الدم إلى وجهه وأسرع يصب الماء على رأسه فإذا بشعره الجميل يتساقط مع الماء وأصبح الشاب الجميل أصلع.

وأقرضه مدير شركة "مانتشوف" ثلاثة جنيهات .. واستقل القطار إلى القاهرة فى الدرجة الثالثة .. وأقام فى فندق حقير فى وجه البركة أمام إحدى مستعمرات البغايا.

وعثر صديقه عبد القادر عليه ونقله إلى حجرة فى فم الخليج وأصدر معه فى سنة ١٩٢٤ مجلة "الجريدة المصورة" لكنها أقفلت أبوابها بعد صدور عددين منها.

واختفى عبد القادر ! واضطر صاروخان أن يتسلل بملابسه من حجرة فم الخليج حتى لا يحجز عليها صاحب البيت .. واشتغل صاروخان مدرس رسم بمرتب خمسة جنيهات فى الشهر، ثم لمع اسمه كمصور كاريكاتير فى الأوساط الأرمنية، ثم قال له أحد أصدقائه إن موظفاً فى البرلمان يبحث عن مصور كاريكاتورى فلماذا لا تقابله ؟ ... وكان هذا الموظف هو محمد التابعى.

وقال التابعى لصاروخان : أريد أن ترسم لنا "كاريكاتوراً سياسياً".

فدهش صاروخان وقال : أنا أرسم نكتاً فقط، أما الكاريكاتور السياسى فلا.

وأقنعه التابعى أن يجرب .. فجرب .. فلمع اسمه فى روزاليوسف .. وبعد ذلك تلقى صاروخان الخطاب التالى : "إننى أراقب نجاحك وإننى سعيد لك ... ولكنى حزين على نفسى لأن الفتى الذى أحضرته لنفسى من مدينة فيينا أصبح غيرى يتمتع بثماره" .. ووقع الخطاب بعبد القادر الشناوى.

وهكذا أصبح صاروخان .. صاروخان.

وصاروخان اسمه بالكامل الكسندر صاروخان ولد فى أواخر القرن الماضى فى مدينة "باطوم" القوقازية على البحر الأسود .. وهاجرت أسرته إلى استنبول، وتعرضت لمذابح الأرمن على يد الأتراك .. فسافر إلى فيينا ودرس فيها الرسم عامين .. ثم كان ما كان !

وكان صاروخان يتقاضى (٥٠) قرشاً فى غلاف روز اليوسف .. ثم نجح فى انتزاع عرش الكاريكاتير من سانتيز .. وكان ذلك بعد نجاح شخصية "المصرى أفندى" التى كان يرسمها .. و "المصرى أفندى" كان يضع الطربوش على رأسه والسبحة فى يده وهموم الناس على لسانه وفى رأسه .. وظهر لأول مرة سنة ١٩٣٢ .. على صفحات روز اليوسف.. وأعتقد أنها كانت أشهر شخصية كاريكاتورية ظهرت فى صحفنا .. وكانت من اختراع فاطمة اليوسف.

وحدث أن نشرت روز اليوسف رسماً للمصرى أفندى وهو فى إناء كبير كالذى تستخدمه القبائل المتوحشة .. وتحت الإناء نار .. وعليه اسم حكومة محمد محمود باشا .. واستدعت النيابة صاروخان .. وسألته :

- تقصد إيه بالرسم ده ؟

- أنا مش أقصد حد.

- ومين اللى بينفخ النار ؟

- أنا موش يعرف.

- ومين صاحب فكرة الرسم ؟

- الست فاطمة اليوسف.

- وانت دورك إيه ؟

- أنا ماليش دور .. أنا رسمت اللى همّ عاوزينه .. وخلاص.

ومن روز اليوسف انتقل إلى آخر ساعة .. ومنها إلى أخبار اليوم ... وبالرغم من ذلك لم يستطع الحصول على الجنسية المصرية إلا بعد الستين !

****

ثم .. جاء رخا :

جاء فنان الكاريكاتير المصرى، طيب القلب، خفيف الدم، أجش الصوت، ممتلىء الجسم، قوى الذاكرة محمد عبد المنعم رخا .. الذى نعرفه - فقط - باسم رخا.

فى سنة ١٩٨٤، لم أصدق - رفيق مشوارى الصحفى فى مجلة روز اليوسف - فنان الكاريكاتير اللامع "جمعة" عندما قال لى : إنهم اختاروا رخا رئيساً لجمعية رسامى الكاريكاتير ... فلم أكن أتصور أنه على قيد الحياة فلا حس له ولا خبر عنه.

لقد اعتزل الكاريكاتير .. وانفرد بنفسه فى شقته بضاحية "مصر الجديدة" .. يدخن كثيراً .. ويأكل قليلاً .. يسجل ذكرياته أحياناً .. وينسخ أفلام السينما على شرائط الفيديو غالباً .. يستنشق ما تبقى من عطر الأيام القديمة فى ثياب وكلمات وسعال أصدقاء الزمن الذى مضى .. ولا يتمنى من الدنيا سوى أن يكتب قصة حياته مع النكتة المرسومة.

كان قد أضرب عن الرسم .. بعد أن أيقن أنه لا فن بالإكراه .. ولا دور لفنان فى المجتمع بالإكراه .. وبعد أن فقد بصره ولياقته، ولم يستعد ما فقد بمشرط الجراح، ثم إن سمعه قد ثقل أيضاً، وجسمه كذلك .. لكن .. هذا لم يحدث لدمه ولا لظله .. فقد بقيا مثل الريشة .. ولو كان قد فقد روحه المرحة لكان قد مات منذ وقت طويل.. وما كان عمره قد اقترب من الثمانين.

إن موهبة السخرية التى تمتع بها كانت السلطة العليا التى تحكمه .. كانت قرص الدواء الذى قاوم به هزيمة الشيخوخة .. وكانت قطعة الحلوى التى يقدمها لضيوفه، وهو يحكى - باستمتاع - لقطات خاطفة من حياته .. وقد زرته فى بيته أكثر من مرة .. وتذوقت بشهية مفتوحة هذه الحلوى .. وشاركنى فيها مبدعون كبار، علمونا التواضع قبل الفن .. ومدوا بيسر جسور الخبرة بين جيلهم وأجيالنا.. عبد السلام الشريف .. زهدى .. عدلى فهيم .. مثلاً.

ومع أنه لم يكن أول من رسم الكاريكاتير .. فإنه كان أول من أممه ومصَّره بعد أن سيطر الخواجات عليه .. ومن ثم .. فهو مؤسس مدرسة "المشاغبين" - أو مدرسة الكاريكاتير فى بلادنا - وكان هو ناظرها، وعمدتها، ومدرسها، وفراشها، والبواب الذى يقف على بابها .. وقد كبرت المدرسة الآن حتى أصبحت جامعة .. وعندما اطمأن رخا إلى أنها لم تعد فى حاجة إليه .. مات .. بالضبط مات.

وفى ثانى أيام شهر رمضان ١٩٨٩، وعند لحظة أذان المغرب .. صرخ بأعلى صوته : "يارب" ... كانت أبواب السماء مفتوحة .. فاستجابت لندائه .. وفاضت روحه .. وصعدت.. ومدافع الإفطار تودعه، وملايين من البشر يقرأون الشهادة فى لحظة واحدة.

صباح اليوم التالى رأيت الحزن فى عيون من أعرفهم من رسامى الكاريكاتير ... إنهم - على غير ما نتصور - أسرع خلق الله استقبالاً للحزن !

وفى ذلك اليوم، طلبت منى القناة الثانية للتليفزيون أن أعد برنامجاً عن رخا .. ناظر مدرسة المشاغبين .. وكان أن عدت إلى أوراقى وتسجيلاتى .. ثم دعوت مصطفى أمين،

وحافظ محمود، ورسامى الكاريكاتير : زهدى، وجمعه، وطوغان، ومحسن، ومصطفى حسين للحديث عنه .. وظهرت أسرته ورسوماته أيضاً.(٤)

ومن هذه الرسومات، لوحة عمرها أكثر من (٦٥) سنة ... تصور فتاة مثل قطعة الزبد الغارقة فى عسل النحل .. معجونة بثلاثة أرباع أنوثة الكرة الأرضية .. تكاد تصعق من ينظر إليها .. تحاول أن تتملص من أصابع شاب يُمسك بها .. غُرزت فى لحمها .. وهى تقول :

- سيبنى أحسن ماما تشوفنى.

لكنه .. رد عليها :

- قولى لها ده أخويا !

وصورة أخرى على شاطىء البحر .. حيث العرى .. والبكينى .. والثرثرة .. قالت امرأة لأخرى : أنا وجوزى اتفقنا على طريقة لمنع الخناق .. الصبح أنا أعمل زى ما أنا عاوزه .. والعصر هو يعمل زى ما أنا عاوزه.

وصورة لزوج يرد على التليفون، وبجواره زوجته المثيرة، ويقول : مافيش حد عندنا اسمه سوسو .. أنا اسمى نجيب ومراتى اسمها سعاد.

وعم رخا - كما كنا نناديه - وُلد فى سنة ١٩١١، فى قرية سنديون .. بالقليوبية .. على مشارف القاهرة .. والده كان قاضياً شرعياً .. لكنه مات قبل أن يتعرف عليه. فقد كان عمره سنة ونصفاً فقط .. بعد الحرب العالمية الأولى أرسلوه إلى القاهرة ليتعلم .. دخل مدرسة باب الشعرية الابتدائية .. وحتى مات كان لايزال يتذكر مأمون أفندى مدرس الرسم فيها الذى كان يؤمن بأنه "مافيش فنان مصرى بطبعه أبداً" .. فأغاظه ذلك .. فكان أن حاول أن يرسم .. والمدهش أنه نجح.

وأتذكر أنه قال لى إنه كان يشاهد - فى صباه - الكاريكاتير الذى تنشره مجلة "اللطائف"، وتنقله عن صحف إنجليزية .. وكان الكاريكاتير يسخر من إمبراطور ألمانيا "غليوم" الذى كان يثير الرعب .. "فاستهوانى أن أراه وقد مسح به الكاريكاتير البلاط .. وأدركت أن هذا الفن أقوى من أية قوة خارقة أو باطشة على الأرض .. فوقعت فى هواه .. وشدنى هذا السحر الذى بدا وقتها أقرب لرسوم الأحجبة والشعوذة".

أصابه مس الكاريكاتير، فقرر - مع اثنين من زملاء المدرسة الابتدائية - أن يهربوا إلى إيطاليا .. ليدرسوا الفن هناك بعيداً عن تزمت المجتمع المصرى الذى كان لا يفرق كثيراً بين الفنان والصعلوك .. لكنه .. لم يجرؤ على المغامرة .. وترك زميليه يحاولان

---

(٤) قدم البرنامج راوية راشد وأخرجه سليمان خليل.

فكان أن أمسكوا بهما مثل الفئران الصغيرة فى ميناء الإسكندرية.

وفى سن المراهقة ترك رخا الدراسة .. "واندفعت للحياة .. وأنا لا أعرف عنها سوى ما يعرفه صبى عمره ١٥ سنة" .. ولأن الرسامين الخواجات كانوا يتقاضون الكثير.. وجد رخا فرصته فى المجلات التى تريد الكاريكاتير ولا تقدر على مهره.. وهكذا .. راح يرسم.. ويرسم .. وراحت مجلات كثيرة تنشر رسوماته فى وقت واحد .. المسرح .. الناقد .. أبو الهول .. الصباح .. ألف صنف .. الستار .. المستقبل .. المشهور .. روز اليوسف.

كان يرسم بقروش قليلة أحياناً .. ومقابل كوب شاى أحياناً .. ومجاناً غالباً .. وهو لم ينكر أنه عاش مفلساً .. ونام أكثر من ليلة جائعاً .. وباع الأرض التى ورثها عن والده ليطعم أسرته، خاصة بعد أن تزوج وعمره (١٩) سنة .. كان كل ما يهمه أن يرسم .. وقد قال لى : "إن الإبداع موهبة .. لكنه أيضاً اجتهاد ودأب وعمل متواصل" .. إنه نفس قانون البقاء والتطور الذى عرفه سيد درويش، ومختار، ونجيب محفوظ، والعقاد، ومصطفى أمين، وإحسان عبد القدوس، ونزارقبانى، وحسن فؤاد، وفؤاد حداد، وصلاح حافظ، وصلاح عبد الصبور.

فى سنة ١٩٣٣، سُجن رخا - لمدة (٤١) شهراً - بتهمة العيب فى الذات الملكية .. أى فى ذات الملك فؤاد .. كان أول ريشة ساخرة، ساخنة تُعاقب بالحبس على نكتة مرسومة .. وفى السجن عاملوه باحترام ... "ليس لكونى فناناً وإنما لأنى كنت الخطاط الذى يكتب لهم اللافتات واليفط" .. وتعلم رخا من الحبس قيمة الحرية .. وأدرك بوضوح أن الكاريكاتير فن غاضب متمرس، يتنفس ديمقراطية .. لا يقبل الحياد .. ولا أنصاف المحاربين .. ويرفض الذين لا يفرقون بين الرأى والبوفتيك.. ولا بين المعارضة والمسقعة.

فى سنة ١٩٤٢، كان مصطفى النحاس فى الحكم .. ومصطفى أمين فى مجلة "الاثنين" ومعه رخا .. لقد جاء الوفد على مواسير الدبابات التى حاصرت قصر عابدين، فيما يعرف بحادث (٤) فبراير .. ووصف مصطفى أمين تلك الفترة بأنها "عصر الظلام السياسى فى مصر" .. فكان أن قرر رئيس الوزراء أن يتحول - لأول مرة - إلى رقيب .. يقول سامى عزيز : "إن مجلة "الاثنين" تحايلت على الرقابة .. وعلمت القراء أن يقرأوا ما بين الكلمات .. وأحياناً ما بين الحروف" .. "فإن مصطفى أمين مثلا لا يستطيع أن يقول إن الذين يؤيدون الحكومة "حمير" .. والذين يرضون بالحكم العرفى "حمير" .. والذين يسكتون على المحسوبيات "حمير" .. ولكنه ابتكر مع الرسام رخا شخصية اسمها "حمار أفندى" .. يظهر على صفحات "الاثنين" وهو يعلن أن الحال عال وأن كل شىء على مايرام وأن الغلاء غير موجود وأن العدل والإنصاف يشملان جميع الطبقات".(٥)

وفى تلك الفترة وُلدت شخصية ابن البلد .. وبقية شخصيات رخا.

---

(٥) ثورة في الصحافة - القاهرة - ص ٧.

ويقول مصطفى أمين :

- إن من يدقق فى صورة رخا سيجد أنه يرسم نفسه .. "فهو يشعر دائماً بالإحساس الذى ينتابه فيجد أصابعه - بغير شعور - تسطر جزءاً من نفسيته .. فوطنية ابن البلد تعبر حقيقة عن تعصب رخا لبلاده، وحمار أفندى يشبه رخا فى تصلبه فى رأيه وعدم قبوله للرأى الجديد بسهولة. وهو فى شخص حمار أفندى يهزأ بماضيه هو عندما كان يؤمن بالأشخاص لا بالمبادىء، ويعبد الأصنام، ويرفض أن يؤمن بالحقائق .. وهو فى سكران باشا طينة و الوفدى أفندى .. بل حتى فى السبع أفندى زوج رفيعة هانم، يمس مساً خفيفاً نواحى من حياته وشعوره فى ماضيه وحاضره ومستقبله".

لكن .. رخا يقول : "إن هؤلاء هم أفراد أسرتى الحقيقية .. الذين عاشوا معى النجاح.. وتقاعدوا معى .. وأصبحوا جزءاً من الماضى .. مثلى".

ومنذ أن صدرت "أخبار اليوم" وحتى مات رخا وهو ينتمى إليها .. وعنها صدر له فى يوليو سنة ١٩٤٦ كتابه الوحيد "صور ضاحكة" .. وكان أول كتاب كاريكاتير فى مصر .. وفى مقدمة الكتاب لخص فلسفته، فقال : هذه المجموعة تحمل اسماً زائفاً كله تمويه .. فإن من يقلب صفحاته لن يجد بها صوراً ضاحكة ولكنه يجد صوراً حزينة لعيوبنا الاجتماعية.. صوراً جازعة لخلافاتنا السياسية ... صوراً باكية لأخلاقنا المريضة .. فلماذا إذن أسميتها "صوراً ضاحكة" ... "الواقع أن الناس قد اعتادوا أن يفهموا الكاريكاتير على أنه تهريج والمصور الكاريكاتورى على أنه مهرج يمنحهم السرور والابتسام .. وقد يكون المهرج حزين النفس، دامع العين ... لكنه يرسم ابتسامة على شفتيه .. ويضع طرطوراً على رأسه لكى يواجه الجماهير فى صورة تبعث على السرور وعلى الإغراق فى الضحك ... فهذه التسمية .. "صور ضاحكة" هى الابتسامة التى ترسم خطوط الماكياج .. وهى الطرطور الذى يعلو رأس المهرج الحزين لكى يبدو أمام الناس كما يريدونه هم .. لا كما هو فى الواقع".

وفى الكتاب بورتريه لمحمد محمود خليل .. صاحب اللوحات والمتحف المعروف باسمه الآن، يبدو فيه وهو يمد يده متسولاً .. أما التعليق فهو : الرجل الذى يملك الملايين ويبدو شحاتاً "وزارة لله .. رئاسة مجلس شيوخ لله ... عضوية شركة لله .. رتبة لله " .. وقد همس "أولاد الحلال" بالغضب للرجل .. لكنهم .. تصوروا أن الكتاب لصاروخان لا لرخا، فرفع قضية تعويض ضد صاروخان .. وأمام المحكمة اكتشف الخطأ .. لكنه كان قد هدأ .. فلم يعد رفعها ضد رخا.

وفى الكتاب سخرية من حول عينى مصطفى النحاس، ورأى رخا الساخر أن سر هذا الحول نظرة النحاس إلى الزعامة المقدسة بعين، وفى اتجاه، يختلف عن اتجاه العين الأخرى التى ينظر بها إلى مصالحه الخاصة .. وهناك كاريكاتير بارع يصور مصطفى النحاس على شكل عبارة "٤ فبراير" ويحاصر الرسم ببرواز من الدبابات .. وكان هذا هو

الحل الوحيد لتلافى الرقابة التى فرضت على الموضوع .. فما الذى فعله أكثر من أنه رسم النحاس وهو يتلوى مع منحنيات عبارة "٤ فبراير" ؟.

ومع أن الكتاب صدر سنة ١٩٤٦ فإن موضوعات رسوماته لم تبرد بعد .. و المشكلات التى يتعرض لها لم تحل بعد .. الصهيونية .. العدالة الاجتماعية .. رغيف العيش.. الفقر .. التجار .. اللصوص الذين ينهبون قوت الشعب .. الغلاء .. معاناة الموظفين .. المهاترات الحزبية .. كثرة النسل .. مطامع الدول الكبرى .. فلسطين.. الوحدة العربية .. إلخ .. أى أن الحكام تغيروا والنظم والسياسات والتحالفات مع الدول العظمى .. وبقيت متاعبنا كما هى !

فهو يرسم "على بابا" وأمامه قدور الزيت يختبىء فيها الأربعون حرامى، ويكتب على القدور أسماء تجار اللحمة والدقيق والأرز والزيت والسكر ... إلخ.

ويرسم موظفاً على هيئة تمثال ويكتب على قاعدته "بطل الساعة" .. أما تعليقه فكان : "الموظف الذى يعيش بمرتبه هذه الأيام".

ويرسم أصحاب الملايين وهم يقولون : "فين الفقر ده اللى بيقولوا عليه".

ولو كانت عجائب الدنيا سبعاً .. فإن العجيبة الثامنة عنده ... "صورة موظف فات عليه يوم خمسة وما استلفش".

وحتى الآن لا أزال أتذكر أننى وعدت عم "رخا" بأن أحضر له حزماً من عيدان النعناع الأخضر التى كان يضعها فى الشاى .. وأعترف بأنى كنت حسن الظن بالموت .. فلم أعتقد أنه سيكون أسرع منى، ومن نعناعى الأخضر.

مات رخا .. وله فى رقبتى حزم من النعناع الأخضر ... ولأننى عجزت عن توصيلها له، فقد وضعتها على قبره !

****

من بين تراث رخا مجلة ساخرة لم تعش طويلاً، اسمها "اشمعنى" أصدرها سنة ١٩٣٠.. وفى السنة نفسها أصدر مصطفى أمين مجلة "زقزوق وظريفة" .. وفى السنة التالية أصدر سانتيز "جحا" .. وأصدر محمود عزت المفتى "الراديو والبعكوكة" .. وأصدر محمد توفيق فهمى "لا مؤاخذة" .. وأصدر أحمد عبد الحليم العسكرى، وابراهيم فايز "الوطواط" .. لكن .. الكثير من هذه المجلات والمجلات الساخرة الأخرى التى سبقتها لم تعش مستريحة .. وبعضها مات بالسكتة القلبية .. أو السكتة البوليسية.

كان إسماعيل صدقى فى الحكم .. وكان ديكتاتوراً، باطشاً، وكان مصاباً بعقدة نفسية من المجتمع .. فقبل سنوات ضُبطت فى عوامته على النيل زوجة رجل مهم، كانت معه عارية فى الفراش .. وأمام الفضيحة انتحرت .. أما هو فقد أحس بالغيظ .. وحتى

مات كان يدارى إحساسه بالعار .. بمزيد من القسوة .. وكان عصره هو عصر تعطيل الصحف .. وإغلاقها .. وكان بعضها يعاود الظهور بأسماء أخرى.

فعندما عطل - على سبيل المثال - روز اليوسف، أصدرها التابعى فى ٩ سبتمبر ١٩٣٠ باسم البرق .. عُطلت نهائياً بعد العدد الأول .. وفى يوم ٢٣ سبتمبر (بعد أسبوعين) أصدر التابعى مجلة "مصر الحرة"، عطلها إسماعيل صدقى فى نفس اليوم .. فصدرت مجلة "الربيع" .. وكتب التابعى فى صدرها كلمة ساخرة بعنوان "تعطيل مجلة الربيع" .. قال فيها :

رغبة منا فى إراحة صاحب الدولة، وزير الداخلية من جهد الإنشاء والتحرير، رأينا أن نقدم لدولته مسودة جاهزة لقرار تعطيل هذه المجلة، لا ينقصها سوى الإمضاء ...

"نحن وزير الداخلية ...

عملاً بالحق المخول من مجلس الوزراء وبناء على التقرير المقدم لنا من ابن أختنا صاحب العزة مدير إدارة الأمن العام بالنيابة ...

أولاً - قررنا تعطيل مجلة الربيع المتسترة وراءها مجلة روز اليوسف.

ثانياً - على زميل الهنا محافظ العاصمة تنفيذ هذا القرار".

(إسماعيل صدقى)

وصدر العدد الأول من "الربيع" فى ٣٠ سبتمبر ١٩٣٠، وفى اليوم نفسه صدر قرار تعطيلها .. وفى ٧ أكتوبر .. أى بعد أسبوع واحد أصبحت مجلة "الربيع" مجلة "صدى الشرق" .. كتب التابعى فى افتتاحيتها .. "اللى اختشوا" .. "هذه المجلة تصدر بدلاً من روز اليوسف ... عطلها بأه" .. وفعلاً عطلها إسماعيل صدقى فى اليوم الذى صدرت فيه.[٦]

ولم يكن حظ المسرح السياسى الساخر أفضل ... ففى سنة ١٩٣٧، وكان مصطفى النحاس فى الحكم، قُدمت مسرحية ساخرة بعنوان "الأستاذ كيكا" .. تدور حول تصرفات حزب الوفد .. كتبها الصحفى عزيز أحمد فهمى. وأخرجها عزيز عيد الذى مثل فيها دور مصطفى النحاس، ومثل الفنان مختار عثمان دور مكرم عبيد وكان لا يزال سكرتير الحزب .. ونجح المؤلف من خلال حوار زاخر بالنكت المباشرة فى أن يُضحك الجمهور بشدة .. وشبع المتفرجون ضحكاً .. لكن .. الداخلية أوعزت لبعض المخبرين والبلطجية بمهاجمة الممثلين، وتحطيم المسرح .. وكان أن أسدلوا الستار نهائياً.

ولم يبق من المسرح السياسى إلا الحطام .. ولم يبق من الصحف إلا ما وصفه بيرم التونسى بعبارة "آهى جرايد" ... والعبارة عنوان قصيدة .. لم تنشر إلا فيما بعد.. "سبع

(٦) سامى عزيز - المصدر السابق - ص ٤٢ - ٤٣.

جرايد أقوم الصبح أقراها .. طمست بصيرتى وضاع العقل وياها .. الأوله حشوها تشليق وسفاهه .. والثانية توضيب وروتوغراف ووجاهه .. وجنب دى الزخرفة أخبار وسمعناها .. والتالته طالعه لنا تلعن سنسفيل (طه) .. والرابعة تنشر مقالات وتتباهى .. والخامسة بتقول على أرتيست محلاها .. والسادسة بتحط فيها ٦٠٠ عاهه .. والسابعة أهى إعلانات الحجز ملياها ... أهى جرايد من القوت اشتريناها ... ولما زاد الورق بالوقة بعناها".(٧)

وهكذا .. راحت حرية التعبير تنكمش ... وتنكمش ... وفى الوقت نفسه بدأت النكتة تخرج من الكهف بعد طول رقاد .. وأسرعت تنفض التراب والكسل والصمت عن نفسها.. ثم اندفعت بكل قوتها فى اتجاه عيوب وثغرات الرءوس الكبيرة ... فساد الملك فؤاد ... استغفال الملكة نازلى له ... وعيشها على حل شعرها.. ضعف مصطفى النحاس تجاه زوجته الشابة الصغيرة زينب الوكيل ... وعشق إسماعيل صدقى للدم .. وتلذذه بالمرأة بعد أن تضربه وتهينه .. فهو يستمتع بالتعذيب على الوجهين .. تعذيبه للرأى العام .. وتعذيب النساء له.

ويبدو أن طول الكبت جعل النكتة فى ذلك الوقت منفلتة العيار .. لا تراعى أية حرمات .. وما جمعناه من نكت عن هذه الشخصيات من المستحيل نشره .. وإن كان من الممكن تخيله.

إنها نكت تتعامل مع حجرات نوم هؤلاء الحكام، كأنها حجرات بلا جدران .. أو حجرات جدرانها من زجاج .. أو كأن الناس التى أطلقت هذه النكت، كانت تملك طاقية الإخفاء.. فقد دخلت فراش "دولة الرئيس" واندست بينه وبين زوجته، وسمعت ما تقوله له، ثم خرجت لتحول الكلام إلى نكتة .. وفعلت الشىء نفسه مع "جلالة الملك" الذى يتسلل ليلاً ليدخل حجرة نوم إحدى وصيفات زوجته .. ولأن جلالته تثيره الرائحة النفاذة، فإن الوصيفة كانت تدهن جسمها بالثوم والبصل.. وتمرمغه فى البلاط.

لقد مزجت النكتة – فى تلك الأيام – بين السلطة والجنس والحرام والحلال .. فحولت فؤاد إلى "ملك كوتشينة" .. وحولت الحكومة إلى "حلة طبيخ" .. وحولت المشايخ إلى "خواجات" .. ووصفت العلاقة بين القصر ومصطفى النحاس بأنها فى حاجة إلى محلل...

ولأول مرة فى تاريخ مصر .. بدأت تقارير الأمن ترصد النكتة السياسية التى يقولها الشارع ... وبالتحديد كان ذلك فى بداية عام ١٩٣٩ .. الوثائق البريطانية تقول ذلك، ومحمد التابعى فى مذكراته عن أحمد حسنين باشا أيضاً .. كان العالم على أبواب الحرب العالمية الثانية .. وكانت إنجلترا تريد أن تعرف اتجاه الريح .. فرصدت شعبية الوفد .. وأنواع المخدرات .. وكمية النكتة المتداولة .. فهل كانت تريد أن تحكم بالوفد،

(٧) الجزء الرابع من الأعمال الكاملة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ص ١٢١.

وتسيطر بالمخدرات، وتقيس مدى المعارضة بالنكات!

****

واشتعلت الحرب العالمية الثانية .. واكتوت مصر بنيران قنابلها .. وسيطرت حالة من الخوف الممزوج بالتوتر والترقب على المصريين .. وحاولت المجلات الشهيرة أن تخفف من شدة هذه الحالة، فأفرطت فى نشر صور فاتنات السينما والإغراء .. ولم تتوقف عن إصدار أعداد خاصة عن النكتة والحرب، بدعوى الترفيه عن القراء، كما قالت مجلة "الاثنين" على غلاف عددها رقم (٣٢٣) الصادر يوم ١٩ أغسطس ١٩٤٠ ... "ولم لا ؟ ألم يقل أجدادنا "اضربوا الدنيا ستين طبنجة" فكيف لا نضربها نحن ستين ألفاً"... هكذا أضافت المجلة.

واقترح نجيب الريحانى على القراء أن يبتعدوا عن "مجالسة فلاسفة السياسة الذين لا يفهمون فيها أكثر مما أفهمه أنا من لغة آكلى البراغيث .. ولا يعرفون من شأنها أكثر مما تعرفه أنت من رطانة عمك "عثمان" البواب لما يتحمق فى مناقشاته مع مواطنيه الأعزاء".

وقال الساخر حسين شفيق المصرى إنه لكى ينسى الناس الحرب عليهم أن يتخلصوا من الجرائد التى تنشر أخبارها، ويبيعوها ، وبثمنها يشترون "ويسكى" وكونياك بكميات هائلة توزع على محررى هذه الصحف حتى يعكفوا على السكر واللهو فتتعطل الصحف".

وبعد أقل من شهر أصدرت "الاثنين" عدداً آخر .. عنوانه "اضحك برغم الحرب" ... نشرت على صفحاته نكت الظرفاء مثل د. إبراهيم ناجى .. وأم كلثوم .. وأحمد رامى .. وحسين الترزى.

فقيل إن الدكتور إبراهيم ناجى كان يسير فى الشارع فرأى رجلاً أنيقاً تصور أنه أحد زبائنه القدماء، فاستوقفه قائلاً :

– إزيك، سلامات، فين الغيبة الطويلة دى من زمان يا محمد بيه ؟

– لكن ...

– آه صحتك أحسن والحمد لله، بس شكلك تغير وسمنت كتير واسمريت.

– لكن أنا مش محمد بيه.

– الله ! وكمان اسمك اتغير يا محمد بيه !

وقيل إن أم كلثوم لاحظت على الملحن المعروف محمد القصبجى أنه يكثر من صبغ شعر رأسه، حتى يندر أن يمضى يوم لا يصبغه فيه، وذات ليلة أغفل تجديد الصبغة، فبدا شعر رأسه باهتاً لا لمعة فيه، فقالت له :

- يا أخى ريح راسك شويه م الصبغة دى بقت مدموغة زى الختامة القديمة !

وقيل إن الشاعر أحمد رامى دُعى إلى وليمة عند صديق، فلاحظ أن ضابطاً يجلس على يساره يفتك بالطعام، فسأل صديقه الجالس على يمينه :

- الضابط ده رتبته إيه ؟

- بتاج ونجمة.

- أنا كنت فاكر كده، لكن اتضح لى دلوقت إنه بتاج ومعدة !

وعلى صفحات العدد نفسه، نشرت نوادر رجال السياسة .. حكام ذلك الزمان.

فقيل إن على ماهر كان يزور السودان، وبعد جولة مرهقة جلس يستريح، فدخل عليه أحد زعماء السودان، الذى جلس يرحب ويثنى على جهود على ماهر، الذى رأى أن يجامله، فقال له :

- صحتك كويسة والحمد لله.

- بس عندى أملاح يا باشا.

- عال .. عال .. علشان تبقى سودانى ومملح.

وقيل إن محمد باشا كان يحب النكتة ويجيد القفشة .. وكان يتردد على منزل شيخ يدعى العلم ولكنه غير عالم، وفى أحد الأيام جاء الشيخ لزيارته وجلس بجواره، فاشتم منه الباشا رائحة واضحة، فضحك، ثم قال :

- دول بيقولوا "الشيخ شريب الشاى" وانت عاوزهم يسموك "الشيخ شريب الويسكى" يا أستاذ .. ولا إيه ؟

وقالت "الاثنين" إن مصطفى النحاس لو جُند فى الجيش لأصبح واعظاً للجنود .. أما محمد محمود فسيطبخ الطعام لزملائه الجنود .. وسيضاعف الجندى إسماعيل صدقى من مساحات الأسلاك الشائكة ... ولن يصلح مكرم عبيد إلا للعزف فى الموسيقى العسكرية.

وأعلنت المجلة عن جوائز للقراء الذين يرسلون لها ألطف نكت عن الحرب ... وفى أقل من أسبوع كان عندها (٩٦٠) نكتة .. لم تكن خفيفة الظل على ما يبدو .. بسبب شدة الغارات .. فالنكتة الأولى تصور فتاة تحمل زجاجة شربات، ستتبرع بها إلى أحد المستشفيات .. فقال لها الطبيب :

- لكن المطلوب يا آنسة إنك تتطوعى بشويّة من دمك مش بشويّة شربات.

فقالت :

- الدكتور اللى ساكن قدامنا أكد لى إن دمى شربات.

أما النكتة الثانية ...

المسطول الأول : بيقولوا الحرب على الأبواب.

المسطول الثانى - ولا تصدق، أمال ما هيش على بابنا ليه ؟

والنكتة الثالثة ...

انطلقت صفارة الإنذار وجمهور من الناس يشيعون جنازة ميت فتركوا النعش وهرعوا إلى المخبأ، فاغتاظ المرحوم منهم وأطل عليهم قائلاً :

- الحق علّى اللى ماشى مع عيال !... ولا تعليق على هذه النكتة !

****

لكن ... الظاهرة المثيرة للدهشة أن مجالس النكتة انتشرت فى القاهرة أثناء الحرب .. وقد سميت هذه المجالس، بصالونات الظرفاء ... وكان أشهرها صالون أنطون الجميل رئيس تحرير الأهرام الذى كان يضم وزراء وجنرالات وأدباء .. أبرزهم عبد الرحمن عزام .. محمد محمود خليل .. على ماهر .. إبراهيم عبد الهادى .. د. محمود عزمى.. توفيق دياب .. حفنى محمود ... على أمين .. كامل الشناوى.

وكان الصالون يقدم الطعام والقهوة والبسبوسة مجاناً .. لكنه كان يشترط على أعضائه أن يتركوا حزبيتهم على الباب، وبجوارها ألقابهم ومناصبهم - وأن ينسوا كل ما يقال داخل الصالون ويعتبروه من الأسرار التى لا يجوز إذاعتها أبداً.

إن شعار هذا الصالون .. وغيره .. كان "النكتة فوق الجميع".

وفى "كافيه دى لابيه" .. وفندق "الكونتننتال" كان يعقد كل ليلة مجلس "البعكوكة" .. الذى كان يشترط نفس الشروط، مع إضافة شرط آخر، هام، هو دفع الحساب .. "فلا حزبية ولا بهوية وإنما دفع ثمن المهلبية" .. وكان أبرز الأعضاء أحمد زيور باشا .. وحافظ رمضان باشا .. أما الأعضاء فكانوا من كل الأحزاب والرتب والأديان .. وقد يجلس أحد الأعضاء، فلا يلبث أن ينام، فإذا ارتفع شخيره، وحاول الآخرون إسكاته، تدخل الرئيس قائلاً : "لا تقلقوه فلابد للبعكوكة ممن يمثل فيها طائفة النوام" !

والرئيس كان يُختار بالانتخاب الحر المباشر ... كذلك وكيله العام.

وكان من تقاليد المجلس ألا يزيد عمر العضو فيه عن الأربعين .. ثم اتُّخذ قرار بالإجماع،

باعتبار كل عضو فيه - مهما كان - فى الأربعين من عمره .. وكان أكثر الأعضاء سعادة، رئيس البعكوكة محمد وحيد الأيوبى، الذى تجاوز الستين .. وبمناسبة هذا القرار نشرت الصحف صورته .. وقد سمح لمصورى الصحف بالتقاطها بعد تمنع شديد، واحتفظ بحقه فى تكذيبها إذا لم تكن على ما يرام.

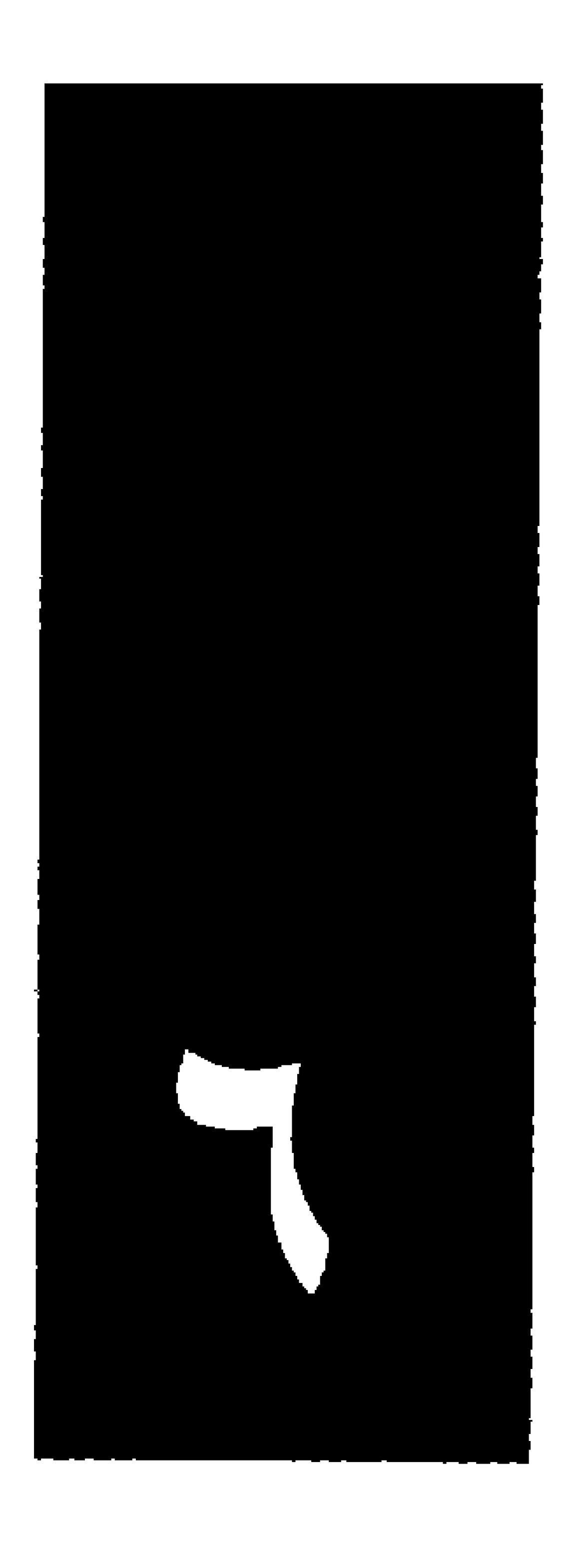
ومساء كل يوم خميس كان يعقد فى رابطة الإصلاح الاجتماعى، مجلس السمر، الذى كان يرأسه محمد حسين هيكل باشا، الذى كان وقتها وزيراً للمعارف .. وكان يضم عدداً كبيراً من الأدباء لعل أشهرهم كامل الكيلانى، والدكتور زكى مبارك، والدكتور منصور فهمى مدير دار الكتب.

ومساء كل يوم خميس أيضاً، كانت تعقد سهرة لأدباء شبان، ستعرف فيما بعد بسهرة "الحرافيش" .. التى تضم نجيب محفوظ وعادل كامل وعلى أحمد باكثير .. ثم انضم إليها أحمد مظهر .. والمخرج توفيق صالح .. والفنان بهجت .. وصلاح جاهين .. والكاتب الساخر محمد عفيفى .. وقد بدأت سهرة الحرافيش (سنة ١٩٤٢) فى قهوة عرابى بميدان الجيش بالعباسية .. وكان موضوعها الدائم الفن والضحك والسياسة .. وكان أفرادها يضحكون - على حد قول نجيب محفوظ - حتى "تؤلمنا عظام صدورنا".

والحرافيش جمع حرفوش .. ويعنى الصعلوك .. والصعلوك هو الشخص البسيط.. أى أن الحرافيش هم الناس البسطاء .. لذلك كانوا يتذوقون النكتة والكباب والبسبوسة.

وحسب ما رواه جمال الغيطانى على لسان الحرافيش، فإن ندوتهم كانت كثيراً ما تنتقل إلى بيت أحمد مظهر فى مصر الجديدة .. "حيث كان يقيم هناك فى شارع الحلمية فى فيللا ذات حديقة تتوسطها فسقية .. وهى نفس الفيلا التى شهدت فيما بعد لقاءات الضباط الأحرار".

لقد كانت الفيللا مكاناً للنكتة .. وللتمهيد للثورة أيضاً .. اجتمع فيها الظرفاء والضباط الأحرار .. الذين يسخرون من الواقع .. والذين قلبوه .. وغيروه.



نكت سياسية فى جيب صلاح نصر !

" - هل تعرف يا ريس إننا بلديات !

- ازاى وأنا صعيدى وانت من بحرى !

- احنا الاتنين عندنا سكر "

"كامل الشناوى"

كان "روميل" على أبواب مصر الغربية ، عندما رد الملك فاروق على إحدى مجاملات المندوب السامى البريطانى بجليطة ..كانا فى رحلة صيد .. و أصاب الملك "بطة " من أول "خرطوش" فقال له المندوب السامى :- برافو جلالة الملك .. أنت بارع فى الصيد.

فقال الملك :

- أبدا ..السبب أن بندقيتى ألمانية الصنع !

كان فاروق لم يبتلع بعد صفعة الإهانة التى وجهها إليه الإنجليز يوم ٤ فبراير ١٩٤٢، بحصارهم القصر، و إجباره على قبول مصطفى النحاس رئيساً للوزراء ، أو خلعه من فوق العرش .. لذلك تصرف على هذا النحو .. وسبق أن أبدى قائد القوات البريطانية إعجابه بحديقة القصر ، فرد عليه فاروق :

- كانت أجمل ودباباتكم تحاصرها !

وكما أعلن فاروق إحساسه بالفخر لأن بندقيته ألمانية ..أى صنعها أعداء أعدائه، أعلن إحساسه بالعظمة تجاه السيارة طراز "هتلر" التى أهدتها إليه ألمانيا النازية.

لم يكن أمامه سوى أن يغيظ الإنجليز بشطارة الألمان .. على طريقة الأمى الذى يتباهى بشهادات ابن أخيه .. و من قلبه كان يراهن على دول المحور .. مثله مثل العديد من المصريين الذين اعتبروا هتلر من أولياء الله الصالحين .. فهتفوا : إلى الأمام يا روميل.

فى ذلك الوقت كان الألمان يستعدون لدخول الإسكندرية، ومنها إلى القاهرة ، فامتلأت الفنادق، والملاهى ، والعوامات بجواسيسهم الذين كان غطاء بعضهم "باسبورات" أمريكية ..وكانت مهمة بعضهم الآخر جمع كل ما يتعلق بمزاج المصريين .. أغانيهم .. طعامهم .. عاداتهم .. ونكاتهم .. إن ذلك كان تنفيذاً لتعليمات وزير الدعاية "جوبلز"، الذى أضاف سلاح "الحرب النفسية" إلى باقى أسلحة الجيوش الألمانية .. فقد كان يؤمن بأن الجيوش تسيطر على الأرض .. والدعاية تسيطر على الشعب .. ولم يكن من الصعب على المخابرات البريطانية أن تنتبه إلى أن العملاء الألمان اشتروا من الأسواق كل أسطوانات أم كلثوم، ومحمد عبد الوهاب تمهيدا لإذاعتها بين البيانات العسكرية ، بعد السيطرة على مصر.

وكان على المخابرات البريطانية أن تتصرف .. فكان أن وضعت خطة لاختطاف أم كلثوم، ومحمد عبد الوهاب، وترحيلهما خارج البلاد قبل وصول الألمان، وكانت الخطة جاهزة للتنفيذ فى الوقت المناسب.

أكثر من ذلك، يقول ليونارد موزلى، فى كتابه عن قضية الراقصة حكمت فهمى - التى عملت مع المخابرات الألمانية - إنها لم تفهم سر إصرار الجواسيس الألمان على أن تروى لهم دائماً "آخر نكتة" حتى فى أحلك الظروف .. وقددهشت عندما وجدتهم لا يضحكون

على النكت التى ترويها، وإنما يسجلونها بجدية وكأنها أسرار عسكرية عليا.

وكان عند الألمان كشف بأسماء "المونولوجست"، حتى الذين يعملون فى الملاهى المتواضعة.

وكانت تحت أيديهم ملفات كاملة عن نجيب الريحانى، وحسن فايق، وإسماعيل يس، وسامية جمال، وفريد الأطرش، وأسمهان، وليلى مراد .. وكانت هذه الملفات على مستوى غيرها التى كانت تضم معلومات عن الباشوات، والجنرالات المصريين.ويشير إلى ما يؤكد ذلك، محمد التابعى، فى كتابه عن أحمد حسنين باشا الذى نشره بعنوان : "مصر قبل الثورة" .. وأيضاً جى دورندان فى كتابه "الدعاية والدعاية السياسية" .. وقد جاء فيه أن الألمان كانوا على معرفة كاملة بأبرز الشخصيات الأدبية والفنية والسياسية فى الدول التى احتلوها، أو الدول التى حاولوا احتلالها.

إن صراعاً من نوع آخر، مختلف، كان يدور تحت الأرض فى القاهرة، وروميل يدق أبوابنا الغربية .. وقد كانت أدوات هذا الصراع غريبة بمقاييس تلك الأيام ... مونولوج.. أغنية أسطوانة .. نكتة .. إشاعة .. أدوات لا تثير الانتباه .. لكنها .. ستكون أدوات حرب ما بعد الحرب .. أى أدوات الحرب الباردة التى ستتفجر بعد الحرب الساخنة.

****

لكن .. لا أحد فى مصر كان يدرك ذلك.

بل .. إن الملك الذى كان على قمة السلطة لم يكن يدرى ما هو أقل أهمية بكثير من هذه الأمور .. فقد كان يُسمى "ملك مصر والسودان وسامية جمال" .. وكان فى قرارة نفسه يشعر أنه ليس ملكاً، وكان يقول : "لم يبق فى العالم سوى خمسة ملوك، ملك إنجلترا، وأربعة ملوك الكوتشينة" .. وكان يسمى السراى التى يحكم منها مصر بالسراى الصفراء.. أما فساده فكان أكبر دليل على ضعفه.

كان مع إحدى عشيقاته فى صحراء الماظة، عندما فوجىء ببوليس الآداب، فهرب وهو يطلق الرصاص، وبعد أن عاد إلى قصره، غير ثيابه، وحضر احتفالاً بليلة نصف شعبان فى مسجد السلطان قلاوون، ثم انطلق إلى الأوبرج، ليشهد مسابقة أجمل سيقان.

وفى ليلة رأس السنة - ١٩٥٠ وضع طرطوراً على رأسه، وراح ينفخ بزمارة، وأساء إلى فرقة الموسيقى الإنجليزية، فقال رئيسها : "الملك فى حاجة إلى مربية".

وبعد أن طلق الملكة فريدة، خرجت كل بنات المدارس فى مصر فى مظاهرة، تقول : "حذاء فريدة فوق رأس فاروق .. "فريدة خرجت من الدعارة إلى الطهارة".

وقيل إنه كان مثل أبيه لا تثيره إلا المرأة المتزوجة من غيره .. وقيل إنه كان مصاباً

بالسادية، ويهوى تمزيق ثياب النساء الداخلية، ويطرد من فراشه المرأة التى تستسلم له بسهولة.

وعندما أطلق لحيته، اقترح عليه بعض المشايخ أن يلقب نفسه بلقب "خليفة المسلمين"،

وعندما فاتح أحمد حسنين باشا فى ذلك، رد عليه :

- الشعب سيطلق عليك "خليفة المسلمين فى أوبرج الأهرام".

وعندما تعثر الاقتراح، استبدله هؤلاء المشايخ باكتشاف ما أن أُعلن على الشعب حتى ضحك الناس طويلاً وأدركوا أن أصحاب العمائم قد دخلوا عالم النكتة أما الاكتشاف، فكان أن الملك فاروق ينتسب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام .. أى أنه ينتمى إلى الشجرة الشريفة .. أعوذ بالله.

ولو كان فاروق حاول أن يثبت أنه رجل قبل أن يثبت أنه ملك، لفشل، فإن السبب المباشر كان أمه الملكة "نازلى" التى فاحت رائحة فضائحها، وتزوجت بعقد عرفى من أحمد حسنين باشا، الذى أقنع الملك بهذا الزواج لأن الملكة فى حاجة إلى رجل "يشكمها" .. لقد تمنع أحمد حسنين عنها طويلاً، حتى أصبحت "نازلى" قطة على نار .. أو ملكة على نار.. فوافقت على الزواج منه .. ولم يكن رئيس الديوان يريد بهذا الزواج أن يشكم الملكة فقط، وإنما الملك أيضاً.

وقد كانت الملكة نازلى واحدة من ثلاث نساء، وقعت مصر - فى فترة الحرب - تحت تأثير نفوذهن .. أما المرأة الثانية فكانت "الليدى كيلرن" قرينة السفير البريطانى السير مايلز لامبسون .. وكان "تأثيرها على زوجها الذى كان يكبرها بأكثر من ثلاثين سنة محسوساً ونافذاً" .. و"أخيراً، فقد كانت السيدة "زينب النحاس" قرينة النحاس باشا ذات شخصية طاغية فى الوفد،خصوصاً بعد أن تخلص النحاس باشا من سكرتير عام الوفد القوى - مكرم عبيد باشا - وقد كان هو منافسها العتيد فى التأثير على زعيم الوفد الصلب والعنيد". [(١)]

ولم يكن هناك بين الرجال الذين يقودون الآن على الساحة من يستطيع أن يؤدى الدور الذى كان يؤديه هذا الثلاثى النسائى الخطير من وراء الستار فى حكم مصر". [(٢)]

و ما أن انتهت الحرب حتى انفجرت مظاهر الغضب .. وانطلق الرصاص .. وانفجرت القنابل ..وبدأ مسلسل الاغتيالات السياسية .. أحمد ماهر .. أمين عثمان .. حكمدار بوليس القاهرة سليم زكى .. مستشار محكمة الاستئناف أحمد الخازندار ... ثم المرشد العام للإخوان حسن البنا.

---

(١)و(٢) محمد حسنين هيكل-ملفات السويس-مؤسسة الأهرام-١٩٨٦-ص١٢٦،٧٥،٧٣.

تشتت سلطان العقل .. فأسلمت النخبة السياسية نفسها لإغراء البارود .. ووقف المصريون على أظافرهم .. ومن قوة التوتر، تكهربت النكتة ، وماتت بالصاعقة ، على أسلاك أعصابهم المشدودة .. فالدخان والدم وجثث القتلى، أشياء أصبحت - فى تلك الأيام - مثل "طبق الفول" الذى يتناوله الناس كل صباح.

ثم ... امتدت سخونة الأحداث إلى الملايين .. عندما أصبحت العاصمة - فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ - شعلة من نار، فى الحريق المشهور الذى يُعرف بحريق القاهرة .. فكان أن فقد المصريون قدرتهم على النطق، بعد أن شُلت قدرتهم على التنكيت .. وكان التصرف الوحيد الممكن - وهم فى هذه الحالة - حركة بدنية تغير الأوضاع .. لا مفر.

لقد احترقت العاصمة .. بينما كان الملك مشغولا باحتفال تقديم ولى عهده، الوليد إلى ضباط جيشه .. كان مقرراً أن يلتقى الملك بكبار ضباط الجيش فى ساحة قصر عابدين، ثم يخرج إليهم حاملاً وليده ، فيقدمون له التحية .. ثم يدخلون القصر لتناول الغداء .. وبينما كانت المراسم تجرى .. كانت القاهرة تحترق.

ولم تستطع الحكومة أن تفعل شيئاً .. فتدخل الجيش .. ونزل إلى الشوارع .. وأعلنت حالة الطوارىء .. وسادت الأحكام العرفية .. واستقالت حكومة النحاس.. وكانت حكومة الوفد الأخيرة.

فى ذلك اليوم .. انتهى تاريخياً النظام الملكى فى مصر .. لكن النهاية الرسمية للنظام لم تجىء إلا بعد ذلك بستة شهور، صباح يوم ٢٣ يوليو.

إن نزول الجيش يوم الحريق كان بروفة حية بالرجال والمعدات لما حدث ، فيما بعد - يوم الثورة - لقد وجد الجيش أن الخروج من أقفاص الثكنات أسهل مما كان يتصور .. وأسهل من حسابات وتقديرات وهواجس الضباط الأحرار .. وأغرته سرعة السيطرة بتكرار التجربة ..كما أن ضعف الأحزاب والقوى السياسية ، جعل من السهل إسقاط النظام بعدة دبابات لم يتح لها أن تهز مواسير مدافعها ، وتطلق النار .

****

ولو كان النظام مثل البقرة .. فقد كثرت سكاكين الطعن والذبح بعد أن سقط .. فراحت الصحف تتبارى فى نشر فضائح فاروق وحاشيته .. وسايرت الأجهزة الحكومية العهد الجديد بتصرفات مثيرة للرثاء والسخرية معاً .. "فقد اكتشفت وزارة المالية على سبيل المثال فجأة أن الملك فاروق لا يدفع ضريبة كسب عمل على مرتبه ومخصصاته، كما أن مصطفى النحاس باشا،

يحصل على (١٦٠) أقة من سكر البطاقات".(٣)

(٣) المصدر السابق- ص١٤٩.

أما على مستوى الشارع فإن تملق النظام الوليد كان أسرع من البرق .. فغيرت المحلات التجارية أسماءها .. فظهر "حانوتى العهد الجديد" .. وجزارة "النهضة" .. و"بقالة الإصلاح" .. وتغير اسم "حاتى الملك" إلى اسم "حاتى نجيب"، وعندما خُلع فاروق، اختار صاحبه اسماً غير قابل للتغيير بسهولة" .. "حاتى الجيش" .. فكأنه قرأ المستقبل .. أو كأنه راهن عليه، وكسب الرهان .. فالاسم بعد حوالى نصف قرن من الزمن لم يتغير كما أنه لم يطرأ – خلال ذلك التاريخ – ما يغرى بتغييره .. أو ما يجعله اسما غير مناسب.

وفى المقابل راح الضباط الشبان يضيقون الخناق حول حريات التعبير والنشر وكان ذلك من اليوم الثالث للثورة .. ففى ٢٥ يوليو فرضت الرقابة على الصحف، وتولى مراجعة بروفات الطبع رقباء يرتدون البدلة الكاكى .. وفى ١٥يناير ١٩٥٣، أغلقت سبع صحف ومجلات يسارية واعتُقل (١٥) شخصاً من كتابها ومحرريها .. وقبل أن ينتهى العام، لاقت باقى صحافة اليسار المصير نفسه، فقد اقتحم الضباط مكاتبها، وعُين أنور السادات رقيباً عليها، حتى شُطبت من الوجود .. وفى ٢٦ مايو ١٩٥٤ صدر قرار من مجلس الوزراء بتعطيل (٤٢) صحيفة ومجلة حزبية بحجة عدم انتظام صدورها .. وكان للصحفيين من "هذا الحب" الجانب الأكبر .. فصدر قرار حل مجلس النقابة .. واتهم صلاح سالم (١٥) جريدة ومجلة، و(٣٤) صحفياً بتقاضى مصروفات سرية .. وكان من بينهم حسين أبو الفتح، وفاطمة اليوسف، وإحسان عبدالقدوس وكامل الشناوى، ورخا، وعبد الرحمن الخميسى، واُعتقل على أمين، ومصطفى أمين لمدة أيام..

واُعتقل إحسان عبد القدوس – على الرغم من صداقته لمجلس قيادة الثورة – وأودع فى السجن الحربى لمدة (٩٥) يوماً منها (٣٠) يوماً حبساً انفرادياً، وصباح يوم الإفراج عنه دعاه جمال عبد الناصر – كما قال لى فيما بعد – لتناول الطعام معه، وقال له إنه كان "يربيه" ... وظل شهراً كاملاً "يعزمه" يومياً على العشاء ويشاهد السينما معه .

إن ذلك كله أضعف من الصحف وحولها إلى نشرات شبه رسمية .. فكان أن راحت النكتة السياسية ، تتثاءب، وتتمطى، من جديد، ثم كان أن تحركت، ونفضت التراب عن نفسها، ثم كان أن انطلقت على آخر لسان، وبأقصى سرعة وكأنها مثل فهد أفريقى يطارد فريسته .

فقيل إن شاباً سأله جاره الأكبر سناً :

– إيه رأيك فى الثورة ؟

فأجابه :

– الثورة .. الله .. يا سلام !

– للدرجة دى بتحب الثورة ؟

- طبعاً .. دا أنا من كتر حبى فى الثورة نفسى فى ثورة تانية.

وقد قيلت هذه النكتة بعد شهور قليلة من نجاح الثورة .. والمعنى أن الثورة فى حاجة إلى ثورة ..

والسبب حالة القلق والتوتر التى سادت فى تلك الفترة .. فكان الناس فى حاجة للسخرية كى يتجاوزوها .. حتى إن بعضهم صرخ من أعلى التياترو، فى يوسف وهبى وهو على خشبة المسرح يقدم إحدى المآسى التى اشتهر بها : "يا يوسف بك .. كفايه كده .. اللى فينا مكفينا .. قول لنا حاجة من شكوكو، الله يجبر خاطرك" .. وفيما بعد عرفت أن يوسف وهبى قرر الانقلاب على التراجيديا .. وهجرها إلى الكوميديا .. ففى عصر الولاعة ليس من المناسب أن يقول أن شرف البنت مثل عود الكبريت - عبارته الشهيرة - والصحيح أنه مثل الولاعة الرونسون، كما قال بعد ذلك.

ولم ينكت المصريون على الثورة بمفردهم .. بل فعلها الضباط الأحرار أنفسهم .. فقد كانوا منقسمين على بعضهم فتبادلوا السخرية .. ثم إن مؤيدى جمال عبد الناصر الشبان سخروا من القائد - الواجهة محمد نجيب - حسب ما قاله لى السفير عيسى سراج الدين، الذى كان من ضباط المدفعية الأحرار فى ذلك الوقت .. إن محمد نجيب اشتهر بتقبيل الأطفال، ليبدو وكأنه الأب الروحى للشعب .. فكانوا أن أطلقوا عليه "بيبى سيتر".. أى جليس العيال .. أو "بيبى كيسر" .. أى "بايس العيال" .. فكيسر من كيس - أى قبلة .. أو بوسة.

وقد كان التنكيت على محمد نجيب أول استخدام غير متعمد للنكتة السياسية فى صراعات الكواليس على السلطة .. كان استخداماً غير متعمد لأن الضباط الأحرار كانوا فى مرحلة الاعتماد على القوة البدنية لا على الحرب النفسية .. وإن كان لا مانع من تشجيع التنكيت على محمد نجيب، فهذا على الأقل يحطم صورته، ويسهل الانقضاض عليه.

وأشهد أن محمد نجيب كان حتى آخر أيامه، وبالرغم من كل ما جرى له، خفيف الظل، خاطف النكتة، حاضر البديهة .. كان يسمى خادمته المخلصة فتحية "فتحى أفندى" .. وقال لى : إنه عندما أنجب ابنه الأكبر، أسمته زوجته "فاروق" حتى يكون حظه حظ ملوك.. فاقترح عليها أن يُسمى "جورج" على اسم ملك إنجلترا، فحظه أفضل من حظ ملك مصر .. لكنها .. أصرت على اسم "فاروق" .. فكان حظ الابن مثل حظ الملك .. كلاهما قُتل .. هاها ..

وقد لاحظت وأنا اقرأ يومياته الخاطفة فى مفكرة المكتب أن تعليقاته على الاحداث ساخرة ..ففى يوم ٢٦ فبراير ١٩٦٨، تحدث عن مظاهرات الجامعة ضدأحكام الطيران.. وأضاف أن الطلبة يرفضون مقابلة أنور السادات، ويصفونه بالأراجوز.

وفى يوم الأربعاء ٢٨ فبراير : "مات الكلب هدهد بعد صراع طويل مع المرض ولوكان بيدى أن أرثيه ما ترددت .. اللهم ارحمنا مثله .. واغفر لنا ذنوبنا".

وفى يوم الخميس ٧ مارس : عادت اليوم الكلبة لايكا .. "اللهم لك الحمد والشكر على جمع الشمل".

وفى يوم الجمعة ٢٦ يوليو : "اليوم تزوجت ابنة الكلب هدهد .. ألف مبروك".

وأذكر أننى فى صباح يوم ١٣ أغسطس ١٩٨٢، دخلت عليه حجرة نومه، فوجدته رائق المزاج، منبسط الأسارير، وعندما قلت له : "صباح الخير" قال: "لا تقل لى اليوم صباح الخير، بل قل البقية فى حياتك" .. فقلت فى انزعاج : فيمن ؟ .. قال : فى محمدنجيب.. لا تنزعج .. أنا لم أجن .. كل ما فى الأمر أننى حلمت ليلة أمس حلماً لا تفسير له سوى أن ساعتى قربت، وأن الموت أصبح لى أقرب من الحياة .. وهذا ما أسعدنى كثيرا فقد زهقت من الدنيا .. بعد أن فارقها أصدقائى وأعدائى .. ولم يبق سواى، وحيداً، معذباً.. لذلك أحسست بالسعادة التى لا بعدها سعادة عندما حلمت أمس أننى سأموت، وأنا أحلامى لا تقع فى الأرض .. حلمت بامرأة عجوز، ترتدى السواد وتطير فى السماء، وتمسك بيدى، وترفعنى إليها، وهى تقول : " تعال .. صبرنا عليك كتير" ... ثم سكت فجأة .. فخفت أن يتحقق حلمه على يدى .. لكن الله ستر، فقد فتح عينيه، وقال : اطمئن.. لن اموت اليوم .. سأموت بعد نقطتين .. فقد أعطتنى العجوز فى الحلم تفاحتين .. وهذا يعنى أننى سأموت ربما بعد أسبوعين، أو شهرين، أو سنتين ... الله أعلم .. هاها ... والمذهل أنه مات بعد سنتين وأسبوعين بالضبط .. وتحول حلمه إلى حقيقة. (٤)

****

إن التنكيت على محمد نجيب كان جزءاً من التشهير به والتشنيع والتأليس عليه .. فوصل الأمر بصلاح سالم إلى حد اتهامه بالشذوذ ... وكان أنصار جمال عبد الناصر يطلقون عليه الشائعات ... مع أنهم كانوا يصرخون من الشائعات التى يطلقها الناس عليهم، وعلى الثورة ..والشائعة رأى فى صورة خبر، ينتقل همساً دون أن يتطلب برهاناً أودليلاً .. ويمكن أن تحمل الشائعة بعض الحقيقة .. لكنها من شخص إلى آخر تتحول من حبة إلى قبة .. ثم يوضع تحت القبة شيخ ويصبح من أولياء الله .. وتنسب له المعجزات فيكون أسطورة .. فالأسطورة شائعة عاشت على مر العصور.

وليست الشائعة دائماً من نسيج الخيال .. وهى تروج عندما تكون للأحداث أهمية فى حياة الأفراد .. أوعندما لا ترد عنها أخبار قاطعة .. أو عندما تكون الأخبار غامضة.

وفى تلك الفترة الحرجة من عمر الثورة تداخلت الأخبار والشائعات .. وحسب الوثائق

(٤) انظر كتابنا "الوثائق الخاصة بالرئيس محمد نجيب"-الناشر روز اليوسف-١٩٨٥.

التى حصلت عليها [٥] فإن مصدر ما كان يقال هم الضباط الأحرار أنفسهم .. وكان بعض ما يقال حقيقة .. ومع ذلك كانت "القيادة" تحذر الناس من الشائعات وتطلب منهم أن يكافحوها .. وألا يرددوها.

وكان أهم ما قيل على لسان ضباط المدفعية الذين قبض عليهم فى ١٥ يناير ١٩٥٣، بتهمة قلب النظام .. إن زوجة عبد المنعم أمين تجلس فى نادى السيارات وتقول : " إن الجيش على يمينى والبوليس على شمالى" .. وإن أنور السادات يتصل بصورة ما بناهد رشاد زوجة طبيب الملك السابق يوسف رشاد الذى كون الحرس الحديدى .. وأن له اتصالات خاصة بأصحاب أخبار اليوم، الذين يسهرون معه، وتشاركهم السهرة أم كلثوم.. "وأن صلاح سالم متيم بإحدى شقيقات الملك السابق .. وأن عبد المنعم أمين كان فى الأوبرج مع ثلاث نساء .. وأن جمال سالم اعترض على أن يكون الإسلام - فى مشروع الدستور - دين الدولة الرسمى، وقال : أنا لا يهمنى أن تتزوج ابنتى يهودياً أو أمريكياً" ...

إن كل هذا اللغط خرج من كواليس السلطة إلى المقاهى .. فتضاعف حجمه .. فكان أن قُبض على ضباط المدفعية، وبعض المدنيين وكان من الصعب أن تكيف التهمة على أنها تشهير وتشنيع ... فكان أن نُسب إليهم السعى إلى تغيير السلطة .. وحكم على قائدهم محسن عبد الخالق بالإعدام، ثم أفرج عنه، ليترك الجيش وينضم إلى السلك الدبلوماسى.

و قُبض على بعض المواطنين بتهمة ترويج شائعات .. وقُدموا إلى محاكمات عسكرية، استثنائية، عاجلة، لم تتردد فى الحكم عليهم - من باب الردع والتخويف - بالسجن لمدة تتراوح ما بين (١٥) - (٢٠) سنة.

ويؤكد لى محمود السعدنى على أن ذلك حدث فعلا، ويضيف : إن القصد من هذه الأحكام المتشددة منع ترويج الشائعات .. فالذين حُكم عليهم بهذه الأحكام، لم يمكثوا فى السجن أكثر من (٦) شهور .. وعندما أفرج عنهم، عادوا إلى حياتهم صامتين .. مؤمنين بفضيلة الخرس ..وتعلم من حولهم الدرس .. فكف الناس عن الشائعات ... لكنهم لم يكفوا عن التنكيت .. فلو كانت الشائعة جريمة أمن دولة فالنكتة ليست كذلك... وهكذا اختفت الشائعات وانفجرت النكات !

****

فى ترام شبرا المزدحم، صفعت امرأة ضابطا، فى الجيش، ضايقها، والتصق بها، والتفت راكب آخر لما حدث، ودون أن يعرف شيئا راح يلطش الضابط أكثر من قلم على وجهه ..

وقبض على المرأة، والراكب، وأحيلا إلى المحكمة ... وسأل القاضى، المرأة :

- إنتى ضربتى الضابط على وشه.

- أيوه.

(٥) انظر كتابنا "نهاية ثورة يوليو - وثائق قضية المدفعية" - الناشر مكتبة مدبولى - ١٩٨٣.

- ليه ؟

- حاول يزنقنى فى الأتوبيس.

والتفت القاضى للراكب الآخر :

- طب وانت يا راجل ضربته ليه ؟

- إفتكرت حصل انقلاب والناس بتلطش فى الضباط !

والمعنى ... إن الضباط فى ذلك الوقت أقوياء لأنهم فى السلطة ... والشعب يخشاهم لذلك ... فلو حدث انقلاب عليهم فمصيرهم التلطيش والصفع.

وقد عبرت النكتة عن التبرم من الضباط الذين أطلق عليهم اسم "مندوبى القيادة" .. الذين انتشروا فى كافة المصالح والهيئات وفعلوا فيها وبمن فيها الكثير .. فقد كانوا قوة فوق القوة ..وكان ذلك يثير حنق الناس .. فحفزهم على التنكيت عليهم ... فقيل أن ضابطاً صغيراً أصبح "مندوب قيادة"، راح يصرف مرتبه، فسلمه الصراف (١٠٠) جنيه، فدُهش الضابط، وقال للصراف :

- لكن أنا مرتبى ٣٠ جنيه بس.

- الباقى بدلات.

- (٧٠) جنيه بدلات ؟

- أيوه !

- إزاى؟

- (٢٠) جنيه بدل ميدان، و(٢٠) جنيه بدل لبس، و(١٠) جنيه بدل تمثيل ...

- والباقى ؟

- والباقى دول "بدل" ما حد تانى ياخدهم !

والنكتة لفظية .. تشير إلى المميزات التى تُمنح بلا حساب للضباط فقط .. وكان السبب "صاغ" أو "رائد" قفز مرة واحدة إلى رتبة "اللواء" وأصبح القائد العام للقوات المسلحة هو عبد الحكيم عامر .. فقد أغدق على الضباط، فرفع رواتبهم - بعد أن تولى القيادة مباشرة - بنسبة ٤٠ ٪ على الأقل، بخلاف بدلات التمثيل، والسكن، والجبهة، والحرب، والإقامة فى المناطق النائية، و علاوات تعليم الأبناء.

لقد كان عبد الحكيم عامر - على حد وصف محمد حسنين هيكل - نصف بوهيمى

ونصف فنان .. توقفت معلوماته العسكرية عند رتبة "صاغ" لا يستطيع أن يقود كتيبة .. وبسبب ما فعل .. فتح الحياة والمناصب المدنية للضباط .. فزحف العسكريون على كافة المناصب .. وأصبحوا قوة غاشمة.

ولو كان "مندوب القيادة" قد اختفى من المؤسسات المدنية، فذلك لأن العسكريين أصبحوا هم السلطة العليا فيها .. وهذا ماجعل الناس توسع دائرة النكت لتشمل أصحاب القداسة الذين يرتدون الثياب الكاكى .. ولم تتوقف هذه النكت إلا بعد سنوات.. وسنوات.

****

ويلاحظ ...

١ – أن مرحلة التنكيت الأولى على الثورة والعسكريين امتدت (٤) سنوات .. من يوليو ٥٢ إلى يوليو ٥٦ .. أى إلى تاريخ إنجاز تأميم قناة السويس .. وهو أول إنجاز وطنى هائل، يشعر به المصريون، مما جعلهم يغفرون للضباط أخطاء السنوات الأولى .. سنوات "حضانة" الثورة.

٢ – أن نكات تلك المرحلة كانت موجهة إلى الضباط عموماً .. ولم تُطلق على أشخاص بعينهم .. أى كانت ضد تصرفات فئة لا ضد تصرفات أفراد.

٣ – أن اختفاء النقد السياسى، وبطش الرقابة على الصحف، وتشريد الصحفيين، وتراجع مستوى الكاريكاتير، ضاعف من سخونة نكات الناس المضادة.

٤ – كذلك .. فإن الأحزاب السياسية كانت لا وجود لها .. مما جعل المعارضة تنتقل من البرلمان إلى القهوة .. ومن نواب الشعب إلى الشعب نفسه .. ومن الرأى إلى النكتة.

٥ – أن النكتة أصبحت – لأول مرة فى مصر – كائنا خطرا، يوجب الرصد والمتابعة، ومن ثم أصبح دخولها عصر التقارير الأمنية ضرورة.

٦ – أيضاً .. أصبحت النكتة مؤشرا لرغبات الناس ومطالبهم .. ومن ثم كانت الاستجابة – لما تطرحه – ممكنة أحياناً.

٧ – وقبل أن تستوعب الثورة النكتة كسلاح من أسلحة الحرب النفسية، وكان فى مصر – بالفعل – من يستعمل هذا السلاح .. فقد راحت صحيفة "أخبار اليوم" على سبيل المثال تنشر – بإفراط – النكات التى تروجها أجهزة الدعاية الأمريكية ضد الاتحاد السوفيتى.. وكان أول انتباه واستعمال من نوعه ...

ففى عدد ١٠ يناير ١٩٥٣ نشرت "أخبار اليوم" سيلاً من النكات فى ذلك الاتجاه ... منها أن مولوتوف قال لستالين : "إن علماءنا اكتشفوا أن آدم وحواء أصلهما روسى" .. وعندما سأل ستالين عن الدليل قال مولوتوف : "هناك ٣ أدلة :

(١) إن آدم وحواء كانا روسيين لأنهما لا يملكان داراً ولا ثياباً، (٢) كانا يعتمدان فى طعامهما على تفاحة واحدة، (٣) وأخيراً لأنهما يعيشان فى الجنة.

ومنها .. أن ستالين أمر بإلغاء صنع المقاعد والأسرة والأرائك، وكل ما يمكن الجلوس عليه، وعندما سئل عن السبب، قال : لقد قررنا هذا لأن العناصر الرجعية لا تنام، ولذلك يجب على الشيوعيين المخلصين أيضا ألا يناموا، وألا يغفلوا، وأن يظلوا متيقظين للدفاع عن مبادئهم فما حاجتهم إذن للأسرة والمقاعد.

****

يقول صلاح عيسى :

- إن النكتة السياسية ازدهرت فى المرحلة الأولى من عمر الثورة لأن شكل الحكم الجديد لم يكن واضحا .. كما أنه جاء ليصفى أوضاعاً سياسية كانت موجودة، من بينها الأبنية الليبرالية الأساسية مثل البرلمان والدستور والأحزاب .. كذلك فإن الحكام الجدد كانوا مجهولين للشعب ..وقد أطلقت الفئات الاجتماعية "المضروبة" هذه النكات، كنوع من أنواع الصراع ... لكن ... فى الفترة من ١٩٥٧ إلى ١٩٦٠، اختفت النكات السياسية تماماً.. فقد برز الدور الوطنى للثورة، وتحقق العديد من الإنجازات التى نشّطت التفاعل بين الشعب والقادة وقربت المسافات. انتهى ...

وأغلب الظن أن النكت التى أُطلقت على الثورة فى سنواتها الأولى كان مصدرها سادة النظام الذى كانت تهدمه .. حتى ولو ضحك عليها البسطاء دون قصد .. ورددوها دون وعى .. ومن ثم انزعج الحكام الجدد منها، واعتبروها مقاومة نفسية ضد التغيير .. خاصة إذا جاءت من الأرستقراطيين .. فكان أن انتشر المخبرون فى الأماكن الراقية للتصنت ونقل ما يقال ... كل ما يقال ... بما فى ذلك النكات !

ويروى لى إلهام سيف النصر (وهو ابن ذوات سابق سُجن بتهمة الشيوعية)... أن أحد أقاربه وكان من كبار رجال القضاء قُبض عليه وهو فى كافيتيريا بضاحية "مصر الجديدة" بتهمة إطلاق نكتة فى حضور آخرين والسخرية من "العهد الجديد" والتحريض على كراهية رجاله .. ولأنه لا قانون يحاكم على النكتة، قُدم القاضى السابق إلى محكمة "الثورة" التى حكمت عليه حضورياً .. بالإعدام .. أى بالموت شنقاً ... وأصدر الحكم عبد اللطيف البغدادى، وحسن إبراهيم، وأنور السادات ... ومن حسن الحظ أن مجلس قيادة الثورة وجد من ينصحه بعدم التصديق على الحكم.. فالثورة بيضاء .. والملك - رغم ما فعل - خرج من البلاد على أصوات مدافع الشرف .. وليس من الحكمة إعدام قاض كبير ومستشار بسبب نكتة !

وفى تلك الفترة أيضا، عُوقب كامل الشناوى، لأنه فى مجالسه الخاصة، ينكت على ضباط الثورة، ويسخر من تصرفاتهم، وكان العقاب .. غضب جمال عبد الناصر منه ..

ومقاطعته له .. ثم لأن لا مبرر لمحاكمته، أضاف وزير الإرشاد القومى صلاح سالم اسمه إلى كشف الصحفيين الذين تقاضوا مصاريف سرية من القصر .. فكان ذلك تشهيراً به وتعريضاً بسمعته .. وكان من المستحيل عليه الرد و التكذيب.

أما الذى فعله كامل الشناوى وعُوقب بسببه فهو أنه اتصل بمدير إدارة المطبوعات، وكانت تتبع وزارة الداخلية، وقال له :

- إن الكاتب الروسى الكبير تولستوى فى القاهرة، ولا أحد يهتم به، ومع أنه ضيف الرئيس عبد الناصر.

وصدق مدير إدارة المطبوعات ذلك، واتصل بمجلس قيادة الثورة ليعرف منهم أين ينزل تولستوى ... وكانت نكتة انقلبت إلى فضيحة ... ثم إلى عقاب.

ولأن كامل الشناوى لا يدخل معركة يعرف أنه سيخسرها، قرر غلق الأبواب التى يأتى منها الريح ليستريح، فقد كف عن إطلاق النكت فى هذا الاتجاه، وسعى - لمدة طويلة - لإصلاح الجسور المحترقة بينه وبين جمال عبد الناصر .. ونجح محمد حسنين هيكل فى إقناع جمال عبد الناصر بأن يقابل كامل الشناوى، ويقبل إجراء حوار صحفى معه.. "لأنه بارع فى صيغة الحوار الصحفى، ويعرضه للقارىء بأسلوب جذاب، وبصورة غير تقليدية".

وعندما قابله جمال عبد الناصر، كان كامل الشناوى يراهن على أن خفة دمه، ستُذيب الجليد، وتلغى المسافات، وتقرب بينهما ومن ثم قرر تبادل المزاح معه .. فقال له :

- تعرف ياريس إن أنا و أنت بلديات !

- ازاى؟ و أنا من الصعيد، وانت من بحرى ؟

- لأننا إحنا الاتنين عندنا سكر !

لكن .. جمال عبد الناصر لم يضحك .. بل تجهم وجهه أكثر .. فالنكتة منه وعليه ... وتوتر كامل الشناوى .. و أحس بأنه كهرب الجو وضاعف من تراكم الجليد، وبعد المسافة ... إنه أديب وفنان يعيش حياته بلا حساب، فلم يتصور أن مرض الإنسان عورة لا يجوز فضحها وضعف ليس من اللائق الاقتراب منه .. لكن جمال عبد الناصر ليس إنسانا عادياً .. إنه ضابط وزعيم .. يبحث خصومه عن ثغرات فى حياته ليدسوا فيها أصابع الديناميت .. ثم يشعلوا الفتيل ..لتحدث فرقعة أى فرقعة .. ويكفى .. إنهم فى ذلك الوقت كانوا فى حرب الإذاعات الموجهة ضده، لا يكفون عن إذاعة أغنية "البوسطجية اشتكوا" لرجاء عبده .. ليذكروه أن والده كان موظفا بسيطا فى البريد.

وقرر كامل الشناوى أن يخرج من المأزق بنكتة أخرى .. فكان كمن يخرج من حفرة

ليقع فى بئر .. فقد ظل جمال عبد الناصر متجهماً ولم تقترب البسمة من شفتيه.

أما النكتة فهى أصلاً دعابة واقعية حدثت لأحد الظرفاء - التعساء، هو على فهمى .. كانت القاهرة قد احترقت، وفرض فاروق الظلام، وأجبر الناس على العودة إلى البيوت قبل المغرب ..وحدث أنه كان ماشياً فى السكة، وفات ميعاد حظر التجول، فوجد نفسه وجهاً لوجه أمام عسكرى يشهر فى وجهه بندقية، فسأله العسكرى :

- معاك تسريح ؟

- أيوه معايا.

- ورينى.

وضرب على فهمى لخمة، فلم يكن معه تصريح، وخشى أن يكشف له الحقيقة فيطعنه بالسونكى .. وراح يبحث فى جيوبه عن شىء يصلح تصريحاً، فلم يجد فى جيبه أى شىء سوى ورقة يانصيب .. "الدبة" .. ورقة عليها أرقام .. وصورة الدبة وسلمها للعسكرى الذى أخذها وابتعد قليلاً ليفحصها جيداً فى ضوء عامود النور .. وغاب نصف ساعة .. وعندما عاد قال له فى لهجة من يفهمونها وهى "طايرة" .. مشيراً لصورة الدبة :

- لكن دى مش صورتك !

انتهى كامل الشناوى .. وضحك .. هاها .. فاكتشف أنه يضحك على نفسه فلا جمال عبد الناصر ابتسم، ولا رموشه اهتزت .. وضرب جرساً فجاء سكرتيره .. فقال له :

- هاتوا قهوة سادة .. هنا.

وكلمة "هنا" التى تستعمل إشارة إلى مكان قصد بها كامل الشناوى الذى غرق فى عرقه وأكمل حواره الصحفى وهو يشعر أنه وجهه أصبح محل قفاه .. ورأسه محل قدميه وقيل إنه ظل مهموماً، مفزوعاً حتى آخر العمر .. وقيل إنه مات من نكته أطلقها ولم يضحك عليها الرئيس .. وأن هذا هو تشخيص سبب الوفاة.

وقيل .. إن الكاتب الروائى عبد الحميد جوده السحار أثار غضب جمال عبد الناصر للسبب نفسه .. أى لأنه أطلق عليه نكتة .. والنكتة ألتى نُسبت للسحار قاسية، موجعة وتقول :

إن رجلاً كان يشترى صحيفة كل يوم، ثم ما يكاد ينظر فى الصفحة الأولى، حتى يرميها على طول ذراعه ..

فسألوه :

- بتعمل كده ليه ؟

-كفاية إنى قريت الوفيات.

- بس الوفيات موش فى الصفحة الأولى.

- اللى مستنى وفاته، حيموت فى الصفحة الأولى.

ولو كان السحار قد قالها، فجمال عبد الناصر - فى غضبه - عنده حق ... لكن ... أحد المقربين للرئيس أقنعه بأن السحار برىء ... وأن النكتة قديمة ... قيلت على نابليون وستالين وفرانكو وبورقيبة وعبد الكريم قاسم ... فعادت المياه إلى مجاريها.

****

- فى كتابه "ناصر" يذكر أنتونى ناتنج .. أن جمال عبد الناصر كان يستمتع بسماع النكات التى تتردد ضده .. لكنه .. فيما بعد .. بعد هزيمة يونيو "بات يهدد بإلقاء القبض على كل من يردد نكتة عنه ".[٦]

وأنتونى ناتنج، هو وزير الدولة البريطانى الأسبق، والذى وقع معه معاهدة الجلاء فى سنة ١٩٥٤ ..وقد أراد ناتنج أن يأخذ قلم عبدالناصر - الذى وقع به - على سبيل التذكار، والعادة، لكنه رفض قائلاً : "هات القلم .. فقد أخذتم الكثير" .. وضحك ناتنج كثيراً وقال:

- أنت ساخر بطبعك يا سيدى !

- لا أحد يحكم فرنسا دون أن يفهم فى أنواع الجبن ولا أحد يحكم مصر دون أن يكون ساخراً. فعلاً .. لقد قالها ديجول .. "كيف تحكم شعباً يأكل كل يوم صنفاً مختلفاً من الجبن" ؟

- والسؤال هنا .. كيف تحكم شعباً يطلق كل يوم نكتة جديدة ؟

- وفى كتابه يضيف ناتنج : إن جمال عبد الناصر كان كثيراً ما يسأل بعض من حوله عن آخر نكتة .. ومن هؤلاء كانت أم كلثوم التى اشتهر عنها خفة الظل، وحدة القفشة .. وكان يحترمها كثيراً ويعشق صوتها أكثر.

والذين عرفوه عن قرب يقولون : إنه كان يضحك ولا يقهقه .. وإن كان جسده يهتز إذا ماضحك .. وقد فهم المزاج المصرى الذى يجيد تذوق النكتة .. فلم يخلُ أسلوبه فى الخطابة من المزاح والسخرية والتنكيت على خصومه بقوة وقسوة .. ووصل فى ذلك إلى حد الطعن المباشر، والتشويه العلنى .. ولا ينسى الناس أنه قال لأمريكا .. "اشربى من البحر" .. ولا ينسون أنه قال لصحفى إنجليزى سأله - قبل حرب يونيو - عن صحته ..

(٦) أنتونى ناتنج : "ناصر" - ترجمة شاكر إبراهيم سعيد - الناشر الهلال ومدبولى - ١٩٨٥.

"أنا مش خرع زى مستر إيدن بتاعكم".

وقد أحب المصريون مزاحه وتجاوبوا مع سخريته .. فقد تكلم لغتهم .. بل .. إنه فى بعض الأحيان سخر منهم .. فأضحكهم على أنفسهم .. فقال ذات مرة فى خطاب جماهيرى :

- الناس لو زادت الأسعار شوية بيجروا يخزنوا السلع .. طب لو رفعنا سعر تذكرة الأتوبيس .. حيعملوا إيه؟

ومع أنه كان يتذوق النكتة، فإنه فى كثير من الأحيان كان لا يضحك عليها .. فأهم من النكتة - عنده -كان من يرويها .. فقبول النكتة يساوى بين الرءوس .. وكان لا يريد ذلك.. ولو أراد فالمبادرة يجب أن تكون فى يده .. أى أنه الذى يطلق النكتة، ويضحك عليها، ويدعو من يحبهم لمشاركته.

ويقول فتحى رضوان :

- إن جمال عبد الناصر - رحمه الله - كان يروى أحياناً بعض فكاهات غير مضحكة، ثم يكون هو أول من يضحك عليها.[٧]

وفتحى رضوان كان من زعماء الحزب الوطنى القديم، قبل الثورة، ثم أصبح وزيرا بعدها، ورغم أنه صاحب فكرة وزارة الإرشاد المنقولة عن وزارة الدعاية النازية، فإنه مات وهو يدافع عن الديمقراطية، فغفرنا له ماتقدم من ذنوبه السياسية، وما تأخر.

وهو يضيف :

- وعندما كنا نناقش دستور ١٩٥٦، داعبته مرتين، مداعبة استدعاها الحديث فرفض رفضاً باتاً أن يضحك على كلتيهما. لأن الأولى تمسه، ولأنه لم ينتبه إلى موضع الفكاهة فى الثانية، فضايقه ذلك.

وكانت مناسبة المداعبة الأولى نصاً وارداً فى دستور ١٩٥٦، يقول : إن وفاة رئيس الجمهورية تثبت بأغلبية أصوات مجلس الأمة .. فعارضت فى النص على أساس أن الوفاة واقعة مادية لا تثبت بأصوات النواب، وإنما الذى يثبت هو إعلان خلو منصب الرئيس، فقد يكون مخطوفاً، أو مأسوراً .. وطال الجدل فى هذه النقطة بينى وبينه... فقلت له :

- على كل حال أنا موافق لأنه إذا لم "يصوت" النواب عند وفاة رئيس الجمهورية فمتى "يصوتون" ؟

فزم الرئيس شفتيه مستاءً...

---

(٧) فتحى رضوان : "٧٢ شهراً مع عبد الناصر" - كتاب الحرية رقم (٢) - القاهرة - يوليو ١٩٨٥.

وقال :

- طيب ياسى فتحى !

وفى المناسبة الأخرى ... أحضر الرئيس معه الدستور الصينى وأثنى عليه ... فقلت له:

- ولكنه سهل "الكسر" :

فغابت عنه النكتة .. وقال :

- سهل الكسر .. ليه ؟

فقلت :

- لأنه صينى.

فعقد ما بين حاجبيه وفكر قليلاً - فلما أدرك النكتة أشاح بوجهه، وأبى أن يضحك !

****

أما سامى شرف فقد قال لى :

إن جمال عبد الناصر كان أحيانا يعرف النكت قبل أن نقولها له .. وهذا يعنى وجود أكثر من جهة وأكثر من شخص يتبارون فى تقديم "آخر نكتة" له .. وعليه .. تماماً مثل أى شىء آخر.

وسامى شرف كان مدير مكتب جمال عبد الناصر للمعلومات منذ سنة ١٩٥٥، أى أنه كان عليه تلقى المعلومات والتقارير من أجهزة الدولة، وعرضها على الرئيس، ثم تلقى توجيهاته لإبلاغها لمن يريد.

وأعترف أنه كان أقل الذين سألتهم عن النكتة السياسية دهشة من اهتمامى بهذا الموضوع .. بل .. أكد على الفور أن الموضوع مهم ... وأنهم درسوه فى المخابرات .. كعلم من علوم الصراع .. وأثناء وجوده فى السجن (على ذمة قضية ١٥ مايو ١٩٧١) اهتم به.. ووضع ورقة بحث عنه.

س : هل كان عبد الناصر يضحك على النكت التى تقال ضده ؟

ج : نعم.

س : ممن كان يسمعها ؟

ج : من مكتبه، أو من المخابرات، أو من بعض كبار الصحفيين .. وأحيانا كان يسمعها فى

مجلس الوزراء.

س : هل كانت تصل إليه كل النكت حتى التى تتجاوز حد الأدب ؟

ج : نعم.

س : كيف ... وفى توصيلها حرج شديد ؟

ج : كنا نتردد كثيرا فى ذلك .. وكنا نختار الظرف المناسب .. لكنه كثيراً ما كان يعفينا من هذا الحرج، ويقول لنا بنفسه هذه النكت.

س : من أول صحفى اهتم بتوصيل النكت إلى جمال عبد الناصر؟

ج : مصطفى أمين.

س : لماذا كان عبد الناصر يصر على أن يعرف حتى النكت التى تقال عنه ؟

ج : لأن النكت مؤشر لمطالب الناس .[٨]

ومدير مكتب الرئيس للمعلومات عنده حق .. فالنكتة السياسية عند جمال عبد الناصر لم تكن للسخرية فقط، وإنما كانت للمعرفة أيضاً .. فالنكتة رأى .. والرأى يجب الانتباه له .. ولا مانع من الاسترشاد به.

والدليل على ذلك نكتة سمعها جمال عبد الناصر فلم ينم الليل .. وظل مؤرقاً حتى الصباح.. والمذهل أن النكتة لم تكن سرية، وإنما قيلت على مسرح منوعات كان يغنى على خشبته المونولوجست أحمد غانم، الذى لم يتصور بالطبع أنه ألقى قنبلة من الشوك انفجرت فى فراش رئيس الجمهورية.

كانت النكتة عن أزمة الأرز .. وتقول : إن مواطناً من القاهرة، سافر إلى الإسكندرية بعد أن عرف أن الأرز يباع هناك .. وفى القطار سأله الكمسارى :

- على فين؟

- رايح اسكندرية.

- ليه يا أستاذ ؟

- علشان أشترى رز.

وعند محطة طنطا - التى تبعد عن الإسكندرية بحوالى ١٠٠ كيلو متر - قال له الكمسارى:

---

(٨) حوار مباشر معه جرى فى بيته يوم ١٥/٤/١٩٩٠، بحضور زميلى وصديقى الصحفى شفيق أحمد على.

- انزل هنا.

- ليه .. أنا رايح اسكندرية !

- انت مش رايح اسكندريه علشان تشترى رز ؟

- أيوه.

- طب انزل .. الطابور بيبدأ من هنا.

والنكتة ليست مصرية أصلا وإنما بولندية، وتقال عن أزمة اللحم لا أزمة الأرز ... وفى الأصل البولندى .. أن "موليز" سأل زوجته التى تأهبت للخروج مبكراً :

- إلى أين ؟

- إلى لودز.

- لماذا ؟

-لأشترى لحماً.

- لكن اللحم يباع فى وارسو فقط وليس فى لودز.

- أعرف ذلك .. ولكن الطابور يبدأ من لودز.(٩)

لكن .. تمصير النكتة كان موجعاً .. فقد كانت هناك أزمة أرز بالفعل .. وكان وصول الأزمة إلى مرحلة النكتة يعنى أنها أصبحت مزمنة .. ومن ثم لم ينم جمال عبد الناصر ليلته .. وفى الصباح استدعى وزير التموين، وطلب منه توفير الأرز بأى طريقة .. وقد كان.

إن استقرار الحالة التموينية كان يسعده .. واضطرابها كان يشقيه .. وفى مجلس الوزراء كان يزعجه الكلام عن التقشف الذى كان يطرحه بعضهم أحياناً .. وكان يقول "تقشف إيه يا جماعة ؟ هيه الناس لاقية الضروريات علشان ننادى بالتقشف" .. وفى إحدى جلسات مجلس الوزراء، ودخل قاعة المجلس ومعه "شنطة" متوسطة الحجم، أخرج منها عدداً من "أرغفة" الخبز البلدى، مأخوذة من مخابز فى أحياء القاهرة المختلفة .. وأخذ يلوح بها لوزير التموين معرباً عن عدم رضائه عن حالة "الرغيف" .. وقال : "مين يقدر منكم يأكل مثل هذا الخبز ! هل هذا معقول ؟" .. وفى فترة من الفترات شحت "الحلاوة الطحينية" فى الأسواق، فغضب وقال : "الرجل الفقير حياكل إيه غير رغيف وقطعة حلاوة .. فإذا عجز الحكم عن تقديم ذلك فعلينا جميعاً أن نتخلى".(١٠)

---

(٩) حسن عامر - عرض كتاب ديك بيرى - جريدة "الجمهورية" - ١٩٨٨/٦/١ - ص ٧.
(١٠) أمين هويدى - "مع عبد الناصر" - دار المستقبل العربى - الطبعة الثانية - ١٩٨٥ - ص ٢٢.

وحدث فى حكومة زكريا محيى الدين أن زاد سعر كيلو الأرز إلى (٦) قروش .. وصدرت التعليمات إلى وحدات الاتحاد الاشتراكى، ومنظمة الشباب لتبرير الزيادة .. ولتنشيط استعمال البدائل مثل المكرونة .. فاحتج الناس فى المدن الساحلية لأن السمك لا يؤكل مع المكرونة .. فقال مسئول كبير فى التنظيم السياسى : "وإيه يعنى لما ياكلوا سمك ومكرونة.. إذا كان السمك نفسه مكرونة" .. ثم .. عرف جمال عبد الناصر بالواقعة .. فقال : أصل الاتحاد الاشتراكى عندنا المسئولين فيه "طلاينه" .. ! وعاد الأرز إلى سعره القديم.

ولا جدال فى أن ذلك كله يفسر سر فزع جمال عبد الناصر من تلك النكتة .. بل إن المدهش أنه عرف بها بعد أقل من ساعتين .. أى قبل أن ينفض الجمهور من المسرح .. ولو كان ذلك صحيحا، فهل معنى هذا، أن النكتة كانت - فى تلك الفترة - معلومة إستراتيجية، شديدة الأهمية، لا تحتمل التأجيل ؟ .. أم أنها مجرد صدفة ؟

ومهما كانت الإجابة، فإن من المؤكد أن النكتة السياسية كانت تصل بانتظام إلى جمال عبد الناصر، إما فى تقارير خاصة، أو فى تقارير الرأى العام، أو مسجلة على شرائط، حتى يسمعها الرئيس، ويكون تأثيرها أدق ... فالنكتة تُسمع أكثر مما تقرأ.

وحسب ما ذكره محمد حسنين هيكل :

كانت قواعد العمل فى رئاسة الجمهورية تجرى على أن الرئيس يتلقى كل يوم أربعة ملفات أساسية يدور حولها نشاطه اليومى .. الأول : ملف من وزارة الخارجية يحوى أهم البرقيات الشفرية والتقارير الواردة من سفراء مصر فى كل أنحاء العالم .. والثانى: تقرير من وزارة الداخلية عن حالة الأمن العام فى البلاد .. والثالث : من المخابرات يضم نشاطها فى الأمن الداخلى، والخارجى، وأعمال مكافحة الجاسوسية، وعادة فإن المخابرات العسكرية كانت تضيف إلى هذا التقرير ملحقاً حول الموقف على الحدود، وتحركات القوات والنوايا المحتملة لأعدائها، وغير ذلك من المعلومات ذات الطابع العسكرى .. والرابع : من وزارة الاقتصاد، ويحوى أرقاما عن الأحوال المالية، والاقتصادية بمافيها حالة الاحتياطى والأسعار والمخزون السلعى فى كل الاحتياجات الأساسية.

وكانت هناك ملفات لا تجىء كل يوم، وإنما تجىء كل بضعة أيام، وخاصة - بالتحديد - بأحوال الإنتاج الصناعى والزراعى.

كذلك .. كانت وزارة الإرشاد تقدم للرئيس تقريراً كل أسبوع عن أهم اتجاهات الرأى العام .[11]

والتقرير الأخير كان يتضمن سرداً ورصداً وتحليلاً للنكات السياسية، تعليقاً عليها ..

(١١) هيكل: "خريف الغضب"-الطبعة السابعة- شركة المطبوعات-بيروت- ١٩٨٣-ص ١٠٣، ١٠٤.

ولكنه .. لم يكن التقرير الوحيد فى هذا الشأن .. فهناك من يؤكد أن إدارة المعلومات بالمخابرات العامةكانت المسئولة عن رصدالنكات السياسية، وكانت ترفع تقريراً عنها للرئيس .

ويقول سامى شرف :

- إن التقارير لا تتوقف إذ كانت تقدم للرئيس من كل الأجهزة مثل .. الخدمة السرية .. الأمن القومى .. إدارة المعلومات بالمخابرات العامة .. المباحث العامة .. المباحث الجنائية.. الشرطة العسكرية .. مصلحة الاستعلامات. وغيرها .. وكانت أولاً وأخيراً تقارير معلومات .. تتضمن كل ما يشغل الرأى العام.

أما مصلحة الاستعلامات فكانت مختصة فقط بالرأى العام، لكننا لاحظنا أن بعض المعلومات التى تتضمنها تقاريرها كانت مدسوسة من "الأمريكان" .. وعندما كانت المخابرات تتبعها كانت تصل فى النهاية إلى أن مصدرها السفارة الأمريكية فى جاردن سيتى .. التى كانت أيضا مصدر العديد من النكات، كما قال صلاح نصر، فى كتابه عن "الحرب النفسية"، وهو ما أشرنا إليه من قبل.

وهناك دليل غير مباشر، يثبت أن المخابرات كانت تجمع النكت التى كانت تقال ضد جمال عبد الناصر .. ففى محضر التحقيق مع اعتماد محمد رشدى "الشهيرة باعتماد خورشيد" الذى فُتح يوم الثلاثاء ٥ مارس ١٩٦٨ "الساعة ١٠.٣٠ صباحاً ، والخاص بما يعرف بقضية انحراف المخابرات ... أنه فى خلال شهر أبريل ١٩٦٥، حضر مرة صلاح نصر وعثمان أحمد عثمان إلى بيت اعتماد خورشيد ... وكان ما كان ... "وانتهت القعدة، وكلها نكت، وقعدات شرب وويسكى، وصلاح نصر كان مطلع من جيبه لستة مكتوبة كلها نكت على جمال عبد الناصر، ويروى النكتة، ويضحك جدا من قلبه، وانتهت الجلسة على ذلك".[١٢]

إن اللستة تعنى القائمة .. والقائمة تعنى أن النكت المكتوبة عن جمال عبد الناصر كثيرة.. وعندما يخرجها صلاح نصر من جيبه، فهذا يعنى أن رجاله فى المخابرات قدموها له ... وهذا يعنى أن السفارة الأمريكية لم تكن وحدها التى تهتم بالتنكيت على جمال عبد الناصر .. فقط .. كان هناك من داخل نظامه من يفعل ذلك أيضاً .. بل إن الذى فعل ذلك كان رئيس جهاز المخابرات القوى، والذى يعرف أهمية وخطورة النكتة السياسية فى الحرب النفسية.

ولعلنا .. بهذه الحقيقة المذهلة المدعمة بالوثائق نقترب من حقيقة أخرى مذهلة أيضا، هى أن النكتة السياسية استعملت فى مصر، فى تلك الفترة، كأداة من أدوات صراع الكواليس على السلطة ..استعملها جناح المشير عبد الحكيم عامر (وكان يضم القوات

(١٢) عبد الله إمام : "عامر وبرلنتى" - دار سينا - ١٩٨٨ - ص ٦١.

المسلحة وقيادة المخابرات العامة على الأقل) ضد شخص جمال عبد الناصر.

إن وثائق قضية انحراف جهاز المخابرات تؤكد على أن عبد الحكيم عامر كان "يعشق القعدة الحلوة، التى يوجد فيها كل شىء، النساء والحشيش، والنكت الجارحة، والقمار، والانبساط" .. "مع الغرف المغلقة وصلاح نصر يوفر له كل شىء".[(١٣)]

وكانت النكت التى ضد جمال عبد الناصر جزءاً من ذلك الكل.

لقد انحاز صلاح نصر إلى من تصور أنه الأقوى .. وغلبه مرض "السيطرة" الذى يصيب بعض رجال المخابرات .. وقد فشل فى السيطرة على جمال عبد الناصر، لأنه كان بلا نقاط ضعف شخصية .. ولأنه حسب تعبيرات صلاح نصر نفسه : "هو اللى واقف لنا زى العقلة فى الزور، ومش بتاع نسوان، وده اللى مش قادرين نمسك له ذلة فى العملية، ده مش مندمج معانا فى الجو، ابن ......".[(١٤)]

لكنه .. نجح فى السيطرة على المشير عبد الحكيم عامر .. الذى يحكم الجيش .. الذى يحكم البلد .. إذن أصبح صلاح نصر حاكم البلد .. وكل شىء مباح فى سبيل ذلك.. النساء ..الخمر .. الحشيش .. والنكت التى تسخر من جمال عبد الناصر.

ولا نشك الآن .. فى أن جهاز صلاح نصر الذى كان يجمع النكت، ويحللها، ويقيس خطورتها، ويحاول التوصل إلى من يطلقها، يمكن أن يكون قد شارك فى صنعها، وترويجها وتوجيهها فى اتجاه حسم الصراع لصالحه.

إن النكت التى جمعناها حول عبد الناصر وعامر معا، يصعب علينا نشرها، لأنها جارحة، أو خارجة .. لكن .. تحليلها يشير إلى :

١ - أن الرئيس خام والمشير مفتح.

٢ - أن الرئيس معقد والمشير يفهمها وهيّه طايره.

٣ - أن الأمور التى تبدأ عند الرئيس لابد أن تنتهى عند المشير.

أما النكت التى صيغت لنفخ المشير، فقد صورته ابن بلد، بحبوح، ونزيه ، وجدع، وشهم، وكريم، ويده "فرطه"، ويمكن أن يموت فى سبيل صاحبه، وبتاع نسوان ... وكلها صفات ترضى العامة .. لكن .. الرئيس، متزمت، وقاس، وباطش، وبلا قلب ... ومخيف.. باختصار كل الصفات التى تصوره دراكولا.

أى أن عبد الناصر - فى تلك الفترة - تعرض لنكت موجهة من خصومه داخل النظام.. ومن خصومه البعيدين عن السلطة .. بخلاف النكت التلقائية التى خرجت من الناس.

---

(١٣) و (١٤) عبد الله إمام : "عامر وبرلنتى" - دار سينا - ١٩٨٨ - ١٢٢، ٦١ .. بالترتيب.

و قد سألت سامى شرف :

س : فى صراع الكواليس بين الرئيس والمشير هل استُخدمت النكتة السياسية ؟

ج : الرئيس جمال عبد الناصر كان "كبيراً " فى صراعه .. وكانت وسائله فى الصراع مثل قامته .. ولم يكن يلجأ إلى الأساليب الصغيرة، وكان يفضل المواجهة.

****

ولوكانت النكتة التلقائية التى عبر بها المصريون عن أزماتهم قد أطارت النوم من عينى جمال عبد الناصر، فتفسير ذلك، عند محمود السعدنى الذى يقول : "أن نظام عبد الناصر بالرغم من أنه كان نظاماً ديكتاتورياً ، فإنه كانت لديه أسلاك موصلة لنبض الناس ومتاعبهم .. فكان يعرف فى الحال ما يحدث .. وكان يتصرف بالسرعة المطلوبة".

ويضيف السعدنى :

– لكن .. فيما بعد .. أيام السادات، أذكر أننى قابلت حسن فؤاد فى لندن، وأذكر أنه قال لى : الحكومة نايمة يا محمود، والاتصالات بينها وبين الناس مقطوعة .. ده حتى لو الواحد عايز يقول لها .. أنا معك، صوته ما يوصلش !

ويذكر معظم الذين عرفوا جمال عبد الناصر عن قرب أنه كان يؤمن بألا حكم بدون معلومات ..لذلك كان كثيراً ما يفاجئهم بمعرفة أشيائهم الصغيرة .. مثل هدية تلقاها أحدهم .. أو قطعة أثاث اشتراها .. أو لوحة فنية اقتناها .. وكان من الممكن أن يبادر شخصاً ما بهذه العبارة .. "فين الكرافته الحمراء اللى كنت لابسها وانت بتتعشى امبارح فى سميراميس" .. ومثل هذه العبارة كانت تكفيه ليعرف ما هو أكبر وأخطر من الشخص نفسه.

وقد كان الأقوى والأعمق فى علاقته به هو الأكثر إمداداً له بالمعلومات .. وأغلب الظن أن ذلك كان مفتاح علاقته القوية بمحمد حسنين هيكل، الذى كان أفضل الجياد فى سباق توصيل المعلومات، أولاً بأول إليه .. وكانت بداية هذه العلاقة فى مؤتمر باندونج.. وقد لاحظ الصحفيون الآخرون أنهما ينفردان كثيراً .. فقالوا لعبد الناصر : اشمعنى هيكل!.. أى لماذا تخص "هيكل" بالمعلومات ؟ فرد عبد الناصر : هيكل هو الذى يخصنى بها .. وحتى آخر يوم فى حياته كان عبد الناصر يفتح عينيه على مكالمة تليفونية من هيكل ويغلقهما بعد مكالمة تليفونية أخرى فى المساء منه .. وفى المكالمتين كانت سيول المعلومات تتدفق .. ومن جانبه سعى مصطفى أمين فى هذا الاتجاه .. فكان صراع الديناصورات.. وحاول آخرون قطع الطريق على هيكل .. لكنهم فشلوا، وسقطوا، وإن لم يستسلموا بسهولة.

لكن .. بالرغم من حيوية هذه المصادر فإنها اهتمت بصراع القمة .. أما ما يجرى فى

القاع، فإن النكت كانت من أصدق المصادر التى عبرت عنه .. وهذه الحقيقة فى حد ذاتها.. نكتة !

وقد قيل .. إنه سأل وزير الداخلية عن الأمن فقال إنه مستتب .. وسأل وزير التموين عن الأسواق فقال السلع متوافرة .. وسأل وزير الحربية عن الجيش فقال : إنه على أهبة الاستعداد لتحرير فلسطين .. فأمر بحل الوزارة، وقال : ما حاجتنا لهذه الحكومة ما دام كل شىء على ما يرام !

والمعنى .. أنه إذا كان الوزراء يدّعون أنهم أنجزوا كل المهام، وحل كل المشاكل، فإنهم يكونون بلا عمل .. إذن فلا حاجة إليهم .. وليذهبوا لبيوتهم.

ومع أن النكتة لا تُضحك، فإنها تسخر من التقارير التى يرفعها المسئولون للرئيس.. وتقول : مفيش مشاكل !

وفيما بعد روى محمود الجيار :

- أن جمال عبد الناصر كان يعرف جيداً أن الأجهزة السرية والعلنية، تكون تقاريرها عادة بما يرضى الحاكم، أو يطمئنه، أو يشبع غروره، أو ربما يؤكد أهميتها واحتياجه إليها.

وذات مرة قال جمال عبد الناصر له : إن من غير المعقول أن يرفع لى وزير الداخلية تقريراً يقول فيه إن الأمن غير مستتب، و إلا كان معنى ذلك أنه يعرض نفسه للاستغناء عن خدماته. ومن غير المتصور أن الأجهزة التنفيذية ستتولى مصارحتى بمتاعب الناس منها، أو بسخط الناس عليها، وإلا كانت بذلك تحفر قبرها .. وإذن صمام الأمان الخاص بى، هو أن أظل على اتصال حقيقى ومباشر بالناس ![15]

ومن ثم ... كانت خطابات الناس - التى ترد إلى رئاسة الجمهورية - حلاً ،وجسراً .. وكانت تعليمات الرئيس بشأنها صريحة، وصارمة ... أن يُعرض عليه يومياً ملخصاً لأى خطاب مهم أو عاجل .. "يحوى فكرة لامعة أوخبرا خطيراً" .. وأن يُرفع إليه أسبوعياً .. "تقريرٌ صريحٌ عن اتجاهات الرأى العام" من خلال الخطابات، "مع نماذج لأهم الخطابات اللافتة" .. وتقريرٌ آخر "فى منتهى السرية يُسمى تقرير الرأى العام المعادى، يسجل صورة صريحة للخطابات المجهولة الإمضاء، التى كان مرسلوها يأخذون راحتهم فى التهجم عليه".

وأغرب ما يقوله الجيار .. إن بعضاً ممن أرسل الخطابات كان يكتفى بتلميحات عن موضوع معين، ثم .. يطلب - إذا ما صادفت هذه التلميحات اهتماماً من الرئيس - أن يروى التفاصيل وجهاً لوجه بشرط أن تنتظره سيارة من رئاسة الجمهورية "فى يوم كذا، الساعة كذا، فى المكان الفلانى" .. أو بشرط نشر إعلان "صيغته كذا فى يوم كذا " فى

(١٥) ضياء الدين بيبرس : "الأسرار الشخصية لجمال عبد الناصر" - ص ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٣٠، ٣٢، ٣٤

"الأهرام" ليرسل كل ما عنده .

وخلال الفترة ما بين ١٩٥٨، ١٩٦٨، كانت رئاسة الجمهورية تنشر فى "الأهرام "إعلانات غامضة جداً "ذات طابع غير عادى مكونة من سطرين اثنين غالباً، وموقعة بحروف أولى من أسماء مستعارة" .. وذلك استجابة لرغبات بعض أصحاب الرسائل المهمة .. وحسب الصيغة التى حددوها.

وقد امتنعت "الأهرام" مرات عن نشر هذه الإعلانات لغموضها .. فاضطر عبد الناصر أن يطلب من هيكل نشرها ... "دون أن يعرف أحد آخر أن عبد الناصر شخصياً هو دافع ثمنها".

وحدث أن طالب كاتب رسالة مجهول - يريد أن يعرض موضوعات مهمة - نشر إعلان يقول : "إلى ولدنا أحمد اكتب لوالدك وسيهتم بطلباتك - جميل" .. أى جمال .. وقد تمت المقابلة، واستمع جمال عبد الناصر طويلاً، ثم طلب من صاحب الرسالة عدة دراسات عاجلة .. وبعد قليل اختاره وزيرا ...وهكذا بزغ نجم المهندس عزيز صدقى.[١٦]

أما البريد المُعادى .. أو البريد الأسود فكانت رسائله تتضمن نقداً لا رحمة فيه .. وقد قدم الجيار بعض نماذجه .. والنماذج تشرح نفسها بنفسها .. وتعود إلى شتاء - ١٩٦٦.[١٧]

١ - التموين :

- ارتفاع أسعار الأرز، والبصل، والعدس، والخضر، والفاكهة، والأسماك، واللحوم.

- قلة المعروض من البصل، والصابون، والبطاطس، والعدس، والحلاوة الطحينية.

- نقص الرغيف وحالته السيئة.

٢ - الحالة الداخلية :

- حكم فرد وسلطان استبدادى مطلق والشعب يعيش فى إرهاب.

- أحل سفك الدماء واستباح الأموال والأملاك.

- الاتحاد الاشتراكى تكون جبراً وبالإكراه ولا يمكن أن ينجح.

- تكونت طبقة جديدة من الضباط والأغنياء والمقاولين والتجار.

٣ - السياسة الخارجية :

- الربط بين مساعدات العرب و حالة ا لمعيشة.

---

(١٦) ضياء الدين بيبرس : "الأسرار الشخصية لجمال عبد الناصر" - ص ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٣٠، ٣٢، ٣٤.

(١٧) ضياء الدين بيبرس : "الأسرار الشخصية لجمال عبد الناصر" - ص ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٣٠، ٣٢، ٣٤.

- خسارة الأموال والجنود فى حرب اليمن.

-كان المفروض ألا يُرسل الجيش إلى اليمن إلا بعد عرض الأمر على مجلس الأمة.

٤ - الجهاز التفيذى :

- عمت الرشوة.

- استغلال السلطة فى فصل مئات العاملين.

- منع غلاء الأولاد.

- عدم رفع الحد الادنى للأجور رغم ارتفاع الأسعار.

ولا صعوبة فى الربط بين هذه الشكاوى ونوعية النكات التى أطلقت فى تلك الفترة .. فالضحك كان على قدر الألم .. والتعبير عن المعاناة كان من طبائع الأمور .. فمع الخوف لابد من التشهير .. ومع القسوة لا مفر من التنكيت .. ومع صعوبة المعيشة، يكون الغضب رسائل سرية مجهولة بلا توقيع، وإعلانات غامضة، على طريقة "الفيل فى المنديل".

****

إن ذلك قد بدأ بعد ١٩٦٠ .. ومن عام إلى عام كان التنين يزداد شراسة .. حتى كان ٥ يونيو ١٩٦٧.

وفى تلك السنوات عادت النكت التى كانت اختفت من قبل .. عادت لتكون مثل "دلو" المياه فى مواجهة حرائق التنين .. لم تنطفىء الحرائق لأن مياه النكت لم تلق عليها .. وإنما ألقيت على وجوه المصريين لتصبح - فى جو ساخن باللهب والصهد والدخان - مجرد مرطب.

لقد خفتت النكتة السياسية فى الشارع المصرى بعد تأميم قناة السويس .. ثم تلاشت فى حرب السويس .. وانعدمت آثارها بعد إعلان الوحدة مع سوريا فى فبراير ١٩٥٨ .. وتركت البر وذابت فى البحر مع سنوات المد الوطنى والقومى ... انزعجت من دقات ساعة العمل الثورى .. لم يعد لوجودها معنى بين إنجاز ملموس، وحركة للأمام، ومعركة سياسية لا هوادة فيها مع الاستعمار ...

بناء السد العالى .. مجانية التعليم .. دعم السلع .. توزيع الأراضى الزراعية على المعدمين..خفض إيجارات المساكن .. تمصير الاقتصاد .. حرية المرأة .. ازدهار الثقافة .. الكتاب الرخيص .. السينما الواقعية .. الباليه ... الأوركسترا السيمفونى .. ظهور جيل جديد من المضحكين - يواصل مشوار نجيب الريحانى وإسماعيل يس - مثل فؤاد المهندس، شويكار، وعبد المنعم مدبولى.

إن كل هذا البريق، جعل الناس تندفع نحو المشاركة .. والمشاركة تلغى النكتة السياسية،

أو تعطلها .. أو تؤدبها.

لقد أصبح للأغلبية مصلحة حقيقية فى وجود هذا النظام .. فكان أن تحمست له، ودافعت عنه ..وكان أن سخرت من خصومه، لا منه.

ويصف محمود السعدنى تلك الفترة بأنها "أحلى وأعظم فترة فى تاريخ مصر الحديث".. ويضيف :

إن النظام استقر، والناس انشغلت بأهداف جادة، وخاضت معارك كبرى .. فاختفت النكتة.

لكن .. النكتة عادت منتعشة، من جديد .. "نتيجة لوجود هوة من التناقضات بين السلطة والشعب حول بعض مظاهر الفساد، والبطش" .. والتفسير الأخير لصلاح عيسى.

إن ما فعلته أجهزه الأمن .. وتجاوزات ضباط الجيش فى الحياة المدنية .. وإهمال الشعب عند اتخاذ القرارات المصيرية .. وما جرى فى السجون والمعتقلات .. كل ذلك أعاد الخوف .. وبنى حاجزاً سميكاً بين الناس والثورة .. وكان الحاجز مكهرباً .. وترقبه الكلاب المتوحشة .. والعيون الميتة .. وتنتهى عنده الشمس، ويُولد بعده زوار الفجر .. فكانت النكتة السياسية هى الفدائى الجسور القادر بمفرده على الاقتحام.

وهكذا .. عادت النكتة لتواجه عيوب النظام، بعد أن كبرت الأظافر والأنياب.

وقيلت نكتة التمثال الفرعونى الذى عذبوه حتى اعترف بأنه تمثال رمسيس الثانى ... وقيلت نكتة الفيل الذى هرب مع أنهم يقبضون على الفئران .. ونكتة السمكة التى ألقيت فى البحر من جديد فهتفت بحياة الرئيس ... وقيل إن مواطناً مصرياً، قال لآخر:

- النهارده الجو حار .. لا .. يطاق.

فسارع المواطن الآخر يقول له :

- إحنا .. مش اتفقنا ما نتكلمش فى السياسة.

والمعنى .. أن كل اعتراض تعتبره السلطة ..معارضة، حتى ولو كان اعتراضاً على الطقس.. فلا أحد يقول "لا" ولو على الجو.

وقيل إن وزير التموين ذهب فى جولة ليتفقد إنتاج المخابز من "العيش" .. فسأل ربة بيت:

- هيه .. إيه رأيك فى العيش ده ؟

- مش كويس أبدا.

- تعرفى أن جدودك كان يسعدهم العيش ده.

- عندك حق .. لأنه على الأقل كان طازه على أيامهم.

وقيل .. إن وزير الصناعة اتصل برئيس مجلس إدارة إحدى شركات القطاع العام، الصناعية، وقال :

- الريس بيسأل عن الموعد المناسب لزيارته "المفاجئة" القادمة !

وقيل إن رئيس مجلس الإدارة هو الذى بادر وأرسل إلى الرئيس برقية تقول : "فاجئونا يوم الأربعاء القادم صباحاً".

والنكتة خالدة .. قديمة، جديدة .. أى لا تموت .. وقد أطلقت فى عهود أخرى .. ولا تزال تُقال.

وقيل إن جمال عبد الناصر، وعبد الحكيم عامر، وجون كيندى، وشارل ديجول، ركبوا طائرة معاً .. وما أن ارتفعت فى الجو حتى طلب قائدها من كل منهم التخفف من شئ ثقيل، يحمله، ولا يريده، حتى يهبطوا سالمين ...

قال كيندى :

- أنا أستطيع الاستغناء عن الأجهزة الإلكترونية التى أحملها، فلدى بلادى الكثير منها.

وقال ديجول :

- ولاحاجة لى بصندوق العطور الذى أحمله .. ففرنسا تنتجها بوفرة.

أما عبد الناصر فقال :

- وأنا لا أملك أى شئ يمكننى التخلص منه سوى عبدالحكيم عامر.

والنكتة انتشرت بسرعة وقتها .. وكانت موجعة للمشير الذى كان فى عز مجده .. كما أنها كانت دليلاً على أن لا شئ كان خافياً على الناس.

وقيل إن جمال عبد الناصر، احتاج إلى مترجم، فسأل عن أفضل مترجم، فقالوا له : الدكتور فلان الفلانى. فطلب من المخابرات أن يحضروه .. وبعد أسبوع سأل عبد الناصر المخابرات عنه .. ولماذا لم يأتوا به ؟ .. فقالوا له :

- احنا جبناه يا فندم، واعترف، وحُوكم، وأعدم.

أى أن مجرد السؤال عن شخص يعنى أنه مذنب .. والمذنب يجب أن يُعاقب .. أما التحقيق، والمحاكمة ، والاعتراف، فأمور شكلية، وبسيطة يسهل تدبيرها.

وقيل إن جمال عبد الناصر ذهب لأداء فريضة الحج .. والتقط سبعة أحجار ليرجم بها إبليس لكنه ألقى بستة فقط، واحتفظ بالحجر السابع .. وعندما سُئل عن السبب، قال:

- مفيش داعى نقطع كل الخيوط مع الشيطان .. يمكن نحتاجه.

والمعنى .. آن فى السياسة، كما فى رجم إبليس، لا تحرق كل الجسور، ولا تمزق كل الخيوط ..

و إن أغلقت الباب فلا تسد الشباك .. والنكتة قيلت عندما رفض جمال عبد الناصر، طرد شركات البترول الأمريكية من مصر، رغم أن خلافاته مع حكومتها قد بلغت الذروة.

ولم تعش النكتة طويلاً .. وإن كانت فيما بعد، قيلت على الزعيم الفلسطينى ياسر عرفات، الذى تتسم سياسته بمرونة فائقة، تسمح بعناق كل المتناقضات .. فهو فى مأزق يريد الخروج منه .. وليس من اللائق أن يعض يداً تُمد له.

****

وفى تلك الفترة ردت الأجهزة على هذا الكم الهائل من النكت .. باتهام الاستعمار والرجعية بأنها مسئولة عنه .. ومع أن ذلك يحمل جانباً من الحقيقة، فإن الجانب الآخر منها يشير إلى آن عيوب النظام هى التى سمحت لهذه النكت الموجهة بالانتشار فالمناخ ملائم .. والسوق فى حاجة لهذه السلعة.

وقيل .. إن المخابرات المركزية لعبت دورا كبيرا فى هذا المجال .. وحتى تأخذ النكتة النكهة المناسبة، ولا تبدو مستوردة، أو مترجمة، كان يصوغها عملاء مصريون، يعملون معها.

ويذكر فكتور مارشيتى، وجون د. ماركس فى كتابهما عن المخابرات المركزية : أن النكتة السياسية أحد أشكال الدعاية السرية "السوداء" التى تلجأ إليها وكالة المخابرات الأمريكية .. أما الأشكال الأخرى فهى متنوعة .. الشائعات .. تزوير الوثائق .. دس المعلومات المغلوطة فى وسائل الإعلام المختلفة .. استئجار منجمين ليكتبوا تنبؤات عن الكوارث الطبيعية والسياسية ..ترويج الخرافات فى المجتمعات التى تؤمن بها.

ويقوم بهذه الأعمال .. جهاز يسمى جهاز العمل السرى .. ويضم علماء اجتماع، وعلماء النفس، ومؤرخين، وآخصائيين فى مجالى الإعلام والدعاية، برعوا جميعاً فى اختيار "أهداف يمكن الوصول إليها" .. ويضم الجهاز أيضاً بعض نجوم الكوميديا مثل بوب هوب.[١٨]

و أنفقت الوكالة على الدعاية والتضليل أكثر من مليار دولار منذ إنشائها فى سنة ١٩٤٧، حتى سنة ١٩٨١.

---

(١٨) فكتور مارشيتى وجون د. ماركس : "CIA"، ترجم تحت اسم "الجاسوسية تتحكم بمصائر الشعوب" - الدار المتحدة للنشر -بيروت - فصل الدعاية والتضليل - ص ١٨٥ وما بعدها.

ويقال .. إن أجهزة المخابرات المعادية، كانت شديدة الحرص وهى تستعمل سلاح النكتة فى مصر، حتى لا تبدوكمن يبيع الماء فى حارة السقايين .. وكانت شديدة الحرص أيضا وهى تطلق النكت، حتى يصعب على أجهزة الأمن المصرية، تعقب مصادرها .. ومعرفة أول من أطلقها ..لذلك كانت تُطلق النكتة أولاً فى الأحياء الشعبية، حيث الازدحام، والكثافة السكانية الكبيرة .. وحيث يستسيغ الناس فيها النكتة أسرع، وينشرونها دون تردد .. فالضحك عندهم رغبة مزمنة لا تهدأ .. وهو ينسب للمخدرات أكثر مما ينسب للسياسة ... يضاف إلى ذلك، أن عيون الأمن – فى هذه الأحياء – ليست بالقوة التى عليها فى الأحياء الراقية، والنوادى الشهيرة، حيث كان سكانها خصوماً للنظام .. أى أن النكتة المضادة – أيام عبد الناصر – كانت تولد فى الخارج، وتنشط فى الأحياء الشعبية، وتجد نفسها فى الأحياء الراقية.

ويطلق على هذا النوع اسم "النكتة الدائرة" أى التى يوجد تعمد فى نشرها، ودورانها..

وقد كان من الصعب الوصول إلى مصادرها .. وفى بعض التقديرات أن ذلك كان يحتاج شبكة تحريات مكونة من (١٥٠٠) رجل أمن على الأقل، بشرط ألا يكون مر عليها أكثر من (٢٤) ساعة.

ولأن ذلك أمر صعب .. فإن أجهزة الأمن، أخذت بما هو أسهل، واكتفت بالقبض على شخص كان يجلس فى نادى الجزيرة وينكت على النظام .. وكان هذا الشخص ينتمى إلى عائلة وفدية قديمة، لم تحاول أن تنسى الماضى، وظلت تسعى إلى تخريب العهد الجديد بشتى الوسائل والأساليب.

ومن باب الاستسهال أيضا، اكتفى صلاح نصر مدير المخابرات العامة فى ذلك الوقت بأن حذر الناس من هذا النوع من النكات الذى لا يهدف إلى التسلية و إنما إلى هز الثقة فى القيادة.

وقد نشر التحذير فى كتابه عن الحرب النفسية .. مع أنه فى "قعداته" الخاصهة كان يجمع النكتة السياسية ويضحك عليها بشدة.

على أن تصنيع النكتة على مقاس الذوق المصرى لا يكفى لكى يضحك المصريون عليها.. أو لا يكفى لكى تلف وتدور وتنتشر وتكون مؤثرة وموجعة .. بل .. لابد أن يوجد فى الواقع ما يغذيها، ويبررها .. أى أنها لابد أن تكون تعليقاً على مواجع من الصعب التعبير عنها.

وبرصد نكت تلك الفترة، نجد أنها بالفعل كانت تدور، وتعبر عن مواجع الناس وقتها .. لقد التقت النكت والمواجع عند :

١ – الديكتاتورية.

٢ - غياب الديمقراطية.

٣ - تسلط أجهزة الأمن.

٤ - اختفاء الأشخاص.

٥ - سوء استخدام قرارات الحراسة.

٦ - فساد بعض رموز السلطة.

٧ - أزمات التموين.

٨ - الحياة الأرستقراطية لمن يتحدثون عن الاشتراكية.

٩ - تفضيل أهل الثقة عن أهل الخبرة.

١٠ - الوجه الآخر للوحدة والانفصال وحرب اليمن.

١١ - طريقة القبض على قيادات الإخوان المسلمين الهاربة فى منتصف الستينيات.

وقد قيل إن شاباً من الإخوان، كان مطلوباً القبض عليه، وطارده رجال الأمن، حتى دخل مسجداً، وراح على الفور يصلى .. وكلما أنهى الصلاة، ووجدهم على أهبة الاستعداد للقبض عليه، دخل فيها من جديد .. وفى لحظة مناسبة، وقبل أن يدخل فى صلاة أخرى، أمسكوا به، وقالوا له :

- لا .. بأه .. تعالى يا شاطر.

- انتوا مين وعايزين ايه ؟

- انت فلان الفلانى؟

- أيوه.

- من الإخوان المسلمين ؟

- لا .. والله العظيم أنا مش من الإخوان المسلمين.

- طب من إيه؟

- من الشبان المسلمين !

والنكتة رواها أحد رجال الرئيس جمال عبد الناصر.

****

وأغلب النكت فى تلك الفترة كانت "سياسية" خالصة .. وبعضها كان جنساً على سياسة.. أو كان ديناً وجنساً وسياسة .. كذلك فإن القليل منها كان يتضمن أسماء شخصيات بعينها ... جمال عبد الناصر ... والمشير عبد الحكيم عامر .. وشمس بدران .. مثلاً ... ومع شدة النكت التى قيلت عن قسوة المخابرات، فإن رئيسها صلاح نصر لم يأت اسمه فى واحدة منها .. ومع أن أنور السادات كان غير مؤثر، وكان يُسمى "مستر نعم" - لأنه كان موافقاً على طول الخط - فإن النكت لم تتركه فى حاله.

فقيل إن جمال عبد الناصر سأله فى إحدى حفلات أم كلثوم :

- هى الست حتغنى إيه الليلة؟

- فرد السادات فى أدب مفتعل :

- سيادتك الحب !

وكان يقصد أغنية "أنت الحب" .. والمعنى أنه لم يكن ليجرؤ على أن يقول لجمال عبد الناصر كلمة "انت" حتى ولوكانت جزءاً من أغنية.

وفى رواية أخرى أنه قال :

- الست حتغنى سيادتك عمرى.

أى "انت عمرى" ... اسم أغنيةأخرى لأم كلثوم.

وقيل إن عبد الناصر قدم إلى السادات شيكولاتة فيها بخت .. وعندما فتح عبد الناصر الشيكولاتة كان بخته يقول : "عدو عاقل خير من صديق جاهل" .. أما بخت السادات فكان يقول : "بالصبر تنال ما تريد" ... والواقعة حقيقية .... والنبوءة أيضاً.

****

ومع أن المصريين ليسوا انعزاليين، ويؤمنون بأنهم جزء من الأمة العربية، فإن صعوبة المعيشة و إيمانهم بأن ما يحتاجه البيت يحرم على الجامع، جعلهم يتساءلون عن سر الأموال التى تهدر فى الخارج .. فى بعض البلاد العربية ... وفى غيرها .. وعندما لم يجدوا من يشرح ويفسر لهم ذلك، حولوا مسار نكاتهم السياسية إلى هذا الاتجاه.

ولقد كان إخفاء الحقائق عن الشعب - فى تلك الأيام - سياسة مزمنة، جعلته لا يعرف لماذا كانت الوحدة مع سوريا ولا لماذا كان الانفصال .. لماذا تدخلنا فى اليمن ولماذا انسحبنا من هناك.. لماذا أيدنا عبدالكريم قاسم ؟ ثم لماذا سعينا للتخلص منه ؟!

والحيرة نفسها رافقت الشعب المصرى، وهويتفرج - من بعيد لبعيد - على نزول القوات المصرية الكونغو دعماً لنظام بياتزيس لوموميا .. وعلى مساندة النظم الثورية فى معظم

دول العالم الثالث .. وهذه الحيرة، مع الغلاء، ومع إحساسه بعدم المشاركة، جعلته يسخر من ذلك أحياناً ...وفيما يلى .. عينة .. عينة سمك، لبن، تمر هندى :

□ كان جمال عبد الناصر يسارع دائماً بإعلان تأييده لأى ثورة تحدث فى أى دولة من دول العالم، وكان يقول دائماً – فى بيان التأييد – إن أى اعتداء على هذه الثورة اعتداء علينا .. وعند عرض فيلم "ثورة على السفينة بونتى" قيل إنه أيد هذه الثورة، وقال : "إن أى اعتداء على السفينة بونتى هو اعتداء على الجمهورية العربية المتحدة".

والمعنى أننا نؤيد أى ثورة والسلام .. مهما كانت .. وقبل أن نعرف هويتها .. وكأنها هواية..كما أننا مستعدون للموت فى سبيلها حتى ولو كانت ثورة فى فيلم على الشاشة.

وأعتقد أن السخرية هنا من التسرع فى تأييد الثورات، لا من التأييد فى حد ذاته .. فنحن شعب نؤمن بأن الحرية – مثل الماء والهواء والخبز – حق لجميع البشر .. ولكن .. لا مبرر للتسرع، خاصة أن التجارب علمتنا أن فى العجلة الندامة .. موقف جمال عبد الناصر من ثورة عبد الكريم قاسم يؤكد ذلك.

□ فى أحد سجون العراق التقى عبد السلام عارف "رئيس الجمهورية فيما بعد" بفاضل الجمالى "رئيس الوزراء الأسبق" وسأل عارف، الجمالى :

– ايه اللى جابك هنا ؟

– عبد الكريم قاسم.

– ليه ؟

– لأنى عارضت جمال عبد الناصر .. وانت ؟

– أنا جيت هنا لأنى أيدت جمال عبد الناصر.

والمغزى .. أن السجن نهاية من يتعامل مع عبد الناصر، من يؤيده، ومن يعارضه .. فلا سياسات دائمة، ولا علاقات مستقرة .. ورغم أن جرعة الفكاهة قليلة .. فالنكتة شرسة.. والهدف منها الحض على كراهية التعامل مع عبد الناصر .. وقد انتشرت هذه النكتة فى وقت كان هدف الغرب فيه عزله عمن حوله، تمهيداً لاقتناصه، والتخلص منه !

□ كان اثنان من الوزراء اليمنيين يناقشان المشكلات الاقتصادية الرهيبة التى تواجه بلادهما ..فقال أحدهما :

– عندى حل مذهل.

– قل بسرعة.

- علينا أن نعلن الحرب على الولايات المتحدة .. وبعد أن نخسر الحرب سوف ينفق الأمريكيون آلاف الملايين لتعمير بلادنا تماما كما فعلوا فى ألمانيا واليابان.

عندئذ هز الوزير الثانى رأسه .. وقال :

- لكن .. ماذا يحدث لو انتصرنا ؟

والسخرية واضحة .. إذ لا يتصور أن تنتصر اليمن على أمريكا .. إذن .. فالمقصود استنكار الحرب فى اليمن بعد أن تدخلت فيها أمريكا لصالح الإمام السابق الذى أزاحته الثورة من الحكم.. والمقصود أيضاً أن أمريكا هى التى يحتاجها اليمن - فى النهاية لتعميره - فقد فعلت ذلك من قبل فى ألمانيا واليابان.

وأكاد أجزم أن هذه النكتة صُنعت فى الخارج، وراجت فى الداخل، فقد وجدتها منشورة فى كتاب "العقلية الإسرائيلية" لجون لافين [19] بالحرف لكن مع تغيير جنسية الوزيرين .. من الجنسية اليمنية إلى الجنسية الإسرائيلية.

ولانستطيع أن نجزم - عند قراءة الصيغة الإسرائيلية للنكتة - ما إذا كان الهدف منها السخرية من قوة الجيش الإسرائيلى .. أو تمجيدها.

فالمؤلف - المتحمس بجنون لإسرائيل - يقول : إن هذه النكتة راجت فى الستينيات، دون أن يحدد ... قبل أو بعد يونيو ١٩٦٧.

□ وفى الكتاب نفسه نكتة إسرائيلية، تخصنا .. تقول : إن بن جوريون قال لموشى ديان ذات صباح :

- هل قرأت الصحف المصرية اليوم ؟

- لا .. لماذا ؟

- إن جمال عبد الناصر يتهم إسرائيل بتهريب الأموال المزيفة إلى مصر كى ينهار اقتصادها.

- هذه تهمة باطلة .. فالعملة التى نتداولها فى إسرائيل، مزيفة ومع ذلك لم ينهر اقتصادنا.

ومع أن النكتة تحمل السخرية من العملة الإسرائيلية، فإنها تقول إن اتهامات جمال عبد الناصر لإسرائيل شماعة يعلق عليها مشاكله.

□ ونشرت صحيفة إسرائيلية أن سائحاً أمريكياً، نزل فى فندق هيلتون - النيل، ودخل

---

(١٩) لافين : "العقلية الإسرائيلية" - النسخة الإنجليزية - الناشر كاسل-لندن- ص٢

المطعم ليتناول إفطاره، فسأله المترودوتيل :

- هل تفضل الإفطار أوروبياً أم انجليزياً، أم مصرياً ؟

- لقد زهقت من الإفطار الأوروبى ... فلنجرب الإفطار المصرى.

وذهب المترودوتيل .. وبعد فترة جاء وهو يحمل طبقين فارغين وضعهما أمام السائح، وهو يقول :

- إفطاراً شهياً .. ياسيدى.

ولا تعليق.

□ وقيل ... إن مواطناً مصرياً كان يمشى عندما وجد طابوراً طويلاً كتلك الطوابير التى تكون على منافذ بيع السلع الاستهلاكية، فسارع ليقف فيه ... وبعد ساعة لم يتحرك الطابور، فسأل الذى يقف أمامه :

- هو الطابور ده، طابور إيه ؟

- والله ما أعرف.

- لكن أنت واقف فيه ؟

- أيوه، لأنى حاشترى أى حاجة، علشان أنا محتاج كل حاجة.

ومضت ساعة أخرى ولم يتحرك الطابور .. فراح كل شخص يسأل الشخص الذى قبله عن السر، حتى وصلوا إلى أول شخص فى الطابور، وعندما سُئل، قال :

- مفيش حد بيبيع حاجة هنا - أنا وقفت أربط الجزمة، فوجدت الطابور ورايا.

- طب ليه فضلت فى مكانك ؟

- قلت لنفسى .. يمكن يبيعوا حاجة .. أسيب دورى ليه وانا فى أول الطابور ؟

وهناك تشابه كبير جدا بين هذه النكتة، والنكتة التى أطلقها الإسرائيليون على العرب فى الأرض المحتلة ... وتقول :[٢٠]

إن عربياً كان ينام فى ساعة القيلولة عندما أزعجه صخب مجموعة من الصغار .. وحتى يغريهم بالرحيل ليواصل نومه قال لهم :

- إن هناك .. فى الناحية الأخرى من القرية، يوزعون التين مجاناً.

وبالفعل .. جرى الصغار إلى الناحية الأخرى من القرية .. لكن ما كاد الرجل يعود للنوم حتى هب من فراشه وهو يقول لنفسه :

---

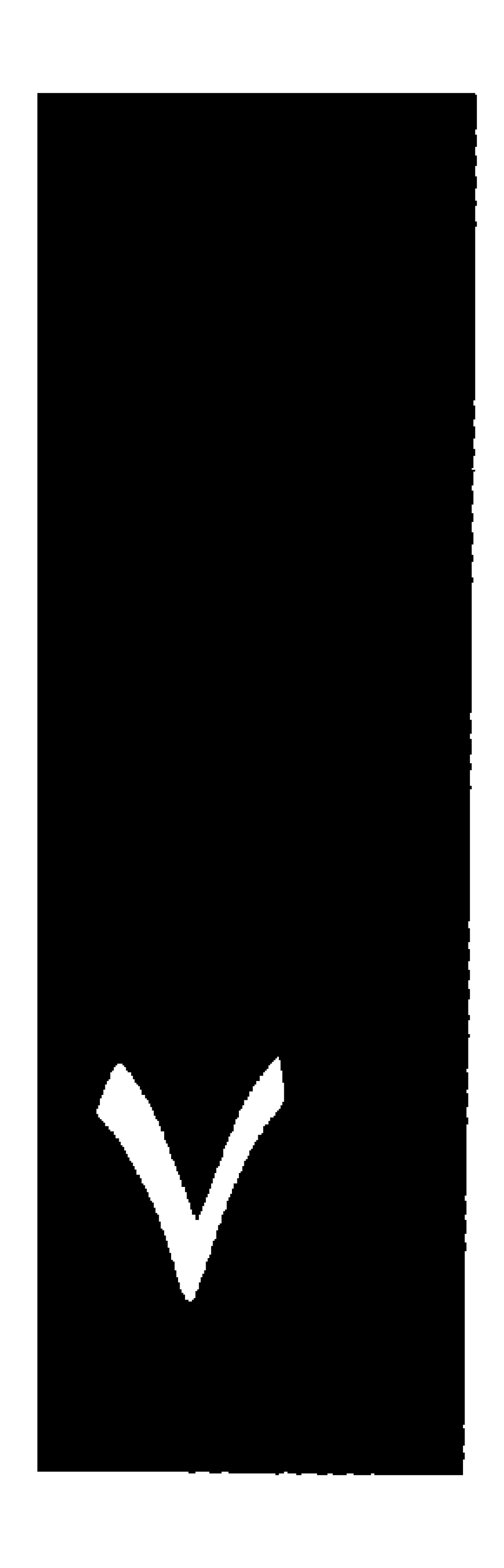
(٢٠) لافين - المصدر السابق.

ربما يوزعون التين مجاناً هناك، فلماذا لا أجرى لآخذ نصيبى !

والمقصود .. أن العرب يكذبون الكذبة ثم يصدقونها .. فهل مصدر نكتة الطابور إسرائيل ؟ .. أم .. أن النكتة مصرية، حورتها واستخدمتها إسرائيل، ونسبتها لنفسها، كما فعلت فى أشياء أخرى كثيرة ؟

****

ونكتفى ... بهذه العينات ... فالهدف الفهم .. لا السخرية !



من يعذب من .. السادات ام مارلين مونرو؟

"عا ش من أجل المبادىء.. ومات من

أجل السلام.. وذُبح على الشريعة

الإسلامية"

"نكتة قيلت عن السادات"

القصة شهيرة جداً ..

فى ليلة ثورة "يوليو" .. تعمد أنور السادات أن يدخل سينما "روضة المنيل" .. وتعمد أن يشاهد الأفلام الثلاثة التى تعرضها .. وتعمد المشاجرة، والذهاب إلى قسم الشرطة، وتحرير محضر، ليثبت – إذا ما فشلت الثورة – أنه كان فى السينما !

وسواء كان ذلك التصرف .. براعة أم كان هروباً .. فإنه تحول إلى نكتة .. فعندما كان أحد يسأل : "هو .. السادات فين ؟ .. كان زملاؤه فى مجلس قيادة الثورة يقولون : "فى السينما !".

وفيما بعد .. عندما قابل الرئيس الأمريكى رونالد ريجان – وهو ممثل أصلاً – أراد السادات أن يجامله، فقال له : إنه فى ليلة الثورةكان يشاهد السينما .. وأن أحد الأفلام الثلاثة كان من تمثيله ..فرد الرئيس الأمريكى، عليه، قائلاً : "لقد ساهمت إذن فى ثورتكم، وكان لى دور فى نجاحها".

وفى أول حديث للسادات، بعد أن أصبح رئيساً للجمهورية، تحدث عن واقعة دخوله السينما، ليلة الثورة، فعلق الصحفى الأمريكى الشهير "شولز بيرجر" – الذى أجرى الحديث معه لحساب "نيويورك تايمز" – قائلاً : إن هذه الواقعة تعد نموذجاً لأسلوب السادات السياسى، وهو أسلوب من النوع "خفيف الوزن".

ولم يكن السادات يعشق الفرجة على أفلام السينما فقط .. وإنما كان يتمنى أن يصبح أحد نجومها .. ومنذ فجر شبابه وهو يحلم بالوقوف أمام كاميرات السينما ... ففى سنة ١٩٣٦ وكان طالباً بمدرسة "رقى المعارف" الثانوية استجاب لإعلان طلب وجوه جديدة، وأرسل صورة فوتوغرافية له، وكتب يصف نفسه بأنه "طويل .. وسطى رفيع جداً .. وصدرى مناسب .. وسيقانى قوية " .. "متحكم فى صوتى .. فتارة تجدنى أقلد صوت يوسف وهبى .. وتارة تجدنى أقلد صوت أم كلثوم".

ومع أنه لم يصبح ممثلاً .. فإنه لم يتنازل عن هذه الموهبة، حتى عندما احترف السياسة.. وهذا الرأى يجمع عليه أنصار السادات وخصومه .. فهيكل يعتبره أحد نجوم عصر التليفزيون .. ويعتبره أول حاكم مصرى يأتى إلى الشعب وهو مسلح بكاميرا .. وهو نفسه قال : إنه لوكان ممثلاً لفضل القيام بالأدوار الكوميدية .. أما دورين كايز مراسلة إحدى شبكات التليفزيون الأمريكية فى القاهرة أثناء مفاوضات الصلح مع إسرائيل فتقول : إن موهبة السادات فى التمثيل كانت موهبة فطرية، وكانت تقوده إلى نوع من الأداء المأساوى – الكوميدى .. وكان "السادات" يحافظ على بعض "حركاته" كممثل .. فكان .. مثلاً : "يرمش بعينيه الأثنتين بتلك الحركة الغريبة التى أصبحت ماركة مسجلة لصورته كلما ظهر على شاشة التليفزيون الأمزيكى".[1]

---

(١) دورين كايز "ضفادع وعقارب "– ترجمة مصطفى كمال– كتاب البيان– ص٣٥،٣٦،٥٨.

وتعترف دورين كايز بأنها أحست بالغيرة منه لبراعته فى "خطف الأضواء" .. لكن .. إحساسها به كممثل، جعلها تتعامل معه "كنجم - زميل" لا كرئيس دولة .. فكان أن "مددت يدى، فربت على ركبته بحركة لا شعورية".[٢]

حتى قبل أن يصبح رئيساً .. فإنه استثمر موهبته كممثل فى تقمص دور المريض أو المتمارض، حتى لا يشارك فى المواقف الحرجة .. ولم ينكر ذلك عندما سأله مصطفى أمين عن مدى صحته ..وفسر موقفه بأن "هذه الثورة هى ثورة جمال عبد الناصر، وأن كل من يحاول أن يرفع رأسه فسوف يطيح به .. ولذلك قررت أن أبتعد".

وسمع أنيس منصور القصة من السادات فضحك جداً .. فسأله السادات عن السبب .. فقال :

- ممكن أقولها بشكل آخر يا سيادة الرئيس ....

- قصدك هذا المعنى ؟

- نعم .. لو أذنت لى .. إن جمال عبد الناصر مثل الكماشة .. وسوف يقتلع كل مسمار له رأس .. والذى يريد أن يبقى طويلاً يجب أن يكون بلا رأس ليظل غائراً فى الخشب.. وتكون القاعدة : يعيش أطول من كان بلا رأس.

- المعنى هكذا أوقع .. وأوجع !

- لكن .. قل لى يا سيادة الرئيس .. هل كان صحيحاً ما يقال من أنك لست مصاباً بالقلب، إنما كنت تعلن ذلك من حين إلى حين لتهرب من المواقف التى تجعلك تصطدم بعبد الناصر؟

- إن جمال عبد الناصر نفسه قد تصور ذلك. وقد حدث أن كنت مريضاً فى ميت أبو الكوم، فأرسل لى طبيباً ليتأكد من ذلك.

- وهل صحيح ما يقال أنك فى جنازة الرئيس عبد الناصر تظاهرت بأزمة قلبية، وكذلك فعل السيد على صبرى، ولم تكن هناك أزمة إنما كانت لديك معلومات مؤكدة من أن محاولة لاغتيالك قد دبرت أثناء هذه الجنازة ؟

"فضحك الرئيس السادات قائلاً : ياباى .. إن أحداً لا يصدق أحداً .. أعوذ بالله !" ... و"لم يثبت ولم ينف هذه الواقعة".[٣]

****

(٢) دورين كايز "ضفادع وعقارب" - ترجمة مصطفى كمال- كتاب البيان- ص٢٥،٣٦،٥٨.
(٣) أنيس منصور : "الدين والديناميت" - ص ٥٣٠.

فى ١٥ أكتوبر ١٩٧٠ أصبح أنور السادات رسمياً .. رئيساً للجمهورية .. بعد استفتاء نال فيه ٩٠.٠٤ ٪ من أصوات المشاركين فيه .. وأعلن هذه النتيجة وزير الداخلية - فى ذلك الوقت - شعراوى جمعة .. وبهذا الإعلان أصبح السادات مسماراً .. وله رأس .. ولا يخشى من كماشة جمال عبد الناصر.

لكنه .. بالرغم من ذلك كان يبدو كمن لا يصدق أنه أصبح رئيساً للبلاد .. فقد كان يكرر دائما، وعلناً، وفى دهشة - عبارات من عينة : "وقلت له .. الله .. دانا رئيس الجمهورية" أو من عينة : "وجم الطلبة وقالوا لازم آجى عندهم .. الله، مين اللى يجى.. أنا .. أنا رئيس الجمهورية" .. وبعد مظاهرات ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧، كان يناقشه أحد قيادات الطلبة، فلم يعجبه ما يقول، فصرخ : "قف مكانك .. أنت بتكلم رئيس الجمهورية".

لا هو صدق أنه "الرئيس" ولا نحن أيضاً !

أما سبب أننا لم نصدق، فهو أنه جاء بعد عملاق، مؤثر، وزعيم له هيبة، اسمه جمال عبد الناصر .. وكان فى ظله، ممسكاً بطرف جلبابه ... وموافقاً على كل قراراته .. حتى قيل إن "الزبيبة" التى كانت فى جبهته لم تكن من كثرة السجود، وإنما من أصابع يد جمال عبد الناصر التى كانت تهز جبهته، وتصطدم بها، وفى خشونة، كلما هم أن يتكلم، أو يناقش، أو يعبر عن رأيه .. ومع ارتطام أصابع جمال عبد الناصر بجبهته،كانت تصل إلى أذنه عبارة : "اسكت أنت" .. فالزبيبة من كثرة السكوت، لا من كثرة السجود.

إنه "مستر نعم"، أو "مستر موافق" الذى يجيد التقمص، والتنكر، ويعرف متى ينحنى للعاصفة حتى تمر .. ولأن العواصف لم تكن تتوقف، فقد بدا منحنياً، دائماً.

وعند توليه الحكم كانت هناك أغنية شعبية تقول : "أما نعيمة .. نعمين .. خللى عليوة يكلمنى" .. وبعد الاستفتاء على رئاسته .. قيل، إنه خرج يقول للشعب :

"أشكر الذين قالوا نعم والذين قالو لا .. أما "أما نعيمة" .. فأشكرها مرتين .. لأنها قالت: نعمين !".... نكتة !

وقد قالها المصريون وهم يقلدون أسلوبه المسرحى المميز فى الإلقاء.

إن الشعب المصرى، دُهش من توليه السلطة .. ولم يستسغ ذلك بسهولة .. فضرب كفاً بآخر ..واستخدم ضمير الغائب فى الإشارة إليه .. فقيل "مكتوبة له ابن ست البرين".. أى إن توليه الحكم قضاء، وقدر .. أو هبة من السماء .. أو حكمة إلهية لا يعرف المقصود منها سوى الله ..ولم يختلف هذا الرأى عن رأى محللى وكالة المخابرات المركزية (الأمريكية) الذين وصفوه بأنه "رئيس بالصدفة" .. مع أن كثيراً من الأدلة والمؤشرات تدل على أنه كان على علاقة "ما" بهذه الوكالة، قبل أن يخرج من الظل إلى النور !

ولا نتجاوز إذا ما قلنا إن المصريين أطلقوا عليه أسماء حركية، ساخرة فى بداية عهده..

مثل "خيشة" .. ولا نجد أن من اللائق ذكر الأسماء الأخرى.

وكان السبب أنه بدا أضعف من فى الدولة .. مع أنه على رأسها .. وكان فى قرارة نفسه يشعر بهذا الضعف .. خاصة فى مواجهة الفراغ الذى تركه جمال عبد الناصر .. بل إنه قال لجمال عبد الناصر نفسه : "ومن هذا الذى يستطيع أن يأتى بعدك ؟ إنك جعلتها مسألة صعبة جداً لمن سيخلفك لا سمح الله. ماذا تركت له لكى يفعل ؟ لقد طردت الملك وطردت الإنجليز، وبنيت السد العالى، وحققت إرادة الوحدة العربية، وغيرت وجه مصر كلها، إننى أرثى له هذا الرجل المسكين بصرف النظر عمن يكون".(٤)

أما الذين بدوا أقوى منه .. فهم الذين وصفهم بمراكز القوى .. وكانوا يسيطرون بالفعل على كافة نقاط السيطرة فى جهاز الحكم .. رئاسة الجمهورية .. المخابرات العامة.. وزارات الحربية والداخلية والإعلام : واللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى .. لكنه ببراعة، وبساطة أطاح بهم، وقبض عليهم، وحاكمهم، وسجنهم .. فكانت مفاجأة مذهلة، جعلت الناس تعيد النظر فيه.

لقد استهانوا، واستهزأوا به .. وسخروا منه .. ونكتوا عليه .. فلم يقدروا قوته .. وتعاملوا معه على أنه مثل "تمرة" المهرج فى سيرك الصراع على السلطة .. فكانوا مثل الفيل الذى صرعته نملة.

وفى وثائق القضية منشور بعنوان "الصدق والكذب – سادات الأمس وسادات اليوم" .. وفى المنشور .. أن السادات هو "أبرع الكذابين وأكثرهم سذاجة" .. وفيه : أنه يبدو متديناً "وهو متاجر بالدين، غارق فى الويسكى والحشيش والنساء ويمكن سؤال السيدة "ز.ر" إحدى نديماته وقواداته" .. وفيه : "أنه قتل الحياة البرلمانية فى مصر أثناء رئاسته لمجلس الأمة، ولم ننس بعد مظاهرات الطلبة: "أنور أنور يا صاجات فين قانون الحريات" .. وفيه "ولنتساءل ما تاريخ السادات وما موقفه خلال (١٨) سنة من الثورة.. أين كان رأيه ؟ لقد قام – بأمانة – بدور مضحك الملك .. جمع النكت وراح يحكيها، حتى أصبح يستحق أن نسميه الرئيس "شكوكو" ..".

ومعنى هذا المنشور .. أن خصوم السادات الأقوياء .. تركوا كل أسلحتهم، وحاربوه بسلاح التشهير والتنكيت .. لقد نزعوا أسلحتهم بأيديهم، وحاربوا بسلاح الشعب الضعيف .. التريقة والتأليس !

وفى شرائط التسجيل :

شعراوى جمعة : ازاى سيادتك ؟

على صبرى : زى الزفت .. إيه المجنون ده ؟

---

(٤) هيكل – خريف الغضب – ص ١٥٨.

والمقصود بالمجنون ده .. أنور السادات.

وفى شرائط التسجيل، قال على صبرى لمحمد فايق : "حا يضربكوا بالجزم بعد كده" .. ومرة أخرى كان يقصد السادات.

ولو كان خصوم السادات أقوياء .. فقد أضعف كل منهم الآخر .. فكانت المحصلة .. لا قوة .. ففى الشريط الثالث من التسجيلات وصف شعراوى جمعة وسامى شرف بالتمرجية .. "اثنين تمرجية كل واحد فيهم ماسك إبرة بنج .. حقنة مخدر ويعطيها لعلى صبرى .. والاثنين بيعلنوه بإقالته من منصب نائب رئيس الجمهورية .. والاثنين ماسكين إبر بنج .. وبيقولوا له اهدأ ..استحمل اتقل .. استنى يومين .. سيبنا احنا نفكر .. الاثنين أعطوه إبر البنج بصنعة لطافة .. وبكل هدوء .. وعلشان كده نجد على صبرى يطلب صهره محمد فايق .. ويقول له فى التسجيل : "شعراوى وسامى" بينيمونى وبيقولوا لى استنى يومين ثلاثة ..".[٥]

أكثر من ذلك نجد فى التسجيلات حوارات من هذه العينة بين من سُموا بمراكز القوى:

- أكلت ايه النهاردة ؟

- ملوخية.

- بس ؟

- أيوه .. بس !

- أنصحك المرة الجاية تأكل الملوخية ومعاها بصل ![٦]

وجاء فى مرافعة محمد عبد الله، محامى على صبرى فى القضية : "وقد سألت ما هى وظيفة نائب رئيس الجمهورية ؟ فقيل لى إنها إشرافية وأن يباشر ما يعهد إليه به رئيس الجمهورية، وإذا لم يعهد إليه بشىء، يظل يتمتع بالمنصب واللقب، ومتشحاً بالهيئة والأبهة.. يعنى بالعربى ..على صبرى بيشتغل "بالقطعة" .. أو "بالحتة" .. فليس له اختصاص".[٧]

إن ذلك كله جعل السادات أقوى من حقيقته .. وجعله يصرخ فى شراسة غير متوقعة :

"حافرمهم" .. أى سيحولهم من بشر إلى لحم مفروم !

وكانت كلمة "حافرمهم " مثار الكثير من التعليقات الساخرة فى الشارع .. فقيل .. إن الجزارين احتجوا لأن رئيس الجمهورية ينافسهم فى "أكل عيشهم" .. وقيل .. إنه تدرب

(٥) كمال خالد : "جمال عبد الناصر والسادات" - دار الاعتصام - ص ٢٣٢.
(٦) و(٧) كمال خالد : "جمال عبد الناصر والسادات" - دار الاعتصام - ص ٢٣٢، ٢٤١، ٢٥٤

على "فرم اللحم" فى مطبخ بيته عندما كان بلا عمل حقيقى فى أيام عبد الناصر .. وقيل إن رئاسة الجمهورية تغير اسمها إلى "حاتى السادات" .. ورسم فنان الكاريكاتير "حجازى" قاعدة ميدان التحرير وعليها "مفرمة" ضخمة .. لكن الرسم لم ينشر فى "روز اليوسف" .. فالرقيب رفضه ..

ولأن الرقيب كان لا يميل إلى السادات، فقد أعاد الرسم إلى سكرتارية التحرير، وقال : "قولوا لحجازى بلاش هزار .. السادات فعلاً جزار" !

ومن سخرية القدر، أن رئيس المحكمة التى حاكمت رجال (١٥) مايو، وحكمت عليهم، كان حافظ بدوى.. وهو رجل رزقه الله بتسع بنات قبل أن يرزقه بولد، مع أنه كان وزيراً للشئون الاجتماعية، ونائباً فى مجلس الأمة، وقيادة عليا فى التنظيم السياسى فى مجتمع يدعو إلى تنظيم الأسرة، وتحديد النسل، ويطالب الناس بأن ينظروا حولهم، وتحتهم .. ولم يكن مثل رئيس الوزراء الهندى الراحل لآل بهادور شاستري الذى افتتح مركزاً لتنظيم الأسرة، ثم طُلب منه الكلام، لكنه رفض قائلاً : "لكونى والداً لستة أطفال أجد نفسى غير مؤهل للكلام فى هذه المناسبة".

وقدكان هدف حافظ بدوى فى الحياة أن يزوج بناته .. وأنقذه ذلك .. وغير مسار حياته.. فقد وضع استقالته فى جيبه وراح يزف إحدى بناته .. فلم تصل الاستقالة إلى السادات .. فكان أن أصبح قاضياً، يحاكم من كان من الطبيعى أن يكون معهم فى نفس القفص .. وكان أن صاح فيه ضياء الدين داود - بعد أن نطق بالحكم - "مبروك عليك يا حافظ : مبروك عليك الثمن".[٨]

ومع أن حافظ بدوى محافظ بالسليقة .. فقد اختاره السادات رئيساً للمحكمة التى أطلق عليها اسم "محكمة الثورة" .. وقد اشتهر أيضاً بقرض الشعر العمودى، وكتابة قصائد المدح، فعينه السادات .. رئيساً لأول مجلس شعب بعد "ثورة التصحيح" .. وبعد إلغاء "مجلس الأمة" .. لكن .. المصريين لم يعجبهم أن يكون رئيس البرلمان رجلاً من هذا الطراز فأسموه "حافظ صم" ! .. وقيل إنه طالب السادات بمكافأة "تصحيح" بعد ثورة "التصحيح" .. فسأله السادات : ليه .. ياحافظ ؟ .. فقال له : لأنى أصلاً "مدرس" يافندم!

وفى ذلك الوقت نشرت صحيفة "الموند" الفرنسية، هذه النكتة عن السادات فلم تعرف ما إذا كانت نكتة أم نبوءة، أم أمراً واقعاً .. فبعد توليه الرئاسة قال لنفسه ذات يوم :

يجب أن أناقش الرئيس فى كثير من الأمور اليوم ..

لكنه ... استدرك ...

---

(٨) كمال خالد - المصدر السابق - ص ٢٦٦.

- لكننى أنا الرئيس .. فماذا أفعل .. آه .. ينبغى أن أناقش هذه الأمور مع زوجتى !

****

زوجته .. هى جيهان رءوف .. التى عُرفت فيما بعد باسم جيهان السادات .. ووُصفت بأنها "سيدة مصر الأولى" .. على غرار لقب زوجة الرئيس الأمريكى .. التى توصف بالسيدة الأولى فى البيت الأبيض.

وطبقاً لرواية منسوبة إليها، فإنها ذات يوم كانت تتناول طعام العشاء مع زوجها فى "كازينو الحمام"، فجاءت قارئة كف عجوز، وأخذت يدها، ثم قالت لها : "إنك ستكونين ملكة مصر" .. فأغرقت هى وأنور السادات فى الضحك.[9] واعتبرا ما قالته العجوز .. خرافة .. لكنها .. عادت لتردد الخرافة بعد أن أصبحت زوجة الرئيس .. ومن ثم .. كان لا بد أن يصبح ملكاً .. حتى تكتمل النبوءة وتصبح هى ملكة.

"ولقد أثبتت "جيهان" أنها قوة ضخمة فى حياة زوجها، وكانت عاملاً دافعاً وراءه، وكان استعداده الطبيعى الموروث للخضوع للقوة تعوضه كمية الطاقة المتحكمة الكامنة فيها".[10]

كان السادات يكره قراءة التقارير التى ترد إليه من كافة أجهزة الدولة .. وكان يعتقد أنهم يريدون قتله بهذه التقارير كما قتلوا بها جمال عبد الناصر من قبل .. فحاولت جيهان أن تعوض هذا القصور، فاهتمت بقراءة تقارير مراقبة التليفونات وتقارير المخابرات وتقارير الرأى العام، حسب ما ذكره هيكل .. وكانت تهتم اهتماماً خاصاً بتقارير النكتة، حسب ما أضاف أحد أفراد السكرتارية الخاصة بها .. وكانت تهتم بجمع النكت التى تقال عنها وعن زوجها، وتقارن بين ما جمعت، وما جاء فى التقارير .. ولم تكن تضحك لهذه النكت .. بل على العكس كانت تبدو غاضبة وهى تسمعها أوتقرأها .. وكانت تعلق أثناء ذلك بعبارات قاسية تفيد .. مامعناه .. أن الشعب لا يقدر تضحية زوجها وتضحيتها .. وأنه باختصار .. لا يستحقهما .. ولو أنصف القدر لكان مكانهما دولة أخرى .. وشعب آخر .. أمريكا أو سويسرا .. مثلاً ..

وقد عبرت عن ذلك ذات مرة بقولها :

"والله أنور لو رشح نفسه فى أمريكا لكسب" !

ثم أضافت :

"هناك الشعب يحبه أكثر من رئيسه نفسه" !

ومن المؤكد أن النكت التى قيلت عن جيهان أوجعتها .. فهى نكت لا يجوز أن تقال.

---

(٩) و(١٠) هيكل - المصدر السابق - ص ١٠١، ١٠٣.

أما التى قيلت عن السادات وعصره، فمن الممكن نشرها ..

قيل .. إن مأمور سجن "أبى زعبل" قال للمعتقلين السياسيين الذين أمر السادات بالإفراج عنهم، بعد (١٥) مايو ١٩٧١ :

- أنا مش عاوز أشوفكم تانى !

فقال أحدهم :

- ليه .. هو انت حتسيب مصلحة السجون ؟

وقيل .. إن إحدى عصابات المافيا اختطفته .. ثم اتصلت بوزير الداخلية ممدوح سالم، وقالت له مهددة :

- لو ما دفعتوش (١٠٠) مليون دولار .. حنرجعه لكم .. فوراً !

وفى ذلك الوقت أطلق السادات على نفسه لقب "الرئيس المؤمن" ورفع شعار "دولة العلم والإيمان" وذكر الناس باسمه الأول "محمد" وكان يلقى أهم تصريحاته السياسية بعد أداء صلاة "الجمعة " حيث كان يجلس ويسجد ويركع فى خشوع من يعرف أن كاميرات التليفزيون تلاحقه .. فلم ينطل ذلك كله على الشعب الساخر، الفيلسوف .. فأطلق هذه النكتة التى تقول :

أنه ذات يوم خرج مسرعاً من البيت ثم عاد إليه مسرعاً .. فسألته زوجته :

- إيه .. فيه إيه ؟

- نسيت حاجة مهمة جداً !

- نسيت إيه ؟

- زبيبة الصلاة !

وفى ذلك الوقت أيضاً، اشتعلت مجلات الحائط فى الجامعة بهجوم ساخن، ساخر عليه.. ولم يلبث أن امتد إلى زوجته .. ومع أن النكت السياسيةكانت شرسة فإنها بدت مثل الحمل الوديع بجانب ما تقوله مجلات الحائط .. وقد ازدادت صحف الحائط قوة وحدة فى شتاء ١٩٧٢، والسبب أن السادات أطلق على عام ١٩٧١، عام "الحسم".. حسم قضية الحرب مع إسرائيل ..وقد مر عام الحسم بلا حسم، فقال السادات : إن ذلك كان بسبب الضباب "القادم من آسيا، حيث كانت الحرب الهندية - الباكستانية مشتعلة .. فكانت كلمة "الضباب" مصدر سخرية ..وتنكيت .. فالتلميذ لم ينجح فى الامتحان بسبب الضباب .. والزوجة لم تعد الطعام لزوجها بسبب الضباب .. والرجل وجد نفسه فى فراش آخر بسبب الضباب .. فالكلمة للدعابة فى بلد مشمسة مثل مصر.

ومن جديد، انتشرت أشعار أحمد فؤاد نجم غير المنشورة .. "الأوله آه .. والغدر لمن حكم.. صبح الأمان بقشيش .. والثانيه آه .. والندل لما احتكم .. يقدر ولا يعفيش .. والثالثه آه.. والحر مهما اتحكم للندل ما يوطيش".

ولاحظ رسام الكاريكاتير "الليثى" أن موضة أحذية السيدات كانت الكعب الغليظ الذى كان يعرف باسم "الدبابة" فرسم فى مجلة "صباح الخير" .. حذاءً من طراز الدبابة، وترك الكاريكاتير بدون تعليق .. وطلب من القراء أن يرسلوا له بالتعليق المناسب .. أما السبب فهو أن التعليق الذى اختاره لا يمكن أن يمرره الرقيب .. وكان التعليق الذى تقوله الجزمة الدبابة هو :

"حنحارب .. حنحارب" !!

أى أن الكلام عن الحرب كلام فى الأرض .. وفيما بعد .. ثبت أن ذلك غير صحيح .. فقد حاربت مصر .. وعبر جنودها القناة .. وحطموا الأسطورة .. وصنعوا معجزة .. وساهم فى ذلك ممثل تنكر فى زى رئيس الجمهورية، أجاد التمويه، والخداع، ولعب دوره ببراعة هو أنور السادات.

وكان أن تغيرت صورته تماماً بعد ٦ أكتوبر ١٩٧٣ .. تحول من مهرج إلى قائد ...

"خبر .. بالنكتة لوجيا .. والحداقة .. والتكنولوجيا .. والتاريخ .. هجم الزناتى ع الخواجة..ولبسه العمة بصاروخ .. جود عليوه .. باد مائير .. كل عام فانتوم بخير" .. والكلمات قصيدة .. والقصيدة لأحمد فؤاد نجم .. وقدنُشرت ولم يتم تداولها سراً .. فقليل من الديمقراطية جاء بعد الحرب .. وقليل من الديمقراطية يكفى لأن تتراجع النكت السياسية .. وتهدأ صحف الحائط.

****

وبعد الحرب انفجر "الديسكو" الإعلامى الذى راح ينفخ فى صورة "النجم" الجديد، الذى وجد نفسه على المسرح وحيداً - نجماً وكومبارس - فراح يتصرف على أنه "آخر الفراعنة" .. أو أنه "الفرعون - الإله" .. واعترف بذلك للرئيس الأمريكى جيمى كارتر، وقال له إننى أحكم مصر "طبقا لأسلوب رمسيس الثانى".(١١)

ولأنه كان يتصرف على هذا النحو، فإنه لم يكن ليهتم إلا بما يقوله .. لا بما يسمعه .. فالفرعون الإله يُرسل ولا يستقبل .. وكل ما يصدر عنه لابد أن يُرضى "شعبه" .. ومن ثم فهناك شبه إجماع على أنه لم يكن يهتم بتقارير النكت ولا بأى تقارير أخرى .. وكان اهتمامه الأكبر بصحته، وطعامه، ورشاقة جسمه، وصورته المنشورة والمذاعة على الهواء مباشرة، والترويح عن نفسه، وإبعاد الهموم عنها.

(١١) هيكل - المصدر السابق - ص ١٨٩.

لذلك .. كان يقرِّب كل من يضحكه ويسليه، ويعطيه الرأى مغلفاً بنكتة أو قطعة سكر .. ومن ثم .. فإن النكت التى قيلت عن جمال عبدالناصر كانت تصله أولاً بأول .. وكان يقهقه إذا ما سمعها .. ثم .. يقول فى دهاء المتمنع الذى يطلب المزيد "عيب .. عيب ياولاد .. الراجل مات .. الله يرحمه".

ومن الذين كانوا يعيدون النكت على السادات .. بناته .. فكان يضحك عليها، مع أنها عنه.. وكانت ابنة محمود أبو وافية تفعل الشىء نفسه .. وكان يضحك أيضاً .. فالنكتة التى كانت تصل إليه فى تلك الفترة لم تكن تؤثر فيه .. ولم تكن تثير رغبته فى البحث عن أى مدلول وراءها .. فلا كانت بالنسبة له وجهة نظر .. ولا كانت وسيلة من وسائل قياس نبض الناس.

أما أقرب المقربين إليه .. فكانوا عثمان أحمد عثمان، وأنيس منصور، وموسى صبرى، وفايز حلاوة .. وكان عثمان أحمد عثمان بطبيعته مسئولاً عن إزالة الشوائب التى يمكن أن تعلق بمزاج السادات .. وكان أنيس منصور قادراً على إضحاكه، وتسليته، وكان موسى صبرى يتدخل عندما يكون المطلوب .. فتح نيران الصحافة على أحد .. وكان فايزحلاوة أكثر الحاضرين استثماراً لما يجرى .. فقيل إنه استخدم النكت التى كانت تقال فى جلسات السادات الخاصة، فى مسرحياته التى قدمها بعد حرب أكتوبر مع زوجته (فى ذلك الوقت) تحية كاريوكا .. مثل "روبابكيا"، و"البغل فى الإبريق"، و"يحيا الوفد" .. وفى المسرحية الأخيرة سب السوفيت كثيراً .. وضحك عليها السادات طويلاً.. فقد شارك فى التأليف .. وكانت المرة الأولى من نوعها التى تهبط فيها النكت من "قعدات الرئيس الخاصة" إلى مسرح "الكباريه السياسى".

وقيل .. إن وزير الخارجية وقتها إسماعيل فهمى، سافر إلى موسكو، وقابل نظيره السوفيتى، أندريه جروميكو، وراح يتحدث عن "الصداقة التى تكنها مصر للشعب السوفيتى" .. فاستفز ذلك جروميكو .. "فأمر بإحضار شريط تسجيل عليه نص يحيا الوفد"، وأداره .. وأسمع إسماعيل فهمى الرد على ما يقال من صداقة بين مصر والاتحاد السوفيتى.[(١٢)]

وقد احتج السفير السوفيتى فى القاهرة على الإهانة الموجهة إلى بلاده .. فسحبت الرقابة ترخيص المسرحية .. ولو كانت الرقابة تعرف أن الرئيس هو المؤلف الحقيقى لتراجعت .. أو ما كانت قد تدخلت أصلاً !

وفيما بعد .. قرر السفير السوفيتى الأسبق "فلاديمير فينوجرادوف" أن يرد الصاع، صاعين، فكتب فى بعض أوراقه التى دونها عن عمله فى مصر حتى سنة ١٩٧٤، يقول :

"وربما لم تكن عبثاً تلك الطرفة الشائعة التى تقول إن السبب الرئيسى لهزيمة "نابليون

---

(١٢) راجع صلاح عيسى : "مثقفون وعسكر" - ص ٣٠٤.

بونابرت " فى مصر هو وابل النكات أوالسخرية الذى واجهه به الشعب المصرى .. بل إن السادات قد أصبح هدفاً للنكات اللاذعة والساخرة، بمجرد إذاعة خطابه الأول الذى ألقاه عقب توليه منصب رئيس الجمهورية .. كان من بينها نكتة تقول إنه : بعد موت عبد الناصر استقل أنور السادات سيارته، وعند مفترق الطرق سأله سائق السيارة :

- إلى أين نتجه يميناً أم يساراً ؟

- أبدى السادات انزعاجه، وقال :

- وإلى أين كان يتجه عبد الناصر عادة ؟

أجاب السائق :

- جهة اليسار.

عندئذ تنهد السادات قائلاً :

- حسناً فلتضىء إشارة الدوران ناحية اليسار بينما تتحرك ناحية اليمين.(١٣)

****

وبالطبيعة .. كان السادات يميل أكثر لنجوم الكوميديا .. فهم أخف على القلب .. لذلك.. أحب عادل إمام، وأصبحا صديقين .. فالأسلوب مشترك، والهدف أيضاً .. الضحك والنجومية .. وليس مستغرباً أن يعتبر عادل إمام السادات منافساً له .. لا يترك له ما ينفرد به لإض حاك جمهور مسرحه.

فهناك نظرية تجمع بين الفن والسياسة تؤكد أن كل حاكم له قرين فنان .. فظروف شهرة الحاكم السياسية هى نفسها التى تدفع فناناً من عينته للنجومية .. ويمكن أن يحدث "اللبس" فلا نعرف الزعيم من الممثل .. جمال عبد الناصر وعبد الحليم حافظ.. رونالد ريجان وسلفستر ستالونى .. وأنور السادات وعادل إمام .. إنهما وجهان لعملة واحدة !

وقد شاهد السادات تسجيلاً لمسرحية "مدرسة المشاغبين" .. وتوقف عند الجزء الذى يتحدثون فيه عن انضمام الموجات .. وتكرار إذاعة مارشات عسكرية وقرآن .. ثم إعلان نبأ .. "مرسى الزناتى انهزم يا رجاله" .. وقال : الله .. العيال دول بيتمألسوا على مين ؟.. فقد تصور أنهم يسخرون منه بعد أن سبق إعلانه خبر وفاة جمال عبد الناصر، مارشات عسكرية، وقرآن لكن "ولاد الحلال" تدخلوا لإقناعه بأنهم لا يقصدونه.. وأن ما يفعلونه هو تمثيل فى تمثيل.

****

(١٣) كتاب الأهالى رقم (٢٣) : "حقبة غامضة من التاريخ المصرى" - ص ٣٥٠.

ولوكان السادات قد ضحك من النكت التى قيلت عنه، فقد أغضبته كثيراً النكت التى أصابت زوجته .. وكان إذا سمعها يقول وقد بلغ انفعاله الذروة .. دى ..دى .. بذاءات.

ويقول محمود عوض :

- إن جيهان السادات كانت مغرية فى حد ذاتها للنكتة .. فقد أعطت لنفسها دوراً فى الحياة المصرية لا يتناسب مع دور المرأة المصرية فى المجتمع .. كانت تريد أن تكون شخصية عامة على الطراز الأمريكى .. فانفصلت تماماً عن الشعب .. وعن تقاليده .. وكانت مظهرية جداً .. تفعل عكس ما تقول .. فهى - مثلاً تدعى البساطة مع أنها متعجرفة.

أيضاً .. كان انطباع الرأى العام عنها أنها أقوى فى مواجهة زوجها .. وأن شخصيتها مسيطرة ..فكان ذلك بمثابة التوابل التى جعلت النكت التى قيلت عليها .. "حريفة".

وعند ظهورها على المسرح استفزت الناس بقصة .. وعند خروجها من المسرح استفزت الناس بنفس القصة تقريباً .. أى أنها رغم كل ما حدث لم تتغير.

أما القصة الأولى فقد حدثت بعد وفاة جمال عبد الناصر، وذهابها إلى بيته، وإقامتها مع زوجته تحية كاظم سبعة أيام بفستان أخضر - قالت فيما بعد إنه أزرق .. وسواء أخضر أو أزرق فهو ملون .. أى خارج عن تقاليد لون الحداد والعزاء الوحيد .. الأسود.

والقصة الأخرى حدثت بعد اغتيال زوجها .. ففى جنازته لُوحظ أنها لا تغطى رأسها بشىء ..وأن تسريحة شعرها لا تتناسب مع كل ما حولها.

إنها تلك الأشياء الصغيرة البسيطة التى يزنها المصريون بميزان الذهب .. خاصة فى الحزن .. والموت وخاصة إذا كان "المرحوم" هوالزوج .. صحيح أنه مات .. أى أصبح آخر من يعلم .. لكن ..صحيح أيضا أن الناس ترى .. وعيونها مفتوحة .. وكاميرات التليفزيون كذلك.

وقد تزوجت جيهان فى سن السادسة عشرة .. ولم تحظ إلا بقدر ضئيل من العلم .. فسعت بعد أن أصبحت "السيدة الأولى" إلى تعويض ما فاتها حتى تلائم وضعها الجديد.. وكان ذلك من الأمور التى حُسبت لها .. لكن .. ماحُسب عليها .. أنها بحكم السلطة والنفوذ حولت المعرفة إلى شهادة .. ثم شهادة أكبر .. وهكذا حصلت على الدكتوراه .. وكان من الطبيعى، بعد كل هذا أن تتضاعف النكت عليها .. فماذا يملك الناس سوى الرد على السخرية بسخرية أشد !

****

وفى كتاب "النقاب" أو "الحجاب" "VEIL"س عن الحروب الخفية للمخابرات

المركزية عام ١٩٨١ - ١٩٨٧ يورد مؤلفه الصحفى الأمريكى "بوب وود ورد" هذا النص الغريب جداً :[١٤]

"Since the shock of the Iranian revolution, Turner had attempted to increase the network of paid agents in foreign governments and foreign inlclligence services, including some allies and friends. Egypt was an example. A CIA security operation in Egypt, designed to provide President Anwar Sadat with protection and with warninings of coup and assassination plots, also provided the CIA with electronic and human access to Egypt's government, its society and its leader. Sadat smoked dope and had anxiety attacks, but Turner never paid any attention to this palace gossip The CIA, however, was not likely to be surprised by Sadat or by events in Egypt. The place was wired".

أما ترجمة النص حرفياً فهى :

"منذ صدمة الثورة الإيرانية بدأ تيرنر (ستانسفيلد تيرنر مدير المخابرات المركزية سنة ١٩٧٧ - ١٩٨١ يعزز شبكة العملاء فى الحكومات الأجنبية الصديقة والحليفة وكانت مصر مثالاً، ففى عملية أمنية صممت لحماية الرئيس المصرى (أنور السادات) و إنذاره من محاولات الانقلاب والاغتيال قدمت الوكالة للرئيس وللحكومة المصرية معدات إلكترونية وخبرات بشرية متطورة ..تسربت أنباء عن أن السادات كان يتعاطى المخدر وتنتابه لحظات تلهف عليه. إلا أن تيرنر لم يأبه لهذه الشائعات التى كانت تدور فى أروقة القصر الجمهورى. وتم تركيب أجهزة تصنت فى الأماكن الحساسة لتغطية أكبر قدر من المعلومات".

وبوب وود ورد صحفى أصبح شهيراً بعد أن ساهم - من خلال علاقته بالوكالة - فى تفجير فضيحة "ووترجيت" هو وزميله فى "الواشنطن بوست" - كارل برنشتين .. وقد سربت له الوكالة هذه المعلومات التى لا تفسير لنشرها سوى أن الأمريكيين فضحوا السادات ميتاً بعد أن خذلوه حياً .. ولو كنا قد قلنا أنه كان يشاع أن السادات رئيس "صاحب مزاج" لكان طبق علينا قانون "العيب" الذى سنّه السادات بنفسه .. أما أن يقول الأمريكيون ذلك .. فقد قدموا الدليل من عندهم .. وناقل الكفر ليس بكافر.

وجرت العادة أن يربط المصريون بين النكت والمخدرات .. والآن .. أضافوا لهذه العلاقة.. السادات .. فصورته الدعابات مثل الذين يدخنون الحشيش .. غائباً عن الوعى مثلهم .. يتكلم على طريقة "يونس شلبى" .. ويقهقه كالمصاب بهيستيريا، أو نوبة مغص كلوى.

وفى قصيدة "بيان هام" من إذاعة شقلبان، أحمد فؤاد نجم :

---

(١٤) الناشر : سيمون اند شيستر - لندن - ١٩٨٧ - ص ٣١.

نقدم إليكم

ولاتقرفوش

شحاته المعسل

بدون رتوش

....

....

يأفْين

يبلبع حبوب

ويفضل يهلفط

ولا تفهموش

....

....

بسم الله

سلام عليكم

وسلمون وموز

وأما المسائل

فهنجف ولوز

....

....

مساء التنفس

مساء الروايح

....

....

سلام عليكم

بصفتى رئيساً

وأبا

وجوز.[١٥]

وفى الحقيقة .. كان الواقع أكثر سخرية من النكت والقصائد السرية .. ويكفى أن نذكر أن تجار "الباطنية" هم الذين أيدوا وساندوا وزير الداخلية فى الانتخابات البرلمانية .. وهذا الوزير هو نفسه الذى وقف فى مجلس الشعب يعلن بكل فخر إنه يستطيع أن يأتى بالصحفيين المعارضين "بلابيص" .. أى عرايا كما ولدتهم أمهاتهم .. والمعنى مفهوم .. لكن .. الأهم من المعنى .. أن اللغة السياسية فى مصر انحدرت إلى "أسفل سافلين" .. وأصبحت مناسبة لما يقوله "مطرب ثورة التصحيح" أحمدعدوية .. سلامتها أم حسن .. وحبة فوق .. وحبة تحت .. وزحمة يادنيا زحمة .. زحمة ولا عدش رحمة .. مولد وصاحبه غايب.

وكان الرد الوحيد على هذه اللغة ..بالنكت الفاضحة .. وكان ذلك من طبائع الأمور ..فعندما تكون البذاءة لغة السلطة، تكون الوقاحة لغة الشارع .. فالناس على دين حكامهم.

وفى قصيدة "الانتخابات" يصور أحمد فؤاد نجم المثل القائل "حاميها حراميها" .. ويجسم واقعة المسئول الأمنى الكبير الذى تولى حملاته الدعائية تجار "الصنف" .. وفى القصيدة سخرية النكتة ..ومع أنها حادة فقد كانت أقل مما حدث فى الواقع .. فعلاً.

وقد اختار نجم اسم "العيسوى" ليسهل الاستدلال على الاسم الحقيقى .. "بشرى لجميع الحشاشة .. العيسوى بيه رمز الماشه .. سبحان الله من أومباشه .. بقى كل الأمن العام فى إديه ..العيسوى بيه .. العيسوى بيه .. من أجل ضمان الحرية .. لجميع تجار الباطنية .. العيسوى بيه مية الميه .. حيخلى القرش بربع جنيه".[١٦]

****

واشتهر السادات باستشهاده دائماً بالأموات .. أى بمن لا يمكن الرجوع إليهم .. فاتجهت النكتة إلى هذه الثغرة .. فاخترقتها .. ونفذت منها.

فقيل على لسانه .. وبأسلوبه :

- وفى يوم جانى جمال .. قلت له .. خير يا جمال .. ما احنا صحاب .. قال لى اااالله

(١٥) نجم الأعمال الكاملة- دار طلاس- دمشق-جـ١ ص١٣٣

(١٦) نجم - المصدر السابق - ص ٤٣٥.

يرحمه سلفنى جنيه .. جمال عبد الناصر بيستلف جنيه .. ومن مين .. منى أنا اللى مش لاقى حق الدخان .. المهم عطيته الجنيه .. وشهد عليه عبد الحكيم عامر االله يرحمه .. لكن .. أنا قلت مش كفاية شاهد واحد .. لازم اتنين حسب الشرع .. فقلت مفيش غير صلاح سالم االله يرحمه يشهد .. وبالصدفة كان معاه أخوه جمال سالم االله يرحمه .. وشهدوا إن أنا سلفت جمال جنيه .. وده اللى خلانا فى ثورة التصحيح نتخلص من مراكز القوى لأنهم مادفعوش الجنيه اللى استلفه جمال .. وكان لازم آخده.

على هذا النحوكان يقلده الناس .. فهو يرتكب الأفعال الكبيرة بمبررات صغيرة .. وهو لا يستشهد إلا بالموتى .. ومن ثم كان يروى التاريخ على راحته .. خاصة "لابنته همت".. وابنته همت هى همت مصطفى، مذيعة التليفزيون التى كانت مقربة منه .. وكانت تجرى معه فى عيد ميلاده حواراً تليفزيونياً، بقريته "ميت أبوالكوم" .. وفى كل سنة كان يروى قصة حياته من جديد .. وفى هذا الحوار كان ينادى المذيعة .. يا همت .. يابنتى.. بطريقة جعلت الناس تقلدها بتعمد.

****

وفى عهد السادات كثر تلفيق القضايا لخصومه من اليسار .. ثم لخصومه من الجماعات الدينية ..وحتى يحرموا من شرف المحاكمة السياسية، ويقعوا فى شر الفضائح الأخلاقية، كان بعض رجال الأمن يفضلون تلفيق قضايا المخدرات لهم.

وقيل .. إن معارضا للسادات قُبض عليه .. وعند فتح المحضر أخرج الضابط من درج مكتبه قطعة حشيش، ووضعها أمامه .. وسأله :

سين : كنت بتعمل إيه بحتة الحشيش دى ؟

فأمسك المعارض قطعة الحشيش وألقى بها من النافذة وهو يقول :

- لا سين .. ولا جيم.

فأخرج الضابط قطعة حشيش أخرى، وقال فى هدوء وكأن شيئاً لم يحدث :

- طب .. سين على دى !

أى أنه لا مفر.

وقد سمعت هذه الرواية .. فلم أعرف ما اذا كانت نكتة أم حقيقة .. فكل شىء جائز.

****

وفى رواية "يوم قتل الزعيم" يصفه نجيب محفوظ بأنه كان يرتدى ملابس هتلر ويتصرف مثل مهرج فى سيرك .. وأتصور أن الوصف استوحاه نجيب محفوظ من ولع السادات بثيابه وإفراطه الزائد فى الاهتمام بأناقته .. ولأنه كان يؤمن بالحسد ويردد عبارة "اتقوا

سم الأعين" فقد كان يميل إلى ارتداء الملابس الزرقاء والكحلية غالباً .. وكان يعتبر هذه الألوان مناسبة لبشرته السمراء وللصورة وشاشة التليفزيون أيضاً.

واشتُهر بأنه يختار لكل مناسبة الزى المناسب لها .. الجلباب الفلاحى فى قريته .. الشورت للرياضة .. اليونيفورم الأبيض للرحلات البحرية .. زى جنرالات ألمانيا ألنازية للاستعراض العسكرى .. إلخ.

وقيل .. إن زوجته دخلت عليه البيت فوجدته يشعل النيران فى الأثاث .. فجزعت .. وسألته :

- إنت عاوز تحرق الدنيا ؟

- آيوه.

- ليه كده ؟

- علشان ألبس لبس المطافى.

وقيل .. إنه عندما اشتعلت النيران فى دار الأوبرا، اتصل بزوجته، وقال لها :

- جيهان .. حضرى لبس المطافى.

والمعنى واحد تقريباً !

****

إن النكت التى حاصرت السادات، وبيته، وعهده، ونظامه، وسلوكه، وأسلوبه، وسياساته، وزوجته، يمكن أن نقول إنها دارت حول :

١ - شخصية الرئيس الذى جاء من اللاشىء ليتحكم فى كل شىء.

٢ - حياته المترفة التى نافست حياة أبطال الخرافات فى ألف ليلة وليلة.

٣ - بطانته التى حولت الفساد إلى عملة، راحت تتاجر فيها، وتفرضها على المعاملات.

٤ - زوجته الجميلة المسيطرة .. ولا نضيف.

٥ - كراهيته لجمال عبدالناصر .. ومقارنته به .. ورغبته فى التخلص من آثاره.

٦ - تزييف التاريخ، والانتخابات، وتفصيل القوانين.

٧ - ادعاء ما ليس حقيقياً !

باختصار .. حاكمته النكت .. وصورته متوتراً .. غادرا، متآمراً، ممثلاً، وضعيفاً أمام زوجته التى بدت كطبعة إنجليزية مودرن من الملكة "شجرة الدر".

وقد ترقب المصريون كل تصرفاته وحركاته .. واستثمروا ذلك فى النكت التى قيلت عليه، وتميزت بتقليده .. صوتاً وحركة .. فكان سماعها أفضل .. وكتابتها تفقدها الكثير .. إذا كان من اللائق كتابتها !

فهو قد أفرط فى استخدام ضمير الملكية فيما لا يملكه .. "جيشى" .. "شعبى" .. مثلاً.

وهو قد وضع نفسه فى مكان "كبير العائلة" الذى يعرف "أخلاق القرية" .. ومن حقه أن يؤدب من يخرج عن طوعه بكلمة "عيب" التى حولها إلى قانون.

وهو كثيراً ما يصف خصومه بألفاظ من ابتكاره .. مثل "الأفنديات" .. ويقصد المثقفين.. ومثل "الرزالات" ويقصد المعارضين له.

وهو على عكس المألوف كان يستخدم الاسم الأول عندما يتحدث عن، أو إلى الشخصيات .. جمال .. جمال عبد الناصر .. هنرى .. هنرى كيسنجر .. محمد .. محمد حسنين هيكل .. جيمى .. جيمى كارتر .. فاليرى .. فاليرى جيسكار ديستان .. معمر .. معمر القذافى .. وهكذا ..كما أنه كان يحب ان يشير إلى أبرز شخصيات العالم باعتبارهم أصدقاءه .. "صديقى هنرى" .. "فاليرى جيسكار ديستان صديقى" .. الخ .. وعندما عرض فيلم هندى عنوانه "الفيل صديقى" .. لم تكن النكتة صعبة .. وقدنطق المصريون كلمة "صديقى" .. "صديكى" .. فكان هذا التحوير الساخر البسيط رأياً فى حد ذاته.

وفى قصيدة "ديستان" لم تفت أحمد فؤاد نجم الملاحظة :"فاليرى جيسكار ديستان" .. والست بتاعته كمان .. حيجيب الديب من ديله .. ويشبع كل جعان .. يا سلاملم يا جدعان ع الناس الجنتلمان .. التليفزيون حيلون .. والجمعيات تتكون .. والعربيات حتمون .. بدل البنزين .. بارفان .. والفقرا حياكلوا بطاطا .. وحيمشوا بكل ألاطه .. وبدل ما يسموا شلاطة .. حيسموا عيالهم .. جان .. ودا كله بفضل صديقى فاليرى جيسكار ديستان".[(١٧)]

****

الوجه الآخر للنكات ..كان المظاهرات.

إن النكتة التى طاردت السادات كثيراً لم تؤثر فيه .. ولم يكن قادراً على حل شفرتها، وفهم معانيها .. ومن ثم كان لابد أن يستعمل الناس أسلوباً آخر ..كى يفهم .. وكان هذا الأسلوب على النقيض تماماً .. المظاهرات.

---

(١٧) نجم - المصدر السابق - ص ٢١٤.

فى يناير ١٩٧٧ اشتعل الغضب من الجوع، والتهاب الأسعار، والشروط المتغطرسة لصندوق النقد الدولى، وترف الحاكم، وفساد رجاله .. والغضب عندما يلتهب فإن الناس تصبح غير قادرة على التنكيت .. وترى أن لا أمل فى التغيير سوى بالعنف .. وهكذا .. طفح الكيل .. وانفجرت مظاهرات الطعام فى ١٨ و ١٩ يناير .. وقد وصفت بأنها انتفاضة شعبية .. أما السادات فكان يصر على أنها انتفاضة "حرامية".

كان السادات فى أسوان يجرى حديثاً مع صحفية لبنانية عندما وصلت إلى أسماعه جلبة المتظاهرين .. والمذهل أنه تساءل عن سر هذه الجلبة .. والمؤكد أنه فوجىء بالمظاهرات التى امتدت بسرعة - كحرائق البنزين - من الإسكندرية إلى أسوان .. فهوكان يتصور أن "شعبه لا يثور .. "وأولاده وبناته" لا يخرجون عن طوع "كبير العائلة" لكن .. بدل أن يفهم انهار .. وفقد أعصابه .. وراح يهذى .. فبدأ العد التنازلى لحكمه وعصره.

وبالأرقام .. استمرت المظاهرات حوالى (٥٢) ساعة .. وسقط ما يقرب من (٦٠٠) قتيل وجريح .. واعتقل (١٢٥٠) يسارياً وقدرت خسائر المنشآت بنحو (٢٠٠) مليون جنيه.

إنها أرقام "ثورة" من ثورات "الجوع" .. خرج فيها المصريون من ثيابهم .. وركبوا خلالها مكبرات الصوت على أمعائهم .. فخرجت الهتافات مزيجاً من الألم والسخرية "مش كفايه لبسنا الخيش، جايين ياخدوا رغيف العيش" .. "يا حكومة الوسط وهز الوسط كيلو اللحمة بقى بالقسط" .. "يشربوا ويسكى وياكلوا فراخ والشعب من الجوع أهو داخ" .. "هو بيلبس آخر موضة واحنا بنسكن عشره فى أوضة" .. "قولوا للنايم فى عابدين العمال بيباتوا جعانين" .. "يا حاكمنا من عابدين فين الحق وفين الدين" .. "يا حاكمنا بالمباحث كل الشعب بظلمك حاسس" .. " يا حرامية الانفتاح الشعب جعان مش مرتاح".[١٨]

إن الشعب الفنان .. لم ينس إبداعه ولا خفة ظله وهو فى حالات الثورة والغضب .. لم يطالب بذبح أو دم .. طبيعته الحضارية ترفض ذلك .. كل ما حدث أنه كثف النكتة وضغطها فى شعار لم ينس أن يكون موزوناً .. على النوتة الموسيقية .. حتى يكون مناسباً لطبيعة المظاهرة .. وكانت النكتة - على هذا النحو - تزأر ولا تضحك .. تموء ولا تقهقه.. وتشحن الملايين لتخرج فاتحة صدرها لقوات الأمن المركزى .. فليس بعد الذل ذنب .. وليس بعد الجوع جريمة .. وليس بعد إهانة الشعب خطيئة .. لكن .. الشعب لم ينس تذوقه الإنسانى حتى وهو يثور .. قوبل بوحشية ..فكان الرصاص والقتل من الجانب الرسمى .. الجانب الخائن .. المرتعش .. الذى لم يجد أمامه فى النهاية - ليحافظ على وجوده - سوى أن يأمر بنزول قوات الجيش إلى الشارع .. وكانت المرة الأولى من نوعها منذ ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

(١٨) حسين عبد الرازق : "مصر فى ١٨ و١٩ يناير" - دار شهدى - ١٩٨٥ - القاهرة - ص ٨١.

وأعاد القمع الناس إلى بيوتها .. وحاول النظام تهدئة الأعصاب المشدودة .. فراح يعرض فى التليفزيون مسرحية "مدرسة المشاغبين" .. فكان أن أنقذ عادل إمام صديقه أنور السادات .. لكن .. الشعب الذى يفهمها وهى طايرة .. راح يردد عبارة عادل إمام الشهيرة فى المسرحية : "شفتنى وأنا ميت .. اجنن وانا ميت" .. وكان يقصد بها أنور السادات شخصياً بعد ما جرى له فى تلك الأحداث.

ومن جديد عادت مصانع النكت والإشاعات تعمل لتعوض ما فاتها ولتنقذ الشعب المكبوت مما هو فيه .. ليطفو مرة أخرى على وش الحياة .. متجاوزاً ما تعرض له .. متعالياً على خيبة الأمل التى أصابته فى أعز ما يملك .. رئيس الدولة.

على أن النكتة لم تكن وسيلة التعبير الوحيدة التى عادت .. كانت هناك وسائل أخطر وأشد .. العنف .. مثلاً .. فقد خرجت من تحت الأرض تنظيمات الغضب الدينية، وراحت تشهر السلاح .. وكان أشهر ضحاياها فى ذلك العام، رجل دين وعالماً جليلاً ووزير أوقاف هو الشيخ "الذهبى" .. ودخلت مصر فى مسلسل من مسلسلات الدم .. راح ضحيته، فيما بعد السادات نفسه .. ولا يزال العرض مستمراً.

لقد سد النظام المنافذ .. لا مطالب .. لا قنوات توصيل .. لا استجابة .. لا تنكيت .. وديمقراطية لها أنياب .. إذن، لا مفر من العنف.

ولأن "كله بالقانون" كما كان السادات يقول، فإن ترزية القوانين فصلوا له قانون "العيب" .. وهو قانون من ترسانة القوانين سيئة السمعة، يجرم كل من يتطاول على القيم .. أى كل من ينكت على رئيس الدولة .. مثلاً !

ولأن الممثل الذى فى داخل السادات، أحس بأن المسرحية التى يلعب بطولتها، سخيفة.. والجمهور انفض عنها .. بعد أن أغرق المسرح بالبيض والطماطم .. كان لا بد من مسرحية أخرى .. تعيد إليه الجمهور والأضواء، مهما كان الثمن .. وهكذا .. سافر فى ١٩ نوفمبر إلى القدس .. وبدأ مشوار الصلح مع العدو الصهيونى.

وبسبب مبادرته، حصل على نصف جائزة "نوبل" للسلام .. واستلمها نيابة عنه المهندس سيد مرعى .. لكن .. جولدا مائير علقت على ذلك قائلة : "إن السادات لا يستحق جائزة نوبل وإنما جائزة الأوسكار" ! .. أى أنه ممثل أكثر منه رئيس دولة .. ولكن .. الممثل الذى صفق له العالم فى الفصل الأول، فقد مرحه، وتألقه فى الفصل الأخير، بعد توقيع معاهدة "كامب ديفيد" .. بل .. إنه فى حفل التوقيع المذاع على الهواء مباشرة كان أقل الأبطال الثلاثة ابتساماً وأكثرهم اضطراباً لدرجة أنه أخطأ وهو يلقى كلمته، أخطاء ربما كان لها دلالتها .. فسمى مجلس الشيوخ الأمريكى : "الكنيست" .. وسمى كامب ديفيد : "ووترلو" .. اسم المعركة التى انهزم فيها نابليون.

لقد نسى الممثل دوره .. وكان وهو الذى يمثل دور "بطل السلام" محروماً من السلام مع

نفسه ..وقد حاول أن يتظاهر بالمرح لكنه كان يسرح أحياناً "فتعلو وجهه تقطيبة رهيبة كأنما هو يرى أشباحاً مخيفة تطوف أمام عينيه .. ثم ينتبه لنفسه فجأة فتعود ابتسامته الميكانيكية عندما يحس بأنوار الكاميرا تقترب لتتسلط عليه".[١٩]

وحدث أن اتفقت محطات التليفزيون الأمريكية على تسجيل مكالمة تليفونية بينه وبين مناحم بيجن .. فجلس إلى مكتبه بجوار التليفون ينتظر رنينه .. وعندما رن التليفون رفع السماعة وأخذ يهتف بأعلى صوته .. فعلق مندوب إحدى المحطات :

- بدل ما يزعق كده .. يتكلم فى التليفون !

والمعنى .. أنه يبالغ فى الكلام مع بيجن، حتى بدا وكأنه يريد أن يوصل له صوته مباشرة بدون تليفون !

وبالرغم من الانكسار الذى أصابه، فقد راحت بطاريات الدعاية المحلية تنفخ فى صورته.. وتؤكد على ان السلام قادم .. والرخاء أيضاً .. لكن .. لا السلام جاء ولا الرخاء وصل.

ولم تتطل الدعاية الفارغة على الشعب المصرى .. ورد عليها بنكتة لاذعة .. والسادات على قيذ الحياة .. قيل إنه أثناء زيارة مناحم بيجن لمصر، شاهد هو والسادات زحاماً شديداً على مجمع للسلع الاستهلاكية، فسأل بيجن :

- ليه الزحمة دى يا فخامة الرئيس ؟

فأحس السادات بالحرج .. فقال :

- أبدا .. ده مأتم .. والزحمة دى للعزاء.

فاقترب بيجن من الزحام وسأل أحد الواقفين :

- عزيت ؟

فقال :

- لا ع السكر !

وقد ذكرنى بهذه النكتة "البابا شنودة" .. فهو رجل دين ذكى، يفهم أساليب الدنيا .. لذلك فإنه يحتفظ فى ذاكرته بالنكت، والقصائد والنظريات .. وعندما يتحدث يمزج بينها حتى لا يمل مستمعوه .. ثم .. إنه كان يتحدث عن السادات، فقفزت النكتة الى لسانه .. انها المرارة التى تركها السادات فى قلبه، فعبر عنها مثل أولاد البلد بالنكتة.

---

(١٩) دورين كايز - المصدر السابق - ص ١١٢.

وعندما نشر السادات كتابه "البحث عن الذات" غير المصريون عنوانه، فأصبح "البحث عن الزيت" .. فزيت الطعام الناقص أهم من ذات الرئيس المتضخمة !

لكن .. هذه السخرية عكست - من جانب آخر - صورة معقدة، أو مركبة للإنسان المصرى..فهو مزيج من الاكتئاب والعدوانية .. الإحباط واللسان السليط .. التدين وعدم التردد فى نهش الأعراض .. فهل الشعوب صورة بالكربون من حكامها .. أحياناً ؟

****

حتى غير المصريين لاحظوا أن السادات يبالغ فى كل شىء .. فعندما كان يقابل السودانيين كان يناديهم : "أخوالى" .. وكان ينادى الملك فيصل بلقب "أمير المؤمنين" .. وقال عن اليهود إنهم "أبناء عمومتنا".

أما الذين أحبهم بجنون فقد وصفوه بالبهلوان .. والوصف لصديقه العزيز "هنرى كيسنجر" .. ولسفير واشنطن لدى القاهرة : "هيرمان إيلتس" .. وقد جاء الوصف فى مقال نشره السفير وترجمته مجلة "السياسة الدولية" .. وكان يرأس تحريرها د. بطرس غالى، الذى كان فى الوقت نفسه وزيراً فى حكومة يرأسها السادات .. والمثير للدهشة أن بطرس غالى بقى فى منصبه ولايزال .. فمن الذى حرم على الرئيس عقابه، مع أن الإهانة شخصية ؟

ويقال ان جيمى كارتر هو الوحيد الذى بادله حباً بحب .. وحسب ما قاله مستشاره للأمن القومى "زيجنيو بريجنسكى"، فإن كارتر "كان مهتماً بهذا المصرى الطائش والمندفع" .. وقد أضاف بريجنسكى : "وكثيراً ما جلسنا معاً كارتر وأنا نضحك سوياً على التناقضات التى تكشف عدم صحة أقوال السادات" .. "وفى لقاء بينى وبين السادات، صفق الرئيس المصرى، فجاءوه بنموذج للكرة الأرضية وضعه فى وسط غرفة بيته التى كنا نجلس فيها وأمسك بمؤشر وراح يعطينى درساً فيما ينبغى أن تكون عليه الاستراتيجية الأمريكية، وكانت وصفاته جديرة بأن تجعل "تيودور روزفلت" يبدو وكأنه حمل وديع.

ومن شدة حالة جنون العظمة التى أصابته، اقترح عليه كارتر أن يرشح نفسه رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية .. وقيل إنه صدق .. فعرض الأمر على زوجته التى قالت :

- لكن إزاى يا أنور واحنا ما عندناش الجنسية الأمريكية ؟

ومن جانبه .. رد الشعب المصرى على هذه العلاقة الحميمة .. بنكتة .. تقول : إن السادات اتصل بكارتر ليطمئن على موقفه فى الانتخابات الرئاسية ضد رونالد ريجان.. فقال له كارتر :

- والله .. يا أنور موقفى مش ولا بد.

فصاح السادات :

- ولا يهمك .. المسألة بسيطة جداً .. أنا حابعتلك وزير الداخلية بتاعى "النبوى إسماعيل" وهو يطلعلك النتيجة ٩٩،٩٩ ٪.

ولم تكن المرة الأولى التى يُبدى فيها السادات استعداده لانتشال رئيس أمريكى من محنة داخلية .. ولا يزال تجهيز مصر لاستقبال نيكسون - بعد فضيحة "ووتر - جيت" - مثالاً.

فقد دُهنت البيوت .. وغُسلت الشوارع .. وامتلأت القاهرة بالخضرة، وبلافتات الترحيب الحماسية باللغة الإنجليزية .. وحُشد التلاميذ للغناء والدعاء بطول البقاء .. وأصبح يوم نزول نيكسون البلاد .. عيداً، ومعجزة .. فالسماء ستمطر دجاجاً مجمداً، ومواكب الاستقبال ستفرش بالدولارات الخضراء .. والفول المدمس سينقرض .. وسيأكل المصريون الهمبرجر، والسيمون فيميه، والبان كيك .. وسيخلعون الجلباب ويرتدون ملابس الكاوبوى.

"شرفت يا نيكسون بابا .. يا بتاع الووتر جيت .. عملوا لك قيمة وسيما .. سلاطين الفول والزيت .. فرشولك أوسع سكة .. من راس التين على مكه .. وهناك تنفد على عكا .. ويقولوا عليك حجيت .. ما هو مولد ساير داير .. شيّلاه يا صحاب البيت .. جواسيسك يوم تشريفك .. عملوا لك دقة وزار .. تتقصع فيه المومس .. والقارح والمندار .. والشيخ شمهورش راكب .. ع الكوديا وهات يا مواكب .. وبواقى الزفة عناكب.. ساحبين من تحت الحيط .. واهو مولد ساير داير .. شيلاه يا صحاب البيت."[٢٠]

والقصيدة لنجم الذى غاب فى السجن بتهمة "اهانة رئيس دولة أجنبية" .. وسحبوا معه ملحن ومغنى أشعاره إمام عيسى ..وأمام القاضى قال محاميهما:

إن السيد نيكسون لم يعد رئيس للولايات المتحدة .. إذ استقال!

فقال القاضى :يفرج عن المتهمين اذا دفع كل منهما خمسين جنيهاً ضماناً مالياً (وضحك أصدقاؤهما .. ودفع "الجائعان "مائة جنيه " .. وحتى الآن لم تأت المعونة الأمريكية التى وعدنا بها نيكسون الصديق".[٢١]

وفى رواية يوسف القعيد "يحدث فى مصر الآن "صورة ساخرة لما حدث فى قرية مصرية بسبب معونة نيكسون ..وتصل السخرية إلى الذروة عندما يقنع بطل الرواية زوجته بتمثيل دور الحامل حتى يأخذ نصيب الجنين الوهمى من المعونة التى لم تأت!

وفى يوم وصول نيكسون رفض مسئول بإحدى الصحف مقالاً عن ذكرى حادث

---

(٢٠) نجم - المصدر السابق - ص ٦١١.
(٢١) صلاح عيسى - المصدر السابق - ص ٤٠٠، وص ٣٨٠ على التوالى.

دنشواى..وقال:

- كيف نستقبل نيكسون يوم وصوله بمقال يذكر الشعب المصرى بأن الإنجليز قتلوا فلاحين أبرياء فى مثل هذا اليوم من عام ١٩٠٦ ..لاداعى للإحراج.

- ولكنهم إنجليز وليسوا أمريكان!

- إنهم أولاد عم .. فلا داعى لإحراجى ![٢٢]

فكان ذلك نوعاً من الجد - الهزل .. أو الواقع - النكتة .. ومهما كانت النكتة التى أطلقها المصريون على السادات ، فقد كانت مجرد رد ، فهو البادىء بالنكت .. والبادى أظلم.

****

وبالرغم من براعة السادات كممثل .. فإنه كان يفتقد أهم خصائص الممثل الجيد..القدرة على الانسحاب فى الوقت المناسب ..بدلاً من أن تغلق الستار عليه وهو يؤدى مشهداً لا يرضى عنه.

إن ذلك كان أكبر خطأ وقع فيه السادات .. لم ينتبه للهاوية التى دفُع إليها .. فكان المشهد الأخير الذى فُرض عليه أسوأ مشهد أداه فى حياته.

لقد كانت هناك مؤشرات كثيرة تشير إلى الهاوية .. لكنه لم ينتبه إليها .. فاندفع كالثور الهائج نحو حتفه ..ومن هذه المؤشرات تحول الإعلام الأمريكى عنه .. بل وهجومه عليه.. فلم يعد على شاشات التليفزيون فى سحر وجاذبية كلارك جيبل بل أصبح فى قسوة وبطش كينج كونج ..

ومع أن ذلك التحول كان بداية التضحية بشاه إيران فإن السادات لم يصدق أن الأمريكان يكررون السيناريو نفسه مرتين.

إن فترة صلاحيته كحاكم لمصر قد انتهت .. ولم يعد وجها مقبولاً من العرب ومن المصريين ..وبلغة هوليوود .. احترقت نجوميته .. فكان لا بد أن يترك المسرح مثله مثل باقى أبطال مسرحية "كامب دافيد" .. بيجن وكارتر .. لكنه رفض أن يفعل ذلك بالذوق.. فأجبر على ذلك بالعافية .. أى بالرصاص.وحتى يكون شطبه من النص ومن الفرقة مقبولاً ... كان من الضرورى دفعه إلى تشويه نفسه بنفسه .. أى يصبح مثل الذى يضرب وجهه بموسى حلاقة .. فيصرخ من الألم ، ومن ضحك الناس عليه.

وأغلب الظن أنه أحس بما يدبر له .. فتضاعف عناده .. لكن تضاعف أيضاً اهتزازه .. فراح يترنح .. وفى ترنحه كان يضرب ضربات عشوائية .. أدت إلى معاداة كل القوى

---

(٢٢) صلاح عيسى - المصدر السابق - ص ٤٠٠، وص ٣٨٠ على التوالى.

والطوائف والملل. والأديان له .. فالبابا شنودة مغرور .. والمشايخ وصف احدهم بأنه "مرمى فى السجن زى الكلب" .. وفؤاد سراج الدين زعيم حزب الوفد هو فى رأيه "لويس التاسع عشر" .. وأكثر من (١٥٠٠) من رموز المجتمع المصرى فى المعتقلات .. والمعارضين له ، أى كل الشعب .. "فقاقيع انتهازية طافية على السطح" .. باختصار لا أحد معه .. ولا أحد يمكن أن يبكى عليه .. وفى ذلك الوقت بالتحديد .. قُتل .. كان لا بد أن يُقتل.

وفور أن قُتل انطلقت النكت .. أى بعد الرصاصات كانت النكت .. أو بعد موت الجسد كان لا بد من الإجهاز على ما تبقى من الكيان المعنوى.

بمعنى آخر .. أنه بعد ظهر يوم ٦ اكتوبر ١٨٩١ مات مرتين .. مرة بسلاح قاتليه ومرة بسلاح النكتة .. فكان اسرع حاكم كفنه الشعب بالسخرية لا بالدموع .. ومرة اخرى شُيع على طريقة عادل إمام "شقتنى وانا ميت .. أجنن وأنا ميت".

وحادث الاغتيال كان فى يوم وقفة عرفات .. فكان السادات "الضحية" .. وكان أن جاء عيد الأضحى قبل موعده بيوم .. والدُعابة مناسبة .. فقاتلوه الذين عرفناهم (حتى الآن) من الأصوليين الإسلاميين .. وقد أعادت هذه الدعابة القاسية للأذهان كاريكاتيراً نشره فى سنة ١٩٥٤ الإخوان المسلمون بمناسبة عيد الأضحى رسموا فيه "المصرى افندى" وهو يقول "لابن البلد" :

- السنة دى مش حنضحى بخروف واحد إنما بتلتاشر.

(١٣) هو عدد أعضاء مجلس قيادة الثورة.

وفى نهاية تلك السنة حاولوا اغتيال جمال عبد الناصر .. لكنهم فشلوا .. فهل الرصاصات التى أطلقت على جمال عبد الناصر هى التى أصابت أنور السادات ؟

ولو كانت محاولة اغتيال جمال عبد الناصر قد أثارت الغضب ..وأثار موته الحزن والدموع فلماذا كان السكون والهدوء بعد نجاح محاولة اغتيال انور السادات ؟

إن أحداً لم يبكه من المصريين .. بل إنهم بعد أن قُتل تنفسوا الصعداء.

لقد مات فى الوقت المناسب لنا .. وفى الوقت غير المناسب له .. فلماذا الدموع على حاكم يقول "أنا لا يرد القول عندى" .. لماذا الدموع على فرعون يتصور أنه ملهم .. يتلقى الوحى.. أو يتوهم ذلك .. ويؤمن بأنه مبعوث العناية الإلهية .. ويخلع نعليه فى الوادى المقدس طوى الذى كلم فيه سيدنا موسى الله سبحانه وتعالى ؟

لا أحد بكى .. ولا أحد خرج .. وتابع الجميع الجنازة فى هدوء عبر أجهزة التليفزيون .. وكأنها جنازة حاكم آخر غير حاكم مصر .. واستنكرت النساء تماسك زوجته، وشعرها

المرفوع، غير المغطى .. فالذى مات زوجها .. أما هى فكانت ترى أن الذى مات هو رئيس الجمهورية تنقل جنازته عبر الأقمار الصناعية لملايين المشاهدين فى أربعة أنحاء الكرة الأرضية .. أى أنها أصرت على النجومية حتى المشهد الأخير.

وقد كانت وصية السادات أن يدفن فى قريته .. لكنها رفضت .. وأصرت على أن يدفن فى المكان الذى قتل فيه .. فهو أقرب لكبار الزوار .. ولذاكرة الناس .. أى أنها تصرفت بحكمة وذكاء حتى آخر نفس .. فذكرت الشعب بقوتها وجرأتها .. فقد فرضت على زوجها وزيراً من أسرة شهيرة لأن زوجته ساهمت فى اعادة المياه لمجاريها بين ابنتها الصغرى "جيهان" وزوجها ابن عثمان أحمد عثمان .. الذى فضل على ابنة الرئيس فتاة من الشعب .. أحبها وأعطاها قلبه ..ثم إنه رفض أن يكون الزواج حسبة تجمع بين بلايين أبيه ونفوذ أبيها .. ثم .. إنه استنكر أن تنشر مجلات العالم صورة لزوجته وهى تقترب بوجهها من المغنى الأسبانى "خوليو" .. وبسبب هذا الرفض قادت جيهان – الأم – حملة شرسة لمطاردته والتجسس عليه سخرت فيها أجهزة الأمن .. التى انشغلت بهذه المشكلة العاطفية فلم تستطع أن تتدخل لحماية زوجها من القتل فى الوقت المناسب.

إن تلك القصص الأقرب إلى النميمة مشهد جيهان السادات فى جنازة زوجها .. وعندما تكون النميمة حاضرة فلابد أن تكون النكتة معها.

ولكن .. المثير للدهشة أن النكت التى قيلت على السادات كانت جاهزة عند اغتياله .. فهل كان ذلك جزءاً من مؤامرة التخلص منه ؟

ومع أن المصريين أحبوا هذه النكت ورددوها وضحكوا عليها فإنه قد لفت نظرهم ذلك الكم الهائل المتدفق منها .. فهل كانت النكت جاهزة فى انتظار ساعة الصفر ؟

****

أما موضوع النكت فكان يدور حول:

١ – مصيره فى العالم الآخر.

٢ – شاهد القبر وما كتب عليه.

٣ – محاكمة شاملة لعيوبه.

٤ – مقارنة بينه وبين جمال عبد الناصر.

٥ – علاقته بزوجته.

٦ – زوجته بعد انهيار نفوذها.

وكما فى حياته فى مماته .. لم ترع النكت أية حرمة .. لا جنساً ولا ديناً ولا سياسة .. وبعد

اغتياله لم يذكر المصريون محاسنه .. فما فعله فى أيامه الأخيرة جعله بلا محاسن !

قيل .. إنه بعد أن صعد إلى السماء حولوه إلى الجنة فلم يجدوا له فيها مكاناً .. وحولوه الى جهنم فلم يجدوا له فيها مكاناً .. فاحتاروا فيه .. فقال لهم :

- بسيطة .. ابنوا لى استراحة !

والنكتة تسخر من كثرة الاستراحات التى كانت مخصصة له .. فقد كان لا يستقر فى مكان واحد .. وكان معدل ما يقضيه من وقت محلقاً فى الهواء بين السماء والأرض يفوق بمراحل متوسط ما يقضيه الطيار المحترف على متن طائرته التجارية .. ولم يكن ركوبه الجو بسبب إجراءات الأمن فقط وإنما لأن صورة مصر من الجو لا تكلفه "مشقة رؤية وسماع وشم الفقر الناشب أظافره فى عنق الملايين على طول الطريق".

كان لا يبقى فى أية استراحة أكثر من (٣) أيام .. وكان دائم التنقل بين استراحاته العديدة المنتشرة فى طول البلاد وعرضها .. والتى قدرت بنحو (٣٥) استراحة .. وكان ذلك يكلف الدولة الكثير .. لكن .. لا يهم .. فهو الدولة والدولة هو.

أما اشهر هذه الاستراحات فكانت .. استراحة الخزان فى أسوان للشتاء .. واستراحة القناطر للربيع .. وقصر المنتزه للصيف فى الإسكندرية .. واستراحة جزيرة الفرسان بالإسماعيلية للتفكير فى القرارات المهمة .. واستراحة وادى الراحة بسيناء للاعتكاف والتأمل .. وبيته الريفى فى ميت "أبو الكوم" للاحتفال بعيد ميلاده.

وبسبب كثرة التنقل جواً، تكونت لدى السادات ما يُسمى "بعقلية الهليكوبتر" .. اى عقلية الرؤية والتفكير عن بعد .. أى بعيداً عن الواقع .. وقد ترجم المصريون ذلك إلى نكتة تقول.. أنه كان يركب طائرة .. وفى الجو سأل الطيار :

- لو رميت عشرة جنيه كم أسرة تنبسط ؟

- واحدة.

- ولو قسمت المبلغ نصين ؟

- تسعد أسرتين.

- لكن .. أنا عايز أسعد كل الناس.

- مفيش غير حل واحد.

- إيه هو ؟

- إن انت اللى ترمى نفسك !

وعلى قبره حُفرت عبارة تقول : "عاش من أجل المبادئ ومات من أجل السلام" .. فأضافت النكتة المصرية لها .. "وذبح على الشريعة الإسلامية" !

وجاءت نكتة أخرى لتغير العبارة كلها .. فقيل : "عاش منعماً .. ومات مخرماً .. ودُفن على الشريعة الإسلامية ".. والسبب أن الرصاصات التى قتلته حولت جسده إلى "غربال".. والذين قتلوه من أعضاء تنظيم "الجهاد" الأكثر تشدداً وتطرفاً.

أما النكتة - الجد .. فهى أنه كان يصف نفسه بالرئيس "المؤمن" .. ومع ذلك اعتبره الذين قتلوه كافراً .. فعندما يكون السباق محموماً على الكفر والإيمان .. يكسب الأشد تطرفاً.

لكن .. العكس .. أى الجد - النكتة .. فهو أن الرئيس "المؤمن" الذى كان يكفر الآخرين، ويُعلن "من لا إيمان له لا أمان له" كان "يشرب بانتظام، وكان يقول أن ذلك بناء على نصيحة الأطباء بعد تعرضه فى شبابه لعارض قلبى. وكان قبل الظهر يفضل الفودكا، وكان يشرب منها كأساً واحداً أو كأسين قبل أن يبدأ مقابلاته عند الظهر، وكان تفضيله للفودكا قبل بدء عمله يرجع إلى اعتقاده بأنها لا تترك رائحة فى فم من يشرب" .. حسب معلومات محمد حسنين هيكل.

وقيل .. إنه بعد توليه السلطة ، خرج ليشم الهواء على الطريق الزراعى ، فوجد "غرزة" فدخلها ، فمد أحدهم الجوزة إليه .. قائلاً :

- مساء الخير.

فتناول الجوزة وسحب نفساً، ثم أعادها لصاحبها، الذى سأله :

- والأخ بلا آفية بيشتغل إيه ؟

فرد :

- اااانا رئيس الجمهورية.

فقهقه الرجل .. قائلاً :

- كده من أول نفس !

وحين ذهب إلى القدس، سأله صحفى إسرائيلى :

- مش حاتحج السنه دى ؟

فقال له :

- لا .. أنا السنه دى "مصهين".

وقيل ..

إن السادات دخل جهنم .. وجاء دوره فى العذاب .. فأدخلوه حجرة فيها نجمة الإغراء الأمريكية مارلين مونرو .. فاحتج الملك فاروق، وضياء الحق، وعبد الحكيم عامر .. وقالوا :

– مش معقول تعذبوا السادات بالطريقة دى.

فقيل لهم :

– إحنا مش بنعذب السادات .. إحنا بنعذب مارلين مونرو.

وكان السادات يدعو إلى بناء مجمع للأديان فى سيناء .. وبعد اعتقالات جميع القوى الوطنية و الدينية فى ٥ سبتمبر ١٩٨١، فوجئ بمن يهتف بحماس :

– "عاش السادات موحد الأديان".

فسأله السادات :

– ليه بتقول كده ؟

فقال له :

– لأنك كفرت الجميع !

وقيل ..

إن جهنم لم تعجبه .. فحاول الهروب منها .. وعندما أمسكوا به .. فقال :

"ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا".

الدعاء الذى كان ينهى به خطبه دائماً.

وقيلت عليه النكتة التى قيلت عن عبد الحكيم عامر من قبل .. نكتة تسلله للنار ليأخذ "ولعة".

وقيل ..

إنه أراد أن يغير اسم مجلس الشعب ، فطلب من الأعضاء مناقشة الاقتراح .. فاقترح عضو من الوفد العودة إلى اسم "البرلمان" .. واقترح عضو فى الحزب الوطنى اسم "المصطبة" .. فسأل السادات وزير الداخلية :

– وانت يا نبوى رأيك إيه ؟

فقال :

- سيادة الرئيس أنا باقترح نسمى المجلس "باتا".

- ليه يا نبوى ؟

- لأننا يا فندم بنختار من كل دايرة "جوزين"

وقيل ..

إنه حدث أن اختفى قلم السادات الذى يسميه "قلم الإمضا "وهو فى مجلس الشعب، فطلب من النبوى إسماعيل البحث عنه .. وفى البيت وجد السادات القلم بين أوراقه ، فاتصل بالنبوى اسماعيل، وقال له :

- خلاص يا نبوى لقيته.

- لكن يا فندم ..

- لكن إيه يا نبوى ؟

- لكن حنعمل إيه فى العشرة اللى اعترفوا بسرقته ؟

و النبوى إسماعيل هو وزير الداخلية الذى اشتهر بطبخ نتائج الاستفتاءات له .. وقد تعود السادات أن يستقبله بعد كل استفتاء ويسأله :

"كم بلغت النسبة يا نبوى ؟"

"كم بلغ عدد الناخبين يا نبوى ؟"

وكانت الأسئلة ذات طابع مسرحى مفتعل، أثار سخرية الشارع المصرى، فقيل .. ان السادات قبل دفنه انتصب فى النعش، ونظر إلى نبوى إسماعيل، وسأله :

"كم بلغ عدد المشيعين يا نبوى؟"

وقيل ..

إنه كان خائفاً من حساب الملكين، فشجعه الذين كانوا معه، وقالوا :

- ما تخافش .. مش حيسألوك إلا عن أسماء الأنبياء.

- لكن انا مش عارفهم.

فاقترح أحدهم أن يكتب الأسماء على ياقة القميص، ليغش منها .. ففعل .. وجاء ناكر

ونكير وسألاه عن أسماء الأنبياء .. فنظر إلى ياقة القميص، وراح يقرأ :

آدم .. نوح .. موسى .. عيسى .. محمد .. وبيير كاردان. وبيير كاردان اسم مصمم أزياء فرنسى شهير كان واحداً ممن يتعامل معهم السادات.

وقيل ..

سألوا سعد زغلول :

– ما هى أصعب سنة فى حياتك ؟

فقال :– السنة التى نفانى فيها الإنجليز.وسُئل عبد الناصر السؤال نفسه، فقال :

– سنة النكسة.

وسُئل السادات السؤال نفسه، فقال :

– سنة أولى إعدادى !

****

وهذه العينة تكفى وتفيض لكى تثبت أن المشهد المأسوى الذى انتهى عليه السادات، سرعان ما غطى عليه مشهد آخر .. ساخر .. ضاحك .. يناسب الطبيعة الهزلية له.

أى أن النكت أعادت صياغة المشهد الأخير فى حياة السادات .. وبدلاً من الدم كان المزاح. وبدلاً من الطلقات كانت الضحكات .. وبدلاً من الدموع كان الأمل فى التغيير !

بعد أن قرأت !

إلى هنا انتهي الكتاب.

أو بتعبير أدق .. إلى هنا انتهت هذه الفصول المكتملة، من هذا الكتاب الذى لا يمكن أن ينتهى .. لا يمكن أن توضع له نهاية .. فالنكتة السياسية - الحراقة واللاذعة - لن تتوقف طالما بقى الشعب المصرى على ظهر الحياة .. ومن ثم فالخاتمة هنا خاتمة مفتوحة.

والخاتمة المفتوحة تعنى أن الكتاب يحتمل المزيد من الفصول .. لكن .. المشكلة أن هذه الفصول لم تكتب بعد، لسبب بسيط جداً هو إنها اما لاتزال تحدث الآن، واما أنها لم تحدث بعد .. وفى الحالة الأولى تكون الصورة غير مكتملة، والصورة غير المكتملة تجعلنا نصل الى نتائج خاطئة .. وفى الحالة الأخرى لا توجد صورة أصلاً، ومن ثم لا يكون أمامنا سوى رجم الغيب.

ولذلك ..

عليك أنت عزيزى القارى - أن تساهم فى تأليف الفصول الجديدة، إذا كنت غير قادر على ان تنتظر حتى يمكن أن نكتبها، وننشرها .. عليك أن تضيف صفحات من عندك لهذا الكتاب تسجل فيها النكت التى تقال، والنكت التى ستقال، أول بأول حتى تكتمل نسختك، وتصبح مرجعاً تتوارثه الأجيال، وتضيف هى أيضاً عليه، لتضحك على ما كنا عليه، أو لتضحك علينا .. لا فرق.

انها فرصة لنقوم جميعاً بعمل إيجابى، حتى ولو كان هذا العمل هو أن نسجل النكتة التى ضحكنا عليها .. فطريق الايجابية قد يبدأ بتسجيل نكتة.

والآن .. هل سمعت آخر نكتة ؟

من فضلك اكتبها !

الفهرس

- قبل أن تقرأ.. ٥

- الفصل الأخير فى البداية.. ١٣

١ - من فريق أول إلى فكيك أول...................................... ٤٣

٢ - فى الجنس والسياسة.. النكتة حرام................................ ٧٧

٣ - النكتة.. حيازة سلاح بدون ترخيص................................. ١١٥

٤ - النكتة تلعلع بعد الثورة.. دائماً................................. ١٤٧

٥ - حمار أفندى يسخر من الرقابة..................................... ١٨٧

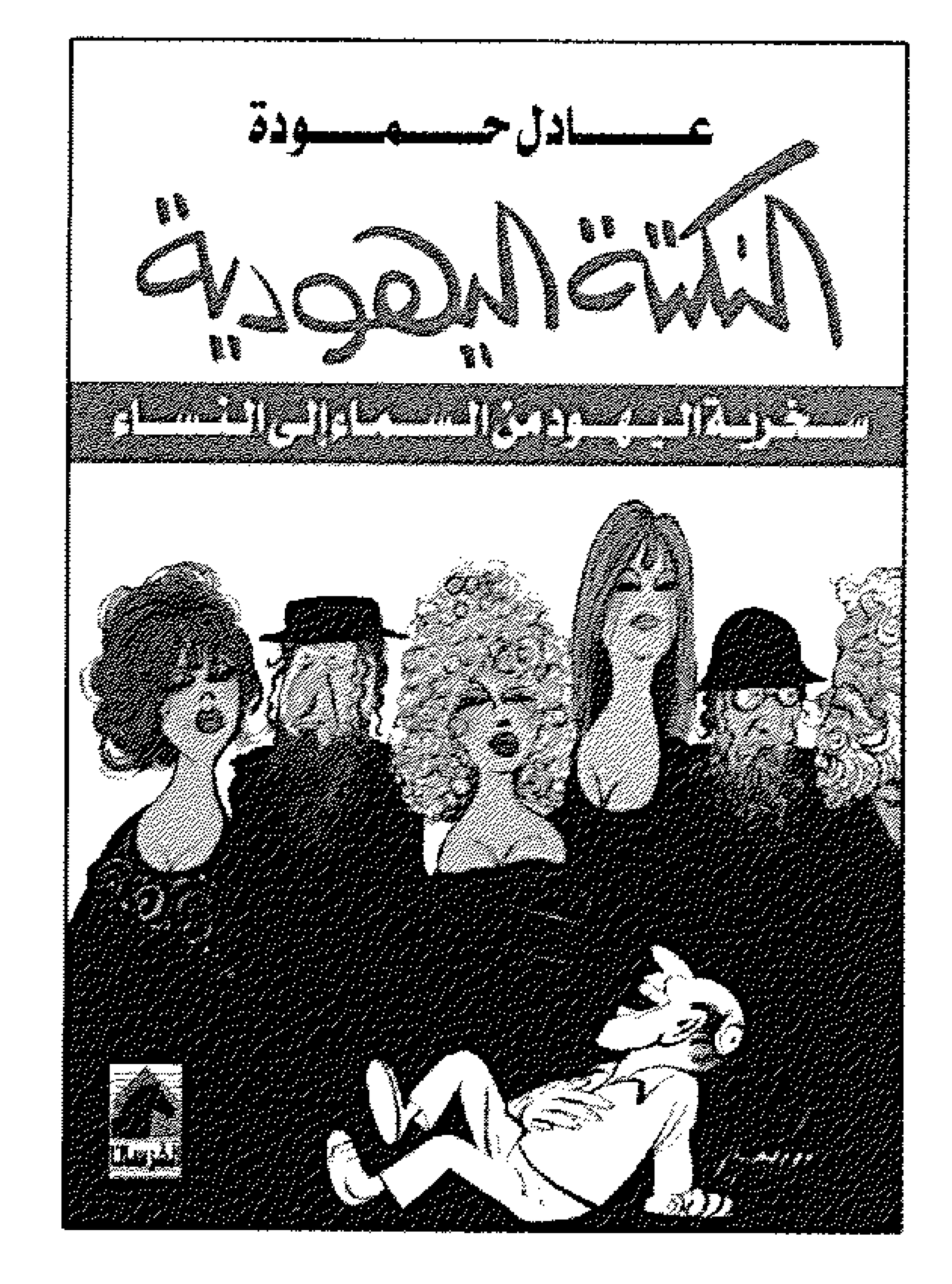
٦ - نكت سياسية فى جيب صلاح نصر.................................... ٢١٣

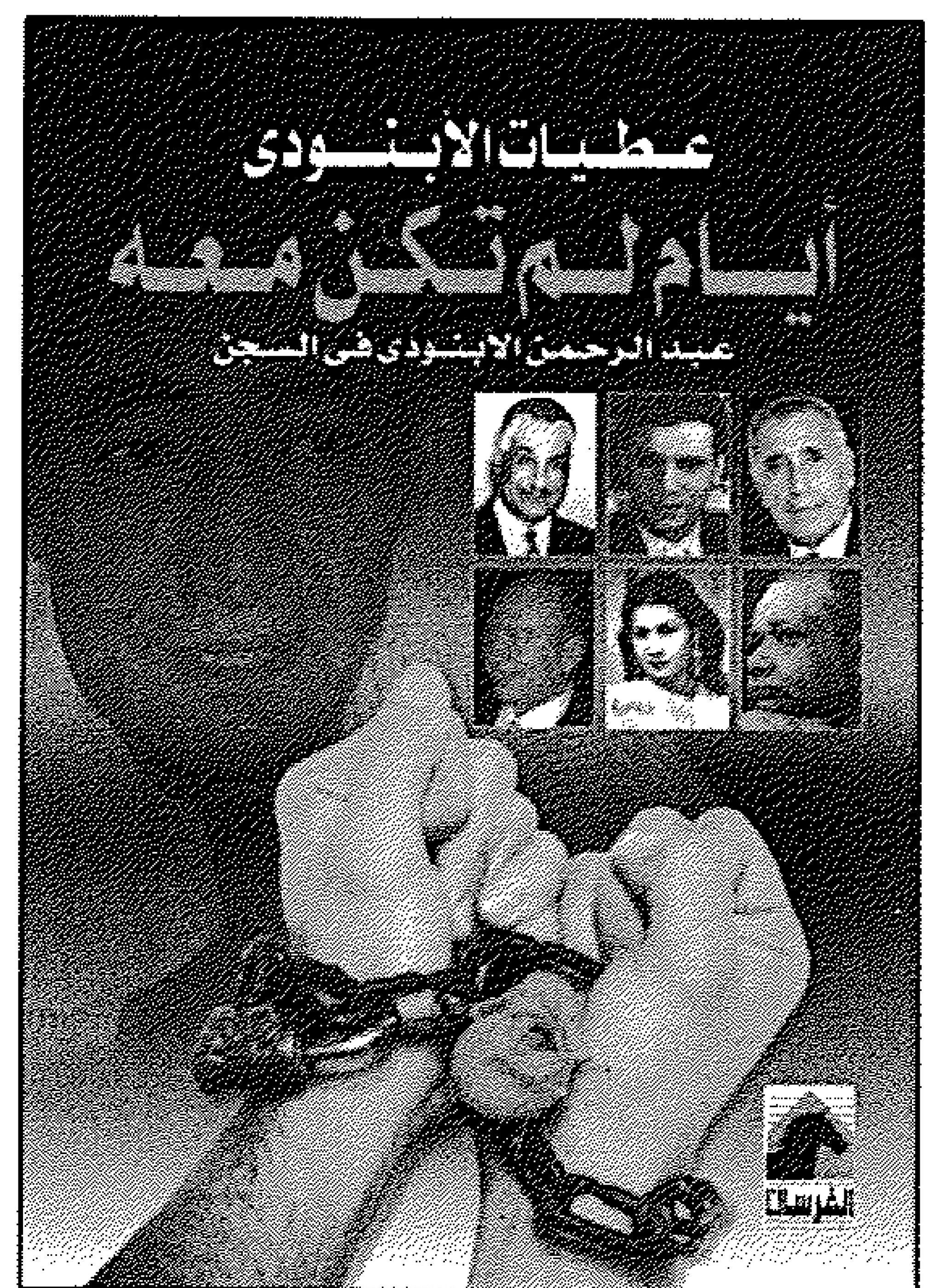
٧ - من يعذب من.. السادات أم مارلين مونرو؟.......................... ٢٥١

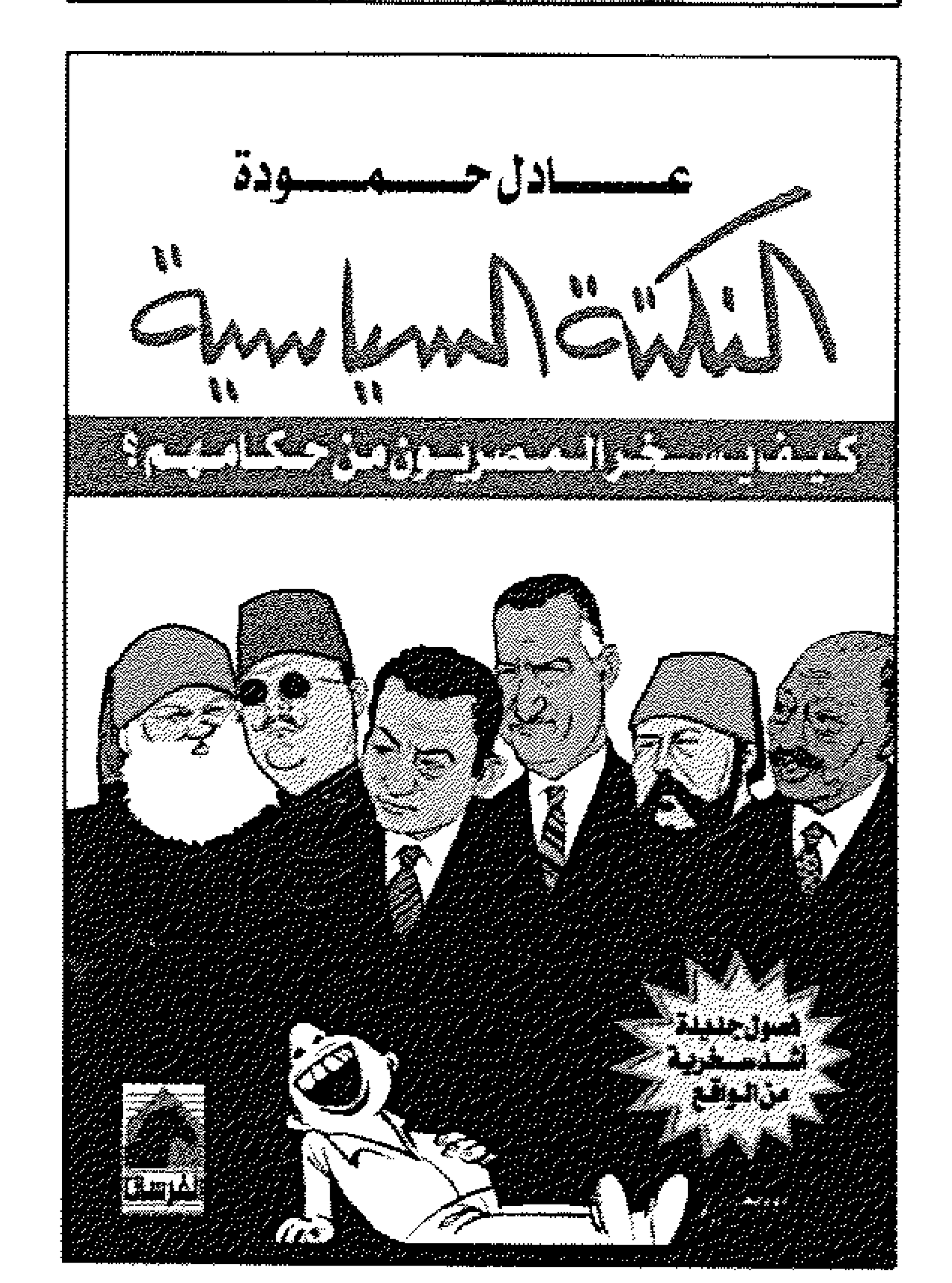
- بعد أن قرأت... ٢٨٥

- الفهرس.. ٢٨٧

عن الفرسان للنشر



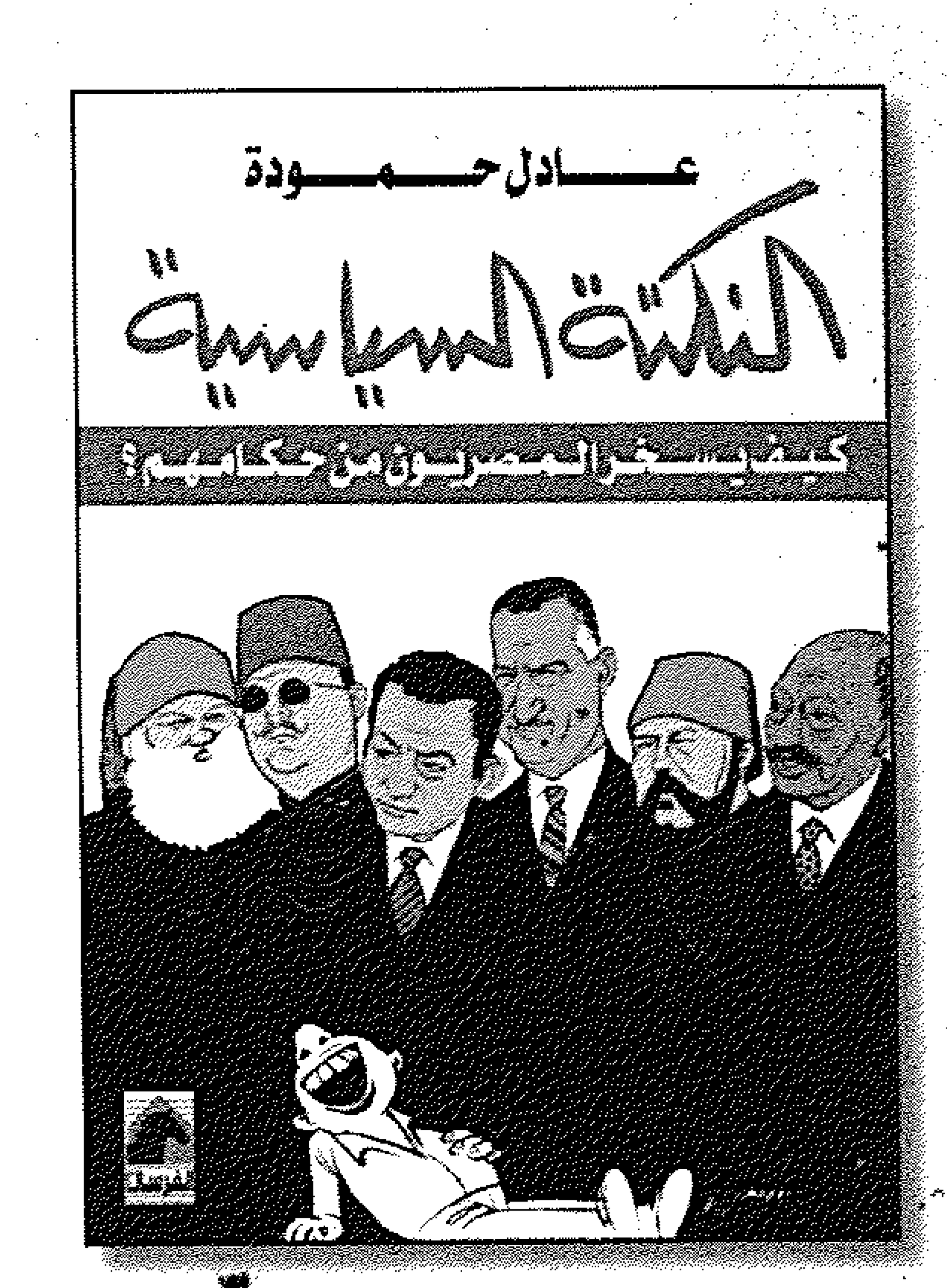


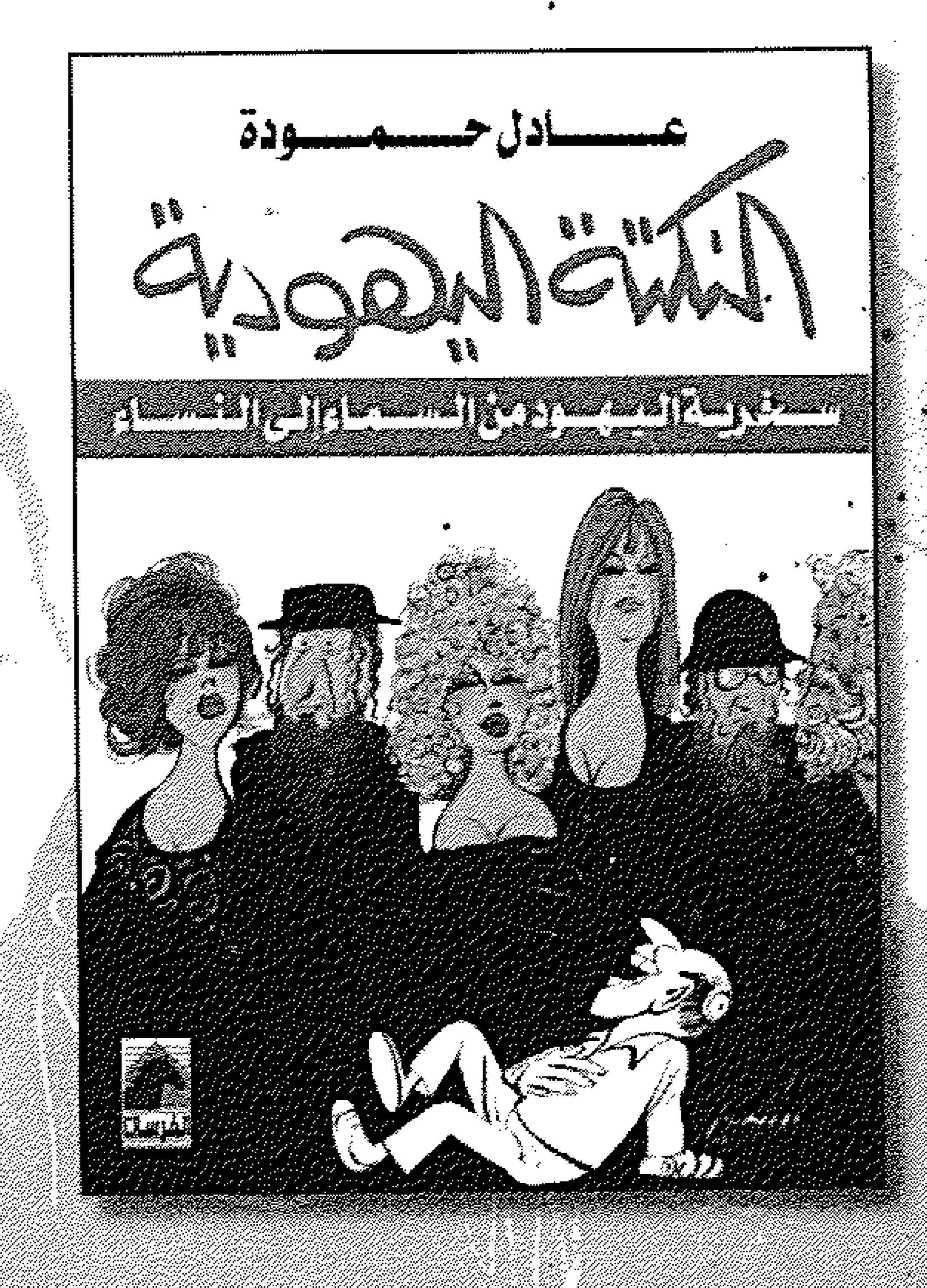


النكتة السياسية

كيف يسخر المصريون من حكامهم؟







هذا الكتاب

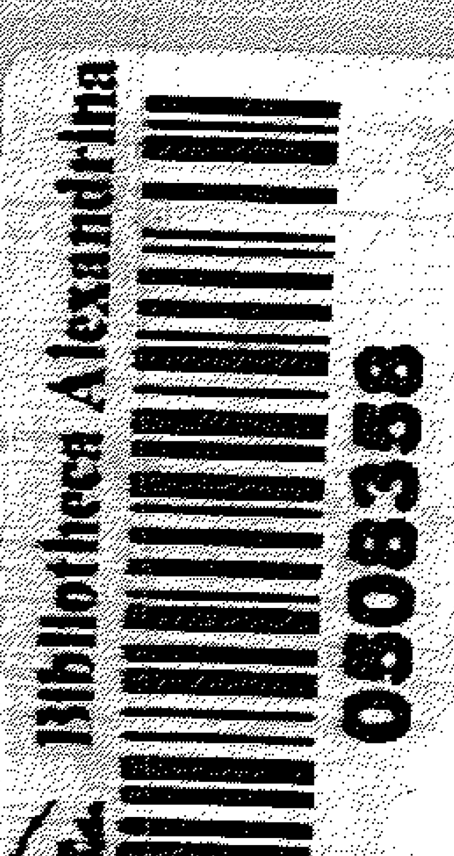
عادل حمودة واحد من أشهر الكتاب السياسيين فى العالم العربى وهذا الكتاب واحد من أشهر مؤلفاته التى تحظى بالإنتشار والأحترام ومنذ صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب أصبحت النكات التى يسخر بها المصريون من حكامهم مجالاً للدراسات السياسية والأجتماعية.

وقد أضاف عادل حمودة فى هذه الطبعة فصولاً إضافية أشد سخرية من الواقع الذى نعيشه الأن وتحاكم الفساد والتسيب وأزمة الحريات.

إنه كتاب جرىء يجمع بين المتعة والفكرة وتشعر وأنت تقرأه أنك أيضاً مؤلفه.

وستزداد متعتك عندما تقرأ لنفس المؤلف
النكتة اليهودية - سخرية اليهود من الـ

الـ



Bibliotheca Alexandrina
0508358



الفرسان للنشر